

ذهب المفترسين

مذكرات مدينة جاعة

دار الكنزي للنشر والتوزيع



رئيس مجلس الإدارة

محمد صلاح شديد

المدير العام

إيناس الدسوقي

مدير الإنتاج

أحمد عبد الحليم

مدير النشر

مهند يحيى

الكتاب : ذهب المفترسين مذكرات مدينة جاعة

تأليف : فيليب ريف

ترجمة : هبه الجماع

تصنيف الكتاب : رواية

إخراج : أحمد عبد الحليم

المقاس ٢٠ × ١٤

رقم الإيداع : ٤٤١٧ / ٢٠٢٠

الترقيم الدولي : 0 - 70 - 6660 - 977 - 978

All Rights Reserved

Alkanzy for Publishing and Distribution

+01062104822

Alkanzy.co@gmail.com

info@alkanzy.net

محفوظ
جميع الحقوق

ذهب المفترسين

مذكرات مدينة جائعة

— محركات قاتلة - الجزء الثاني —

فيليب ريف

ترجمة: هبة الجماع

نبذة

في تلك الرواية التي بين أيدينا، يجد الناجون الشجعان من الأحداث المروعة التي دارت في الجزء الأول، «محرقات قاتلة»، أنفسهم في مغامرة جديدة مفعمة بالأحداث المثيرة والمغامرات المذهلة، في ذلك العالم المستقبلي العجيب، حيث تأكل المدن بعضها البعض، وتتحرك على عجلات ضخمة بحثاً عن فرائسها الأصغر والأضعف. وفي هذا الجزء الجديد، يقوم توم وهيستير بإصطحاب المستكشف والمغامر واسع الشهرة «بيني رويال» على متن منطادهما، فقط ليجدوا أنفسهم وقد صاروا مطاردين بمناطيد «العاصفة الخضراء» الحربية الرهيبة، تطلق عليهم وابل النيران من كل جانب، مما يجبرهما على الهبوط في «أنكوراج»، تلك المدينة المتحركة في الصحارى الجليدية المقفرة... المدينة التي كانت يوماً عامرة، ثم آل مآلها للاضمحلال بعدما مات غالبية أهلها جراء الوباء. في تلك المدينة يلتقي أبطالنا ب «فريا» آخر سلالاة الأسرة المالكة بأنكوراج وورثة حكمها، ذات الستة عشر ربيعاً، والتي تؤمن بحكايا «بيني رويال» وأقاصيصه حول اكتشافه لأراض خضراء خصبة، هناك، في «القارة الميتة»، أمريكا، فتقرر أن تجر مدينتها إلى هناك.

ثم يحدث أن نتدخل الغيرة لتلعب ألاعيبها الماكرة، وتسلل لتحتل قلب هيسدير، والتي تطالع افتتان توم بجمال فريا، فيشتعل صدرها غيرة عليه من تلك الفتاة الصغيرة الحسنة، مما يدفعها دفعا لارتكاب فعل من قبيل الخيانة، بما يغير مجرى الأحداث ويستدعي سلسلة من وقائع القتل والدسائس، والثأر، وعمليات الاختطاف، والإنقاذ، و«الصبية المفقودون»، والقيام من الموت...!

باختصار، إن تلك الرواية المفعمة بالإثارة لتُبحر بالقارئ عبر موجات متلاحقة ومتلاطمة من الأحداث المتسارعة والمؤامرات والشخصيات، لكنها في ذات الوقت تتمتع بسلسلة بالغة بحيث لن يجد القارئ أي صعوبة في متابعتها.

كذلك يتميز ذلك الجزء بأن به قدرا أكبر من حس الفكاهة وعددا أقل من الجثث! مقارنة بالجزء السابق، ومع ذلك، فسوف تلقى شخصيات الرواية أنفسها وقد انغمست في ورطات أخلاقية عميقة.

هذا، وسوف يصادف القارئ خلال رحلته، عبر هذا الجزء، الكثير من الإشارات لأحداث الجزء السابق «محركات قاتلة»، لذا فإنه من الأفضل - وإن كان ليس من الضروري - لك عزيزي القارئ أن تطالع ذلك الجزء الأول.

شارون رولينز

قالوا عن رباعية محركات قاتلة لفيليب ريف

- {قوية، جريئة، متألفة}. صحيفة الجارديان.
- {استثنائية... عنيفة ورومانسية... مليئة بالإثارة جذيرة بالتأمل... مرحلة ومخيفة في ذات الوقت}. صحيفة صندي تايمز.
- {كتاب رائع يأسر القارئ ويستحوذ على كيانه بالكامل في طاقته الخيالية العارمة، ولا يعيبه سوى صعوبة حصر كل ذلك الخيال في فصول مكتوبة}. صحيفة دايلي تليجراف.
- {بارعة ومثيرة، جادة وحساسة. إن رباعية محركات قاتلة لهي بحق واحدة من أكثر المغامرات الخيالية التي كتبت جرأة وروعة}. بوكس فور كيبز.
- {فيليب زريف هو كاتب مذهل بحق}. التايمز.
- {تحفة}. صندي تليجراف.
- {لسوف يعشق محبو فيليب ريف رواية محركات قاتلة كثيراً... حينما كنت أقرأها، لم أكن أريد لها أن تنتهي أبداً}. ديلي تليجراف.
- {رواية بارعة، مسلية، تنبض ذكاءً}. ليتراي ريفيو.

{فيليب ريف هو بالفعل مؤلف عظيم الموهبة متعددة.. وإن شخصياته بكل توجهاتها وأبعادها العاطفية لأسرة}. دايلي تليجراف.

{رواية خيالية رائعة... لقد أجاد ريف الدمج بين الخيال والقدرة على الإقناع}. أنتوني هورويتز.

{حينما قرأت محركات قاتلة لأول مرة، شعرت وكأن الصفحات نفسها مفعمة بالطاقة الكهربائية}. فرانك كوتريل بويس، الجارديان.

{ريف لديه القدرة على الكتابة بقوة وثقة، وهو لا يملك فقط أدوات الإثارة السردية، لكنه كذلك قادر على مفاجأة قارئه في كل زاوية ومنعطف في روايته، محفزاً إياه على التفكير بشكل مستمر}. بوكس فور كييز.

{أصيلة، واضحة، ومثيرة}. سكوتسمان.

{في روايات ريف، لن تجد الأشرار أشراراً على طول الخط، ولا الأخيار أخياراً على طول الخط. أما بالنسبة للرسائل التي يبثها في ثنايا كتاباته فإن تأثيرها يدوم طويلاً}. الإندبندنت.

{دائماً ينجح ريف في نقل الحقائق الكبرى إلى القارئ بطريقة ذكية ومسلية، عبر مفردات ثرية أخاذة}. نيكوليت جونز، صنداي تايمز.



نبذة عن الكاتب

ولد فيليب ريف في بريغتون عام ١٩٦٦ ، وبعد إتمامه لدراسته ما قبل الجامعية، التحق بكلية الفنون، ثم عاد إلى بريغتون ليعمل في مكتبة صغيرة. وبعد بضعة سنوات، عمل ريف في مجال الفنون التعبيرية، حيث قدم عدداً من الرسوم الكرتونية للعديد من الكتب.

وقد أحب ريف الكتابة منذ كان في الخامسة من عمره، إلا أن روايته «محركات قاتلة» كانت أولى أعماله المنشورة.

ويمحيا ريف حالياً مع زوجته وابنه في دارتمور.

www.philip-reeve.com

www.philipreeve.blogspot.com

www.mortalengines.co.uk

من أعمال فيليب ريف

- ٠١ محركات قاتلة
- ٠٢ ذهب المدينة المفترسة
- ٠٣ آلات جهنمية
- ٠٤ لا يوجد شيء مثل التنين
- ٠٥ موث ستورم
- ٠٦ دار كلينج بلاين
- ٠٧ شبكة من الهواء
- ٠٨ هنا يرقد آرثر.

مقدمة المترجم

في عالم مستقبلي عجيب، تتحرك فيه المدن على عجالات ضخمة، وتقتات على بعضها البعض! حيث تأكل القوية منها المدن الأضعف والأصغر لينتهي بها الأمر وقد أمست وقوداً في أحشاء المدينة المفترسة وبات أهلها عبيداً للمنتصرين! ولم لا، وقد صارت القوة هي المبدأ الحاكم الوحيد، وباتت «الداروينية البلدية» هي القانون الكوني البديهي، حيث «البقاء للأقوى» هو اسم اللعبة، ومعيار الحياة الذي ينطبق على المدن والبشر كما ينطبق في عالم الطبيعة البرية.

في ذلك العالم المتحرك العجيب، يخوض بنا كاتبنا المبدع فيليب ريف، غمار مغامرات مذهلة لا تقل عجباً وغرابة، وإثارة كذلك، عن العالم الذي تدور به؛ حيث أبطالنا الناجون من الأحداث المروعة التي دارت في الجزء الأول، «محركات قاتلة»، توم وهيستير، يتنقلون من مدينة إلى أخرى، سيارة كانت أم عائمة أم طائرة، فتتلقفهم المغامرة تلو الأخرى، وتدور بهم الأقدار بين رحي أخطار وأهوال لا تنتهي، تكاد في كل مرة أن تلقي بهم إلى «الأرض التي لا تشرق عليها الشمس»...

وفي هذا الجزء الجديد من رباعية محركات قاتلة، يقوم توم وهيستير باصطحاب المستكشف والمغامر واسع الشهرة «بيني رويال» على متن منطادهما، فقط ليجدوا أنفسهم وقد صاروا مطاردين بمناطيد جماعة «العاصفة الخضراء» الحربية الرهيبة، تطلق عليهم وابل النيران من كل جانب، مما يجبرهم على الهبوط في «أنكوراج»، تلك المدينة المتحركة في الصحارى الجليدية المقفرة، وتدور بهم الأحداث لتلقي بهم في مواجهات لا تنتهي مع «الصبية المفقودين» وصيادي «أركانجيل» وذهبها الملوث بالغدر والخيانة، و«مطارِد» فريد من نوعه ما كانوا ليتخيلوا أن يقابلوه يوماً...

ولكن تبقى مواجهة بعينها ربما هي الأكثر ضراوة وقتامة من كل تلك المواجهات المروعة، مع عدوه هو الأشرس والأشد بأساً وتوحشاً، وهل من مواجهة أصعب وأقسى من أن يواجه الإنسان ذاته؟! أن يجد نفسه وجها لوجه أمام خبايا ذاته وشرورها وقد خرجت من مكنها الدفين داخل أعماق أعماقه، لتستحيل شيطانياً يستحوذ على الإنسان ويجره جراً إلى حيث حافة الهاوية الأخلاقية، فيجد الإنسان نفسه وقد ارتكب أبشع الخطايا والآثام.

وفي الحقيقة، ومع انتهائي من قراءة آخر سطور تلك الرواية الشائقة، تمهيدا لترجمتها، اكتشفت أن كاتبنا قد بلغ من البراعة والتمكن أن جعل من روايته تلك مرآة لنا جميعاً... مرآة كاشفة لبواطن النفس البشرية بما تحويه من خير وشر... فضيلة ورذيلة... تقوى وفجور...

ومن عجيب الأمر، أن تلك الرواية قد جعلتني أتبته لحقيقة قد بلغت من وضوحها أن كثيراً منا قد يصبح عنها غافلاً، حقيقة مفادها أن آلام النفس إن زادت، وأحزانها إن فاضت، فقد تستحيل ناراً - وقودها الغضب وتوالي الأوجاع - تتقد وتتعاظم، فتمتد ألسنتها لتأكل الأخضر واليابس... والحق

أنه قد خُيل لي في غير ذات موضع من تلك الرواية الأخاذة أن فيليب رفيف حينما عمد إلى تسمية رباعيته بـ«محركات قاتلة» ربما لم يكن يقصد فقط الآلات التي تحرك المدن كي تأكل ما حولها، وإنما - ربما - كان يرمي كذلك لتلك الدوافع التي قد تحول النفس الإنسانية لآلة تدمير وشر.

وبعد، يبقى السؤال : هل نحن حقاً ما نحسب أنفسنا عليه؟ وهل يمكن لدوافع بعينها، كالألم أو الحب أو الغيرة، أن تدفعنا دفعاً نحو ارتكاب أشرف الأفعال، بل وأكثرها جنوناً، في بعض الأحيان؟ وماذا إن تعرضنا لمحك أخلاقي بعينه، هل نبقي صامدين في وجه الخطوب والمحن، قابضين على قيمنا، أم نزل أقدامنا فنسقط في هوة الآثام؟!

في ختام تلك الكلمة الموجزة، أتمنى أن تلقى هذه الرواية المشوقة قبولك، عزيزي القارئ، وإعجابك، وأن أكون قد وفقت في ترجمتها بما يلائم رشاقة كلماتها وقوة أحداثها وعمق شخصياتها.

هبة الله الجماع

الثالث عشر من يناير ٢٠٢٠

الإسكندرية - جمهورية مصر العربية

القسم الأول

(١)

الشمال المتجمد

صحت «فريا» من نومها باكراً، وظلت راقدة في الظلام لفترة من الوقت، تستشعر اهتزازات المحركات القوية لمدينتها. ولهنية، انتظرت فريا، وآثار النعاس لم تبارحها بعد، أن يخف إليها خدما لمعاونتها على النهوض من فراشها كالمعتاد، لكنها مالبت أن تذكرت أنهم جميعاً.. قد ماتوا...، فألقت الأغطية من عليها وأضاءت مصابيح الأرجون في مخدعها، وقامت من مكانها لتخوض عبر أكوام مغبرة من الثياب الملقاة في إهمال، متجهة صوب الحمام.

لقد انقضت عدة أسابيع الآن وهي تحاول استجماع شجاعته للاغتسال، لكنها تفشل في كل مرة، حتى في هذا الصباح، حاولت من جديد استخدام تلك الشبكة المعقدة لصنابير المياه للحصول على بعض من الماء الساخن، ولكن دون جدوى، فاكتفت، كالمعتاد، بملء حوض غسل اليدين بالماء، وقامت برش بعض منه على وجهها ورقبتها. ثم إنها التقطت قطعة صغيرة من الصابون وجدها هناك، ودلكت بها شعرها، ثم غمست رأسها تحت

الماء... فيما مضى كان خدما يستخدمون السوائل المخصصة لغسيل الشعر «الشامبو» والمساحيق المعطرة والمرطبات، وكل أنواع الدهانات ذات الروائح الذكية... لكنهم قد رحلوا جميعا... ماتوا، وهاهي الآن تقف وزجاجات المساحيق والدهانات مكدسة أمامها على الأرفف في خزانة الحمام، لكنها لم تمس أي منها.

على الأقل قد تعلّمت الآن كيفية ارتداء ملابسها بنفسها دون معونة، فالتقطت بعضا من ثيابها الملقاة على الأرض وشرعت في ارتدائها، وقد عانت كثيرا حتى تمكنت من إدخال ذراعيها ورأسها في فتحات الثوب بشكل صحيح، ولحسن حظها كان ارتداء الصدرية المزدانة بالفراء أكثر يسرا وسلاسة، برغم ما عاتته من مشقة في إغلاق أزوارها... لكم كانت وصيفاتها بارعات حقًا، يجدن إغلاق تلك الأزوار بسرعة وسهولة، وهن يتضاحكن ويتسامرن في مرح، دون أن تخطئ واحدة منهن يوما في إدخال زر في عروة الآخر... كان ذلك في الأيام الخوالي، أما الآن فقد ذهبن إلى حتفهن، جميعا.

ظلت فريا تتخبط في ثيابها وتعثّر لربع ساعة كاملة، قبل أن تقف أخيرا لتطالع صورتها في مرآتها المغبرة المغطاة بنسيج العناكب... [ليس سيئًا]، هكذا قالت في قراراتها.. ربما لو ارتدت بعضا من المجوهرات لصارت هيئتها أفضل، فالتجهت إلى غرفة زينتها، فقط لتجد أن غالبية الزينة والحلي الخاصة بها قد اختفت، كما تختفي العديد من الأشياء هذه الأيام! على أية حال كانت فريا تدرك أنها ليست في حاجة إلى تاج لتضعه على شعرها الملبد اللزج من أثر الصابون، ولا إلى قلادة ذهبية لتزين بها جيدها المتسخ؛ صحيح أن والدتها ما كانت لتقبل أبدا أن ترى ابنتها دون مجوهرات تزينها، لكن ذلك لن يزعجها بعد الآن، فقد ماتت هي الأخرى.

وعبر الممرات الفارغة الساكنة، والتي لفها الصمت، في قصرها، حيث الغبار السميكة كطبقة من جليد يغلف كل شيء، استدعت فرياً خادماً، ثم وقفت تحديق عبر النافذة في انتظار مثوله أمامها. ومن النافذة أخذت تتطلع إلى الأفق القاتم والشفق القطبي الذي انعكس رمادياً على أسطح مدينتها المغطاة بالثلوج، ومن تحت أقدامها كانت الأرض تهتز وترتعش مع حركة التروس والمكبس في موضع المحركات، ومع ذلك فلم يكن هناك سوى شعور خافت ضعيف بالتحرك في تلك المنطقة النائية من أقصى أقصى الشمال المتجمد، حيث لا شيء ولا معالم من أي نوع سوى مسطحات بيضاء خاوية، تلتصق قليلاً مع انعكاس أضواء السماء.

أخيراً وصل خادماً، ووقف أمامها وهو يصلح من وضع شعره المستعار المغربي...

{صباح الخير يا سميو}. قالتها فرياً..

{صباح الخير يا سميو! اشتقتك}. أجابها الخادم في تأدب.

وللحظة خطر لفرياً أن تطلب من «سميو» أن يدخل إلى مخدعها، ويحاول أن يجد حلاً في كل ذلك الغبار والثياب الملقاة والحلي المفقودة، وكل تلك الفوضى الضاربة أطناًها هناك، وكذلك أن يعلمها كيف تستحم!، لكنه رجل، ولا يجوز بأية حال كسر التقاليد والسماح لرجل بالدخول إلى مخدع «المارجرافين» الخاص؛ لذا فقد أجمت عن مكاشفته بما يعمل في نفسها، وبدلاً من ذلك قالت له ماتقوله كل صباح: {هلا رافقتني إلى قاعة الطعام ياسميو}.

وأثناء نزولهما بالمصعد إلى الطابق الأسفل، أخذت فرياً تتخيل مدينتها وهي تتجول عبر المسطحات الجليدية نكفساء سوداء صغيرة تنسل فوق صحن

أيض شاسع... ولكن يبقى السؤال، إلى أين يمكن لها أن تتجه؟ إنه السؤال الذي أراد سميو كذلك أن يعرف له إجابة، وهو ما بدا جلياً في نظراته التي يملؤها الفضول. كذلك كانت اللجنة التوجيهية للمدينة تنتظر هي الأخرى إجابة. كان الجميع يريد إجابة لهذا السؤال، صحيح أن الركض هرباً من المدن الأخرى الجائعة يعد سبباً وجيهاً في حد ذاته، لكن الوقت قد حان كذلك لتقرر فريا ماسيكون عليه مستقبل مدينتها.

فعلى مدار آلاف السنين كان شعب «أنكوراج» يتطلع دوماً إلى بيت «راسموسين» لاتخاذ مثل تلك القرارات، وبخاصة نساء راسموسين اللائي كن مميزات بحق. ولم لا؟ وقد حكمن أنكوراج منذ حرب الستين دقيقة، ولطالما كانت آلهة الثلوج تتحدث إليهن في أحلامهن، تخبرهن بالوجهة التي يجدر بالمدينة الاتجاه إليها لإيجاد شركاء تجاريين جيدين، ولتجنب الفخاخ الجليدية المهلكة والمدن المفترسة.

أما الآن، فهاهي فريا قد صارت آخر من تبقى من نسل عائلتها، إلا أن آلهة الثلوج لم تتحدث إليها ولا حتى لمرة واحدة، بل إنه بالكاد يتحدث إليها الآن أي شخص، وإن فعل أحدهم فإن ذلك لا يكون سوى بهدف الاستفسار، بأكثر الطرق كياسة وتأدياً، حول أوان اتخاذها للقرار المنشود... ولكم أرادت أن تصرخ في وجوههم جميعاً [لماذا تسألني؟!.. أنا مجرد فتاة، ولا أريد أن أصبح «مارجافين»]، لكنها كانت تدرك جيداً أنه مامن شخص آخر قد تبقى من أسرتها كي يتوجهوا إليه بهذا السؤال أو يتخذ عنها القرار.

ومع ذلك، فقد أتى صباح هذا اليوم وقد صار لديها إجابة أخيراً، إلا أنها لم تكن واثقة من أن إجابتها سوف تلقى رضا أحد منهم.

جلست فريا تتناول افطارها بمفردها، على مقعد أسود ذي مسند عال، وإلى طاولة سوداء طويلة؛ وفي ظل الصمت والسكون اللذين يغلفان الموجودات من حولها، بدت أصوات ارتطام السكين بصحنها ودوران الملعقة في فنجانها، عالية، مدوية، تحدث صخباً غير محتمل. ومن على الجدران الظليلة المبهمة، كانت صور أسلافها المقدسين تطل عليها وعيونهم تحدق فيها في نفاذ صبر، وقد بدا وكأنهم هم أيضاً ينتظرون قرارها... {لا تقلقوا}، قالتها موجهة حديثها إلى أجدادها الراحلين، {لقد فكرت في الأمر}..

وعقب إنهاء فريا لإفطارها، دخل حاجبها إلى الغرفة..

{صباح الخير يا سميو}.

{صباح الخير، ياضوء الحقول الجليدية، إن اللجنة التوجيهية تنتظر خارجاً لرؤية سمو إشرافتك}.

فلأومات فريا إيداناً له بإدخالهم إليها، ففتح الحاجب أبواب الغرفة للسماح لأعضاء اللجنة بالدخول. لطالما تكونت تلك اللجنة من ثلاثة وعشرين عضواً، أما الآن فلم يتبق منهم سوى السيد «سكايوس» والسيدة «باي».

كانت «ويندولين باي» امرأة عادية، طويلة القامة، متوسطة العمر، ذات شعر أشقر تقوم بلفه دائماً فوق رأسها بطريقة تجعلها تبدو وكأنها تحمل كعكة دائماركية مستديرة على رأسها. وكانت «باي» سكرتيرة رئيس الملاحين الراحل، ومما يبدو فإنها كانت تجيد قراءة وفهم خرائطه وجداوله الملاحية بشكل كاف. إلا أنها كانت شديدة التوتر في حضرة الـ «مارجرافين»، وقد ظلت تنحني لها مراراً مع كل سكون وحركة.

أما زميلها السيد «سورين سكايوس» فقد كان مختلفاً عنها، فعائلته هم سادة محركات المدينة منذ أن بدأت المدينة في التحرك؛ ولو أن الأمور قد

جرت على منوالها المعتاد، لكانت فريا قد تزوجت من ابنه «أكسل» بحلول الصيف القادم، حيث جرت العادة غالباً أن تتخذ ملكات المدينة شريكاًهن من قسم المحركات كي يحتفظن برضا طائفة المهندسين. لكن الأمور قد تغيرت، وقد توفي أكسل كذلك، وفي واقع الأمر، كانت فريا تشعر بالسعادة في قراراتها؛ ذلك أنها لم تعد مضطرة لأن تتخذ من سكايبوس حمى لها، فقد كان رجلاً مسناً صامتاً كئيباً، وكانت أردية الحداد السوداء التي يتوشح بها تتماهى مع الأثاث الأسود لغرفة الطعام، صانعة مزيجاً مريباً، يبرز في وسطه الوجه الأبيض الباهت للرجل، الشبيه بقناع الموت، يتبدى من بين الظلال القائمة.

{يوم جيد، يا سمو إشرافتك}. قالها سكايبوس وهو ينحني في حركة متبلسة، في حين أخذت السيدة باي تنحني وتومئ في احترام وقد احمر وجهها.

{ما هو موقعنا الآن؟}. تساءلت فريا.

{آه، سمو إشرافتك، نحن على بُعد حوالي مائتي ميل إلى الشمال من جبال «تانهاسر»}، أجابتها السيدة باي، {نحن عند الجليد البحري، ولا تلوح في الأفق أية مدينة أخرى}.

{إن قسم المحركات ينتظر تعليماتك يا سمو ضوء الحقول الجليدية}. قالها سكايبوس، {هل تريدين العودة إلى الشرق؟}.

{لا}. صاحت فريا مرتعدة، وقد تذكرت كيف أنهم كادوا أن يتم التهامهم فيما مضى، ولو أنهم عادوا إلى الشرق أو اتجهوا نحو الجنوب للتجارة على طول أطراف منطقة الجليد، فلا بد للصيادين من «أركانجال» أن يعرفوا بذلك، ومع هذا الطاقم الهزيل المتبقي لديها لقيادة محركات المدينة، فإن فريا لم تكن واثقة من قدرتهم على الفرار من وجه المدينة المدينة المفترسة الكبرى مرة أخرى، وما كان لها أن تخاطر بالمحاولة.

{ربما علينا أن نتوجه غربا، ياسمو إشرقتك؟}. قالتها باي في توتر، {فهناك
بضع بلدات صغيرة عادة ما تكون موجودة هناك على طول الطرف الشرقي
من جرين لاند طوال الشتاء، فلربما استطعنا أن نجري بعض الصفقات
التجارية معهم}.

{لا}. قالتها فريا من جديد، بصرامة.

{إذن، ربما لديك وجهة أخرى؟}. تساءل سكايبوس {هل تحدثت إليك
آلهة الثلوج؟}.

أومأت فريا، ففي الحقيقة، كانت هناك فكرة معينة تتردد في ذهنها منذ
نحو شهر أو أكثر، لكنها لا تعتقد أنها قد طرأت إلى عقلها بوحى من أي
من الآلهة، وإنما هي بمثابة الحل الوحيد المتاح أمامها للحفاظ على مدينتها آمنة
من خطر المدن المفترسة وسفن التجسس... {وجهوا دفعة المدينة نحو القارة
الميتة... سوف نعود إلى الديار}.

(٢)

هيسدير وتوم

كانت «هيسدير شاو» قد بدأت تعتاد شعور السعادة، فبعد كل تلك السنوات البائسة التي قضتها في الخنادق وقرى المخلفات بساحة الصيد العظمى، ها هي الآن، أخيراً، قد وجدت لنفسها مكاناً في هذا العالم. فقد صار لديها منطادها الخاص «الجيني هانيفر»، كذلك أصبح لديها... توم، الوسيم، اللطيف، الذكي، والذي أغرمت به من صميم قلبها، والذي، رغم كل شيء، بدا وأنه يبادلها الحب.

ولفترة طويلة ظل الشعور الممض بأن ذلك الحب لن يدوم يعتري هيسدير ويؤرقها، فهما مختلفان كل الاختلاف، كما أن هيسدير هي أبعد ما تكون عن الجمال، فهي طويلة كفزاعة على هيئة فتاة، ذات شعر نحاسي مجدول في صفائر ضيقة، أما وجهها فقد كان شائهاً، شوتهه ضربة قاسية بسيف حاد، سلبتها إحدى عينيها وجدعت أنفها، وخلفت جرحاً قطعياً غائراً يمتد من الجبهة وحتى الذقن، وكأن وجهها قد انقسم شقين، في حين يلتوي فيها جانباً في ابتسامة بشعة...

(٢٣)

[لن يستمر ذلك، أبداً]، هكذا ظلت تخبر نفسها طوال الوقت الذي مكث فيه معاً بالجزيرة السوداء في انتظار إنهاء عمليات إصلاح الـ«جيني هانيفر»؛ وحينما انتهت الإصلاحات أخيراً وحلّقاً معاً نحو أفريقيا ومنها إلى جنوب أمريكا، أخذت تكرر في قرارتها [لقد ظل معي فقط بدافع من الشفقة ليس إلا].

وحتى مع مرور الأيام وازدهار أحوالهما المالية من اشتغالهما في نقل البضائع والإمدادات إلى مدن التنقيب عن النفط الكبرى في «أنتاركتيكا»، ثم ارتدادهما فقراء من جديد بعدما اضطررا للتخلي عن شحنة من البضائع ليتمكنا من الإفلات من قبضة القراصنة الجويين أثناء تحليقهما فوق «تيرا ديل فيجو»، كانت تتساءل متعجبة من استمراره في البقاء إلى جوارها [ما الذي يراه في بالضبط؟!].

أما أثناء رحلة عودتهما عبر المحيط الأطلسي بصحبة إحدى القوافل التجارية، طفقت تهمس لنفسها بذات الفكرة دون هوادة... [لا يمكن لذلك أن يستمر].

لكنه استمر!، وها قد مضى على بقائهما معاً ما يزيد عن عامين... وفي ذلك اليوم من شهر سبتمبر، بينما هما يجلسان في ضوء الشمس بتلك الشرفة خارج مقهى «كرامبل زون»، إحدى المقاهي العديدة بالشارع الرئيس في «إير هيفن»، وجدت هيسستير نفسها وقد بدأت تصدق أنهما بالفعل قد يبقيان معاً إلى الأبد، فأخذت تضغط بكفها على كف توم أسفل الطاولة وهي تبسم له ابتسامتها الملتوية العجيبة، ومن عينيه كان قدر كبير من الحب يطل عليها؛ إذ يتطلع إليها بحنان، تماماً مثلما كان حين قبلته لأول مرة تحت الضوء المنبعث من «الميدوسا» ليلة موت مدينته.

كانت إير هيفن قد حلّقت شمالاً في ذلك الخريف، واستقرت هناك على بعد آلاف الأقدام فوق الأراضي الجليدية القاحلة، ومن أسفلها كانت بضعة من البلدات الصغيرة للجامعي المخلفات تتجمع فوق الجليد خلال أشهر شمس منتصف الليل، للتجارة والبيع.

وكان منطاد تلو الآخر يحلق إلى الأعلى، إلى حيث المدينة الطائرة ليرسو في مينائها، ومنهم يخرج تجار التقنيات القديمة الذين ما إن وطئت أقدامهم أرضيتها خفيفة الوزن حتى شرعوا ينادون على بضائعهم. كان الشمال المتجمد بمثابة أرض خصبة للجامعي مخلفات التقنيات المتقدمة البالية، حيث بقايا «المطاردون» ومسدسات تسلا، وبقايا أخرى من تقنيات مجهولة وآلات غريبة خلفتها العديد والعديد من الحضارات، بل وحتى بعض القطع من آلات الطيران القديمة المدفونة في الجليد منذ حرب الستين دقيقة.

كانت الأراضي الجليدية القاحلة تمتد شاسعة عبر الأفق الضبابي، إلى الجنوب والشرق والغرب، جامدة، باردة، حيث تحكم آلهة الثلوج، كل شيء هاهنا ثمانية أشهر في العام. أما ناحية الشمال فكانت تنتصب الجدران البازلتية السوداء الضخمة لجبال «تانهاسر»، تلك السلسلة من الجبال البركانية التي تمثل الحدود الشمالية القصوى لساحة الصيد العظمى. ومن تلك الجبال البركانية كانت أعمدة من الدخان الرمادي ترتفع عالياً، وكأنها تحمل السماء من فوقها.

ومن بين الضباب وأعمدة الدخان التي تكاد تحجب العالم من خلفها، بدا لهيستير وتوم وكأن شيئاً ضخماً يتحرك من بعيد، كما لو أن أحد الجبال قد تحرر من قيده إلى الأرض وشرع يتجول عبر الفيافي الجليدية المقفرة، فأخرجت هيستير منظارا من أحد جيوب معطفها ووضعتة على عينها ثم أخذت

تضبط حلقة توضيح الرؤية إلى أن باتت الصورة جلية فجأة أمامها... إنها مدينة!، مدينة من ثماني طبقات من المصانع وثكأت العبيد ومداخن ضخمة تطفح بالأدخنة، تتحرك هناك. كذلك كان قطار معلق يدور عبرها، ومن حولها أخذت مجموعة من المناطيد تمتص الغازات المتصاعدة من عوادم المعادن، أما في الأسفل فقد أخذت العجلات الضخمة للمدينة تدور ومن حولها يتناثر غبار الصخور المفتتة والثلوج..

{أركانجيل!}

هتفت هيستير، فالتقطت توم المنظر منها وطفق ينظر عبره، ثم صاح قائلاً: {نعم، أنت على حق. إنها تبقى عند السفوح الشمالية لجبال تانهاسر خلال أشهر الصيف، تقتات على بلدات جامعي النفايات الذين يمرون عبر تلك المنطقة. إن الغطاء الجليدي القطبي قد بات أكثر سُمكاً في الزمن الحالي عما كان عليه فيما مضى، ومع ذلك فهناك أجزاء لا تزال طبقات الجليد فيها رفيعة بحيث لا تتحمل ثقل «أركانجيل» حتى نهاية الصيف}.

فضحكت هيستير وقالت {إنك تعرف كل شيء}.

{لاتنسي أنني كنت متدرباً في عصبة المؤرخين، وقد كان علينا أن نحفظ قائمة بالمدن المتحركة الكبرى في العالم، وكانت أركانجيل على رأسها تقريبا، وبالتالي لا يمكن لي أن أنساها أبداً}.

{متفاخر}. دمدمت هيستير متدمرة، {لكم كنت أتمنى لو كانت تلك المدينة هي «زيمبرا» أو «خان - ساندانسكي» لما بدوت بتلك البراعة حينها}.

أخذ توم يحقق عبر المنظر ثانية، ثم قال: {في أي لحظة من الآن سوف تقوم بإنزال زلاجاتها وستزحف بحثاً عن مدن ثلجية وبلدات جامعي المخلفات لتقتات عليها}..

ومع ذلك، فقد بدأ أن «أركانجيل» قد اكتفت في اللحظة الراهنة بممارسة التجارة فقط، فقد كانت من الضخامة بحيث يتعذر عليها أن تحشر نفسها عبر الممرات الضيقة لجبال «تانهاسر» ، إلا أن المناطيد قد أخذت ترتفع عن مراسيها في المدينة وتُحلق جنوباً عبر الضباب باتجاه «إير هيفن»، حيث قامت أولى تلك المناطيد بشق طريقها بجرأة وصلف عبر أمواج البالونات التي تدور حول المدينة الطائرة، إلى أن هبطت في مرسى المدينة في ممر الهبوط السادس، مباشرة أسفل موضع توم وهيستير اللذين شعرا باهتزاز طفيف مع ثبات المنطاد واستقراره في مهبطه.

كان المنطاد عبارة عن سفينة هجوم قصير المدى تحمل على غلافها صورة ذئب أحمر، وقد كُتِبَ اسمها في الأسفل بخط قوطي: «كثير إير تير بيلنس»، ومن المنطاد المدرع خرج عدد من الرجال واتجهوا مباشرة إلى الشارع الرئيس. كانوا رجالاً أقوياء ضخام البنية، يرتدون عباءات وقبعات من الفراء، ومن تحت ستراتهم تبدت الدروع البراقة التي يتدرعون بها، في حين كان أحدهم يعتمد خوذة مصنوعة من الصلب وذات قرنين هائلين، وقد تدلّى منها صمام مرن موصول إلى مكبر صوت نحاسي يحمله رجل آخر في قبضته، حيث تردد صوته المضخم عبر أرجاء «إير هيفن» أثناء صعوده الدرج: {التحيات لكم أيها الملاحون، من أركانجيل العظيمة، هراوة أراضي الجليد وسوط الشمال، ملتزمة «سبيتزيرجن ستاتيك». التحية لكم... إن لدينا كميات من الذهب يمكننا أن نمنحها مقابل أي معلومات عن مواقع المدن الجليدية. ثلاثون من الجنيات الذهبية مقابل معلومات عن صيد جديد!}.

ثم أخذ الرجل يشق طريقه عبر طاولات المقهى الذي جلس به توم وهيستير، وهو لا يزال يردد عرضه، بينما أخذ الملاحون من حوله يهزون

رؤوسهم ويشيخون بوجوههم متجهمين. يبدو أنه، ومع الشح الشديد في أعداد الفرائس، قد بدأت المدن المفترسة الكبرى في بذل الأموال لمن يرشدها إلى أماكن فرائس يتغذون عليها، إلا أن القليل منها فقط من كان يقدم تلك العروض علانية بهذا الشكل الفج. والحقيقة أن تلك العروض لم تكن لتلقي صدى كبير بين التجار الجويين الأمناء، وقد بدأوا يتوجسون منها خشية أن تنسب في أن يتم حظر دخولهم إلى المدن الجليدية الأصغر؛ فما من عمدة أو حاكم كان ليخاطر بمنح تصريح رسو لمناطيد أو سفن جوية يمكن أن تقوم في اليوم التالي ببيع معلومات حول مسار مدينته إلى إحدى المفترسات الكبرى الجشعة مثل «أركانجيل».

ومع ذلك، فقد كان هناك دوماً من يقبل أن يقوم بمثل تلك المهمة... كالمهربين والقراصنة، وكذلك التجار الذين لم تلق تجارتهم الرواج المأمول، فهؤلاء لا بد وأنهم سوف يكونون على استعداد دائم لقبول ذهب تلك المفترسات.

{إن كان أي منكم قد أجرى هذا الصيف معاملات تجارية على متن «كيفيتو» أو «بريد هافيك» أو «انكوراج» ولديه معلومات عن مسار تحركهم المزمع وخططهم بصدد قضاء موسم الشتاء، فليوافني إلى مقهى «جاز باج أند جوندولا»... كان المتحدث شاباً تبدو عليه أمارات التغذية الجيدة والصحة والرفاهية، والغباء كذلك... {ثلاثون عملة ذهبية يا أصدقائي. إنها كافية لتزويد مناطيدكم بالوقود لعام كامل}.

{إنه} «بيتور ماسجارد»، تنهت الكلمات إلى مسامع هيستير، حيث كانت إحدى الملاحات الجويات من «دينكا» تجلس إلى الطاولة المجاورة وتهمس لرفاقها، {إنه الابن الأصغر لقائد أركانجيل.. إنه يدعو عصابته تلك بالصيادين!.. إنهم لا يكتفون فقط بإعلان المكافآت المجزية للوشاة

لإرشادهم لمسارات الفرائس، لكنني قد سمعت أيضا أنهم ينطلقون بمنطادهم الحربي هذا إلى حيث المدن الصغيرة المسالمة، والتي تتميز بالسرعة بحيث لا يمكن لأركانجيل اللحاق بها بشكل طبيعي، ثم يهبون إليها ويجبرونها على التوقف، بل أحيانا يكرهونها تحت تهديد السيف على الاستدارة والتوجه مباشرة، وبفسها، صوب الفكين العملاقين لأركانجيل!}.

{ولكن هذا ليس بعدل!}. هكذا صاح توم محتجاً، وكان قد تنهى ذلك الحديث الجانبي إلى مسامعه هو الآخر، ولكن لسوء الحظ، خرجت كلماته الاحتجاجية تلك عالية بحيث وصلت إلى «ماستجارد»، الذي التفت إلى حيث توم وظل يحرق فيه مكشرا عن أنيابه في ابتسامة عريضة اعتلت وجهه الضخم متراخي الملامح.

{ليس بعدل؟!، ما هو الذي ليس بعدل بالضبط أيها الملاح؟.. إننا في عالم تأكل فيه مدينة الأخرى كما تعلم...}. توترت هيستير، والحقيقة أنه لطالما كان هناك أمر بعينه في توم لم تتمكن من فهمه أو هضمه أبداً، يمثل في أنه دائماً ما يتوقع أن تسير أمور الحياة وفقاً لمفاهيم العدالة!، ولم تستطع هيستير أن تستوعب طريقة تفكيره ونظرته تلك للأمر قط، لكنها قد أرجعت ذلك إلى طبيعة نشأته في كنف قواعد وتقاليد عصبة المؤرخين، مما جعله بطبيعة الحال بعيداً كل البعد عن الواقع والحياة الحقيقية؛ ولو أنه كان قد عاش لبضع سنوات في قرى جامعي الخلفات وبين ظهرانهم، لتبدلت حاله تماماً، لكنه، وبسبب ظروف نشأته، وبرغم كل مشاهدته وعاشه منذ أن ترك مدينته وحتى اليوم، لا يزال تصعقه الصدمة كلما صادف أناساً من نوعية «ماستجارد».

{إنني فقط أعني أن ماتفعله هو ضد كل قواعد «الداروينية البلدية»}. قالها توم وهو ينظر إلى الأعلى حيث وجه الرجل الضخم، وكان قد نهض

على قدميه إلا أنه وبرغم ذلك قد ألغى نفسه لا يزال يرفع وجهه إلى الأعلى، فالرجل كان ضخم الجثة بحق، يفوق طوله طول توم بقدم كامل على أقل تقدير.

{إن القواعد لتنص على أن المدن السريعة تأكل المدن البطيئة، والقوية تلتهم الضعيفة، تماماً كما تسير الطبيعة، أما ماتفعلونه أنتم من دفع الأموال لمن يرشدكم عن مسارات المدن للانقراض عليها بهذا الشكل فهو مما يخل بالتوازن}... انهمك توم في حديثه مدافعا عن وجهة نظره، وكأن «ماستجارد» هو مجرد خصم في نقاش عقلائي داخل أروقة عصبة المؤرخين، لكنه في الحقيقة لم يكن كذلك على الإطلاق!، وهو ما ظهر جليا لتوم في اللحظات التالية مباشرة، فقد اتسعت ابتسامة «ماستجارد» عن آخرها، وخلع عنه عباءته الفرائية ملقيا إياها جانبا، ثم استل سيفه في تهديد واضح، ومن حوله تعالت الشهقات والهمهمات، ودنت بعض الصيحات المرتعبة من الجالسين الذين هبوا من مجالسهم في توتر متفهمين إلى الورا، وقد دوى صوت ارتطام المقاعد المتساقطة على الأرضية مجلجلا.

أمسكت هيستير بذراع توم وأخذت تجره بعيداً عن الرجل وقد ثبتت عينيها على السلاح الحاد اللامع في قبضته: {توم، أيها الأحمق، دعه ولنمض إلى سبيلنا}.

حينها التفت «ماستجارد» إليها وأخذ يحلق فيها للحظة، ثم انفجر في ضحكة عالية هائجة وهو يغمد سيفه من جديد ويصيح: {انظروا، إن لديه فتاة جميلة تحميه من الأذى...}، ومن حوله أخذ رجاله يتضاكون هازئين، في حين احمر وجه هيستير التي سرعان ما أعادت إخفاءه بوشاحها الأحمر...

{تعالى إليَّ لاحقاً يافتاة، فلدي متسع للجماليات دائماً، وتذكري، لو أن لديك أية معلومات عن مسار أي مدينة، فسوف أمنحك ثلاثين قطعة ذهبية تبتاعين بها أنفاً جديداً لوجهك}!

{سأتذكر ذلك جيداً}. قالتها هيستير وهي تجر توم وتدفعه دفعاً، وقد اشتعل الغضب في صدرها وتأبجت نيرانه حتى صار كطائر جهنمي حبيس يبتغي الخروج وتدمير كل شيء... ولكم تمت الاستدارة والعودة إلى حيث الفتى المتبختر لتقاتله، وقد كانت تراهن على أنه لا يجيد استخدام ذلك السيف الذي وقف يلوح به، ولكن... لقد أرادت دائماً أن تخفي ذلك الجانب المظلم من شخصيتها، الجانب الانتقامي القاسي، أرادت أن تبقى بعيداً عن الأعين، خاصة الآن، لهذا فقد كظمت غيظها وغضبها، واستعادت رباطة جأشها، وفي هدوء شديد استلت سكينها وتسالت إلى حيث السلك المعدني الموصل لمكبر الصوت في يد ماسجارد، وقامت بقطعه أثناء مرورها بجواره. هكذا، في المرة القادمة التي سيرفع فيها الفتى الضخم عقيرته في مكبر الصوت، لن يلقى سوى ضحكات السخرية.

{آسف}. قالها توم في نجل وهما يشقان طريقيهما هرعين إلى حيث مرفأ التجمع الذي كان مزدحماً بالتجار... {لم أكن أقصد، لقد اعتقدت فقط أن...}.

{لا بأس}. أجابت هيستير، وفي قرارها تمت لو تخبره أنه لو لم يكن يرتكب مثل تلك الحماقات من حين لآخر، فإنه حينها لن يكون «توم»، وما كانت لتجبه إذن، لكنها لم تتمكن من التعبير عن ذلك بالكلمات، لذا فقد أخذت تدفعه دفعا إلى حيث مسافة خاوية تحت أحد الأعمدة التي تحمل طبقات المدينة، وبعد ما تأكدت من أن أحداً لا يراهما، لفت ذراعيها حول عنقه، وأماطت لثامها ثم قبلته... {دعنا نرحل من هنا}.

{ لكننا لم نحصل بعد على شحنة تجارية، أو لم نكن نبحث عن أحد تجار الفراء أو... }.

{ ليس ثمة تجار فراء هاهنا، لا يوجد سوى تجار التقنيات القديمة، ونحن لانريد أن ننقل مثل تلك الأشياء، أليس كذلك؟ }.

بدا توم متردداً، فقامت هيستير بتقبيله مرة ثانية قبل أن يتمكن من التفوه بأي شيء... { لقد سمئت «إير هيفن»، أريد العودة إلى «بيرد رودن» }.

{ حسناً } . أجابها توم، ثم أخذ يلثم ثغرها وخديها والجرح الغائر في حاجبها حيث القطع الطولي... { حسناً، لقد اكتفينا من سموات الشمال، لنرحل } .

إلا أن الأمور لم تكن بتلك البساطة، فحين وصلا إلى الرصيف السابع عشر بالمرفأ، كان رجلاً يجلس هناك فوق حقيبة جلدية كبيرة، منتظراً إياهما بجانب الـ «جيني هانيفر»، فأسرعت هيستير بإخفاء وجهها بوشاحها من جديد، وقد كانت لامتزال تتميز غيظاً من سخرية «ماسجارد»، أما توم فقد حرريدها من يده وهرع مسرعاً إلى حيث الرجل الغريب الذي نهض واقفاً بمجرد أن لمحهما: { يوم سعيد } . صاح الرجل، { السيد ناتسوورثي والآنسة شاو، أليس كذلك؟ } . أظن أنكما مالكا هذا المنطاد الصغير المميز.. عجباً، لقد أخبروني في مكتب الميناء أنكما شايبين، لكنني لم أكن أتخيل أنكما حديثا السن إلى هذا الحد... إنك بالكاد قد تجاوزت سن الطفولة! }.

{ إنني على مشارف الثامنة عشرة } . قالها توم بلهجة احتجاجية نوعاً.

{ لا بأس، لا بأس } . أجابه الغريب متبسماً { السن لا يعني شيئاً طالما كان القلب فياً شجاعاً، وأنا واثق من أنكما تملكان قلباً شجاعاً... } . ثم استرسل { لقد سألت صديقي مدير الميناء: من هذا الشاب الوسيم؟، فأجابني أنك تدعى توم ناتسوورثي وأنت قائد المنطاد جيني هانيفر، فقلت لنفسني: يا «بيني

رويال»، ربما كان هذا الشاب هو الرفيق الذي تبحث عنه، لذا فهي أنا ذا هاهنا!.

هاهو ذا هاهنا!!!... كان الغريب رجلاً صغير الحجم، أصلع، ممتلئاً قليلاً، ذا لحية بيضاء مشدبة، أما ملابسه فقد بدت بمثابة الأزياء النموذجية للجامعي المخلفات الشماليين، حيث كان يرتدي معطفاً طويلاً من الفراء وسترة قصيرة بها العديد من الجيوب، وبنطال قصير سميك، وحذاء طويل مبطن بالفراء. إلا أن ملابسه تلك قد بدت كذلك من النوع باهظ الثمن، وكأنها قد حيكت له كأزياء مسرحية على يد أحد مصممي الملابس.

{حسناً؟}. سألهما الغريب.

{حسناً ماذا؟!}. أعادت إليه هيستير السؤال، وقد شعرت بنفور غريب منه.

{أستحيك عذراً يا سيدي...}. قال توم في لهجة أكثر كياسة {نحن لا نفهم حقاً ماذا تريد بالضبط...}.

{أه! أعذر، أستحيكما عذراً، ولتسمحا لي أن أشرح مقصدي... اسمي بيني رويال، «نيرود بيورجارد بيني رويال». لقد كنت أقوم برحلة استكشافية بين تلك الجبال البركانية الشاهقة، وأنا الآن في طريقي للعودة إلى موطني وأود أن أعجز لنفسي مقعداً على متن منطادكما الساحر هذا}.

(٣)

المسافر

استرعى اسم الرجل، «بيني رويال»، انتباه توم، وكأنه قد دق جرساً ما في عقله، لكنه لم يستطع إدراك السبب وراء ذلك، كان على ثقة بأنه قد سمع بذلك الاسم من قبل، في إحدى المحاضرات، في تلك الأيام حين كان متدرباً في عصبة المؤرخين، أما الأعمال أو الأقوال التي استحق الرجل بسببها أن يذكر اسمه في محاضرات التاريخ فهو ما لم يستطع توم تذكره... فلطالما سرقت أحلام اليقظة ذهنه من المحاضرات وما يقال بها، وما كان بقادر على أن يولي كل انتباهه وتركيزه لما يليقه أساتذته على مسامعهم.

{نحن لا نُقل مسافرين على متن منطادنا}. قالتها هيستير في صرامة، {إننا متجهان إلى الجنوب، بمفردنا}.

{الجنوب وجهة جيدة... مدينتي هي منتجع «بريغتون» الطوّاف، وهي تطوف هذا الخريف في البحر المتوسط، وإنني لأتوق للعودة إليها سريعاً، فناشرو كتي، «فيوميت وسبراينت»، ينتظرون كتابي الجديد بحلول مهرجان القمر، وإنني لفي أمس الحاجة إلى فسحة من الهدوء والسلام للانهاء من دراساتي واستعداداتي النهائية لبدء العمل عليه}.

قال «بيني رويال» ذلك وقد أخذ ينظر من فوق كتفه إلى جموع الناس في مرفأ التجمع، ماسحاً وجوههم بعينه، والعرق يلتصق قليلاً على جبهته، في حين كانت هيسستير تنظر إليه وقد انتابها شعور خفي بأن الرجل لا يتوق للعودة إلى وطنه ومنزله كما يدعي، بل هناك شيء آخر لا تدري كنهه. أما توم فقد صاح هاتفاً: {أنت كاتب ياسيد «بيني رويال»؟!}.

{بروفيسور بيني رويال}. أجابه الرجل في لطف، وقد علت وجهه إبتسامة مشرقة، {أنا مستكشف ومغامر ومؤرخ.. ربما قد صادفت بعض من أعمالي مثل «مدن الرمال المفقودة»، أو ربما تكون قد قرأت «أمريكا الجميلة: حقيقة القارة الميتة»...}.

هنا فقط تذكر توم أين سمع باسم الرجل، لقد ذكر «شادليغ بوميروي» اسم «نيرود. بي. بيني رويال» في إحدى المحاضرات عن الاتجاهات الحديثة في التاريخ، حيث قال عنه إنه لا يحترم أصول البحث العلمي التاريخي الحقيقي على الإطلاق، كما أن حملاته الاستكشافية الجريئة لم تكن سوى محض هراء، أما كتبه فقد ملأها بنظريات غريبة جامحة وقصص رومانسية ومغامرات غامضة...

والحقيقة أن توم كان مولعاً بتلك الأمور تحديداً، وكثيراً ما بحث عن كتب بيني رويال وأعماله في مكتبة المتحف، دون أن يجد شيئاً منها، فقد أبت عصبة المؤرخين أن تحتل أي من كتبه أدنى مساحة من أرفف مكتبتها، وهكذا لم يتسن لتوم التعرف على تفاصيل مغامرات بيني رويال ولا الأماكن التي دارت بها تلك المغامرات؛ لذا، فقد نظر إلى هيسستير وقال: {أظن أن لدينا متسعا لرحل مسافرياً «هيت»، وبذلك سنكسب بعضاً من المال الذي يمكننا الاستفادة منه...}.

نظرت إليه هيستير مقطبةً جيئها، فهتف بيني رويال: {آه، إن المال ليس بمشكلة على الإطلاق}. ثم أخرج حافظة مكتنزة، وأردف: {لنقل خمسة جنيهات ذهبية الآن، ومثلها حينما نصل إلى بريغتون...؟ هي ليست صفقة مغرية كصفقات «بيتور ماسجارد» المبطنة بالحيانة، لكنها صفقة جيدة على أية حال، كما أنكما بذلك سوف تقدمان خدمة عظيمة للأدب}.

التفتت هيستير نحو التجار المتجمعين في المرفأ وهي تفكر، وقد أدركت أنه قد أسقط في يدها، وأنه ليس أمامها سوى الرضوخ، خاصة وأن ذلك الغريب الودود قد تمكن من الاستحواذ على إعجاب توم، وفي قراراتها قد كانت تعرف جيداً أن الحصول على عشرة من الجنيهات الذهبية ليس بصفقة سيئة على الإطلاق... لكنها، في محاولة أخيرة منها لإبطال الصفقة، جَسَّت الحقيبة الجلدية الكبيرة لبيني رويال وهي تقول: {ماذا تحمل معك في أمتعتك؟... نحن لا نحمل أياً من التقنيات القديمة على متن منطادنا، فقد رأينا الكثير مما يمكن أن تسبب فيه تلك التقنيات}.

{لا بحق السماء}. صاح بيني رويال {أنا لست بأحمق.. أنا أيضاً قد رأيت ما قد يصيب هؤلاء الذين يفنون أعمارهم في التنقيب عن تلك الآلات القديمة، فكم منهم قد هلك جراء تسمم إشعاعي غامض، أو انفجرت فيه إحدى الأجسام... لا، ليس معي سوى بعض الملابس الداخلية وبضعة آلاف من الصفحات الممتلئة بالملاحظات والرسومات والخطوط العريضة لكتابي الجديد}.

ركلت هيستير الحقيبة من جديد، فسقطت الأخيرة على جانبها، إلا أنها لم تحدث أية أصوات معدنية. ثم نظرت هيستير عبر الفجوات بين الألواح المعدنية لطبقة المدينة إلى الأرض، حيث كانت إير هيفن تحلق نحو الغرب ببطء، وظلها يزحف خلفها.... حسناً، لا بد أن البحر المتوسط

سيكون دافئا وأزرق، بعيدا عن تلك الأراضي القاحلة الموحشة، كما أن تلك الرحلة لن تستغرق سوى أسبوع واحد فقط، سيكون عليها خلاها أن تتحمل مشاركة ذلك الرجل لها في توم، وبعدها سوف يصبح فتاها ملكا لها وحدها ماتبقى من حياتهما..

{حسناً}. قالتها هيسستير، ثم إنها اختطفت حافظة الأموال من يد الرجل سريعا وفتحتها ثم أخذت تعد خمسة جنيهات ذهبية منها، قبل أن يغير الرجل رأيه، في حين كان توم يقول: {يمكننا أن نعد لك فراشا في القمرة الأمامية، كما يمكنك استخدام قمرة الإسعافات الطبية كمكان لدراساتك إن أردت.. لقد كنت اعزم أن نبيت هنا الليلة ثم نطلق عند الفجر}.

{إن كنت لا تمانع ياتوم، فأنا أود التحرك فوراً.. أتوق للبدء في كتابي..}. أجابه بيني رويال، في حين كانت عيناه تلتمعان وتنتظران تلك النظرة العصبية المتوترة نحو مرفأ التجمع، فقالت هيسستير وهي تعيد إليه محفظته: {سوف نرحل بمجرد أن يمنحنا مدير الميناء تصريح التحليق.. سوف يكون هناك رسوم إضافية بقيمة جنيهين}.

أخذت الشمس في المغيب، وقد بدأ القرص الأحمر الدامي يغرق في ضباب جبال «تانهاسر» إلى ناحية الغرب، في حين طفقت البالونات ترتفع في الأجواء قادمة من المدن والبلدات المتكئة في الأسفل حيث التجمعات التجارية. كذلك كان عدد من المناطيد تتجه جنوبا عبر المرتفعات البارزلية، قادمة من «أركينجال» العظمى؛ وكانت بعض تلك المناطيد لرجل ثري يدعى «ويدجري بلينكو»، وهو من تجار التقنيات القديمة ويملك محلا لتلك العاديات في حي مرفأ أركينجال، وفوق المحل كانت لديه عدد من الغرف يقوم بتأجيرها من حين لآخر، كما أنه يعمل أحيانا جامعا للمعلومات لمن يدفع له..

ترك «بليנקو» المناطيد لترسو في المرفأ تحت إشراف زوجاته، في حين هرع هو إلى حيث مكتب مدير الميناء، وفي يده صورة فوتوغرافية... {هل رأيت ذلك الرجل؟}.

نظر مدير الميناء للصورة التي وضعها بليנקو تحت ناظريه على المكتب ثم قال: {لماذا؟}، إنه البروفيسور بيني رويال، السيد المحترم المتخصص في التاريخ}.

{محترم!!، لقد استأجر هذا الرجل غرفة لدي خلال الأسابيع الستة الماضية، وبمجرد أن تبدت إير هيفن في الأفق حتى فردون أن يدفع لي فلساً واحداً مما يدين لي به. أين هو؟ أين يمكن أن أجد ذلك المخلوق؟}.

{جئت متأخراً يا عزيزي}. قالها مدير الميناء مبتسماً وقد بدا سعيداً وهو يخبر الرجل بالنبا السيئ: {لقد وصل إلى هنا في واحدة من أولى البالونات التي جاءت من أركينجال، واستفسر عن المناطيد المتجهة جنوباً، فأرشدته إلى هذين الشابين اللذين يقودان المنطاد «جيني هانيفر»، وقد غادر ذلك المنطاد إير هيفن منذ نحو عشر دقائق، متجها صوب البحر المتوسط}.

صدرت أنة عن بليנקو وهو يمسح وجهه الشاحب بكفه، وقد أخذ يفكر في العشرين جنياً الذهبية التي وعده بها بيني رويال ولم يتحصل على شيء منها، إن نفسه لا تقوى على تحمل تلك الخسارة... وفي أعماقه أخذ يئن وينتحب ويلوم نفسه [لماذا... لماذا... لماذا لم آخذ منه دفعة مالية مقدماً؟!]. لقد أسره الرجل تماماً، خاصة حينما أهداه نسخة موقعة من كتابه «أمريكا الجميلة» وقد خط على الصفحة الأولى منه: إلى صديقي العزيز ويدجري، مع أطيب الأمنيات؛ ولكم كان متحمساً حينما وعده الرجل بأن يذكر اسمه في كتابه القادم... كان متحمساً وسعيداً لدرجة أنه لم ينتابه أي شك حينما

بدأ بيني رويال في تحويل فواتير كميات النبيذ التي استهلكها إلى حسابه، ولم يبدر عنه أي اعتراض حينما شرع ضيفه في مغازلة نسائه الأصغر سناً، علانية..... [اللعة على كل الكُأَب] !.

ثم فجأة، بدا وكأنه قد استرعى انتباهه شيئاً مما قاله مدير الميناء، اسماً معيناً ذكره الرجل اخترق سحب الكآبة ورثاء النفس التي خيمت عليه... اسم مألوف، بشدة... {هل قلت جيني هانيفر؟!}.

{نعم ياسيدي}.

{ولكن... هذا مستحيل! لقد اختفى ذلك المنطاد حينما دمرت الآلهة لندن!}.

فهز مدير الميناء رأسه قائلاً: {لا ياسيدي، لم يحدث شيء من هذا، لقد كان الجيني هانيفر يخلق في السموات طوال العامين الماضيين للتجارة بين مدن «زيجورات المايا الجديدة»، بحسب ما سمعت}.

شكره السيد بليנקو، ثم عاد أدراجه مسرعاً إلى حيث المرفأ، ولم يكن معتاداً على الركض، إلا أن الأمر كان يستحق الإسراع، فأخذ يدفع الأطفال الذين تكأكأوا في طريقه متجمعين عند المنظار المثبت إلى إفريز الطبقة ليلقوا نظرة على السموات..

أخذ بليנקو يخف خطاه مسرعاً حتى بلغ منطاده الخاص، فاندفع نحو الزورق وهو يصرخ في زوجاته أن: {أسرعن}، ثم {شغلن المذياع فوراً}.

فهمست إحدى الزوجات لأخرى: {يبدو أن بيني رويال قد انسرب من بين أصابعه من جديد!}.

{يالها من مفاجأة!} أجابتها الأخرى متهمكة.

فقلت الثالثة : {بالضبط كما حدث في أركانجيل}.

{صمتاً}، صاح بلينكو: {الأمر هام}.

فصمتت زوجاته تماماً، في حين وقفت رابعتهم تنظر إليه في تجهم..

{لم يعد بيني رويال يستحق عناء البحث عنه}.

{ياله من مسكين، ذلك العزيز بيني رويال}، قالتها الزوجة الخامسة في حزن، فنهرا زوجها: {انسوا أمر بيني رويال}، ثم قام بخلع قبعته وثبتت سماعات الراديو، وأخذ يضبط جهاز الإرسال على موجة سرية وهو يشير لزوجته الخامسة كي تحرك ذراع الإقلاع بالمنطاد: {أعرف أشخاصا سوف يدفعون لي مبالغ مجزية مقابل المعلومات التي حصلت عليها توأ... إن المنطاد الذي غادر على متنه بيني رويال هو منطاد أنا فأنج القديم}.

حتى تلك اللحظات، لم يكن توم قد أدرك كم كان يفتقد صحبة المؤرخين، فهاستر كانت تسعد دوماً بما تسمعه منه من حقائق وحكايات غريبة كان يقصها عليها، مستدعيًا إياها من أيام وجوده كمتدرب بين عصبة المؤرخين، لكنها في المقابل لم تكن تملك في جعبتها أية حكايات مماثلة لتقصها عليه؛ فقد عاشت بفطرتها الخالصة منذ أن كانت طفلة صغيرة، ومع كل ما كانت تملكه من مهارات القفز إلى متن المدن المسرعة، واصطياد القطط، ومجابهة اللصوص، فإنها ما كانت لتكلف نفسها يوما عناء التعرف على تاريخ العالم الذي تحيا به أو تعلم شيئا منه.

أما الآن، فقد عبقت أجواء الجيني هانيفر بشخصية بيني رويال الأسرة وحكاياته الأخاذة؛ فقد كان يملك نظرية أو حكاية عن كل شيء، وقد أرهف توم السمع للرجل وتشرَّب كل ما كان يرويهِ، وقد استولى عليه

الحنين الجارف للأيام الخوالي، في متحف لندن، حيث كان يحيا محاطاً بالكتب والأسفار والمراجع، والآثار، والنقاشات العلمية...

{انظر إلى تلك الجبال...}. قالها بيني رويال وهو يشير عبر النافذة إلى سلسلة جبال «تانهاسر» جنوباً، حيث تتوهج الحمم وينعكس ضوءها على وجه الرجل: {سوف تكون تلك الجبال موضوع كتابي الجديد، حيث سأتناول بالبحث كيف انبثقت تلك السلسلة من الجبال منتصبية في ذلك المكان؛ فالخرائط القديمة تظهر لنا بوضوح أنها لم تكن موجودة في الأزمنة القديمة، ومن ثم فكيف لتلك الجبال أن تكون قد تكونت بسرعة هكذا؟! وما أسباب ذلك؟. نفس الأمر ينطبق على «شان جو» البعيدة، فجبال «زان شان»، والتي تعد أعلى جبال على وجه الأرض، ليس لها أي ذكر على الإطلاق في الخرائط والسجلات القديمة. فهل حقاً تكونت تلك الجبال الحديثة نتاج نشاط بركاني طبيعي كما كانوا يخبروننا دوماً؟ أم أن هناك تفسيراً آخر؟، أو ليس من الممكن أن تكون تلك الجبال قد نشأت نتيجة تقنية قديمة وقع بها خلل فادح، أو ربما كانت عبارة عن مصدر تجريبي قديم للطاقة؟... ماذا لو كانت تلك الجبال النارية عبارة عن سلاح فظيع يعمل على صناعة البراكين المدمرة؟... لكم سيكون هذا الاكتشاف رهيباً يا توم}.

{نحن لسنا مهتمين بإيجاد التقنيات القديمة}. قالتها هيستير بتلقائية بينما كانت تعكف على قراءة إحدى الخرائط وتحاول رسم الاتجاهات، وقد بدأ انزعاجها من بيني رويال يتعاضم أكثر فأكثر.

{بالتأكيد لا يفتاتي العزيزة}. صاح بيني رويال وهو يوجه نظره إلى جانبها، حيث لم تكن لديه القدرة بعد على النظر مباشرة إلى وجهها دون أن يجفل، {بالتأكيد لا. ياله من تحيز نبيل وعقلاني ضد.....}.

{الأمر لا يتعلق بالتحيزات}. هتفت هيستير بجدة وهي تشير إليه بالفرجار الذي كان في يدها، بصرامة جعلته يخشى أن تقدم على إيذائه به، {لقد كانت والدتي عالمة آثار ومغامرة ومستكشفة، مثلك بالضبط، وقد ارتحلت إلى حيث الأراضي البائدة في أمريكا، وأخذت تنقب، إلى أن عثرت على أداة قديمة، وقامت باصطحابها معها، أداة تدعى «الميدوسا»؛ وحينما علم حكام لندن بذلك الكشف، أرسلوا رجالهم» فالانتاين» إليها فقتلها للحصول على تلك الآلة. وهو من فعل ذلك بوجهي. ثم أخذ الميدوسا إلى لندن، حيث عكف مهندسو المدينة على تطويرها، وهنا انقلب الأمر وبالأعلى رؤوسهم ودمرت المدينة عن بكرة أبيها، وكانت تلك هي النهاية}.

{آه، نعم... لقد سمع الجميع بأحداث «الميدوسا» وما وقع للندن. إنني أتذكر جيداً ما كنت أفعله حينها. كنت على متن «سيتا موتور» برفقة فتاة شابة جميلة، تدعى «مينتي باسنك»، حينما شاهدنا ضوءاً مبهراً يسطع عبر السماء الشرقية، على بعد نصف العالم تقريباً...}.

{حسناء. أما نحن فقد كنا بجوارها مباشرة. لقد حلّقنا عبر الانفجار نفسه، ورأينا ما آلت إليه لندن بأَم أعيننا، وما تبقى منها في صباح اليوم التالي. مدينة كاملة، موطن توم، احترقت تماماً حتى آخر رمق، بسبب آلة اكتشفها والدتي. ولهذا فقد قررنا النأي تماماً عن التقنيات القديمة}.

{آه}. قالها بيني رويال، الذي قد بات أقل ارتياحاً الآن.

{أنا ذاهبة للفراش. أشعر بصداع شديد}. قالتها هيستير، وقد كانت صادقة في ذلك، فبضع ساعات من محاضرات بيني رويال كانت كفيلة بإصابتها بألم شديد في رأسها وخلف عينيها؛ فاتجهت إلى حيث مقعد القيادة لتقبل توم وتتمنى له ليلة سعيدة، لكنها تراجعت عن تقبيله أمام عيني بيني

رويال، فهمست في أذنه: {نادني إن احتجت لبعض الراحة}، ثم توجهت إلى المقصورة الخلفية.

{واو!}، شق بيني رويال متنفساً الصعداء بمجرد أن ذهبت هيدستير، فقال توم في حرج بسبب حديثها: {إنها حادة الطباع قليلا، لكنها طيبة القلب ودود. فقط هي نجولة نوعاً ما... بمجرد أن تعرفها جيداً سوف تألفها...}.

{نعم، نعم، طبعاً... يمكن للمرء أن يدرك بلحظة واحدة أن خلف ذلك المظهر ال... آ... غير المألوف، يوجد... آ...} إلا أنه لم يستطع أن يفكر في أي شيء جيد أو إيجابي يمكن أن يقال عن الفتاة، لذا اثر الصمت وطفق ينظر عبر النافذة إلى حيث الجبال المقمرة، ومن بعيد لاح له أضواء بلدة صغيرة تتحرك عبر السهول المقفرة.

مرت برهة من الزمن، ثم قال بيني رويال أخيراً: {هي مخطئة بصدد لندن... أعني، هي مخطئة فيما يتعلق بأن المدينة قد احترقت عن بكرة أبيها. لقد تحدثت إلى أشخاص كانوا هناك... هناك الكثير من الحطام، كذلك قد دُمِرَت أجزاء كاملة من أحشاء المدينة وسقطت في العراء غرب «باتمونخ جومبا»، لقد أخبرتني إحدى تلامذتي بذلك، حيث كانت داخل واحدة من الأجزاء الكبرى للأحشاء، وقد حكّت لي عن الهياكل العظمية المتفحمة والأجزاء الضخمة نصف الذائبة من المباني والآلات، والتي تناثرت هنا وهناك في كل حذب وصوب، في حين انتشرت الأضواء الملونة الناتجة عن إشعاعات الميڤوسا بين الحطام وحولها...}.

كان توم هذه المرة هو من بدأ يشعر بالضيق وعدم الارتياح، فقد كان خراب مدينته لايزال يمثل جرحاً نازفاً في قلبه.... عامان ونصف قد مرا حتى الآن، ولايزال توجه الانفجار العارم يسطع في أحلامه، وما كان

ليرغب في سماع أية أحاديث عن خراب لندن وحطامها، لذا فقد عمد إلى تغيير دفة الحديث والعودة به إلى الموضوع المفضل للبروفيسور بيني رويال : بيني رويال في حد ذاته!

{لابد وإنك قد ارتحلت إلى العديد من المناطق المثيرة للاهتمام
يا بروفيسور، أليس كذلك؟}

{المثيرة للاهتمام؟! آه، إنك لا تملك أدنى فكرة حتى عن نصف مغامراتي
يا عزيزي.. بمجرد أن نصل إلى الميناء الجوي لبريغتون سوف أوجه رأساً إلى
أحد باعة الكتب وأبتاع لك أعماله الكاملة... إنني مندهش من أن شاباً
مثلك لم يقرأ عن أسفاري من قبل!}

فهز توم كتفيه وقال: {للأسف، لم يكونوا يحتفظون بأي من أعمالك في
مكتبة متحف لندن}.

{بالتأكيد ما كانوا يفعلوا...}. أجاب بيني رويال، {تلك الكومة المتهاكة
التي تدعى عصابة المؤرخين، سخقا... أتعلم، لقد تقدمت مرة للانضمام إليهم،
إلا أن رئيسهم، ثاديوس فالانتاين، قد رفضني، فقط لأن نتائج رحلتي إلى
أمريكا لم ترق له}.

أثار كلام الرجل فضول توم، صحيح أنه ما كان يحب أن تُنعت عصبته
السابقة بتلك الأوصاف، إلا أن الأمر كان مختلفاً فيما يتعلق بفالانتاين، فهو
الرجل الذي حاول قتله، بل وسبق وقتل والذي هيسير بالفعل... إن أي
شخص يرفضه فالانتاين هو بالضرورة شخص جيد في نظر توم..

{ما الذي اكتشفته في أمريكا يا بروفيسور؟}

{آه، حسناً، إنها حكايات طويلة، فهل تريد حقاً سماعها؟}.

أوماً توم، فهو لن يتمكن على أية حال من ترك مقعد القيادة هذه الليلة، حيث من المتوقع أن تهب رياح شديدة من جهة الجنوب، وسوف يكون سعيداً جداً بتمرير ذلك الوقت بسماع قصة مثيرة تبقى متيقظاً. علاوة على ذلك، فقد أيقظ حديث بيني رويال شيئاً في أعماقه... إنها ذكرى تلك الأيام، في سريره تحت الأغطية، بقسم متدربي التاريخ من الدرجة الثالثة، حينما كان يقرأ بشغف بالغ، على ضوء مصباح اليد الصغير، قصص المستكشفين العظماء أمثال «مونكستون وايلد» و«شانج ماي سبوفورث» و... «ثاديوس فالانتاين»، و«فيشر» و«كبتون كارك»...

{نعم، من فضلك يا بروفيسور}.

(٤)

موطن الشجعان

{شمال أمريكا}. قال بيني رويال هي قارة ميتة كما هو معروف للجميع، تم اكتشافها عام ١٩٢٤ على يد كريستوفر كولومبو، المحقق والمستكشف العظيم. وقد صارت القارة من بعد، موطن لإمبراطورية حكمت العالم لردح من الزمن، قبل أن تدمر تماماً في حرب الستين دقيقة، لتصير من بعد ذلك أرضاً ياباً للصحارى الحمراء والمستنقعات السامة، والقنابل الذرية والصخور الصدئة. والحقيقة أن عدداً قليلاً جداً من المستكشفين الشجعان هم من جرؤوا على المغامرة باستكشاف تلك الأرض، مثل فالانتاين ووالدة صديقتك المسكينة، والتنقيب عن بقايا التقنيات القديمة بين الخرائب المتراكمة... ومع ذلك، فهناك العديد من الشائعات والحكايات التي تنتثر هنا وهناك، يرددها الملاحون العجائز السكارى في جلساتهم، حول تلك الأرض.. حكايات حول مناظيد تنحرف عن مسارها بغتة لتجد نفسها وقد باتت تحلق فوق أمريكا مختلفة تماماً: مراعي خضراء، غابات، بحيرات زرقاء شاسعة...

منذ خمسين عاماً مضت، كان هناك طيار يدعى «سنوري أولفيسون»، يقال إنه قد هبط يوماً في مقاطعة خضراء، أطلق عليها أولفيسون حينها اسم «فين لاند»، وأنه قد قام برسم خريطة تفصيلية لها لصالح عمدة «ريكيك فيك»، ولكن، بالطبع، حينما حاول الباحثون في زمننا المعاصر هذا البحث عن تلك الخريطة في مكتبة «ريكيك فيك» لم يجدوا لها أثراً.

وكما هو الحال دائماً في مثل تلك الأمور، يقضي الملاحون سنوات من أعمارهم في محاولات العثور على مثل ذلك المكان من جديد، فلا يجدون شيئاً، وقد يحدث أن يرصد واحد منهم عن بعد أرضاً خضراء واعدة، فيصحبو بداخله الأمل في أنه أخيراً قد عثر على ضالته، فينطلق بمنطاده هابطاً إلى حيث أرض أحلامه.. فلا يجد سوى حفنة من الطحالب السامة تموج فوق بحيرة آسنة، فيعود أدراجة خائباً خاسراً وقد فقد كل أمل في أن تكون ضالته المنشودة حقيقية.

أما المؤرخون الحقيقيون أمثالنا، يا توم، فإنهم يدركون جيداً أنه في قلب الأساطير كثيراً ما تكمن بذور للحقائق؛ لذا فقد قمت بجمع كافة القصص والمرويات التي تسنى لي التعرف عليها، وفي داخلي كان إيمان راسخ بأنها ولا بد تحوي في جوهرها شيئاً ما يستحق عناء البحث... فهل حقاً باتت أمريكا قارة ميتة؟ كما ظل الحكماء أمثال فالانتاين يرددون على الدوام؟ أم أن هناك احتمالاً ضئيلاً أن تكون بقعة ما في تلك القارة الفانية، في الشمال من المدن الميتة التي لطالما تردد عليها جامعو المخلفات القديمة، قد نجت بشكل أوبأخر من الهلاك، وأن أنهاراً من الثلوج الذائبة من حافة الأراضي الجليدية المهجورة قد انهمرت عليها فغسلتها وجرفت عنها السموم، فأحييها من جديد؟!....

وهكذا، قد عزمت، أنا بيني رويال، على اكتشاف الحقيقة. وفي ربيع عام ٨٩، انطلقت، أنا وأربعة من المرافقين، في رحلة على متن منطادي

«الآن كواثرمين» بحثاً عما يمكن أن أجده هناك، حيث عبرنا شمال الأطلسي إلى أن بلغنا شواطئ أمريكا، بالقرب من منطقة كانت تسمى في الخرائط القديمة «نيويورك». كانت بقعة ميتة كما كنا نعرف، تعج بالحفر الضخمة التي انصهرت جوانبها تماماً بفعل الحرارة الهائلة التي تولدت عن تلك الحرب القديمة، مخلفة تلك المادة التي تعرف بالزجاج المتفجر. لذا فقد أقلعنا من جديد واتجهنا غرباً، إلى قلب القارة الميتة ذاتها... حين وقعت الكارثة!!

فقد هبت عاصفة ضارية ضربت كل شيء وأطاحت بمنطادي لتلقي به في البرية الموحشة السامة، وقد لقي ثلاثة من رفقائي مصرعهم على الفور في ذلك الحادث المروع، ثم لم تمض بضعة أيام حتى توفي الرابع مسموماً بفعل المياه من بركة كانت تبدو نقية، لكنها للأسف اتضح بعد فوات الأوان أنها شديدة التلوث بفعل المواد الكيميائية المنبعثة من أحد الآلات القديمة... وهكذا انطلقت وحيداً جهة الشمال، عابراً سهولاً من البرك والحفر التي كانت يوماً مدناً أسطورية كشيكاغو وميلوكي.

كنت قد وصلت إلى وضع مزرٍ بحق لدرجة أنني تخلّيت حينها عن أية أفكار أو طموحات لإيجاد أمريكا الخضراء التي أتيت كل تلك المسافة بحثاً عنها، وبات أُملي الوحيد أن أتمكن من الوصول إلى حافة الأراضي الجليدية المقفرة إلى أن يجديني بعض من جماعات المرحلة من رجال الصحراء الجليدية ويقوموا بإنقاذي. ولكن، حتى ذلك الأمل قد بات ضعيفاً، وفي النهاية سقطت من الإجهاد والعطش... سقطت في وادٍ جاف بين الجبال السوداء الضخمة القاسية، وفي يأس صرخت بما تبقى في من قوة: أهذه هي حقاً نهاية نيرود بيني وروبال؟ أألك هي النهاية؟!، وقد بدا لي لحظتها وكأن الحجارة من حولي ترد علي بالإيجاب: نعم، لقد انتهت آمالك كما ترى، فأغضت عيني واستعددت لتسليم روحي لإلهة الموت، متوقفاً أن أفتحهما لأجد نفسي وقد صرت شبحاً في الأراضي التي لا تشرق عليها الشمس...

أما ما حدث بعد ذلك فقد عرفته لاحقاً، ألا وهو أنه قد تم العثور على وإنقاذي، وأني قد دُثِرْتُ بأغطية من فراءٍ ثقيل، وتم نقلي إلى أحد الزوارق المتجهة إلى الشمال. لم يكن من عثروا علي جماعة من المستكشفين، لا، بل مجموعة من السكان الأصليين للمنطقة!.. نعم، لقد اكتشفت أن هناك قبيلة كاملة تحيا بالفعل في أقصى شمال القارة الميتة! لقد كنت حتى ذلك الحين أصدق القصة التقليدية التي قيلت لنا، وإني لعلّي يقين من أنها قد تليت على مسامعك أنت أيضاً من أساتذتك في عصبة المؤرخين، والتي تقول بأن عدداً من سكان أمريكا الباسيين قد نجوا بشكل أو بآخر من النكبة والدمار الشنيع الذي وقع لقارتهم المنكودة، وأنهم قد فروا إلى الشمال حيث الصحراء الجليدية واختلطوا بقبائل الـ «إينويت»، ومنهم جاء نسل بدو الصحراء الجليدية كما نعرفهم اليوم. أما الآن فقد بُتَّ أعرف أن الحقيقة مختلفة، وأن بعض هؤلاء الناجين قد بقوا في موطنهم لم يبارحوه، وارتدوا متقهقرين عن الحضارة ومظاهرها حتى صاروا قوما وحشيين، وأحفاداً همجيين لأمة أودت أنانيتها وجشعها بالعالم كله إلى التهلكة. ومع ذلك، فقد بقي لديهم من الإنسانية ما يكفي لينقذوا رجلاً بأساً يكاد يقضي جوعاً وعطشاً مثلي.

ومع الوقت، وباستخدام لغة الإشارات والإيماءات، صرت قادراً على التواصل والتفاهم مع من أنقذوني، وكانوا فتاة وصبياً يدعيان «ماشين ووشابل» و«ألو تويلف دايز فور دليفري»!، وقد كانا في رحلة استكشافية على ما يبدو حينما وجداني، حيث كانا ينقبان عن بعض من الزجاج المتفجر بين أطلال مدينة قديمة تدعى «دولوث». بالمناسبة، كنت قد اكتشفت، مع الوقت، أن أفراد تلك القبيلة الهمجية يرتدون الحلي والزينة المصنوعة من مادة الزجاج المتفجر، مثلهم في ذلك مثل أي سيدة أنيقة من باريس، وقد كان صديقاَي الجديدان هذان يرتديان أساور وأقراطاً مصنوعة منها..

لقد كنا شديدي المهارة في فنون النجاة والبقاء وسط تلك الفيافي الموحشة
لأمريكا، فكانا يجيدان التفتيش بين الصخور واستخراج الكائنات الصالحة
للأكل، كذلك كانت لديهما قدرة عالية على تمييز المياه القابلة للشرب
وذلك عن طريق رصد أنماط نمو أنواع معينة من الطحالب في المياه. إلا
أن تلك الأراضي المقفرة لم تكن هي موطنهما، وإنما قد جاءا من أقصى
الشمال، وحينما وجداني قررا اصطحابي معهما إلى حيث قبيلتهما!... لك
أن تتخيل يا توم كم كنت متحمسا لتلك الرحلة المثيرة إلى حيث النهر، إن
الأمر لشبيه بالعودة إلى البدايات الأولى للعالم ونشأته المبكرة.

وفي بداية الرحلة لم يكن ثمة موجودات من حولنا سوى الصخور القاسية
والحجارة التي دمرها الزمن، وأطلال المباني العظيمة للقديماء. وبعد مرور
بضعة أيام من الارتحال شمالاً، حيث لا شيء سوى الأرض الخراب،
بدأت أرصد بعضاً من الطحالب الخضراء هنا وهناك، ثم ظهرت تجمعات
الأعشاب على ضفتي النهر، الذي كان يزداد عذوبة ونقاءً كلما تقدم بنا
المسير، وقد اصطادت لنا الفتاة بعضاً من أسماك ذلك النهر، في حين كان
الفتى يقوم بطهيها لنا على النار كل مساء على الشاطئ.

والأشجار! آه يا توم! كانت أشجار البلوط والصنوبر تظلل الأجواء
بظلالها، في حين انفرج مجرى النهر مُكوِّناً بحيرة واسعة، وعلى الشاطئ كانت
المساكن البدائية للقبيلة تنتصب هناك... ياله من مشهد بديع بالنسبة لمؤرخ.
إن أمريكا، القارة الميتة، حية!.. حية من جديد، بعد كل تلك الأعوام.

وفي ذلك المكان، بين أهل القبيلة الطيبين، عشتُ لمدة ثلاث سنوات.
لن أضجرك بحكاياتي هناك، ولن أصدع رأسك بقصة إنقاذي لابنة رئيس
القبيلة الجميلة «زيب كود» من بين مخالب دب مفترس، وكيف أنها وقعت
في حبي، وأتني اضطررت للفرار من خطيبتها الغيور الغاضب. ولن أزجلك

بتفاصيل رحلتي إلى الشمال ثانية إلى حيث الجليد، ولا برحلة عودتي، بعد العديد من المغامرات التي خضت غمارها، إلى حيث ساحة الصيد العظمى. يمكنك أن تقرأ كل ذلك في كتابي الأكثر مبيعاً على مستوى العالم: «أمريكا الجميلة»، حينما نصل إلى بريغتون.

ظل توم جالساً لا ينبس ببنت شفة لبرهة من الزمن، ورأسه يعج بالرؤى والمشاهد البديعة التي رسمها له بيني رويال بكلماته، ويكاد لا يستوعب كيف أنه لم يسمع بتلك الاستكشافات العظيمة للرجل من قبل!... كم كانوا أغبياء هؤلاء الأساتذة في عصابة المؤرخين ليديروا ظهورهم ويتجاهلوا مثل هذا الرجل العظيم.

في النهاية، قال توم: {ولكن، ألم تعد مرة ثانية إلى هناك يابروفيسور؟ في رحلة استكشافية ثانية، ومعك معدات أفضل وأكثر تطوراً...}.

{للأسف يا توم}، أجاب بيني رويال متنهداً: {لم أتمكن من إيجاد ممول لتلك الرحلة، فكما قلت لك، قد تحطمت كافة آلات التصوير والمعدات الخاصة بي في حادث تحطم منطادي. وقد أخذت معي بعضاً من المصنوعات اليدوية لأهل تلك القبيلة قبل أن أرحل عنهم، لكن مع الأسف فقدت جميعاً أثناء رحلة عودتي إلى الوطن، وما كان لي، بدون دلائل مادية على وجود مثل ذلك المكان وهؤلاء البشر، أن أقنع أي شخص بتمويل رحلة ثانية إلى هناك، وما كانت روايتي وحدها لتكفي لإقناع أي أحد... حتى الآن لا يزال هناك من يعتقدون أنني لم أذهب إلى أمريكا قط ولم تطأ قدمي أرضها}.

(٥)

روح الثعالب

كان صوت بيني رويال لايزال يتردد صدهاء عبر أرجاء المنطاد حينما صحت هيستير من نومها صباح اليوم التالي، وقد أخذت تتساءل في نفسها وهي تتجه إلى حوض المياه لتغسل وجهها من آثار النعاس، عما إذا كان قد قضى ليلته بأكملها هناك... ثم أدركت بعد حين أنه قد أخذ قسطاً من النوم في فراشه، على عكس نوم المسكين الذي لم يبارح مقعد القيادة، ثم عاد ثانية ليجالسهما.

وقفت هيستير تنظف أسنانها وقد أشاحت بوجهها صوب نافذة مطبخ المنطاد متجنية النظر في المرأة أعلى الحوض ورؤية انعكاس وجهها بها، ومن فتحة النافذة كانت السماء تبدى أمامها كطبق كبير من حلوى الكاسترد، وقد تناثرت فوقها السحب كنبات الراوند، وكانت ثلاث بقع سوداء صغيرة تتوسط المشهد وقد حسبتها هيستير لأول وهلة أوساخاً عالقة على زجاج النافذة، ولكن حينما حاولت إزالتها بأظفارها اكتشفت أنها كانت مخطئة، وأن تلك البقع ليست على الزجاج، فأخذت تحديقاً قليلاً في

الفضاء أمامها وقد قطبت جبينها، ثم أنها هرعت لتجلب منظارها ثم عادت إلى النافذة، وبدأت تحقق عبره لبرهة، وقد ازداد عبوسها شيئاً فشيئاً...

في تلك الأثناء كان توم يستعد لأخذ قسط من النوم بعد ليلة طويلة؛ صحيح أن العاصفة لم تهدأ بعد، إلا أنهم كانوا قد تجاوزوا منطقة الجبال الآن وباتوا في مأمن من أن تلقي بهم الرياح إلى فوهة بركان، أو تطيح بهم على حافة أحد المنحدرات. كانت علامات الإرهاق تبدو جلية على وجهه، لكنه لم يكن متدمراً، بل قد بدا سعيداً برؤية هيستير تدخل إلى قرة القيادة.

وكان بيني رويال جالسا إلى جانب توم في مقعد الملاح المساعد، وبين يديه استقر قدح من القهوة المنعشة.

{لقد كان البروفيسور يحكي لي عن بعض من رحلاته الاستكشافية...}
قالها توم بحماسة وهو ينهض مفسحاً المجال لهيستير كي تتولى قيادة المنطاد،
{إنك لن تصدقي المغامرات التي خاضها}.

{ربما لا}. قالت هيستير {أما الآن فإن الشيء الوحيد الذي أود معرفته هو لماذا تقترب منا مجموعة من المناطيد الحربية!}.

وما إن سمع بيني رويال قولها هذا حتى جفل في خوف وقد دنت عنه شهقة فزع سرعان ما حاول تداركها بأن وضع كفه على فمه، في حين اتجه توم صوب النافذة اليسرى للمنطاد ليلقي نظرة نحو ماتشير إليه... وبالفعل، كانت النقاط التي حسبتها هيستير في البداية بقعاً صارت أقرب الآن واتضحت معالمها، ولم تكن سوى ثلاثة مناطيد حربية تقترب منهم حثيثاً.

{ربما هم مجرد تجار يتوجهون نحو إير هيفن}. قالها توم، وهو يأمل أن يكون الأمر كذلك بالفعل.

{لا، هذه ليست بقافلة تجارية}. أجابت هيستير {إنه تشكيل هجومي...}.
التقطت نواظرات الرؤية الميدانية من أسفل لوحة التحكم وثبتها على
عينيه... كانت المناطيد على بعد حوالي عشرة أميال، لكنه استطاع أن
يدرك أنها سريعة وجيدة التسليح. كذلك كانت تلك المناطيد بيضاء اللون
تماماً، تحمل شارة خضراء مرسومة على أغلفتها الغازية، وقد بدا شكلها مرعباً
وكانها أشباح لمناطيد تحوم في الفضاء.

{إنهم محاربون من جماعة مكافحة التحرك}، قالتها هيستير، {إنني أعرف
شكل مناطيدهم جيداً... إنهم «ثعالب موراساكي»...}

كانت خائفة، ولها حق في ذلك، فعلى مدار العامين الماضيين ظلت
وتوم حريصين كل الحرص على تجنب جماعة مكافحة التحرك؛ فقد كان
«الجيني هانيفر» فيما مضى ملكاً لإحدى عميلات الجماعة، المسكينة «آنا
فانج»، وحينما توفيت أخذت توم وهيستير المنطاد.. هما لم يقوما بسرقة،
ليس بالضبط!، إلا أن الجماعة ربما لا ترى هذا، وربما كان لها رأي آخر في
فعلتهما تلك، ولهذا سعى كل منهما لتجنبها قدر الإمكان، مفضلين التحليق
فوق مناطق الشمال حيث يندر وجود أي قوات للجماعة هناك منذ سقوط
مدينة «سبيتز بيرجين ستاتيك» في العام السابق.

{يستحسن أن تتفاداهم}. قالت هيستير {استدر بالمنطاد حول العاصفة
إلى أن تصبح الرياح عند الذيل، حتى نسبقهم أو نخفي عن أنظارهم بين
الجبال}.

بدا توم متردداً، صحيح أن «الجيني هانيفر» أسرع بكثير مما يبدو عليه
شكل زورقه ومحركاته، لكنه كان يشك في مدى قدرة المنطاد على التفوق
على «الثعالب»... {ولكن، إن نحن حاولنا الفرار فإن ذلك سيجعلنا نبدو

وكأننا اقترفنا جريمة ما. نحن لم نخطئ... سوف أتحدث إليهم لنعرف ماذا يريدون بالضبط}. قالها توم واتجه صوب المذيع، إلا أن بيني رويال استوقفه ممسكاً بذراعه: {لا يا توم، لقد سمعت الكثير عن تلك السفن الجوية البيضاء. إنهم ليسوا فئة عادية من جماعة مناهضة التحرك، لا، إنهم ينتمون لجماعة «العاصفة الخضراء»، وهي جماعة متطرفة انشقت حديثاً عن الجماعة الأصلية، وهم ينطلقون عادةً من قواعد جوية سرية في الشمال. إنهم متطرفون حقاً، وقد أقسموا على تدمير كافة المدن بأهلها... يا للآلهة!، لو أنك سمحت لهم بالحقاق بنا ووقعنا في قبضتهم، فسوف يذبحونا جميعاً هنا في قلب الزورق}. كان الرجل يتحدث وقد اكفهر وجهه حتى صار بلون الجبن، وقد التمتعت بجهته وأنفه بالعرق من أثر الانفعال والخوف، أما يده المتشبثة بمعصم توم فكانت ترتعش بوضوح. صمت توم وقد أخذ ينظر لبيني رويال وهو لا يستوعب كيف لرجل مثله، خاض غمار الأخطار عبر مغامراته الرهيبة، ونجا منها جميعاً، أن يكون خائفاً مذعوراً بهذا الشكل!؟

أما هيستير فقد عادت لتنظر عبر النافذة، والحق أنها قد فعلت ذلك في التوقيت المناسب فعلاً؛ فما إن التفتت نحو النافذة حتى فوجئت بأحد المناطيد الثلاثة وهو يطلق صاروخاً باتجاههم كي يشل حركة المنطاد تماماً بما يسمح بالإيقاع به. ولم تكن هيستير قد أخذت ما قاله بيني رويال على محمل اليقين، إلا أنها قد أدركت أن هناك شيئاً ما مخيف في تلك السفن الجوية، وكذلك كان قد استقر في يقينها أن هؤلاء لم يعثروا على الجيني هانيفر عن طريق الصدفة وإنما قد جاءوا في إثره عمداً.

{اذهب وافعل كما قلت لك}. قالتها هيستير، فاتجه توم من فوره إلى أدوات التحكم وأخذ يناور بالمنطاد إلى أن تمكن من التوجه شمالاً متجاوزاً عاصفة الرياح. ثم إنه شرع يحرك عدداً من الأذرع النحاسية للأمام إلى

أن ارتفع صوت المحرك لينبئ بالتحليق على سرعة أعلى، ليرتفع الجيني هانيفر ويشق عباب السماء... {لقد أفلتنا}. هكذا صاح توم في حماسة، وهو ينظر عبر منظار الأفق. إلا أن «الثعالب» كانوا مصرين على مطاردتهم، فقاموا بتحويل مسارهم فوراً وزادوا من سرعتهم كي يتمكنوا من اللحاق بهم.

ولم تمر ساعة حتى كانوا قد نجحوا بالفعل في الدنو من الجيني هانيفر، حتى بات في مقدور توم وهيستير تمييز الشعار المرسوم على المناطيد الحرية دون عناء، وبالفعل لم تكن شارة العجلة المكسورة المميزة لجماعة مكافحة التحرك هي المرسومة على أغلفة المناطيد، وإنما كان رمز صاعقة البرق الأخضر المسننة هو ما يتجلى بوضوح عليها..

أخذ توم يمسح الأفق الرمادي في الأسفل على أمل أن يجد بلدة أو مدينة ما يلجأون إليها، ولكن دون جدوى، فلم يكن ثمة شيء سوى بلديتين زراعتين ثقيلتي الحركة، تقودان قطعان من حيوانات الرنة عبر «التندرا» البعيدة جهة الشرق، وما كان لتوم أن يصل إلى أي منهما دون أن تلحق به المناطيد المطاردة.

وأمامهم، تبدت جبال «تانهاسر» بوديانها الضيقة وسحبها، لتقدم لهم الملاذ الوحيد المتاح.

{ماذا سنفعل؟}. تساءل توم.

{استمر... ربما أمكننا أن نفلت منهم بين الجبال}.

هنا همس بيني رويال في خوف {وماذا إن أطلقوا صواريخهم علينا؟ إنهم قريبون جداً، فماذا لو بدأوا في إطلاق النيران؟}.

{لن يحدث، إنهم يريدون الجيني هانيفر سالماً، لذا لن يخاطروا أبداً باستخدام الصواريخ}.

{يريدون الجيني هانيفر سليماً؟! وما الذي يرغب أي شخص من هذا المنطاد المتداعي؟!}. تساءل بيني رويال متعجباً في غضب وقد حطم التوتر أعصابه، وما إن شرعت هيستير تفسر له مايمثله هذا المنطاد لهؤلاء الذين يطاردونهم، حتى صرخ الرجل: {أهذا منطاد أنا فانج؟... يا كليو العظيمة!.. يا بوسكيت الجبار... ولكن، إن جماعة العاصفة الخضراء لتعبد أنا فانج عبادة.. لقد قامت حركتهم أساساً من رماد الأسطول الجوي الشمالي، حيث أقسموا على الانتقام لكل من قتلوا على يد عملاء لندن في «بوتامونخ جومبا»... نعم، هكذا اتضحت الأمور، بالطبع هم يرغبون في استعادة منطاد أنا فانج... يا للآلهة الرحيمة!، لماذا لم تخبراني أن ذلك المنطاد مسروق؟.. أريد استعادة مالي فوراً!}.

فما كان من هيستير سوى أن أزاحته جانباً واتجهت نحو خرائط المسارات وأخذت تتفحصها عن كثب، ثم: {توم.. هناك فجوة بين سلسلة البراكين في جبال تانهاسر غرباً، ممر «دراكين». ربما نجد مدينة ما هناك يمكننا اللجوء إليها}.

فانطلق توم بالمنطاد فوق القمم الجليدية، مخاطرٍ بالتحليق بالقرب من أعمدة الدخان الساخن المنبعثة من قلب بركانٍ فتى هناك، إلا أنهم مع الأسف لم يجدوا أية مدن بالمنطقة.

وبعد ساعة أخرى، بينما كانت المناطيد الثلاثة تقترب منهم بثبات، بدأ وابل من الصواريخ ينال عليهم، تومض أضواؤها المبهرة، إذ تمر بجوار المنطاد لتنفجر على مقربة شديدة منه... {يا كويرك!}. صرخ توم.. لكن كويرك

كان إله لندن، ومع ذلك فلم يكلف نفسه عناء إنقاذ مدينته الخاصة، فما الذي قد يجعله يتحرك الآن لإنقاذ مجرد منطاد بأُس ضائع بين الانبعاثات الكبريتية لبراكين تانهاسر؟!

هرع بيني رويال ليختيئ مذعورا أسفل طاولة الخرائط وأخذ يصرخ: {إنهم يطلقون الصواريخ}. فأجابته هيستير وهي تتميز غيظا إزاء فشل تخمينها بأنهم لن يصيبوا الجيني هانيفر بسوء: {آه، أشكرك على المعلومة! لقد كنا نتساءل عن ماهية تلك الأشياء التي ننفجر حولنا!}.

{لكنك قلت إنهم لن يفعلوا ذلك}.

{إنهم يستهدفون المحرك}، قالها توم مرتعباً، {لو نجحوا في إصابة المحرك فنحن هالكون لا محالة}.

{ألا يمكنك فعل شيء؟}. سأله بيني رويال {ألا يمكنك أن تقتاتلهم؟}.

{للأسف نحن لا نملك أية صواريخ}. أجابه توم في أسي؛ فمذ تلك المعركة المروعة التي دارت رحاها فوق لندن، حينما اضطر لإطلاق الصواريخ صوب منطاد «مصعد الطابق الثالث عشر» وشهد طاقه وهم يحترقون بداخله، أقسم توم بأن يصبح منطاد الجيني هانيفر غير مسلح، ومنذ ذلك الحين وموضع الصواريخ فارغ... والآن، هاهو ذا يعض أصابع الندم ويؤنب ذاته على هذا القرار الأحق، فبسببه قد يقع بيني رويال وهيستير في قبضة جماعة العاصفة الخضراء.

انطلق صاروخ آخر لير بجوارهم، حينها أدرك توم أن عليه فعل شيء، أي شيء... فأخذ يتوسل إلى كويرك من جديد، ثم انطلق بالجيني هانيفر بسرعة صوب الأسفل، بين ممرات الجبال عبر ظلال الصخور البازلتية الضخمة، ثم خرج من جديد إلى الضوء.

وعلى الأرض، كانت مطاردة أخرى تجري، حيث كانت بلدة ضئيلة لجامعي الخلفات تتخذ سبيلها فرارا نحو الجنوب عبر شق في الجبال، ومن خلفها مدينة صدئة مكونة من ثلاثة طوابق تسعى في إثرها، وقد فغرت فكها استعداداً للصيد.

ومن الأعلى كان توم يراقب المشهد، وهو يدنو منه بالمنطاد رويداً، ومن حين لآخر كان يلقي نظرة على المناطيد الثلاثة التي تبغي قتلهم. أما بيني رويال فقد أخذ يبكي وينوح وهو يقضم أطافره هلعاً، وطفق يردد أسماء الآلهة ويتوسل لهم: {أه يابوسكيت العظيم، ويا ديل، احفظونا.. أنقذونا}. في حين قامت هيستير بتشغيل المذياع محاولة الاتصال بالمدينة المتحركة السريعة أسفلهم وطلبت التصريح لهم بالهبوط على متنها.

مرت هنيئة، انطلق خلالها صاروخ لينفجر عند جانب الجبل على بُعد ثلاثين ياردة من المنطاد، مبعثراً الدخان والشظايا من حوله؛ ثم جاءهم صوت امرأة عبر المذياع تتحدث بلغة الملاحة الجوية، ولكن بلهجة سلافية واضحة: {هنا ميناء «نوفايا نيزني». تم رفض طلبكم بالهبوط}.

{ماذا؟!}. صرخ بيني رويال في رعب.

أما توم فقد صاح {ولكن هذا ليس...}. إلا أن هيستير قاطعته موجهة حديثها عبر المذياع: {إنها حالة طوارئ، نحن مطاردون}.

{نعلم ذلك}. جاء الصوت عبر المذياع {لكننا لا نريد متاعب على متن مدينتنا. إن «نوفايا نيزني» مدينة مسالمة. رجاء ابقوا بعيداً وإلا اضطررنا لتصويب أسلحتنا ضدكم}.

مر صاروخ آخر لينفجر قبالة مؤخرة المنطاد بالضبط، لدرجة أن الضوضاء المدوية قد غطت على التحذيرات المنبعثة من المذياع للحظات، ثم سرعان

ما عاد صوت المرأة الصارم يردد من جديد: {ابق بعيداً، أيها المنطاد جيني هانيفر، وإلا أطلقنا عليكم النيران}.

هنا طرأت إلى رأس توم فكرة، ولم يكن هناك وقت كاف لشرح لهيستير ما ينتوي فعله، كما أنه كان يعلم أنها ما كانت لتوافقه على فكرته على أية حال، خاصة وأنه قد استمدها من فالانتاين، من إحدى فقرات كتابه: «مغامرات مؤرخ محترف»، وهو واحد من الكتب التي كان توم مغرماً بها أيام كان متدرباً في عصبة المؤرخين، قبل أن يكتشف المعنى الحقيقي للمغامرات بنفسه وبشكل عملي.

لحظة، اندفق الغاز من الفتحات الخلفية في ظهر الجيني هانيفر، واتخذ المنطاد مسار الهبوط إلى حيث المدينة، ثم انطلق إلى الأمام في الاتجاه المعاكس للمدينة المقبلة نحوه، في وضع تصادمي مباشر، ومن المذيع انطلق صوت صراخ مفاجئ، وكذا صرخت هيستير، وبين رويال، في رعب، في حين انطلق توم بإصرار يحلق على ارتفاع منخفض عبر المصانع الصدئة على حافة الطبقة الوسطى للمدينة، ثم انعطف بين اثنين من أعمدة الدعم الضخمة، وسط الظلال الممتدة للطبقة الأعلى.

هنا كف اثنان من مناطيد العاصفة الخضراء بالفعل عن ملاحقة الجيني هانيفر، إلا أن قائد السرب كان أكثر جرأة، حيث انطلق في أعقاب المنطاد إلى حيث قلب المدينة.

كانت تلك هي الزيارة الأولى لتوم لمدينة «نوفايا نيزني»، وقد كانت زيارة عابرة بمعنى الكلمة، وقد بدا للفتى مما استطاع أن يلمحه أن المدينة إنما قد تم تصميمها على نفس النسق الذي كانت عليه مدينته البائسة، لندن، ذات شوارع واسعة تتفرع انطلاقاً من مركز كل طبقة. وعبر أحد تلك

الشوارع، اتخذ الجيني هانيفر مساره محققاً على ارتفاع شديد الانخفاض لا يكاد يتجاوز ارتفاع أعمدة الإنارة بالطبقة، في حين أخذت وجوه السكان المذهولة من هول الصدمة، تتجمع عبر النوافذ والشرفات، تحديقاً في المشهد العجيب الدائر أمامها، وقد فغرت أفواهها من فرط الدهشة؛ أما المشاة فقد فروا مسرعين إلى الأرصفة، مفسحين المجال للهول المحلّق بينهم، باحثين عن ملاذ يحميهم.

وبالقرب من مركز الطبقة، لاح في الأفق عدد من أعمدة الدعم، وكذلك محطة المصعد، فانطلق توم بالمنطاد الصغير صوب المسار المتعرج بين الأعمدة، ونجح بالكاد في الانزلاق عبره، وقد احتك جسم المنطاد وغلافه بالأعمدة احتكاكاً أزال أجزاء من الطلاء من على سطحه. أما منطاد «الثعالب» الذي كان في إثرهم فلم يكن كبير الخط مثل الجيني هانيفر، وقد سمع توم وهيستير صوت التصادم المدوي الذي طغى حتى على صوت محرك منطادهما، ومن منظار الأفق طالعا المنظر الرهيب للحطام المتطايرة وزورق المنطاد الحربي وهو يتدلى مترنحاً من إحدى أعمدة الترام العلوي بالطبقة.

استمر توم في التحليق إلى أن بلغوا الطرف الأقصى من المدينة، وهناك، حيث ضوء الشمس، بدا لهم أنهم قد تمكنوا من الإفلات أخيراً، حتى أن بيني رويال المنكمش ذعراً أسفل طاولة الخرائط قد غمره شعور ببهجة عارمة، فشاركهما السعادة بالنجاة من الخلاص.

إلا أن «العاصفة الخضراء» ما كانت لتستسلم بتلك السهولة... فقد كان المنطادان الباقيان للجماعة لا يزالان يحلقان في الأجواء الصافية حول المدينة، في حين كان الجيني هانيفر يتلمس سبيله عبر الضباب والدخان الكثيف المتصاعد جراء التحطم العنيف. ونجأة، انطلق صاروخ مباشرة صوب محركات الميمنة بالمنطاد، لتنفجر نوافذه وتطيح قوة الانفجار بهيستير إلى

الأرضية، إلا أنها نهضت من فورها لتجد توما مازال متشبثاً بمعدات التحكم، وقد تنأثر غبار الزجاج المتشظي على شعره وثيابه، أما بيني رويال فقد هوت فوق رأسه إحدى طفايات الحريق النحاسية الثقيلة أثناء الانفجار، ليسقط بدوره على طاولة الخرائط، وقد تدفقت من جرح في رأسه الأضلع؛ فهرعت هيسستير صوبه وجرت به إلى حيث مقعد بجانب إحدى النوافذ، وكان لا يزال يتنفس، إلا أن مقلته كانتا قد انقلبتا ارتداداً إلى الأعلى، ولم يعد يتبدى من بين جفنيه شبه المتراخين سوى بياض مطلق كهلالين صغيرين.

مزيد من الصواريخ أخذت تنال عليهم، في حين كان توم لا يزال يجاهد من أجل إعادة تشغيل المحركات، وأنامله تجريان في حركة متلهفة فوق أدوات التحكم، إلا أن المنطاد أبى أن يطاوعه. ثم هبت عاصفة من الرياح عبر فجوة بين جبلين لتطيح بالمنطاد البأس باتجاه منطادي «الثعالب»، فما كان من المنطاد الأقرب إلا أن انعطف على نحو مباغت ليتفادى الاصطدام المروع، فما كان منه إلا أن اصطدم بعنف بالمنطاد الآخر، ودوى الانفجار المروع على بعد عشرين ياردة فقط من الجيني هانيفر، مخلفاً وهجاً ساطعاً أعمى الأبصار...

وحينما استطاع توم وهيسستير الرؤية من جديد، كانت السماء مفعمة بالشظايا والغبار الناتج عن الانفجار، وتناهى إلى مسامعهما قعقة اصطدام الأجزاء الأكبر المتطيرة من المنطادين المتحطمين؛ إذ تحملها الرياح لتطيح بها بعنفوان على جوانب الجبال في الأسفل؛ فيما كانت أصوات محركات المدينة لا تزال تعلن عن نفسها، إذ تتحرك جنوباً.

ومن داخل صدرها، كان النبض المتسارع يدوي صوته بعنف في أذني هيسستير، مع خفقات قلبها المتلاحقة، إذ جلست وهي بالكاد تلتقط أنفاسها،

وقد أدركت، من اضطراب توم وحركة يده المحمومة فوق الروافع وأذرع التحكم، أن الجيني هانيفر قد نحمد تماماً وبات الأمل في أن يعود للحياة واهياً.

ومن النوافذ المحطمة، هبت ريح شديدة من جديد حاملة معها ذرات الثلج ورائحة الجليد النقية، فأخذت هيستير نتلو صلوات سريعة على أرواح ملاحي مناطيد «العاصفة الخضراء»، آملة أن تنتقل أرواحهم سريعاً إلى الأرض التي لا تشرق عليها الشمس، وألا تمكث هاهنا كثيراً وتثير مزيداً من المتاعب. وبعد هنية، قامت هيستير مترنحة وتحركت بصعوبة إلى أن وقفت إلى جانب توم الذي كان لا يزال في مكانه فوق مقعد القيادة، وقد استسلم تماماً وكف عن المحاولات غير المجدية لإحياء المنطاد من جديد؛ ثم إنه نهض من مجلسه ليحوطها بذراعيه، ووقفاً متعانقين، يرنوان بناظرهما نحو الأفق البعيد... وعلى جانب بركان كبير، كان الجيني هانيفر يقف عالقاً، ومن خلفه لم تكن ثمة جبال، بل مساحات شاسعة من اللون الأبيض المائل للزرقة، تمتد عبر الأفق، وقد أمسى المنطاد وركابه تحت رحمة الرياح لتحملهم إلى حيث الصحراء الجليدية المقفرة.

(٦)

فوق الجليد

{الوضع سيء}. قال توم {لا يمكنني إصلاح ذلك الدمار الذي أصاب المحركات دون أن نهبط إلى الأرض، وإذا هبطنا هنا فسوف...}، ولم يكن في حاجة لقول المزيد..

لقد مرت ثلاثة أيام الآن منذ وقوع الكارثة في ممر «دراكين»، وفي الأسفل كان المنظر مخيفاً، كقرص قمر متجمد من الجليد المحطم. وعلى امتداد البصر، لم يكن ثمة أي مؤشر على وجود حياة، لبلدات... لا مدن... لا قبائل مرتحلة... لا شيء، فقط اللون الأبيض ولا شيء غيره. حتى استغاثات الجيني هانيفر عبر المذياع لم تلقَ مجيباً.

وبالرغم من أن الوقت كان لا يزال مبكراً، في تلك الساعة من العصر، إلا أن الشمس كانت قد شارفت على المغيب، وقد بدا قرصها الأحمر شاحباً باهتاً لا يبعث أية حرارة.

لَفَت هِيسْتِير ذراعِها حول توم، وقد شعرت به يرتجف داخل معطفه السميك. لقد كان البرد قارسا لدرجة مروعة، وكأنه كائن حي يتخلل مسامك ليخترق جسدك، ويَزحف عبر اللحم والعظام باحثاً عن الجذوة الدافئة في قلبك ليخمدَها إنحاداً. وقد شعرت هِيسْتِير وكأن ذلك الكائن المخيف قد نُجِح فعلاً في اختراقها، وهاهو ذا قد بلغ منها العظام، بل وكأنه قد وصل إلى الجرح الغائر الذي خلفه سيف فالانتاين في جمجمتها.

ومع ذلك، فقد كانت أفضل حالاً من توم المسكين الذي كان قد قضى الساعة الماضية بأكملها خارج المنطاد في العراء يحاول إصلاح محركات الميمنة التي تلفت تماماً، دون جدوى.

قامت هِيسْتِير وجذبت توم من يده إلى حيث الفراش في المقصورة الخلفية ليستلقي قليلاً، ووضعت فوقه الأغشية والمعاطف، ثم استلقت بدورها إلى جانبه، محتضنة إياه لتمنحه بعضاً من دفئها القليل.

{ كيف حال بروفيسور بيني رويال؟ } سألتها توم، فهمهمت قليلاً لكنها لم تحر جواباً، فقد كان من الصعب تحديد وضعه بالضبط، فهو لم يستعد وعيه إلى الآن، وقد بدأت تشك في أنه قد يستعيده من جديد. وكان في تلك الأثناء راقداً في فراش كانت قد أعدته له في مطبخ المنطاد، حيث قامت بتغطيته جيداً بعدد من الأغشية... { كلما ظننت أنه قد رحل عن عالمنا وأن الوقت قد حان لإلقاء جثمانه من المنطاد، أجده وقد صدرت عنه حركة أو همهمة تنبئني بأنه لا زال على قيد الحياة } . هكذا أبلغته هِيسْتِير...

وبعد حين غلبها النعاس، نعاس سلس ولذيذ بعد كل ذلك التوتر. وفي أحلامها، كان ضوء غريب يملأ القمرة، ضوء متوهج، يرفرف ويتماوج، تماماً كالأضواء التي انبعثت من الميدوسا في تلك الليلة يوم دمّرت لندن؛ تلك الليلة التي ما إن لاحت ذكراها من جديد في مخيلة هِيسْتِير حتى وجدت

نفسها، وهي بعد نائمة، تقترب أكثر فأكثر من توم حتى عانقته، ثم تعانقت شفتاهما... وحينما فتحت عينيها، كانت أضواء أحلامها لا تزال ساطعة تترقق انعكاساتها في القمرة على وجه توم الوسيم!...

{أورورا بوراليس}. هكذا همس في هدوء.

فاستفاقت هيسدير على حين غرة، وسألته في تعجب: {من؟ أين؟!}.

{الأضواء الشمالية}. أجابها مفسراً وهو يضحك ويشير عبر النافذة نحو الخارج، فظرت إلى حيث أشار لتبتدى لها من بعيد، في حلقة الليل، تلك الأضواء المتماوجة الخافتة، تراقص هناك، فوق الثلوج، تبدل ألوانها وتغير، لتصبح خضراء تارة، ثم حمراء، وبعد حين تستحيل ذهبية براققة، ثم تتمازج تلك الألوان جميعاً في آن معاً، تشع حيناً بضوء ساطع قوي، وتخفت أحياناً حتى تكاد تلتشى.

{لطالما تمنيت أن أشاهدها}. قال توم {منذ أن قرأت عنها في ذلك الكتاب لـ«شانج ماي»: فصل مع بدو الثلوج. والآن، ها أنا ذا أراها بأمر عيني، وكأنها قد خلقت من أجلنا نحن، نحن فقط، لنطالعها}.

{تهانينا إذن}. قالتها هيسدير وهي تدفن رأسها في عنقه كي لا ترى تلك الأضواء؛ إنها جميلة، وهي لا تنكر ذلك، لكنه جمال غير بشري، وقد لاح في خيالها أن تلك الأضواء قد تصبح قريباً بمثابة مشاعل جنازتها، ولم تستطع أن تنفض عن رأسها تلك الصورة الرهيبة، خاصة في ظل وضعهم الحالي وبقائهم عالقين في ذلك المكان الموحش، حيث ستراكم أكوام الثلوج قريباً جداً فوق الجيني هانيفر، وقريباً سيجد توم وهيسدير نفسيهما وقد صارا مدفونين تحت الجليد، بين الصقيع والظلام، ولن يبق لهما من سبيل سوى الدخول في نوم عميق لا استفاقة منه أبداً.

ومع ذلك، لم تكن هيستير تشعر بالخوف من الموت القادم، فما أجمل أن تموت بين ذراعي توم وفي أحضانه... وكما هو معروف للجميع، إن المحبين إذ يموتان معاً فإنهما يرتحلان معاً إلى حيث الأرض التي لا تشرق عليها الشمس ليصبحا حينها أثيرين محبين إلى آلهة الموت.

إلا أن المشكلة الوحيدة التي تواجهها هيستير الآن هي أنها ترغب في التبول، وكلما حاولت تجاهل ذلك وإجبار نفسها على الانتظار في سكون إلى أن تمسها يد إلهة الظلام، كلما ازدادت حاجتها لدخول الحمام وتزايد الضغط على مثانتها؛ هي لا تريد أن تموت بعيدة عن توم، لكنها كذلك لا تريد أن تتبول في سروالها!، لن يكون أمراً رومانسياً على الإطلاق أن تذهب إلى العالم الآخر بسر اويل مبللة.

وفي النهاية لم تجد هيستير أمامها من مفر، فقامت من رقبتها تحت الأغشية، وهي ترغي وتزبد، واتجهت من فورها، عبر رقائق الثلوج المتراكمة على أرضية المنطاد، إلى حيث يقع المرحاض، الذي بات خطأماً الآن بفعل أحد الصواريخ التي انهالت عليهم، ولكن كانت هناك فتحة في الأرضية في موضعه، فلم تجد لها من سبيل سوى أن تقضي حاجتها سريعاً في تلك الفتحة، وهي ترتعش من الصقيع.

وبعد أن انتهت، أرادت هيستير أن تعود سريعاً إلى توم - وهو ما ستتمنى لاحقاً لو أنها كانت قد فعلته - ولكن شيئاً ما قد دفعها دفعاً للاتجاه إلى حيث سطح المنطاد...

وهناك، كانت أضواء المنطاد الباهتة تنعكس على طبقات الجليد، جثت هيستير أمام المحراب الصغير الذي يؤم تماثيل آلهة السماء وإله الملاحين. وكان أغلب الملاحين معتادين على تزيين محراب سفنهم بصور أسلافهم،

ولما لم يكن كل من هيستير وتوم يملكان أية صور لآبائهما، فقد قاما بوضع صورة لآنا فانج، كانا قد عثرا عليها بالمنطاد. أخذت هيستير نثلو بعض الصلوات على روح آنا، متضرعة أن تلقاها وتوم عندما يرحلان إلى الأرض التي لا تشرق عليها الشمس، وأن تصبح رفيقة لهما.

ثم إنها فرغت من صلواتها ونهضت وقد همت أن تعود إلى توم، حين حانت منها التفاتة عبر الجليد المتراخي أمامها، لتشهد ذلك التجمع من الأضواء. في البدء ظنته مجرد انعكاس لتلك الأضواء السماوية التي كان توم سعيداً بمشاهدتها، لكنها لاحظت أن تلك الأضواء مختلفة، إنها عبارة عن نقاط ثابتة وليست ألوان متماوجة ومتغيرة كلك التي كان يتحدث عنها.

دنت هيستير قليلاً لتلقي نظرة أكثر قرباً عبر النافذة المحطمة، وقد جعل الهواء البارد عينيها تدمعان، لكنها مع ذلك تمكنت من رصد المعالم الخارجية لتلك الكتلة المظلمة التي تحيط بنقاط الضوء، وكذلك الضباب، أو الدخان، المتصاعد منها... لقد كانت تنظر مباشرة إلى مدينة جليدية، على بعد عشرة أميال، تسير مع اتجاه الريح نحو الشمال.

مُتجاهلة ذلك الشعور الغريب وغير المريح بالإحباط، توجهت هيستير من فورها إلى حيث يرقد توم، الذي كان قد استغرق في النوم، فأخذت تربت على وجهه لتوقظه، إلى أن فتح عينيه:

{ماذا هناك؟}

{يبدو أن الآلهة قد قررت إنقاذنا}...

و حين بلغا سطح المنطاد، كانت المدينة قد صارت أقرب إلى منطادهم؛ كانت مدينة صغيرة تتكون من طابقين، وتزحف عبر الجليد على زلاجات معدنية واسعة. التقط توم المنظار وطفق ينظر عبره إليها، حيث رأى فكها

المقوسين يجرفان الثلج من أمامها... إنها مدينة أنيقة كذلك، ذات منازل بيضاء عالية فوق طبقتها العليا، وبعض القصور كذلك في الخلف، ومع ذلك، فقد كان يخيم عليها أيضا ما يبدو وكأنه أجواء قائمة حزينة، كما كان هناك الكثير من الصدا والعديد من التوافد المظلمة.

{لا أفهم لماذا لا نتمكن من التقاط موجتهم الإذاعية!}. هتفت هيستير في تعجب وهي تحرك أزرار المذياع عليها تلتقط الموجة لترسل لهم رسالة استغاثة... {ربما لا يملكون موجة إرسال}. قال توم.

ظلت هيستير تحاول من جديد، لكن دون جدوى، لقد كانت المدينة تسير في صمت مطبق نحو الشمال. ولكن، ما إن حولت هيستير المذياع إلى الموجة المفتوحة، حتى جاءها صوت مدير الميناء يحدثها باللغة الأنجليكانية.

وبعد نصف ساعة، حضر ابن أخي مدير الميناء على متن قاطرة سحب جليدية تدعى «جراكولوس»، وقام بربط الجيني هانيفر إليها وسحبها.

وفي غضون وقت قليل، كان توم وهيستير يجلسان في أكثر الموانئ عزلة، بالقرب من واجهة الطبقة العليا بالمدينة، بينما كان مدير الميناء وزوجته، وهما شخصان ودودان يرتديان معاطف وقلنسوات من الفراء، يشرفان على نقل الجيني هانيفر إلى ورشة الإصلاح والصيانة، كما قاما بنقل بيني رويال إلى منزلهما خلف مكتب الميناء.

وهناك، في المطبخ الدافئ، كانت القهوة ولحم الخنزير والفطائر الساخنة تنتظر الضيفين؛ وما إن دخل توم وهيستير حتى أخذ مضيفاهما يتبسمان لهما في مودة، ويرحبان بهما بحرارة: {أهلا بكما.. أهلا أهلا... مرحباً بكما في «أنكوراج»}. {

(٧)

مدينة الأشباح

كان أحد أيام الأربعاء، حيث اعتادت فريا أن يأخذها سائقها إلى معبد آلهة الثلوج كي تقدم صلواتها وتضرعاتها إليهم طالبةً النصيح والإرشاد. كان المعبد يبعد بحوالي عشرين ياردات عن قصرها، وهي مسافة قصيرة لا تحتاج لاستدعاء سائقها واستخدام المركبة الملكية للوصول إلى المعبد، إلا أنها كانت تفعل ذلك على أية حال، فكما هو معلوم، لا يجدر بـ«المارجرافين» أن تذهب إلى أي مكان سيراً على الأقدام.

وفي ضوء الشموع الخافت داخل المعبد الثلجي، وقفت فريا، ثم جثت على ركبتيها، وأخذت تتطلع إلى التمثالين الثلجيين المحبين اللذين يمثلان الإله والإلهة، ثم شرعت بتبتهل إليهما كي يرشداها لما ينبغي عليها فعله، أو على الأقل أن يرسلأ إليها بإشارة تخبرها أن مافعلته كان هو الصواب. ولكن، ما من إجابة هذه المرة أيضاً... ما من إشارة ضوئية إعجازية... مامن أصوات تهمس في عقلها... مامن رموز أو أشكال معينة تتخذها الثلوج المتراكمة على

الأرض كي تبعث إليها برسالة أو حتى بتلميح.....لم يكن ثمة شئ سوى
ذبذبات المحركات الهادئة لمدينتها، تهز الألواح الأرضية تحت ركبتيها.

كذلك لم تكن فريا بقادرة على استجماع شتات عقلها، وظلت توافه
الأشياء تجر انتباهها، أشياء مثل قطع الحلي والزينة التي قد اختفت من
قصرها!، فقد جعلها ذلك الأمر غاضبة... وخائفة في نفس الوقت، فاختفاء
تلك القطع من جناحها الخاص إنما يعني أن هناك شخصا ما بإمكانه الدخول
إلى غرفها ومخدعها بسهولة واقتناص أشياءها الخاصة... فأخذت تسأل آلهة
الثلوج عن كون ذلك اللص، ولكن كالعادة لم تلاق أي إجابات.

في النهاية، قامت بتلاوة بعض الصلوات لوالديها، وقد أخذت تتساءل
في قراراتها عما قد يكون عليه وضعهما الآن، هناك، في الأرض التي لا تشرق
عليها الشمس. منذ وفاتهما، بدأت فريا تدرك أنها لم تكن تعرفهما قط!،
ليس كما يعرف باقي الناس آبائهم؛ فلطالما كانت فريا في رعاية المربيات
والوصيفات، ولم تكن تلتقى أبويها سوى على مائدة العشاء، وفي المناسبات
الرسمية فقط. كما لم تكن تنادي أي منهما سوى بلقب «سمو إشرقتك»
و«سيدي». أما أكثر لحظات حياتها قرباً وحميمية منهما فقد كانت في
أمسيات بعينها من موسم الصيف، حينما خرجوا في رحلة خلوية خاصة
معاً على متن الزورق الملكي الثلجي، حيث لم يكن في تلك الرحلة سوى فريا
وأبويها وسبعين من الخدم وأفراد الحاشية فقط.

ثم حل الوباء، لُتمنع الابنة من رؤية والديها تماماً، إلى أن توفيا، فقام
الخدم بوضع جثمانيهما في الزورق الملكي ثم أضرموا النيران به ودفعوه لبحر
بعيدا عبر الثلوج... يومها وقفت فريا تطالع سحب الدخان المتصاعد، وقد
شعرت وكأنهما لم يوجد قط...

خارج المبد كان السائق ينتظر فريا، وقد أخذ يتحرك جيئة وذهابا، ويرسم بطرف حذائه أشكالا على الثلوج.
{خذنا إلى المنزل يا سميو}. قالتها فريا امرأة.

وبينما كان السائق يهم بفتح باب المركبة لها، كانت هي تتطلع نحو منازل مدينتها وقد اعترت قلبها مشاعر الشفقة وهي ترنو نحو الأضواء القليلة المنبعثة من بضعة من المنازل، وتذكرت ذلك الإعلان الذي تم نشره عن السماح لعمال قسم المحركات بالانتقال من مساكنهم الضيقة في الأسفل، ليقتنوا تلك الفيلات والمنازل الرحبة الأنيقة، والتي باتت خاوية على عروشها، في أعلى المدينة. ومع ذلك، فلم يستجب لذلك العرض السخي سوى قلة قليلة من العمال... لهذا الحد يحبون مساكنهم الضيقة الخائقة؟! أم تراهم يفضلون البقاء وسط أجوائهم المألوفة التي اعتادوا عليها؟ تلك الأجواء الدافئة التي تثوق هي إليها.

وفي الأسفل، حيث الميناء الجوي، لاح لها خيال أحمر اللون، يتبدى وسط الأجواء البيضاء والرمادية الممتدة في كل مكان... {سميو، ما هذا؟ لا تقل لي أن هناك سفينة جوية قد حطت لدينا أخيراً!}.

{نعم، ياسمو! شراقتك، لقد هبطت ليلة أمس. منطاد تجاري هو، يدعى «جيني هانيفر»، وقد تعرض لإطلاق نار من جانب بعض القراصنة أو ماشابه، وقد جاء إلى هنا لإجراء الإصلاحات اللازمة جراء الأضرار التي تعرض لها. هذا ما قاله مدير الميناء السيد «أكويك»}.

فأخذت فريا تتطلع نحو المنطاد، على أمل أن تستكشف مزيدا من التفاصيل عنه، إلا أنه قد تعسر عليها رؤية أي شئ عبر دوامات الثلوج

المنتشرة حوله... ياللعجب!، بعد كل تلك الفترة، يأتي غرباء إلى أنكوراج من جديد؟!

{ولماذا لم تخبرني من قبل؟}.

{لأن العاهلات لا يتم عادة إزعاجهن بأخبار وصول التجار إلى المدينة باسمو إشراقتك}.

{ومن هم أصحاب ذلك المنطاد؟ هل هناك أي شئ غير اعتيادي بصددهم؟}.

{ملاحان شابان هما، باسمو إشراقتك، ومعهم مسافر أكبر سنًا}.

{أها}. قالتها فريا وقد بدا لها الأمر غير مثير للاهتمام.. لقد شعرت بحماسة كبيرة بمجرد أن رأت المنطاد، وأخذت تتخيل نفسها إذ تدعو الوافدين الجدد على متنه إلى قصرها، أما الآن فقد بدا لها ذلك غير ممكن وغير جائز، فلا يجدر بحاكمة أنكوراج، تحت أي ظرف، أن تنبسط هكذا مع بضعة ملاحين ورجل لا يملك حتى سفينته الجوية الخاصة.

{ناتسوورثي وشاو... هي أسماء هذين الملاحين التي أخبرني بها السيد أكيوك باسمو إشراقتك}. استرسل سميو وهو يعينها على دخول المركبة، {ناتسوورثي و شاو وبينني رويال}.

وهنا، بدأ أمر الوافدين الجدد يسترعي انتباهها من جديد، بدرجة أكبر هذه المرة، {بينني رويال؟ أهو البروفيسور نيرود بينني رويال؟}.

{أعتقد ذلك يا سمو إشراقتك. نعم}.

{إذن فأنا.. أنا..}. كانت فريا مرتبكة تماماً، وقد أخذت ثلثت وتتلبل ذات اليمين وذات اليسار، وهي تهز رأسها، ثم إنها أخذت تصلح من وضع قلنسوتها، وهي تفكر فيما يتعين عليها فعله. إن التقاليد التي ظلت بمثابة نبراس وقائد لها في تحركاتها مذ أن لقي الجميع حتفهم، ليس فيها ما يمكن أن يدها على كيفية التصرف الحكيم في حالة وقوع معجزة كهذه..

{سميو.. عليّ أن أرحب به. اذهب إلى الميناء الجوي وأحضره إلى قاعة الحكم في القصر... لا، اتّني به إلى القاعة الكبرى. افعل ذلك بمجرد أن تقلّني إلى المنزل... لا، لا.. اذهب الآن، فوراً، سوف أعود أنا إلى القصر سيراً على الأقدام}.!

ثم إنها خفت مسرعة، عائدة إلى داخل المعبد من جديد لتقدم صلوات الشكر لآلهة الثلوج لإرسالهم أخيراً الإشارة التي كانت تنتظرها.

حتى هيستير كانت قد سمعت بأنكوراج؛ فعلى الرغم من صغر حجمها، إلا أنها كانت واحدة من أشهر مدن الجليد، وهي تعود مباشرة إلى أمريكا القديمة، حيث كانت مجموعة من سكان أنكوراج الأصلية قد تمكنوا من الفرار منها قبيل اندلاع حرب الستين دقيقة، والتي أودت بوطنهم تماماً، وارتحلوا شمالاً، إلى أن استوطنوا إحدى الجزر هناك وقاموا ببناء وطنهم الجديد بها. وعلى مر الزمن، تمكن سكان أنكوراج الجديدة من النجاة من الأوبئة والزلازل، وحافظوا على بقائهم عبر العصور، إلى أن جاءت حقبة المدن المتحركة وزحفت ثقافة التحرك نحو الشمال، حتى بات لزاماً على كل مدينة وبلدة أن تبدأ في التحرك وإلا راحت فريسة للمدن الأخرى المتحركة.

فقام سكان أنكوراج بإعادة بناء مدينتهم لتتحول هي الأخرى إلى مدينة متحركة، ثم اتخذوا سبيلهم بها في رحلات لا تنتهي عبر الجليد.

ومع ذلك، لم تكن أنكوراج يوماً مدينة مفترسة، وما كانت تستخدم فكها الصغيرين إلا في التنقيب وسط الجليد، أو في الحصول على المياه العذبة من الثلوج من أجل مراجل المحركات. وقد عاش أهل أنكوراج على التجارة على طول ساحل الأراضي الجليدية القاحلة، حيث كانوا يقيمون علاقات تحالف تجاري مع البلدات والمدن الأخرى المسالمة، ويمدون جسورهم الصغيرة الأنيقة نحوهم، حيث يمكن للجامعي المخلفات وعلماء الآثار التجمع وبيع المقتنيات التي استخرجوها من بين الجليد.... فما الذي تفعله مدينة كهذه هنا إذن؟ بعيداً عن المسارات التجارية، متوجهة نحو أقصى الشمال؟.. ظل السؤال يتردد في رأس هيستير منذ أن وصلوا بالجيني هانيفر إلى ميناء المدينة، وحتى صحت، بعد نوم طويل، في منزل مدير الميناء.

وفي ضوء النهار الوليد، استطاعت هيستير أن ترى قباب المنازل المطلة على الميناء، وقد تسلل إليها الصدا، وتحطمت العديد من نوافذها تماماً، في حين انفتح بعضها الآخر على مصراعيه ليطل الفراغ المظلم المهيب من داخلها كمحاجر الجماجم البالية.

أما الميناء ذاته، فقد بدا وكأنه على وشك الانحراب التام، حيث الريح تدور بين ورشه وعنابرهِ الفارغة، تنثر الثلوج والنفايات في كل مكان، وقد لاحت عوامل التفسخ والتلف بين جنباته.

{واحسرتاه، واحسرتاه!}. قالتها زوجة مدير الميناء، بينما كانت تقوم بإعداد وجبة إفطار هي الثانية لتوم وهيستير في منزلها، {لو أنكم رأيتم ذلك

المكان الحبيب في الأيام الخوالي.. لقد كان ثرياً عامراً بالبشر والمسافرين...
عندما كنت صغيرة، كانت لدينا العديد من المناطيد، تصطف في انتظار
إيجاد مكان لها لترسو، كما كنا نملك أعداداً من اليخوت الجوية وقوارب
السباق والمراكب الشراعية التي كانت تأتي بين الحين والآخر لتجرب حظها
في «بوريال ريجاتا»، والبواخر الفاخرة التي كان يتم إطلاق أسماء بطلات
أفلام الزمن القديم عليها.. «أودري هيبورن»... «جوني لي»...»{.

{وما الذي حدث إذن؟}. تساءل توم.

{آه. تغيرت الأحوال وانقلب كل شيء ضدنا.... فقد صارت الفرائس
شحيحة، وباتت المدن المفترسة الكبرى مثل أركانجيل، والتي ما كانت لتكلف
نفسها عناء النظر نحونا في سابق الأيام - تسعى لمطاردتنا إذا ما استطاعت
إلينا سبيلًا}.

فهز زوجها رأسه مؤيداً في أسى، وهو يصب القهوة الساخنة لضيوفه،
وقال مستكماً حديث زوجته: {ثم جاء الوباء لتكتمل فصول المأساة. فقد
حدث أن استقبلنا على متن مدينتنا عدداً من جامعي المخلفات من الثلوج،
الذين كانوا قد عثروا لتوهم على إحدى منصات إطلاق الأسلحة والتي
كانت محطمة تماماً في الثلوج بالقرب من القطب الشمالي. ثم اتضح لاحقاً
أنها كانت ملوثة بنوع رهيب من الفيروسات المصنعة معملياً من أيام حرب
الستين دقيقة... أوه!، رجاء لا نتوتراً أو نخشياً شيئاً، فتلك الأوبئة القديمة
عادة ما تأخذ دورتها في أداء عملها المهلك، ثم تنتهي لتصير بلا ضرر. وهو
ما حدث بالفعل.. فقد اجتاح الوباء البلدة وسرى فيها كالنار في الهشيم،
مسبباً الهلاك للمئات من سكان المدينة، حتى الحاكمة السابقة وشريك
حياتها قد هلكا جراءه. وحينما انتهى كل شيء، وتم رفع العزل الصحي

عن المدينة، ارتأى عدد كبير من أهل انكوراج أنه ما من مستقبل مأمول لها، لذا فقد استقلوا مناطيدهم وسفنهم الجوية وانطلقوا يبحثون لأنفسهم عن حياة جديدة في مدن أخرى.. أحسب أن من تبقوا في المدينة حالياً لا يتجاوز عددهم بأي حال من الأحوال الخمسين شخصاً}.

{فقط؟!}. تساءل توم متعجباً {ولكن، كيف لمثل هذا العدد الضئيل من السكان أن يتمكنوا من تشغيل مدينة بحجم مدينتكم؟!}.

{بالطبع لا يمكنهم}. أجابه أكويك {لن يتمكنوا من الإبقاء عليها إلى الأبد، إلا أن السيد سكايبوس رئيس طائفة المهندسين قد تمكن من صنع العجائب بحق!، فقد استطاع تصنيع بعض الأدوات والآلات المميكنة التي تعمل تلقائياً دون تدخل بشري، إضافة إلى استخدامه لبعض التقنيات القديمة الجيدة، بحيث يمكن للمدينة أن تتحرك بنا لمسافة كافية}.

{مسافة كافية؟ لأي غرض؟}. تساءلت هيسستير متشككة {إلى أين تنتوون الذهاب؟}.

هنا اختفت ابتسامة السيد أكويك وصمت هنية، ثم قال: {لا يمكنني إخباركما يا آنسة هيسستير، فإذا يضمن لي أنكما، بمجرد رحيلكما من هنا، لن توجها رأساً إلى أركانجيل أو إحدى المدن المفترسة الأخرى لتبيعا لها تلك المعلومات عن مسارنا؟ لا، لا نريد أن تتفاجأ بهم ينتظروننا على الطريق... فلتتناولا طعامكما الآن ريثما أذهب لمتابعة أعمال إصلاح منطادكما وتحديد ما إذا كان سيحتاج إلى قطع للغيار أم لا}.

شرع توم وهيسستير في تناول إفطارهما، وبعد أن فرغا منه، توجها رأساً عبر الميناء إلى حيث عنابر الإصلاح الضخمة؛ وفي الداخل كانت العنابر

تعجب بألواح الزوارق ومداخن المحركات القديمة، وقطع الغيار المبعثرة هنا وهناك، المأخوذة من المناطق المفككة، وقوائم الألومنيوم التي بدت وكأنها أضلع منتزعة من صدور كائنات عملاقة.

ومن السقف كانت تتدلى مراوح ورفاصات من مختلف الأحجام، تتأرجح مع حركة المدينة واهتزازاتها.

{فيما مضى كان هذا المكان ملك لابن عمي}. قال مدير الميناء وهو يسير وبجانبه توم وهيستير داخل العنابر حاملاً مصباحاً كهربائياً، {لكنه قد راح ضمن ضحايا الوباء، ولهذا فقد اعتبرت أن المكان قد آل إليّ}.

وفيما هما يتبعان الرجل عبر العنبر المظلم، صدر صوت قعقعة من مكان ما هناك بين الأرفف المعدنية، فالتفتت هيستير، الحذرة دوماً، بسرعة نحو مصدر الصوت وطفقت تمسح المكان بعينها الوحيدة باحثة بين الظلال عن أي شيء يتحرك هناك، ولكن لا شيء، فقالت لنفسها إنه لا بد وأن قطعة أو أداة ما قد سقطت محدثة ذلك الدوي، خاصة مع الحركة المستمرة للمدينة عبر الجليد... ومع ذلك، لم تستطع هيستير أن تتخلص من إحساس أن ثمة شخصاً ما يراقبها!.

{أظن أن محرك منطادكما من طراز «جانيت كاروت» أليس كذلك؟}. أردف السيد أكيوك موجهها سؤاله إلى توم وقد بدا أنه قد أحبه - وعادة ما يحب الناس توم - وقد أخذ الرجل يبذل كل جهد ممكن من أجل المساعدة، حيث ظل يتحرك جيئة وذهاباً بين قطع الغيار والمعدات، ويتفحص سجلات الورش... {أعتقد أن لدي شيئاً ما هاهنا يناسب منطادكما. إن خلايا الغاز لديكم هي من الطراز القديم وليس لها قطع غيار

لدينا، ولكن يمكنني استبدالها لكما بخلايا من طراز RJ٥٠٥ الأحدث، من صنع «شانج شين هو كوث». حسناً، أظن أن الجيني هانيفر خاصتكم سوف يعاود التحليق في السموات في غضون ثلاثة أسابيع من الآن.}

وهناك، في الأسفل، في الظلام المائل للزرقة، كانت ثلاثة أزواج من العيون تحديق عن كذب في الصورة الماثلة أمامهم على شاشة صغيرة لتوم وهيستير ومدير الميناء؛ وقد أخذت ثلاثة أزواج من الأذان ترهف السمع لالتقاط كل حرف يهمس به في الأعلى..

وبعد فترة من الوقت قضوها في ورش الصيانة، عاد توم وهيستير إلى منزل مدير الميناء، حيث أمدتهما امرأته بزوجين من الأحذية العالية المبطنة بالفراء، والملابس التحتية المقاومة للبرودة، وسترات سمكة من الصوف الزيتي، وكذلك قلنسوات ثقيلة وقفازات. كما منحتهما أيضاً مزيداً من السترات والأقنعة الواقية من البرد. ولم تخبرهما السيدة أكيوك من أين أتت بكل تلك الثياب، إلا أن هيستير كانت قد لاحظت تلك الصور الفوتوغرافية الموضوعة في صومعة تماثيل الآلهة بالمنزل والتي تكللها شرائط الحداد، ونحنت أنها وتوم إنما يرتديان ملابس أبناء السيد والسيدة أكيوك الراحلين، وتمنت في داخلها أن يصدق كلام السيد أكيوك بشأن تلك الأوبئة القديمة وأن يكون مفعولها المهلك قد انتهى حقاً!؛ وبطبيعة الحال كان أكثر ما لقي استحسان هيستير من بين كل تلك الثياب الثقيلة هو قناع الوجه.

وما إن دخل توم وهيستير إلى مطبخ مضيفيهما حتى وجدا بيني رويال وقد أفاق أخيراً من غيبوبته، حيث كان يجلس بجوار الموقد وقد وضع قدميه في وعاء من الماء الساخن، في حين تم تضميد الجرح في رأسه

بضمادة نظيفة. كان يبدو شاحباً، ولكن فيما عدا ذلك كان كما عهداه منذ أن قابلاه، وفي يده استقر كوب من شاي الطحالب أعدته له السيدة أكيوك. وقد هش البروفيسور لرؤية توم وهيستير من جديد، وأخذ يردد في ابتهاج: {كم أنا سعيد لرؤيتكما من جديد وبخير. يالها من مغامرة تلك التي خضناها معاً... يخيل إلي أنها سوف تكون مادة خصبة لكّابيّ الجديد...}.

هنا دق جرس الهاتف النحاسي المعلق إلى الحائط بالقرب من الموقد، فهرعت السيدة أكيوك لالتقاط السماعة، وأخذت تنصت باهتمام بالغ لما تقوله لها صديقتها السيدة «أوميك»، وقد أشرق وجهها واقترب ثغرها عن ابتسامة عريضة، وما إن أنهت المكالمة وأعادت سماعة الهاتف إلى موضعها حتى التفتت إلى ضيوفها، وهي بالكاد تلتقط أنفاسها من الحماسة: {لدي أخبار عظيمة يا أعزائي، المارجرافين ترغب في استقبالكم لديها.. المارجرافين بذاتها، إنها بصدد إرسال سائقها الخاص ليقلكم إلى القصر الشتوي... ياله من شرف عظيم. إنكم الآن بصدد الانتقال من مطبخي المتواضع رأساً إلى قاعة الاستقبال الملكية!}.

(٨)

القصر الشتوي

{ ما هو المارجرافين هذا؟! } . همست هيسدير متسائلة، فيما كانوا يتخذون طريقهم خارج المنزل، وسط البرد القارس، { أهو نوع من الطعام؟ ذلك الذي يوضع فوق الخبز المحمص؟ } .

{ أظن أنه لقب من ألقاب الطبقة الحاكمة } . أجابها توم، في حين قال بيني رويال: { المارجرافين هو اللقب المؤنث لمارجريف، وهو لقب من ضمن سلسلة ألقاب ملكية متعارف عليها هاهنا في مدن الشمال، حيث تحكم عائلات بعينها وتتوارث الحكم فيما بين أبنائها من جيل إلى جيل.... ههنا تجد ألقاباً مثل: مارجريف، بورتريف، جراف... وهكذا، يوجد الـ«إليكتور أوربانوس» حاكم «إيزنستات»، والـ«ديريكتور» حاكم أركينجال... إنهم متمسكون بألقابهم، حريصون جداً على تقاليدهم هاهنا } .

{ حسناً، لكنني لا أرى مانعا من أن يطلقوا عليها الحاكمة وكفى! } . قالتها هيسدير في ضيق.

وعند بوابة الميناء كانت مركبة أنيقة تنتظرهم، مركبة كهربائية هي، من ذلك النوع الذي كان يألفه توم في لندن، إلا أنه لم يسبق له أن رأى في جمالها من قبل، فقد كانت ذات لون أحمر براق، وعليها نقش ذهبي يحمل حرف «R» محاط بزخارف متموجة على جانبيه. أما العجلة الوحيدة في الخلف فقد كانت أكبر مما هو معتاد في تلك المركبات، في حين استقر فوق العجلتين الأماميتين اثنان من الكشافات الكهربائية الكبيرة.

وما إن رآهما سائق المركبة حتى قام بفتح الباب الزجاجي لها. كان السائق يرتدي زياً رسمياً أحمر موثى بالجدائل الذهبية وشرائط على الكتفين. وحينما خرج الرجل من المركبة وانتصب واقفاً على قدميه، كان طوله لا يتجاوز نصف طول هيستير، والتي ظلت تحديق فيه وقد حسبته في البدء طفلاً، ولكن ما إن إقرب منهم حتى أدركت أن عمره يفوق عمرها بسنوات، وأنه يحمل رأس رجل ناضج فوق جسد ضئيل أقرب لأجساد الأطفال؛ ثم إنها مالبت أن أشاحت بوجهها سريعاً وقد أدركت أنها إنما تنظر إليه بنفس تلك الطريقة الجارحة والمهينة التي ينظر بها الناس إلى وجهها.

{اسمي سميو}. قال السائق {وقد أرسلتني سمو إشراقها لأقلِّكم إلى القصر الشتوي}.

فركبوا جميعاً، حيث انحشر توم وهيستير في المقعد الخلفي على جانبي بيني رويال الذي احتل مساحة كبيرة على غير المتوقع بالنسبة لرجل صغير الحجم مثله. ثم أغلق سميو الباب، وانطلق بهم، في حين التفت توم إلى الخلف ملوحاً للسيد والسيدة أكيوك اللذين وقفا لتوديعهما من نافذة منزلهما، إلا أن عاصفة من الثلوج كانت قد هبت لتحبب الميناء والمنزل تماماً.

أخذت المركبة تنهب الطريق نهباً، وعلى الجانبين كانت المتاجر والمطاعم، والفلل الكبيرة، جميعها، مظلمة ساكنة، تحيم عليها القتامة.

{هذا هو شارع راسموسين بروسبيكت}. قال سميو {شارع أتيق راق هو، يتخذ مساره إلى اليمين عبر وسط الطبقة العليا من المدينة}، فأخذ توم يطالع المنطقة من حوله عبر نافذة المركبة، وقد راق له كثيراً، ومع ذلك فقد كانت حالة الخواء التام المخيمة على كل شيء هاهنا تشعره بالرهبة والتوتر، وقد سرت رعشة في أوصاله داخل ثيابه الثقيلة، حينما تذكر الفترة التي كان قد أمضاها على متن مدينة أخرى كانت تتجه نحو وجهة غامضة، مدينة «تونبريدج ويلز»، وقائدها المخبول الذي أودى بها إلى موارد التهلكة في بحر خازاك.

{ها قد وصلنا}، أعلن سميو، {القصر الشتوي، منزل عائلة راسموسين على مدار ثمانمائة عام}، ثم أنه سحب مقبض المحرك ليصعد بهم عبر ممر طويل في نهايته يقف القصر الشتوي شامخاً، كما لمح توم في الليلة الماضية، كدوامه كبيرة من المعدن الأبيض ذات أبراج وشرفات. وكانت الأدوار العليا منه تبدو خاوية على عروشها تماماً، في حين كانت الأضواء تنبعث من بضعة نوافذ في الطوابق السفلى.

وعلى مشارف البوابة الدائرية الرئيسة، اصطف عدد من المشاعل البرونزية ثلاثية القوائم، ومن قمة كل منها كانت ألسنة اللهب تتراقص مع الرياح.

توقفت المركبة أخيراً، وفتح سميو الباب ليترجل ضيوف القصر، ثم ترجل بدوره وخف الخطى عبر الدرج المؤدي للبوابة الخارجية للقصر وفتحها ليدلفوا منها إلى حيث غرفة صغيرة يطلق عليها «غرفة الحرارة»، ثم قام بإغلاق بابها عليهم، وفي غضون بضع ثوان كان البرد والصقيع الذي

تسلل مع الضيوف إلى القصر قد زال تماماً بفعل آلات التدفئة الممتدة عبر السقف والجدران؛ ثم انفتح باب داخلي آخر وأشار إليهم سميو أن يتبعوه، وتقدم يرشدهم عبر رواق مبطن بالألواح وسجاد الحائط، وفي نهايته كانت أبواب مزدوجة عملاقة عتيقة الطراز. وحينما بلغوا تلك الأبواب، توقف سميو وطرق الباب وهو يشير للضيوف في أدب أن: {لطفاً، انتظروا هاهنا}، وما إن انفتح الباب حتى دلف إلى حيث مر جانبي.

في تلك اللحظات، كان القصر يرتج نوعاً ما ويهتز مع حركة المدينة، ومن حولهم كان الهواء يفوح برائحة العطن... {لا أحب ذلك!}. قالتها هيستير وهي تنظر إلى خيوط العناكب الكثيفة التي أحاطت بالثريات وتبدلت من أنابيب وفتحات التدفئة، {لماذا استدعنا الحاكمة إلى هنا؟ ألا يحتمل أن يكون هذا نفخ للإيقاع بنا؟}.

{أي هراء هذا يا آنسة شاو؟!}. قالها بيبي رويال ساخراً، محاولاً إخفاء ارتعابه من ذلك الإحتمال الذي ذكرته تواء، {نفخ؟ ولماذا تنصب المارجرافين نفخاً لنا؟ إنها الأعلى سلطة والأرفع مكانة بين الناس في هذه المدينة، إنها الحاكمة}.

فهزت هيستير كتفها دون اقتناع، ثم قالت {أستمحك عذراً، لكنني سبق وقابلت اثنين من الحكام، وما كان أي منهما يتمتع بأي رفعة أو سمو في تصرفاتهما، بل كانا مخبولين تماماً}.

وما إن أنهت عبارتها حتى انفتحت الأبواب على حين غرة، مصدرة صرياً، ومن ورائها كان سميو واقفاً، وقد بدل ثيابه، فظهر لهم هذه المرة مرتدياً رداء أزرق طويلاً وقبعة سداسية الزوايا، وفي يده كانت عصا تبلغ ضعف طوله تقريباً. وقد انتصب معتدلاً في وقفته ليستقبل ضيوف القصر

بطريقة رسمية، وكأنه يراهم للمرة الأولى؛ ثم إنه دق فوق الأرضية المعدنية بالعصا الطويلة ثلاث دقات متتاليات، وقال معلنا وصول السيد نيمرود بيني رويال ومرافقيه، ثم تنحى جانبا مفسحا لهم الطريق للدخول.

دلف الجمع من الباب ليجدوا أنفسهم في قاعة فسيحة ذات أعمدة، ومن السقف المقبب قد تدلت مصابيح الأرجون، ينعكس نورها المتوهج فوق الأرضية متخذاً شكل دوائر ساطعة، وكأنها أجار مشعة تتناثر على الأرض حتى أطراف القاعة الضخمة.

وفي آخر القاعة، تبدت هيئة شخص يجلس هناك فوق عرش موثني، يتربع بدوره فوق منصة عالية...

أمسكت هيستير بيد توم، وجنبا إلى جنب سارا خلف بيني رويال الذي تقدمهما عبر مزيج الضوء والظلال، حتى وصلوا إلى منصة العرش، ليجدوا أنفسهم يتطلعون إلى وجه المارجرافين وقد أخذهم العجب!. فقد كانوا يتوقعون أن يجدوا امرأة عجوزا تجلس فوق ذلك العرش، ولم لا وكل شئ في المدينة والقصر يفوح برائحة القدم والتداعي!، لكنهم بدلا من ذلك قد ألقوا أنفسهم يطالعون وجه فتاة صغيرة تحديق فيهم بفضول... فتاة لا بد وأن عمرها لا يتجاوز السادسة عشر ربيعا بأية حال، إلا أنها كانت فتاة جميلة، ترتدي ثوبا أزرق لونه فاتح، ومن فوقه عباءة بيضاء ذات ياقة من فراء الثعالب؛ وكانت ملامحها تحمل الكثير من الصفات العرقية لسلالة «الإينويت»، تماما كملاح السيد أكيوك وزوجته، إلا أنها ذات بشرة صافية وشعر ذهبي...

[شاحبة كأوراق الخريف]!، كان هذا أول ماخطر على بال هيستير؛ إذ وقفت تتأمل الفتاة وتخفي وجهها بوشاحها في ذات الوقت. لقد جعلها

الجمال الأسر للمارجرافين تشعر بمدى ضالتها وانطفائها، فبدأت تفتش عن عيوب، أي عيوب، قد تجدها في الفتاة الصغيرة المليحة... [يالها من فتاة بدينة... وعنقها، إنه متسخ... إن العثة لتماماً ثيابها... أزرار ثوبها ليست في مواضعها الصحيحة...].

أما توم فقد وقف بجانبها يتطلع إلى الفتاة، وفي رأسه كانت فكرة واحدة.. [يالها من فتاة صغيرة لتحكم مدينة بأكلها... لا عجب إذن في أنها تبدو حزينة {جلالتك...}. قالها بيني رويال وهو يخني في احترام {اسمحي لي أن أعبّر عن امتناني الشديد للطف والمودة التي أبديتها، سموك وشعبك، تجاهي وتجاه رفاقي...}.

{سمو إشراقتك. يتوجب عليك أن تخاطبني بسمو إشراقتك أو بضوء الحقول الجليدية}. قالتها المارجرافين، فسادت هنية من الصمت الغريب والمربك لا يقطعه سوى هسيس آلات التدفئة وأنايبها الممتدة عبر السقف.

ثم قالت الفتاة أخيراً وهي تمنع النظر في ضيوفها {لو أنك حقاً نمرود بيني رويال، فلماذا تبدو أكثر بدانة وصلعاً مما أنت عليه في صورتك؟}. ثم مدت يدها والتقطت كتاباً من على منضدة جانبية صغيرة ورفعته ليتبدى أمام أعينهم غلافه الخلفي الذي يحمل صورة مرسومة لشخص قد يبدو وكأنه الأخ الأصغر لبيني رويال!

{آه، حسناً، إنها بصمات الفنانين وانطباعاتهم كما تعلمين... لقد طلبت من ذلك الرسام الأحمق أن يصورني كما أنا دون رتوش أو تغييرات، ولكن، لا بد وأنت تعرفين هذا، هذا هو دأب المدارس الفنية، إنهم يزعون دوماً نحو المثالية والكمال، وإظهار جوهر الإنسان، وما إلى ذلك....}.

فابتسمت المارجرافين، وقد بدت أكثر حسناً وجمالاً حينما تبسمت، فزاد ذلك من كراهية هيسٲير لها. {لقد أردت فقط التأكد من أنك أنت بروفيسور بيني رويال حقاً...} إنني آلف بالطبع فنون التصوير، فلطالما تم رسم العديد من الصور الفنية لي من أجل اللوحات والطوابع والعملات، قبل اجتياح الوباء للمدينة، وقلما كانت تخرج تلك الصور دقيقة...}. ثم إنها توقفت بغتة عن الاسترسال في حديثها، وكأنا صوت خفي قد همس في أذنها ينها بأن المارجرافين لا ينبغي لها أن تبدأ في التثرة أمام ضيوفها كالمراهقات، فصمتت قليلاً، ثم قالت بلهجة أكثر رسمية ووقاراً: {يمكنكم الجلوس}، ثم صفقت يديها، فانفتح باب داخلي كائن خلف العرش، ومنه دخل سميو وهو يجر مجموعة من الكراسي الصغيرة، وكان قد ارتدى زياً ثالثاً عبارة عن قبعة صغيرة ورداء طويل مخصص للخدم. وللحظة ارتج على توم، وقد أخذ يتساءل داخله ما إذا كان هذا الرجل هو واحد من ثلاثة توائم متمثلين تماماً، يعملون جميعاً في خدمة المارجرافين!، إلا أنه حينما أمعن النظر وتفرس في وجه الرجل، اكتشف أنه هو ذاته ذلك الذي جاء بهم إلى القصر، وهو الذي قام بإدخالهم ليثلوا أمام المارجرافين... إنه نفس الـ«سميو»! وكان الرجل لا يزال يحاول التقاط أنفاسه من أثر المجهود الذي بذله، ومن جرابه تبدت خصلة من الجملة المستعارة التي يرتديها الحاجب عادةً..

{أسرع}. قالتها المارجرافين في صرامة.

{أعتذر، سمو إشرافتك}. هتف سميو وهو يضع المقاعد الثلاثة قبالة العرش، ثم خف مسرعاً ليختفي ثانية بين الظلال. وبعد لحظة، عاد من جديد وهو يدفع عربة الشاي المتحركة، وقد اصطف عليها إناء من الشاي الساخن وصحفة عامرة ببسكويت اللوز، وبصحبة سميو دخل رجل آخر،

عجوز، طويل، متجهم، يرتدي ثيابا سوداء بالكامل، وقد أومأ برأسه محيياً الضيوف، ثم اتخذ مجلسه بجانب العرش، بينما أخذ سميويصب بعضاً من الشاي في فناجين صغيرة ويناولها للضيوف.

{إذن، أفهم من ذلك أنك على اطلاع على أعمالي، ياضوء الحقول الجليدية؟}. قالها بيني رويال وهو يتسم في تكلف، وهنا سقط قناع الوقار والتكلف الملكي من جديد، وتبدى فقط وجه المراهقة المتحمسة: {آه، نعم، إنني أحب التاريخ والمغامرات كثيراً. لقد اعتدت أن أقرأ عنها طوال الوقت قبل... حسنًا، قبل أن أصبح المارجرافين. لقد قرأت كل الأسفار الكبرى التي وُضعت في هذا المجال.. قرأت كتب «فالانتاين» و«سبوفورث» و«تامارتون» و«فوليو». لكن كتبك كانت دائماً هي المفضلة لدي، وهي ما أوحى لي بفكرة أن...}.

هنا قاطعها الرجل المتجهم الجالس بجانب عرشها: {الحذر، أيتها المارجرافين}، وقد خرج صوته أشبه ما يكون بصوت تروس المحركات دقيقة الحركة.

{حسنًا}. استطردت المارجرافين {على أية حال، إنه لأمر رائع أن ترسلك آلهة الثلوج إلينا الآن. إنها إشارة.. إشارة لي تخبرني أنني بالفعل قد اتخذت القرار الصائب وأنا سوف نجد ما نسعى إليه حقاً، وبمعاونتك لنا فإننا لن نفشل أبداً في مسعانا}.

{يا لها من مجنونة!}. قالتها هيستير هامسة إلى توم.

{أخشى أنني لا أفهم ما ترمين إليه يا سموإشراقتك...}. قال بيني رويال في ارتباك {يبدو أن الضربة التي تعرضت لها على رأسي لا تزال تؤثر على قدرتي على استيعاب الأمور}.

{الأمر بسيط}. قالت المارجرافين، وهنا قاطعها الرجل المتجهم مرة ثانية، محذراً {سمو المارجرافين...}. إلا أنها قاطعته بدورها هذه المرة: {أوه، لا تكن متشائماً متشككاً ياسيد سكايبوس... إنه البروفيسور بيني رويال بنفسه، باستطاعتنا أن نثق به!}.

{لا أشك في ذلك يا سمو إشرافتك}. هتف سكايبوس {ولكن ما يثير قلقي هو مرافقاه الشابان هذان. لو أنهم علموا أي شيء عن مسارنا، فربما قاموا ببيع تلك المعلومات إلى «أركانجيل» بمجرد أن يتم إصلاح منطادهم ويصبح في ميسورهم التحليق من جديد... إن «الدايركتور ماسجارد» سوف يسعد حقاً بوضع يده على محركاتي}.

هنا هب توم وصاح غاضباً: {نحن لا يمكن أن نرتكب شيئاً من هذا القبيل أبداً}. وقد كاد يثب نحو الرجل، لولا أن أمسكت هيستير بذراعه وحالت دون وقوع المواجهة..

{إنني أضمنهما بنفسني ياسمو إشرافتك}. قالها بيني رويال {فالكابتن ناتسوورثي هو مؤرخ، مثلي أنا، وقد كان متدرباً في متحف لندن}. فالتفت المارجرافين نحو توم لتفحصه، وقد لاحت في عينيها نظرة إعجاب جعلت وجهه يجر نجيلاً، حتى أنه خفض رأسه وأطرق إلى الأرض.

{إذن، مرحباً بالسيد ناتسوورثي أيضاً}. قالتها المارجرافين في هدوء {أتمنى أن تبقى معنا وتساعدنا أنت أيضاً}.

{يساعدكم في ماذا؟}. تساءلت هيستير في غلظة.

{يساعدنا في رحلتنا إلى أمريكا بالطبع!}. أجابتها الفتاة وهي تقلب الكتاب الذي كانت لاتزال تحمله في يدها إلى الغلاف الأمامي، والذي يظهر بيني

رويال في هيئة بطل وسيم مفتول العضلات يقاتل دباً شرساً دفاعاً عن فتاة جميلة ترتدي بكيني من الفراء، وقد تصدر الغلاف عنوان الكتاب: أمريكا الجميلة.

{هذا الكتاب هو المفضل لدي دائماً}. استرسلت المارجرافين {وإني أعتقد أن آلهة الثلوج إنما قد وضعت في رأسي فكرة التوجه نحو أمريكا لهذا السبب... نحن نتخذ سبيلنا الآن عبر الجليد نحو الأراضي الخصبة التي اكتشفها السيد بيني رويال؛ وهناك سوف نتحرك على عجالات بدلاً من زلاجاتنا، وسوف نستخدم الأشجار لتكون وقوداً لمحركاتنا. سوف نمارس التجارة مع الأقوام البدائيين الذين يستوطنون تلك الأراضي، وسوف نعرفهم بالحضارة الداروينية البلدية}.

{ولكن... ولكن... أنا أقصد...}. أخذ بيني رويال يردد في توتر واضح، وقد تشبث بمسندتي الذراعين بكرسيه وكأنما يتمسك بإفريز سفينة، {إن ما أقصده أن... الغطاء الجليدي الكندي، غرب جرين لاند... لم نحاول أي مدينة من قبل أن...}.

{أعلم يابروفيشور}. أجابته المارجرافين {أعلم، سوف تكون رحلة طويلة محفوفة بالمخاطر، تماماً كما كانت بالنسبة لك في رحلتك هناك. ولكن الآلهة معنا وستقف إلى جوارنا، لا بد أنهم سيفعلون ذلك، وإلا ما كانوا ليرسلوك إلينا هاهنا. سوف أعينك كرئيس شرفي للملاحين، وبمعوتكم سوف نصل بأمان إلى ساحة الصيد الجديدة لنا}.

هنا التفت توم، والذي أخذَ بجسارة تفكير المارجرافين، في حماسة إلى بيني رويال وهتف {يالهِ من حظ عظيم يابروفيشور، سوف يتيسر لك الآن العودة من جديد إلى أمريكا}.

أما بيني رويال فقد أخذ يغمغم وقد اتسعت عيناه: {أنا.. رئيس الملاحين؟ إنك كريمة للغاية يا ضوء الحقول الجليدية.. كريمة جداً..}. ثم إنه أغشي عليه فجأة، وسقط الفنجان الزجاجي من يده مهشماً على الأرضية المعدنية، فأخذ سميويطقطق بلسانه انزعاجاً، فقد كان الفنجان أحد المقتنيات الثمينة الموروثة لبيت راسموسين، أما فرياً فلم تكثرث للأمر، وقالت: {يبدو أن البروفيسور بيني رويال لا يزال متوعكاً من أثر الرحلة... ضعوه في الفراش بجناح الضيافة، فيجب علينا أن نعتني به كي يستعيد عافيته في أقرب وقت ممكن... وأنت ياسميو، كف عن التذمر لأجل ذلك الفنجان السخيف، فما إن يقودنا البروفيسور إلى أمريكا سوف يصبح بمقدورنا التنقيب عن مواد الزجاج المتفجر لنصنع منه ما نشاء}.



(٩)

مرحبًا في «المنشأة»

بعيداً، إلى أقصى الجنوب، فيما وراء حدود الأراضي الجليدية القفرة، ظهرت جزيرة من بين أحضان البحر البارد. سوداء كانت، متغضنة، ملطخة بفضلات طيور النورس والجوارح، والتي اتخذت من صخورها أعشاشاً لها، وكان يمكن سماع أصوات الطيور على بعد أميال طويلة، إذ تصرخ وتتصارع، وتغوص في أعماق المياه بحثاً عن صيد يقيم أودها، أو تحلق في أسراب ضخمة نحو القمم العالية، لتحط بين الحين والآخر فوق أسطح المباني أو على الإفريز الصدئ للممرات المعدنية المتعرجة عبر المنحدرات الشديدة.

وعلى الرغم من أن المكان كان يبدو غير مأهول للسكن، إلا أن أناساً قد عاشوا به واستوطنوه، وأقاموا المرافق وورش المناطيد بين الصخور، في حين تجمعت خزانات الوقود، كبيض العناكب، في فجوات صغيرة...

كانت تلك هي «روجز رووست»، حيث أقام القرصان «ريد لوكي» وجماعته الأسطورية من القراصنة الجويين، وبها قاموا ببناء وكرهم.

لقد رحل «لوكي» الآن، ولا تزال آثار الصواريخ والانفجارات باقية على بعض المباني هناك تروي مآقد وقع. ففي ليلة هادئة لا تنبئ بوقوع أي أحداث جسام، قامت وحدة من من مقاتلي «العاصفة الخضراء» بشن هجوم مباغت على المكان، وقام أعضاء الوحدة بذبح القراصنة والاستيلاء على الجزيرة ليقيموا بها قاعدة جوية لهم، لا يمكن لأي مدينة جائعة أن تصل إليها.

كانت الشمس على وشك الغروب، وقد أضفى قرصها الأحمر المائل للبرتقالي، إذ كان يعبر السماء الشرقية، مزيداً من القبح للجزيرة، بينما كان المنطاد «تيموراري بليب» يدنو من مجالها، في حين توجهت دفاعات الجزيرة وأسلحتها صوب المنطاد القديم مباشرة. وما إن تحول المنطاد في اتجاه المرفأ الرئيس حتى انطلقت حامية من «الثعالب» تدور حوله بلا هواده، ككلاب مرزعة خاصة إذ تحيط بنعجة لتدفعها دفعا نحو الدخول إلى الحظيرة.

{ياله من مكان مقرف!}. قالتها إحدى زوجات ويدجري بليנקو متذمرة، إذ أخذت تنظر عبر نافذة المنطاد إلى حيث الجزيرة القبيحة، في حين قالت أخرى: {لقد أخبرتنا أن الإبلاغ عن ذلك المنطاد سوف يجلب علينا الكثير من الأموال، وأنا سوف نرتحل إلى إحدى المنتجعات للاسترخاء والراحة، وليس إلى ذلك المكان الخرب في آخر العالم}.

{لقد وعدتنا بثياب جديدة وعبيد...}.

{اصمتن جميعاً}. صاح بليנקو في زوجاته المتذمرات، إذ كان يحاول تركيز انتباهه على توجيهات الهبوط بينما يقوده الطاقم الأرضي للثعالب إلى مرفأ ذي أعلام ملونة.

{اظهرن بعض الاحترام. نحن هنا في قاعدة «العاصفة الخضراء»، وانه لشرف لنا أن يتم استدعائي إلى هنا.. هذا يعني أنهم يقدرّون خدماتي بشكل جيد}. هكذا قال لهن بليנקو، ولكن في حقيقة الأمر، قد كان يشعر بالخوف والارتباك من ذلك الاستدعاء الغريب إلى هذا المكان الموحش. فحينما تواصل مع قاعدة العاصفة الخضراء في جبال تانهاسر وأخبرهم برؤيته للجيني هانيفر، كان يتوقع أن يشكروه ويمنحوه نفحة سخية من المال، لا أن يستدعوه بهذا الشكل ويجروه جراً عبر كل تلك المسافة من إيرهيغن إلى هنا...}

{آه، فعلاً!!}. غمغمت زوجاته في تأفف وهن يلكن بعضهن البعض ويتغامزن عليه: {إن جماعة العاصفة الخضراء لا تكُن له نفس الاحترام الذي يَكُنْه لها، ياله من أمر مثير للشفقة}.

{ياله من تقدير لخدماته!}.

{سوف نخسر الكثير من الأعمال التي كان من الممكن أن نترج منها لو لم يتم جرنّا إلى هنا}.

{لقد حذرتني أمي من الزواج منه}.

{كذلك فعلت أمي أنا أيضاً}.

{وأنا...}.

{إنه يدرك تماماً أنها مهمة فاشلة حمقاء.. انظرن كم يبدو قلقاً}.

ترجل بليנקو وزوجاته من المنطاد إلى حيث المرفأ، وكانت علامات التوتر والقلق لا تزال بادية على ملامحه، ولكن ما إن لمح أحد ضباط الجماعة وهي تقبل نحوه لتحييه، حتى تبدلت تعبيرات وجهه وتحول القلق إلى

ابتسامة واسعة عريضة. فقد كانت الضابطة امرأة شابة حسنة، ولطالما كان بليנקو ضعيفاً أمام الشابات الحسنات، وهو ما أفضى به للزواج من خمس منهن. وبرغم أنهم قد تكلمن ضده حتى تحولن إلى صداع مقيم له، إلا أنه لم يستطع أن يمنع نفسه من التفكير في أن يطلب من الضابطة الحسنة أن تصبح الزوجة السادسة!

{السيد بليנקو؟}. سألته الضابطة محييةً له {أهلاً بكم في «المنشأة»}.

{أنا، لقد ظننت أن المكان هنا اسمه روجز روست يا عزيزتي؟}.

{يفضل القائد أن يطلق عليه المنشأة}.

{آه}.

{لقد جئت لأصحبك إليها}.

{إليها؟... لم أكن أعلم أنه يوجد الكثير من النساء هاهنا}.

فاختفت ابتسامة الضابطة، وقالت: {إن العاصفة الخضراء لتؤمن بأن كل من الرجال والنساء ينبغي أن يلعبوا دورهم في الحرب القادمة لهزيمة المدن المتحركة الهمجية وجعل الأرض خضراء من جديد}.

{آه، طبعاً طبعاً}. قالها بليנקو سريعاً {أوافق تماماً}.

لكنه في الحقيقة لم يكن يجب سيرة الحروب والمعارك؛ فالحروب لاتجلب سوى الوبال على الأعمال والتجارة.

لقد كانت السنوات القليلة الماضية سيئة جداً لجماعة مناهضة التحرك، فقد كانت لندن قاب قوسين أو أدنى من تدمير «باتمونخ جومبا»، حتى أن عملاءها قد أضرموا النيران في الأسطول الجوي الشمالي لها، ولهذا لم يتمكن

الأسطول الجوي الاحتياطي من تقديم العون إلى «سبيتزيرجن ستاتيك» حينما هاجمتها أركانجيل في الشتاء الماضي، وبهذا سقطت آخر أكبر المدن المناهضة للتحرك فريسة في أحشاء المدينة المفترسة.

ومع كل تلك الأحداث الجسام، كان من الطبيعي أن ينفد صبر بعض صغار ضباط جماعة مناهضة التحرك، فانشقوا عن طاعة المجلس الأعلى لها، والذي بات في نظرهم ثقيلاً متقاعساً، وقرروا الانتقام بأنفسهم وعلى طريقتهم الخاصة.

سار بليנקو خلف الضابطة الحسنة إلى حيث مقر القائدة، وفي أثناء الطريق أخذ يسمح المكان بناظره محاولاً تقييم مدى قوة تلك القاعدة الصغيرة، حيث كان هناك عدد من مناطيد «الثعالب» المدرعة، تقف على أهبة الاستعداد فوق منصات الرسو، في حين انتشر العديد من الجنود الذين يرتدون الزي الأبيض المميز لهم والخوذات البرونزية، وعلى صدورهم تلمع شارة الصاعقة الخضراء... [يبدو أن إجراءات الأمن مشددة] هكذا أخذ يفكر بليנקو وهو يتطلع إلى الأسلحة البخارية التي بحوزة الجنود، [ولكن، لماذا؟ ما الذي يجري هاهنا ويستدعي كل تلك الإجراءات؟!]. ثم مر صف من الجنود يحملون حقائب معدنية كبيرة تحمل علامة «قابل للكسر» و«سري للغاية»!، في حين وقف رجل أصلع الرأس يرتدي معطفاً بلاستيكياً شفافاً، وقد أخذ يصيح {تحركوا بحذر.. هذه الأدوات حساسة}، ثم شعر الرجل بأن ثمة من يحدق فيه، فالتفت إلى حيث بليנקو، ليدرك الأخير أن الرجل يحمل بين حاجبيه وشما صغيراً عبارة عن عجلة حمراء...!!

{مالذي يجري لديكم بالضبط؟}. وجه بليנקو السؤال متعجباً للضابطة وهو يتبعها عبر سلسلة من السلام والأنفاق في قلب الصخور، إلا أنها أجابته في صرامة: {هذا سر}.

{لكن يوسعك إخباري؟}.

فهزت الضابطة رأسها بحدة أن لا. كانت حادة ذات طابع عسكري صارم، مما جعل بليנקويزنج عن باله فكرة أن تصبح زوجته السادسة. ثم أنه أحال انتباهه إلى حيث المصقات التي كانت تنتشر على الجدران على طول الممر، والتي تصور مناظير الجماعة وهي تمطر المدن المتحركة بالصواريخ، وأسفل كل ملصق كتب الشعار الغاضب: «الدمار لكل المدن».

وفي المساحات الخاوية بين المصقات، تم تثبيت علامات إرشادية تشير إلى أماكن الثكنات العسكرية ومنصات الأسلحة، وكذلك المختبر!... المختبر؟!، لقد بدا ذلك غريباً نوعاً ما، فلطالما كانت جماعات مناهضة التحرك تزدرى العلوم، حيث يؤمنون أن أي تقنية أكثر تعقيداً من المناظير والصواريخ هي بالضرورة همجية ينبغي الابتعاد عنها تماماً. هكذا إذن!، لقد بدا واضحاً الآن أن لتلك الجماعة المنشقة - العاصفة الخضراء - أفكاراً مختلفة عن الجماعة الأصلية، وقد بدأ الخوف يتسرب إلى نفس بليנקو منهم.

كان مكتب القائدة يقع في واحد من تلك المباني القديمة الواقعة على قمة الجزيرة، وقد كان ذلك المبنى فيما مضى مقر «ريد لوكي» الخاص، حيث كانت الجدران تزدان بالجداريات واللوحات، قبل أن تقع الجزيرة في أيدي العاصفة الخضراء وتحل قائدتهم محل لوكي، وتأمّر بطلاء الجدران بالكامل لإزالتها... ومع ذلك، فقد كان الطلاء خفيفاً، ومن خلفه كانت الوجوه المرسومة تتبدى، وكأنما هي أشباح القراصنة الموتى إذ تطل في إزدراء وكراهية لترقب هؤلاء الذين استوطنوا جزيرتهم..

{أنت بليנקو؟... مرحباً بك في المنشأة}.. كانت قائدة الجزيرة فتاة شابة، وكما كان بليנקو يأمل أن تكون جميلة، لكن بمجرد أن التفتت نحوه

حتى وجد فتاة قاسية متصلبة الملامح، صغيرة الحجم، ذات شعر أسود قصير وبشرة بنية ترابية..

{أنت العميل الذي شاهد الجيني هانيفر في إير هيفن؟}. سألته، وقد أخذت ثثني وتمد أصابع كفيها الشبيهة بأرجل العناكب البنية، في تمليل وعصبية واضحين، وهي تحديق فيه بعينها السوداوين الواسعتين بطريقة جعلته يبدأ في التساؤل في نفسه عما إذا كانت على شئ من الخبل!

{نعم، أنا ياسيديتي}. قالها بليנקو في توتر.

{وهل أنت على يقين من أنها كانت الجيني هانيفر بالفعل؟ ألا يحتمل أن يكون هناك خطأ ما؟ ألا يمكن أن يكون ذلك مجرد قصة من اختراعتك للاحتيال علينا والحصول على بعض الأموال؟}.

{لا، لا}. قالها بليנקو في هلع {يا للآلهة، لا.. لقد كان هو المنطاد بعينه، منطاد زهرة الرياح «آنا فانج» بذاته}.

فأشاحت عنه القائدة ومشت نحو نافذة مستديرة مع الجدار المقابل، وأخذت ترنو عبر زجاجها نحو السماء التي راح الظلام يجتاحها بعباءته المسائية القاتم لونها... وبعد لحظة قالت: {لقد انطلق سرب من مقاتلي «أرواح الثعالب» من إحدى قواعدنا السرية ليقطع الطريق على الجيني هانيفر، ولم يعد أي منهم}.

لم يدر بليנקو ماذا عليه أن يقول، فغمغم مقاوماً خوفه: {أوه! يالأسف!}، فاستدارت نحوه القائدة من جديد، إلا أنه لم يتمكن من رؤية تعبيرات وجهها، حيث كانت تقف قبالة النافذة حاجبة الضوء القادم عبرها.

{قد يبدو هذان اللسان الهمجيان اللذان سرقا الجيني هانيفر من «باتمونخ جومبا»، كمتشردين من العراء، لكنهما في الحقيقة قد تلقيا تدريباً جيداً في لندن كعميلين. لاشك أنهما قد استخدما طرقهم الجهنمية حتى نجحا في تدمير أسطولنا هناك، ثم فرا نحو الشمال إلى حيث الصحراء الجليدية}.

{هذا.. آآ.. وارد جداً أيتها القائدة}. قالها بليكو مظهرًا التأيد لكلامها، لكنه في داخله كان يرى أن ذلك الاحتمال مستبعد تماماً.

ثم إنها اقتربت منه، حتى صارت في مواجهته مباشرة، ليكتشف كم هي فتاة قصيرة نحيلة البنية، وأخذت تحلق في عينيه بنظرات نارية، ثم قالت: {لدينا الكثير من مقاتلي «الثعالب».. إن «العاصفة الخضراء» تنمو وتعاظم قوتها كل يوم، والكثير جداً من قادة جماعة مناهضة التحرك يقفون معنا وإلى جوارنا، وهم على استعداد تام لإرسال جنودهم وسفنهم الجوية في أية لحظة لمساندتنا وتقوية قواعدا. إلا أن مانفتقر إليه فعلاً هاهنا هو شبكة استخباراتية، ولهذا السبب نحن في حاجة إليك هنا يا بليكو.. أريدك أن تعثر على الجيني هانيفر واللصين اللذين سرقاه}.

{آآ.. نعم.. هذا.. حسناً.. هذا ربما.. نعم..!}. أجابها بليكو متلعثماً، فقالت: {سوف تحصل على نفقة مالية جيدة لقاء خدماتك}.

{كم؟.. لا أريد أن أبدو كمرتزق جشع، لكنني لدي خمسة زوجات يساعدنني في الأعمال و...}.

{عشرة آلاف بمجرد أن تأتي بالمنطاد إلى هنا}.

{عشرة آل...!}.

{العاصفة الخضراء تجزل العطاء لمن يخدمونها}... {لكننا كذلك نعاقب من يخونوننا. لو أنك تفوهت بكلمة مما قيل هنا أو بما رأيته في المنشأة لأي شخص، فسوف نعثر عليك أينما كنت، وسنقتلك بلا رحمة، هل هذا مفهوم؟}.

{آآآآآآ!}. انحشرت الكلمات في حنجرة بليנקو ولم يستطع التفوه بحرف، وقد أخذ يدير قبعته في يده بتوتر وخوف. وحينما استعاد قدرته على الكلام أخيراً، قال في تردد: {إما... هل لي أن أسأل سؤالاً؟... لماذا؟، أعني لماذا هذا المنطاد مهم لكم إلى هذه الدرجة؟ لقد حسبت أنه يمثل قيمة عاطفية، رمز للجماعة نوعاً ما، إلا أنه في حد ذاته بالكاد يساوي....}.

{إنه يساوي ما سأمنحك إياه من مال}. قالتها القائدة مقاطعةً إياه وهي تبسم لأول مرة منذ رآها، ابتسامة رفيعة باردة وقاسية، تماماً كشخص يبتسم لأحد معارفه البعيدين شاكرًا إياه على حضور جنازة أحد ذويه!

{إن الجيني هانيفر، وهؤلاء الهمج الذين استولوا عليه، يمثلون أهمية حيوية لعملنا هنا... هذا هو كل ما عليك معرفته... جد المنطاد واجلبه لي، ياسيد بليנקو}.

(١٠)

متحف العجائب

كان كل أطباء انكوراج قد ماتوا، جميعهم، وما كان من الممكن إيجاد شخص يتولى تمريض البروفيسور بيني رويال في المدينة برمتها أفضل من الآتسة «ويندولين باي» من اللجنة التوجيهية، فقد سبق لها أن اجتازت دورة في الإسعافات الأولية. وهاهي ذي الآن تجلس إلى جوار سريره الفخم في جناح الضيوف بالقصر الشتوي، ومعصمه بين أصابعها النحيلة تحاول أن تقيس نبضه. {أعتقد أنها مجرد حالة من فقدان الوعي.. ربما بسبب الإجهاد، أو توابع صدمة نفسية لايزال يعاني منها بعد المخاطر الرهيبة التي مر بها. ياله من مسكين!}.

{ولماذا لم نفقد وعينا نحن أيضا؟}. تساءلت هيستير متعجبة {لقد مررنا نحن أيضا بمخاطر فظيعة، لكننا لم نترنح أو نفقد وعينا كالنساء العوانس!}.

ولما كانت الآتسة باي هي ذاتها من أولئك العوانس، فقد رمت هيستير بنظرة نارية، ثم قالت {أظن أن عليك أن تترك البروفيسور ليخلد إلى الراحة. إنه في حاجة للهدوء والرعاية على مدار الساعة، فلتخرجوا الآن، جميعا}.

(١٠١)

خرجت هيسدير وتوم وسميو، وعادوا أدراجهم عبر الممر، في حين صفتت «باي» الباب خلفهم.

{أحسب أنه قد سقط مغشيا عليه من هول المفاجأة}. قال توم {لقد قاوم كثيرا، ثم سقط... لقد ظل لسنوات يبحث عن شخص يمол له رحلة ثانية إلى أمريكا، ثم هاهو ذا فجأة يقابل المارجرافين ليجدها تتجه بمديتها كلها إلى هناك}.

{مستحيل، إنها مجنونة!}. قالتها هيسدير وهي تضحك في استهزاء.

{هنا صاح سميو في جزع {آنسة شاو... كيف واثتك الجراءة على قول ذلك؟ إن المارجرافين هي حاكمتنا وممثلة آلهة الثلوج على الأرض. لقد كانت جدتها «دوللي راسموسين» هي من قادت الناجين من انكوراج الأصلية بعيدا عن أمريكا إلى حيث الأمان، وإنه لمن الطبيعي إذن أن تقودنا واحدة من آل راسموسين إلى الوطن من جديد}.

{لا أدري لماذا تدافع عنها بكل تلك الحرارة!}. صاحت هيسدير في تدمير واضح {إنها تعاملك وكأنك مجرد شئ وجدته عالقا في نعل حذاءها. ولتعلم أن تبديلك لملايسك باستمرار وارتداءك كل تلك الأزياء لا يخدع أحدا على الإطلاق. لقد أدركنا ببساطة أن كل هؤلاء الأشخاص والخدم ليسوا سوى رجل واحد هو أنت}.

{أنا لا أحاول أن اخدع أي أحد}. قالها سميو بترفع شديد {كل ما في الأمر أنه لا بد للمارجرافين من طاقم من الخدم والموظفين... سائقين... طهارة... حاجب... خدم... إلى آخره. ولكن للأسف كل هؤلاء قد ماتوا، ولهذا فقد أخذت على عاتقي خدمتها واتخاذ أدوار كل هؤلاء... إنني أفعل ما بوسعي للحفاظ على التقاليد العريقة}.

{وماذا كنت تعمل قبل ذلك؟ سائقاً أم حاجباً؟}

{كنت قزم المارجرافين}.

{وما حاجة المارجرافين لقزم؟!}

{لقد اعتادت أسرة المارجرافين دائماً على أن يكون لديها قزم لتسليتها}.

{وكيف ذلك؟}

هز سميو كتفيه ببساطة وقال {بأن يكون قصيراً!!}

{أهذا أمر مسلّ؟!}

{هكذا هي التقاليد هاهنا يا آنسة شاو، ولطالما كنا سعداء بتقاليدنا في أنكوراج، إلى أن حل الوباء... هاهي غرفتاكما}. قلها وهو يفتح أبواب غرفتين تبعدان قليلاً عن غرفة بيني رويال.

كانت كلتا الغرفتين لهما نوافذ طويلة وفراش كبير، وأنايب تدفئة ضخمة، وكان حجم كل غرفة منهما يماثل حجم زورق الجيني هانيفر بأكمله. {غرفتان جميلتان حقاً}. قال توم {ولكن تكفيني واحدة منهما فقط}.

{مستحيل}. قالها سميو وهو يتجه نحو الغرفة الأولى لضبط التدفئة {لا يمكن لشخصين غير متزوجين أن يتشاركا نفس الغرفة في القصر الشتوي... لا يمكن}. ثم قطع كلامه صوت جلبة صادر من إحدى الأنايب للحظة، قبل أن يلتفت إليهما ويغمز بعينه غمزة مأكرة ذات معنى ويقول {ومع ذلك، فهناك باب مشترك بين الغرفتين، وإذا أراد شخص ما التسلل من غرفته إلى الغرفة الثانية عبره فلن يدري أحدهم!!}.

ومع ذلك، فقد كان هناك بالفعل من يعرف بكل شئ يجري في انكوراج.... كانوا يتطلعون، في الظلام المائل للزرقة، إلى الشاشات أمامهم ويشاهدون توم وهيستير إذ راحوا يتبعون القزم إلى حيث الغرفة الثانية...
{إنها قبيحة جداً}.

{هي لا تبدو سعيدة كذلك}.

{ومن يمكن أن يكون سعيداً وهو يملك وجهها كهذا؟!}

{لا، لا أقصد ذلك، إنها تشعر بالغيرة. أو لم تر كيف كانت فرياً تنظر إلى حبيبها؟}.

{لقد مللت كل هذا. دعنا نتابع الباقيين...}

وأخذت الصور على الشاشات تبدل: السيد أكيوك وزوجته يجلسان في غرفة المعيشة... سكايبوس يقبع في منزله الخاوي.. العمل المتواصل في قسم المحركات... أعمال الزراعة...

{أليس يتعين علينا أن نتحدث إلى السيد والسيدة أكيوك؟}. تساءل توم بينما كان سميويوشك على الانتهاء من تعديل وضع التدفئة في الغرفة الثانية ويستعد للمغادرة، {ربما كانوا ينتظرون عودتنا إلى منزلهم}.

{لا تقلق، لقد بلغهم بالفعل أنكم الآن قد صرتم ضيوفاً في بيت راسموسين}.
{هذا لن يعجب السيد سكايبوس أبداً}. قالتها هيستير {لقد بدا أنه لم يحب وجودنا على الإطلاق}.

{إن السيد سكايبوس لرجل متشائم كئيب}. قال سميو {لكن ذلك ليس ذنبه، فقد ترمّل، وفقد ابنه الوحيد أكسل في الوباء. إنه لا يتحمل الخسارة

الفادحة. وعلى أية حال هو لا يملك أن يمنع المارجرافين من استقبالكم في ضيافتها. أنتم مرحب بكم جدا هنا في القصر الشتوي.. إن احتجتم لأي شيء فلتدقوا الجرس وسوف يأتيكم الخادم فوراً... آآ.. حسناً، أعني سأتي إليكم فوراً. العشاء سوف يتم تقديمه في تمام السابعة، ولكن برجاء الحضور مبكراً قليلاً، حيث تريد المارجرافين أن تطلعكم على «الووندر كامر» الخاص بها..

[على ماذا؟!!]... تساءلت هيستير في قرارتها، إلا أنها لم تفصح عن تساؤلها هذا، فما كانت تريد أن تبدو غبية أو جاهلة أكثر من ذلك أمام توم؛ لذا فقد صمتت تماماً.

وما إن غادر سميو، حتى فتح توم وهيستير الباب المشترك، ودخلا إلى غرفة توم، حيث جلسا على حافة الفراش، وأخذا يختبران مرونة الحاشية، قبل أن يشرع توم في الحديث: {أمريكا!.. كم هي شجاعة تلك الفتاة فريا راسموسين. قلها تفكر أي مدينة في المجازفة بالتوجه غرب جرين لاند، وما من أحد حاول مجرد المحاولة أن يذهب إلى حيث القارة الميتة}.

{بالطبع لا، إنها قارة ميتة}. قالتها هيستير وقد كانت المرارة تفوح من صوتها {ما كنت أبداً لأجازف بمدينة بأكلها بسبب كتاب لبيني رويال}.

{لكن بروفييسور بيني رويال يعرف جيداً ما يتحدث عنه}. قالها توم في صدق {على أية حال، هو ليس الوحيد الذي تحدث عن مناطق خضراء في أمريكا}.

{تعني أساطير الطيارين القديمة؟}.

{نعم، وخريطة سنوري أولفيسون كذلك}.

{أتقصد تلك التي أخبرتني عنها؟ التي اختفت قبل أن يراها أي شخص أو يتفحصها؟}

{هل تريد أن تقول إن البروفيسور بيني رويال يكذب؟}. سألها توم، فهزت رأسها أن لا، فهي لم تكن واثقة من ذلك، ولكن كل ما هنالك أنها تجد صعوبة في تصديق ما قاله حول وجود غابات بكر وقوم بدائيين كريمي النفس. ولكن... من هي لتشكك في بيني رويال؟ إنه مستكشف شهير قام بتأليف العديد من الكتب، أما هي فلم تقرأ في حياتها كتاب واحد. إن توم وفريا يصدقان الرجل تماما ويؤمنان به، وهما يعرفان الكثير عن تلك الأمور التي يتحدث عنها، أكثر مما تعرف هي بمراحل. فقط هي لا تستطيع تخيل أن ذلك الرجل الخائف دوماً، والذي كان يرتجف ذعراً كلما اقترب صاروخ من الجيني هانيفر، هو نفسه ذلك المستكشف الشجاع الذي قاتل الدبة وصادق الهمجين البدائيين في أمريكا.

{سوف أذهب إلى السيد أكيوك غداً}. قالت هيستير {لأرى ما إذا كان بإمكانه الإسراع في عملية إصلاح المنطاد}.

فأوماً توم دون أن ينظر إليها، ثم قال: {يعجبني الوضع هنا.. أعني، هذه المدينة... صحيح أن الكتابة تخيم عليها، إلا أنها جميلة، وهي تذكرني بأفضل ما في لندن، وفي ذات الوقت هي لا تفترس المدن الأخرى كما كانت لندن تفعل}.

وفي تلك اللحظة، بدأت هيستير تشهد، بعين خيالها، تلك الفجوة التي ظهرت للتو بينها وبين توم، كشرخ في طبقة من الجليد، يولد ربيعاً يكاد لا يرى، ثم يأخذ في التوسع إلى أن يصير صدعاً.

{إنها مجرد مدينة متحركة أخرى ياتوم، تجارا كانوا أم مفترسين، كلهم واحد. مدن جميلة هي في ظاهرها، بهية أنيقة في طبقاتها العليا، لكن ما إن

توغل إلى الأسفل، فلن تجد سوى العبيد والقذارة والفساد. صدقي، كلما رحلنا عن هنا أسرع كان ذلك أفضل لكلينا}.

عند الساعة السادسة تماماً، عاد إليهم سميو، واصطحبهم عبر درج لولي طويل، إلى إحدى قاعات الاستقبال حيث كانت فريا راسموسين في انتظارهم. وقد بدا أن المارجرافين قد حاولت الإصلاح من هيئة شعرها قليلاً، إلا أن النتيجة لم تكن مثالية... أشارت فريا إلى ضيوفها وقالت {أخشى أن البروفيسور لا يزال متوعكاً، لكنني واثقة بأنه سوف يصبح على مايرام. ما كانت آلهة الثلوج لتكلف نفسها عناء إرساله إلينا هاهنا لو أنها كانت ستدعه يموت الآن، أليس كذلك؟.. هذا لن يكون عادلاً. عموماً، إن مؤرخ من متحف لندن مثلك ياتوم لابد وأنه سوف يكون شغوفاً برؤية محتويات الوندركامر الخاص بي}.

{حسناً، وما هو الوندركامر هذا؟}. تساءلت هيستير، وقد أغضبها تجاهل تلك الفتاة المراهقة لها.

{إنه متحفني الخاص... غرفة العجائب الخاصة بي}. قالتها فريا، ثم عطست فجأة، فوفقت هنية في انتظار أن تحف إليها إحدى خادمتها لتمسح لها أنفها، ثم تذكرت أنهم جميعاً قد ماتوا، فمسحت أنفها في طرف كمها، وأردفت: {إنني أعشق التاريخ ياتوم.. كل تلك الأشياء والمقتنيات التي تم التنقيب عنها واكتشافها إلى الآن، كانت في يوم ما أغراضاً عادية يستخدمها أناس عاديون، إلا أن مرور الزمن عليها قد أكسبها قيمة خاصة}.

أوماً توم مؤيداً وقد بات يتحرق شوقاً لرؤية تلك الحجرة. أما فريا فقد ضحكت في سعادة وقد انتابها إحساس أنها أخيراً قد قابلت روحاً تشبهها... {حينما كنت صغيرة، لم أكن أريد أن أصبح مارجرافين، وإنما أردت أن

أكون مؤرخة، مثلك ومثل البروفيسور بيني رويال. لذا فقد أسست متحفي الخاص... تعال وألق نظرة}.

فتقدمهم سميو، في حين أخذت المارجرافين تتحدث بانطلاق وسعادة أثناء مرورهم عبر العديد من الممرات، ثم قاعة الرقص والاحتفال الضخمة، حيث كانت الثريات تبدل وقد غطتها أكوام من الغبار، ومن قاعة الرقص خرج الجمع إلى رواق زجاجي واسع، حيث تنعكس أضواؤه إلى الخارج وسط الظلام لتفتersh الثلوج والنافورة الجليدية.

وكانت هيستير تسير خلف توم وقد وضعت يديها في جيبيها مكورة إياهما في غيظ، وفي داخلها أخذت تردد [إنها ليست جميلة وحسب... إنها كذلك تقرأ الكتب نفسها التي قرأها، ولديها باع كبير بالتاريخ، كما أنها تعتقد مثله في عدالة الآلهة... إنها تشابه توم كثيرا، كصورته في المرأة. كيف لي مع كل هذا أن يكون لدي أي فرصة في منافستها؟!]

أخيرا وصلوا إلى وجهتهم، ليجدوا أنفسهم في ردهة دائرية. وجأة أجفل توم وارتد إلى الوراء في حركة مباغته، وقد كادت أن تصدر عنه صيحة رعب....فعلى جانبي إحدى البوابات بالردهة، كان يقف اثنان من المطاردين - كما بدا جليا من هئئتهما - يحرسانها!، وما إن وقعت عينا توم عليهما حتى تملك منه الفزع، وقد تذكر تلك المطاردة الرهيبة عبر ساحة الصيد، والتي تعرض لها وهستير، من إحدى تلك الآلات القديمة المربعة. ولكن ما إن أضاء سميو مصابيح الأرجون بالردهة حتى أدرك توم أن هذين الحارسين ليسا سوى هياكل خاوية صدئة تم اكتشافها بين الثلوج، وجلبها إلى هنا حيث اتخذت موضعها على جانبي مدخل متحف فريا كنوع من الزينة.

التفت توم إلى هيستير ليرى ما إذا كانت قد رأت ما رآه هو وارتعبت هي الأخرى، إلا أنها كانت تنظر بعيداً في اتجاه آخر، وقبل أن يتمكن من لفت انتباهها، كان سميود قد فتح الباب فتقدمت المارجرافين تقوده من متحفها، فتبعها توم إلى الداخل وقد انتابه إحساس غريب بأنه قد عاد إلى موطنه أخيراً. صحيح أن المكان كان يبدو أقرب إلى متجر للعاديات والخردوات القديمة منه إلى معرض للمقتنيات، لكنه مع ذلك كان يعجب بالكنوز المتحفية؛ فنذ حرب الستين دقيقة، شهدت الصحاري الجليدية قيام وسقوط على الأقل اثنين من الحضارات، وقد عملت فرياً على اقتناء العديد من الآثار والبقايا الهامة التي خلفتها هاتين الحضارتين.

وكان المتحف يحتوي ضمن ما يحتويه على نموذج مصغر لما يُحتمل أن كانت عليه أنكوراج الأصلية أيام كانت مدينة ساكنة. كذلك كان يحتوي على رف كامل يعجب بأواني الزهور التي تنتمي لثقافة المعدن الأزرق، وبعض الصور الفوتوغرافية لظاهرة الدوائر الجليدية، تلك الظاهرة الغامضة التي تظهر أحياناً في أعالي الجليد.

كان توم يسير بين المعروضات مشدوهاً كالمنوم مغناطيسياً، لدرجة أنه لم يلاحظ مدى توتر هيستير وترددها في اتباعه... {انظري}. قالها وهو يلتفت من فوق كتفه نحو هيستير في سرور، {انظري يا هيستير}. فنظرت هيستير، لتطالع أمامها أشياء ما كانت لتفهمها أو تدرك قيمتها دون تعليم لم يقدر لها أن تتل منه شيئاً.

وعلى الواجهات الزجاجية للمعروضات، كان وجهها المشوه هو ما يطل عليها، وحينما عاودت الالتفات نحو توم وجدته وقد انصرف عنها وأخذ يتطلع في انبهار إلى تمثال جري قديم، فشعرت حينها أن قلبها على وشك الانفطار.

وفي آخر الغرفة، كانت واحدة من مقتنيات فريا المفضلة معلقة هناك، في واجهة عرض زجاجية خاصة.. كانت عبارة عن ورقة معدنية رفيعة فضية اللون، تعود إلى عصر الإمبراطورية الأمريكية، وكان القدماء يطلقون عليها «الورق المفضض»، وقد تم استخراجها من أحد مقالب النفائات القديمة.

تقدمت فريا لتقف بجوار توم إذ كان يقف بدوره مأخوذاً يتأمل الورقة، فأخذت نتطلع هي الأخرى إليها، مستمتعةً بانعكاس وجهيهما جنباً إلى جنب على سطحها اللامع، ثم قالت: {لقد امتلكوا الكثير من الأشياء هؤلاء القدماء}.

{إنه مذهل}. قالها توم مؤيداً، بصوت هامس، فقد أخذه الإجلال والرهبنة أمام ذلك الأثر القديم، حتى شعر وكأنه يقف أمام رمز مقدس صنعته آلهة التاريخ بأناملها.

{تخيلي أن هؤلاء القوم قد بلغ بهم الثراء مبلغاً لدرجة أن يتخلصوا من أشياء قيمة مثل تلك الورقة هكذا ببساطة. حتى أفقر فقرائهم قد عاشوا حياة أشبه بحياة الحكام في زمننا}.

ثم أنهما انتقلا إلى واجهة العرض التالية، والتي كانت تضم مجموعة من الحلقات المعدنية الغريبة، والتي كثيراً ما كان يتم استخراجها من مكبات القمامة، وكان بعضها لا يزال يحمل شارة على شكل دمعة وقد كتب عليها كلمة: اسحب... {إن البروفيسور بيني رويال لا يقبل بالنظرية القائلة أن تلك الأشياء كان يتم إلقاؤها كنفايات}. قالتها فريا {إنه يرى أن تلك المواقع التي يفترض علماء الآثار المعاصرون أنها كانت مكبات للنفايات، لم تكن كذلك أبداً، وإنما كانت بمثابة مواقع دينية، حيث كان القدماء يقدمون قرابينهم

وأضحيتهم من الأشياء الثمينة إلى آلتهم. ألم تقرأ كتابه حول ذلك الموضوع؟
عنوانه: «نفايات... نفايات»... سوف أعيرك إياه.

{شكراً لك}. قالمها توم ممتناً.

{شكراً لك ياسمو إشرافتك}. قالتها فريا مصححة وهي تبسم بعدوبة دون
أن يبدو أنها شعرت بأي إهانة. ثم إنها استأنفت حديثها قائلة، وهي تمر
أناملها على الغبار فوق واجهات العرض: {في الواقع، هذا المكان في حاجة
إلى من يرقاه. لقد كان هناك واحد، إلا أنه هلك في الوباء، أو رحل، لا
أذكر بالضبط. والآن بات كل شئ هاهنا مغطى بالغبار والأثرية. كذلك
هناك العديد من القطع قد سُرقت... بعض الحلي القديمة والآلات، وإن
كنت لا أفهم حقاً من ذا الذي يرغب في مثل تلك الأشياء، ولا كيف
تمكن من الدخول إلى هنا. كل ما أعرفه الآن أن علينا أن نتذكر ماضينا
دوماً من خلال تلك الآثار}.

ثم إنها التفتت إلى توم باسمة وقالت: {بمجرد أن نصل إلى أمريكا، يمكنك
أن تبقى معنا، إنه ليسعدني أن يتولى مؤرخ من لندن إدارة متحفى الصغير.
ويمكنك حينها أن تجري توسعات له، بل وأن تفتحه أمام العامة... سوف
نطلق عليه «معهد راسموسين»}.

أخذ توم يعب هواء المتحف في صدره عباً، مستنشقا الغبار والعطن
وطلاء الأرضية... عندما كان متدرباً في عصبة المؤرخين كان يتوق دوماً
للهرب وخوض المغامرات. أما الآن، بعدما صارت حياته كلها عبارة
عن مغامرة، بدت له فكرة العمل من جديد في متحف للتاريخ مغرية.
فالتفت إلى فريا، ليجد هيسستير تقف وحيدة بالقرب من الباب، تراقبه،
وكان وجهها نصف مخفي في الظلال... نحيلة، تمسك بوشاحها الأحمر

القديم تداري به ما ظهر من وجهها. وللمرة الأولى بدأ يشعر بالانزعاج من وجودها، وتمنى لو أنها كانت أجمل وأكثر مؤانسة.

{أنا آسف}. قالها توم موجهًا حديثه إلى فريا {لكن هيسدير لا تريد البقاء هنا. إنها تفضل دومًا أن تبقى محقة في السماء}.

فالتفت فريا لتطلع إلى الفتاة الأخرى وقد اعتراها الغضب... إنها لم تعتد أن يُرد لها كلمة، ولم تألف أبدًا أن يرفض أحد عرضًا تقدمه له. الأكثر من ذلك أنها كانت قد بدأت تميل إلى هذا المؤرخ الشاب الوسيم، لدرجة أنها قد بدأت تعتقد في داخلها أن آلهة الجليد قد أرسلته إليها كتعويض عن عدم تيق أي فتیان ملائمين لها على متن أنكوراج، ولكن لو أن الأمر كذلك، فلماذا أرسلوا معه تلك الفتاة هيسدير شاو، فهي ليست فقط قبيحة، بل بشعة، كما أنها تقف حائلا بينها وبين ذلك الفتى الذكي، تمامًا كشیطان يحرس أميرًا ساحرًا...!

{آه، حسنا}. قالتها فريا بلهجة عادية وكأن رفضه عرضها لم يسبب لها الإحباط {أعتقد أن إصلاح منطادكما سوف يستغرق من أكيوك بضعة أسابيع، وبهذا سوف يكون أمامك متسع من الوقت لتفكر في الأمر}... وفي قرارها أخذت تفكر: [ومتسع من الوقت كذلك للتخلص من حييتك البشعة تلك].

(١١)

أرواح قلقة

نام توم في تلك الليلة نوما هادئاً عميقاً، وفي أحلامه انغمس من جديد في عالم المتاحف. أما هيسستير فقد رقدت إلى جانبه، لكنها لم تذق للنوم طعمًا، وقد كان الفراش كبيرًا واسعًا، حتى شعرت وكأنها ترقد في الغرفة الأخرى، في حين أنها كانت تحب دومًا أن تنام ملتصقة بتوم، بذلك الفراش الضيق في الجيني هانيفر، حيث وجهها يلامس شعره، وركبتها خلف ركبته، وكأنهما قطعتان متوافقتان من لعبة «البازل» تم تركيبهما معًا.

أما هنا، على ذلك السرير الضخم والحاشية اللينة، فقد التف توم حول نفسه بعيداً عنها، تاركًا إياها وحيدة تمامًا. كانت الغرفة ساخنة جدًا، وقد ألم الهواء الجاف جيوبها الأنفية، ومن الجدران والسقف كانت الاهتزازات المعدنية لأنابيب التدفئة تثير ضوضاء خافتة، كفئران تنشب مخالبها خلف الحوائط، وتزيدها أرقا فوق أرق.

في النهاية، قامت هيسستير من الفراش، وارتدت معطفها وحذاءها، ثم اتجهت خارجة من الغرفة، ثم من القصر بأكمله إلى حيث البرد القارس في الشارع، في تلك الساعة المتأخرة. وعبر درج ثنائي، اتخذت هيسستير طريقها هبوطاً إلى حيث طبقة المحركات بأنكوراج، حيث الضوضاء والاهتزازات المتواصلة، والغلايات وحاملات الوقود المعلقة في الظلام بين أعمدة دعم الطبقة التالية... [الآن سنرى كيف تعامل ملكة الثلوج الصغيرة هذه عمالها] هكذا أخذت هيسستير تفكر، آملة أن تجد ما يصدّم توم ويجعله يبغض هذا المكان ويفقده إعجابه به.

وصلت هيسستير إلى نهاية الدّرج، ثم عبرت جسراً معدنيا للمشاة، وصولاً إلى قناة ضخمة مقسمة، حيث ترتفع المكابس وتببط في حركة متواصلة، مدعومة بعدد من المحركات عتيقة الطراز لدرجة لم يسبق لها أن رأت مثلها من قبل، ذات عجالات دائرية متجعدة.

وفي هذا المكان كان عدد من الرجال والنساء، يتحركون هنا وهناك، حاملين صناديق للأدوات والمعدات، في حين يقود بعضهم جرارات أو آلات عمل ضخمة، لكن لم يكن هناك أي عبيد مكبلين بأغلال، أو مراقبي عمال قساة من الذين توقعت هيسستير أن تجدهم.

وعلى أعمدة دعم الطبقات، انتشرت ملصقات تصور وجه فريا راسموسين، حيث يحني العمال رؤوسهم في احترام كلما غدوا أو راحوا أمامها... [ربما توم على حق] أخذت هيسستير تقول لنفسها [ربما كانت انكوراج مكاناً متحضراً ومسالماً فعلاً كما تبدو. وربما قد يصبح سعيداً إن بقي هاهنا... فرغم كل شيء قد تنجو المدينة من المخاطر المحيقة بتلك الرحلة المزمعة إلى أمريكا، ويصبح توم أميناً لمتحف فريا راسموسين، ويقوم بتعليم

أهل أمريكا البدائيين تاريخ أسلافهم البعيدين والعالم الذي أنشأوه... من يدري، ربما يصبح الجيني هانيفر سفينته الجوية الخاصة، يقوم على متنه برحلات استكشافية عبر الصحاري بحثاً عن التقنيات القديمة... ولكن، هل سيكون حينها في حاجة إليك؟] تساءلت بداخلها في مرارة [وماذا عساك تفعلين من دونه؟]، وحاولت تخيل حياتها بدون توم، لكنها لم تستطع... لظالما علمت أن ذلك الحب لن يدم إلى الأبد، أما الآن، فقد باتت ترى النهاية تلوح في الأفق...

أرادت هيستير أن تصرخ: ليس بعد.. أريد أن أبقى معه لفترة أطول، عاما واحداً، مجرد عام آخر من السعادة... أو اثنين...، ثم إنها أخذت تكفكف الدموع التي فاضت من عينيها، وانطلقت مسرعة بعيداً عن قسم المحركات وضوضائه العالية. وبعد بضعة دقائق خرجت إلى ممر مغطى يمتد بعرض المدينة بأكملها، وأمامها كانت هناك شبكة واقية مصنوعة من الصلب، خلفها كانت أضواء الشمال تتوهج وينعكس نورها على العجلة الخلفية الضخمة للمدينة التي تدور بلا انقطاع؛ فعبرت هيستير الممر ميممة وجهها نحو تلك الشبكة، حتى اقتربت منها، وأخذت تنظر عبرها.

كانت العجلة الخلفية الضخمة للمدينة مصقولة كمرآة، وعبر سلسلة الانعكاسات المتلاحقة استطاعت هيستير أن تلحظ الدوران المتواصل بلا نهاية لأضلع العجلة الحادة؛ إذ تضرب الجليد ضرباً لدفع انكوراج إلى الأمام، صانعة حفرة عميقة في الجليد، في حين يتطاير رذاذ الثلج وشظايا الجليد ليصطدم بالشبكة الواقية.

وعلى بُعد بضعة أقدام، كان جزء من الشبكة مقطوعاً وقد تدلى إلى الداخل، ومن تلك الفُرجة كانت بعض من قطع الجليد تتسرب إلى الداخل

لتنتشـر على أرضـية المـمر. ومن مكانها، وقفت هـيستـير تـأمل تلك الفـجوة، وقد أخذت الفـكرة السـوداء تـختـمر في رأسها... لكم سـيكون سـيراً أن تنسل عـبر تلك الفـتحة لتسـقط إلى الخـارج أسـفل العـجلة، وفي غـضون لـحظات بـسيطة ستؤدي الأذرع الحادة كالنـصال، عملها، ولن يـتبق مـنها بـعدها سـوى كـتلة من الدـم المتجمـد فـوق الثـلوج، لتـصير طـي النـسيان، وكأنها لم تـوجد قط... أو ليس المـوت أفضـل من أن تـبقى لـتـرقب تـوم وهـو يـضـيع مـنها إلى الأبد؟.. أو ليس من الأفضـل أن تـصبح مـيتة من أن تـمسي وحـيدة من جـديد؟ اتخذت قـرارها، وبـسرعة مـدت يـدها لتـمسك بـالحافة المـقطوعة من الشـبكة وتـهم بـاجتيازها... فجأة، شـعرت بـيد قـوية تـمسك بـذراعها، وصوت يـصيح في أذنها: {أكسل؟}، فدارت هـيستـير حـول نـفسها بخـفة وقد التـقطت سـكينها من جـيبها، واستدارت لـمهاجمة مـهاجمها، فـقط لتـجد سورين سـكايوس واقفا خـلفها وعـيناه تـلتـمعان بالأمل والدـموع... قبل أن يـتـعرف إلى وجـهها ويدرك أنها لـيست من كان يـتمنى، فألفـته وقد عاد وجـهه كـما رآته أول مرة، كـثيباً يـجمل حـزنا عميقاً...

{آنسة شاو... لم أتعرف عليك في الظلام... لقد حسبتك...}.

فارتدت هـيستـير للوراء مـبتعدة عـنه قليلاً وهـي تخـفي وجـهها، وقد أخذت تتسأل: منذ متى كان يشاهدها. {ماذا تفعل هنا؟}. سألتـه {ماذا تريد؟}.

شعر الرجل بالإحراج، إلا أنه سارع إلى اتـخاذ الغـضب ستاراً يـداري حـرجه خـلفه، فقال بـلهجة صـارمة {كنت سأطرح عليك نفس السـؤال أيـتها المـلاحـة. هل أتيت لتـتجسـسي على قـسم مـحركاتي؟ أنا واثق من أنك قد حـصلت على فـكرة وافية عـنهم}.

{أنا لا أهتم بمحركاتك تلك البتة}.

{لا؟}. قالها سكايبوس وهو يدنو منها من جديد، ممسكاً بمعصمها هذه المرة {أجد ذلك عصياً على التصديق... لقد قامت عائلي بإنشاء وإدارة قسم المحركات على مدار مايزيد عن عشرين جيلاً، حتى جعلنا منها واحدة من أفضل أنظمة المحركات في العالم... أنا واثق من أنك تخططين للتوجه إلى «أركينجال» أو «راجنارول» وإبلاغهم بكل شئ عنا}.

{لا تكن غيباً}. صاحت هيستير {أنا لا أرغب في ذهاب المدن المفترسة}، وكانت الفكرة قد طرأت على رأسها فجأة، قوية، باردة تماماً كقطع الجليد المتناثر خلفها على الشبكة المعدنية... {على أية حال، من هو أكسل؟ أهو ابنك؟ هذا الذي تحدث عنه سميو، المتوفى؟ أكنت تظن أنني شبحه أو ما شابه؟}.

فترك سكايبوس معصمها، وقد تلاشى غضبه، وأخذت عيناه تجوبان من حوله... نحو العجلة... نحو السماء... في كل مكان من حوله، فيما عدا هيستير، ثم غمغم قائلاً: {إن روحه تهم!}.

لم تتمالك هيستير نفسها، فصدرت عنها ضحكة قصيرة قبيحة، ثم سرعان ما استدركت نفسها، إلا أن الرجل كان يبدو جاداً تماماً، وقد لاحت منه نظرة سريعة نحوها، قبل أن يشيح ببصره من جديد، ومن وجهه اختفت أمارات التجهم والكتابة لأول مرة منذ أن رآته، وحلت محلها ملامح لطيفة حنون... {إن بدو الجليد يؤمنون بأن أرواح الموتى تسكن الأورورا - أضواء الشمال -... يقولون إنه في الليالي التي تتوهج فيها تلك الأضواء، تخرج الأرواح لتسير عبر أعالي الجليد}.

لم تنبس هيستير بينت شفة، وقد شعرت بارتباك أمام حالة الأسي والجنون التي اعترت الرجل، ثم بعد حين قالت: {لا أحد يعود من الأرض التي لا تشرق عليها الشمس ياسيد سكايبوس}.

{بل يفعلون يا آنسة شاو}. أجابها سكايبوس بجدية {منذ بدأت رحلتنا إلى أمريكا والناس يتحدثون عن مشاهدات، تحركات، أشياء تختفي من الغرف المغلقة.. خطوات أقدام، وأصوات تصدر من الأحياء المهجورة منذ الوباء. لهذا آتي إلى هنا كلما سنحت لي الفرصة. واليوم أضواء الشمال متوهجة... لقد لمحتة مرتين، فتى ذو شعر أشقر، ينونحوي من بين الظلال، ثم يختفي بمجرد أن أراه. صدقيني، لم يتبق فتیان ذوو شعر أشقر على قيد الحياة بالمدينة منذ الوباء. إنه أكسل. أنا واثق أنه هو}.

ثم إنه وقف يحدق للحظات في السماء المضئية، ثم استدار وآب راجعاً من حيث أتى، في حين وقفت هيستير في مكانها ترقبه؛ إذ يبتعد حتى اختفى ظله تماماً عند الزاوية في نهاية الممر... كانت ترقبه وتساءل [ترى، هل يؤمن سكايبوس حقاً بأن مدينته يمكنها أن تبلغ أمريكا؟ هل هويكتراث بذلك حتى؟، أم تراه يجاري المارجرين في خططها الطفولية فقط لأنه يأمل أن يجد شبح ابنه ينتظره هناك؟!]

ثم شعرت هيستير برعشة تجتاحها، ولم تكن قد أدركت حتى تلك اللحظة كم هي باردة تلك المنطقة من المدينة. إلا أن شعوراً آخر غريباً كان يستولي عليها كذلك... فبالرغم من أن سكايبوس كان قد مضى، إلا أنها لا تزال تشعر بأنها مُراقَبة، وقد انتصبت الشعيرات الصغيرة في مؤخرة عنقها، فالتفتت تنظر وراءها بسرعة، وهناك، عند فتحة الممر، لمحت، أو خيل لها أنها قد لمحت، الملامح الخارجية لوجه، سرعان ما اختفى في الظلام، تاركاً

فقط تلك اللحظة الخاطفة التي تبقى عالقة في البصر لثوانٍ عقب اختفاء الأشياء، لرأس ذي شعر أشقر مائل للبياض...

لا أحد يعود من الأرض التي لا تشرق عليها الشمس، لطالما كانت تؤمن بذلك بديهيًا، إلا أن ذلك لم يمنع كل قصص الأشباح والأرواح التي سمعتها طوال حياتها، من الانبثاق من أعماق نقطة في عقلها، والتراقص أمام عينيها، فاستدارت على أعقابها وأطلقت ساقها للرياح، وظلت تركض وتركض، بأسرع ما يمكنها، عبر الظلال، إلى حيث الشوارع المأهولة بالبشر.

ومن خلفها، بين شبكة الأنابيب والمواسير المعلقة عبر الممر في الطرف الخلفي للمدينة، أخذ صوت معدني يصلصل، ثم دوى صوت أشبه بالسقوط.

(١٢)

ضيوف غير مدعوين

كان السيد سكايبوس مصيبا ومخطئا في ذات الوقت فيما قاله بصدد الأشباح، فدينته كانت مسكونة بالفعل، ولكن ليس بأرواح الموتى! بدأ الأمر منذ حوالي شهر، وليس في انكوراج، وإنما في «جريم سباي»، وهي عبارة عن مدينة سرية شديدة الغرابة!... بدأ كل شيء بصوت واهن، نقرة خفيضة جدا، أشبه ما تكون بتمرير أظافرك لمرة واحدة فوق سطح لعبة مطاطية. ثم انبعث صوت طقطقة مكبر صوت، ومن السماع المعلقة في سقف غرفة «كول»، بدأ الصوت يحدثه: {استيقظ أيها الفتى، قم.} «العم» يحدثك. هناك مهمة لك.}

فأخذ الفتى يتلهل في فراشه، وهو يظن أنه لا يزال بعد في عالم الأحلام، قبل أن يدرك فجأة أن الصوت يأتيه من الواقع وليس الحلم، فهب كالملسوع من فراشه ووقف مضطربا.

كانت غرفته أكبر قليلاً من خزانة، ولم تكن تحوي سوى سرير واسع مثبت إلى الجدار، وفي كل مكان كانت تنتشر بقع عجيبة هنا وهناك، بالإضافة إلى عدد من الأسلاك المتشابكة في وسط السقف، حيث الكاميرا ومكبر الصوت، عينا وأذنا «العم» كما يطلق عليها الفتية، فقط، دون أي إشارة إلى الفم؛ ومع ذلك فهي هو ذا يتحدث إليه: {هل استيقظت أيها الفتى؟}.

{نعم، نعم أيها العم}. قلها كول، محاولاً ضبط صوته وكلماته... لقد ظل يعمل بجِد في «معمل اللصوصية» طوال يوم أمس محاولاً الإمساك بمجموعة من الصبية الصغار، عبر متاهة الممرات والسلالم التي صممها «العم» لتدريبهم على اللصوصية. وقد عاد الفتى إلى فراشه ليلاً والإجهاذ يكاد يقتله، ومن المفترض أنه قد نام لعدة ساعات، إلا أنه قد شعر حين استيقظ فجأة على صوت العم بأنه لم ينم سوى بضعة دقائق لا أكثر.

أخذ الفتى يهز رأسه محاولاً أن ينفذ النعاس عن عقله، وهو يردد: {لقد صحت أيها العم}.

{جيد}، ومن السقف هبطت الكاميرا وتمددت، واستطالت ناحية الأسفل إلى حيث يقف كول، كثعبان طويل لامع مصنوع من الشرائح المعدنية، تحديق الفتى بعينها الوحيدة، وكان كول يعلم جيداً أن صورته تنبذ الآن على شاشات المراقبة، هناك في مقر «العم»، في الأعلى حيث مبنى البلدية القديم. لذا فقد سارع الفتى لالتقاط الغطاء من على فراشه ليُداري به جسده العاري: {وما هو المطلوب مني بالضبط أيها العم؟}.

{لدي مدينة لك أيها الفتى}. أجابه الصوت، {انكوراج، مدينة جليدية صغيرة جميلة، تتحرك نحو الشمال... سوف تأخذ «الدودة الحلزونية» وتتجه إلى هناك للسطو عليها}.

حاول «كول» أن يجد شيئاً معقولاً ليقوله، وهو لا يزال عارياً يقف ويحدق في عين الكاميرا...

{ حسناً أيها الفتى... ألا تريد تلك المهمة؟... ألا تشعر بأنك أهل لذلك؟ أتجد نفسك غير مستعد لقيادة «الدودة الحلزونية»؟ }

{ آه... نعم.. نعم، بالطبع أريدها. قالها الفتى في لهفة { فقط كنت أفكر، أليست «الدودة الحلزونية» هي مركبة «راس»، ألا ينبغي أن يذهب هو في تلك المهمة، أو أي من الفتيات الأكبر سناً؟ }

{ لا تجادل في أوامري يا فتى. العم يعرف أفضل. إنني بصدد إرسال «وراس» في مهمة أخرى في الجنوب، مما لا يدع أمامنا سبيلاً آخر. في العادة لا أرسل الصبية الصغار في مهمة سطو كهذه، لكنني أعتقد أنك قد صرت مؤهلاً لمثل تلك المهام، كما أن انكوراج تمثل صيداً ثميناً لا يمكن تفويته. }

{ نعم أيها العم، قالها كول مؤيداً، وكان قد سمع منذ فترة عن تلك المهمة الغامضة في الجنوب، حيث يتم إرسال الشباب الأكبر سناً والمركبات الأفضل إليها تباعاً، وقد سرت شائعات تفيد بأن «العم» إنما يخطط لعملية سطو هي الأكبر والأكثر جرأة على مدار تاريخه المهني الطويل، إلا أن أحداً لا يعلم على وجه اليقين طبيعة تلك المهمة.

على أية حال، لم يكن كول ليشغل باله بتلك التفاصيل، خاصة لو كان غياب «وراس» في تلك المهمة الغامضة سيجعله يتولى قيادة مركبته!

مع بلوغه الرابعة عشرة من العمر، كان كول قد خرج بالفعل في العديد من المهام على متن تلك المركبة - الدودة الحلزونية - إلا أنه كان يعتقد أنه سوف يكون عليه الانتظار عامين آخرين قبل أن يتمكن من الاضطلاع بمهامه وقيادة مركبته الخاصة، حيث كان من المعتاد دوماً أن يتولى قيادة

تلك المركبات الفتيان الأكبر سناً والأكثر تمرساً، وحظوة، ممن يسكنون الطوابق العليا، بعيداً عن تلك الأكواخ الضيقة التي عاش بها كول، هنا، في الطوابق الخائفة فوق «معقل اللصوصية» مباشرة، حيث تتسرب الرطوبة والمياه المالحه إلى المسامير الصدئة بأرضية الطبقة وتصدر ألواحها المعدنية صريرها الذي لا يتوقف طوال الليل. وقد كان من المعروف أن تلك الغرف الخائفة التي يحيا بها كول وأمثاله معرضة للانهار في أية لحظة، دون سابق إنذار، لتقتل هؤلاء الصبية بداخلها؛ ومن ثم، فلو أنه فقط استطاع أن يحرز نجاحاً في تلك المهمة، ويجلب للعم مايرضيه، فسوف يتمكن حينها من توديع تلك الحياة البائسة إلى الأبد.

{سوف تأخذ «سكيور» معك، وكذلك «جارجل»}.

{جارجل !!!}. صاح كول في دهشة، ثم سرعان ما حاول استعادة رباطة جأشه وضبط نبراته كي لا يبدو متشككاً في قرارات العم... فقد كان جارجل هذا أكثر صبية مجموعته غباءً وخرقاً، وكانت شخصيته عادة ما تجذب الفتية الأكبر سناً للتمتع عليه وضربه، كما أنه لم يسبق له يوماً أن يتمكن من اجتياز المرحلة الثانية من التدريبات في «المعقل» دون أن يتم الإمساك به، وكان كول عادة هو من يفعل ذلك، فكان يسحبه سريعاً بعيداً عن الممرات قبل أن يراه واحد من المدربين الآخرين فيوسعه ضرباً، مثل «سكيور» الذي كان يستمتع كثيراً بضرب من يفشلون في التدريبات. لقد أعيا ذلك الصبي الأحق ذو الشعر الأبيض، كول كثيراً أثناء التدريبات، والآن يريد منه العم أن يأخذه معه في مهمة عمل حقيقية! {أعرف أن جارجل أحق}. قالها العم، والذي كان دائماً يدرك مايفكر فيه الآخرون حتى وإن لم يتفوهوا به، {ومع ذلك فإنه يملك عقلاً لامعاً!...}

هو يجيد استخدام الآلات، وكذلك تشغيل الكاميرات. لقد أسندت له بعض المهام في الأرشيف، وإني أفكر في نقله للعمل هاهنا بشكل دائم، إلا أنني أريد منك أولاً أن تأخذه إلى الخارج وتجعله يتعرف على الحياة العملية الحقيقية للصبية المفقودين. لقد اخترتك أنت تحديداً لأنك أكثر صبراً وسعة صدر من «وراس» و«ترتل» وباقي الفتية}.

{نعم أيها العم، أنت أدري دائماً بما هو أفضل}.

{بالطبع أنا كذلك. حسناً، سوف تكون على متن «الدودة الحلزونية» مع بداية الدوام... اجلب لي من هناك أشياء قيِّمة يا كول، وحكايات، الكثير من الحكايات}.

{حسناً أيها العم}.

{كول}.

{نعم؟}.

{إحرص على ألا يتم الإمساك بك}.

والآن، ها قد مضى شهر، وهاهو كول، على بُعد مئات الأميال من «جرّيم سباي»، يقبع وسط الظلال وقد حبس أنفاسه، في انتظار أن يبتعد وقع أقدام هيسستير.

مالذي دهاه منذ أن أتى إلى هنا؟ وجعله يتحمل كل تلك المخاطر؟! إن اللص الماهر لا يجعل أي مخلوق يلحّه أبداً، أما هو فقد كان واثقاً من أن تلك الملاحه، هيسستير، قد لحته، وكذلك سكايبوس... هنا شعر كول برجفة شديدة تجتاحه بمجرد أن تخيل مالذي يمكن أن يحدث له لو أن العم قد درى بهذا.

وبعد فترة من الوقت، بمجرد أن تيقن من أن ليس ثمة أحد في الجوار، خرج من مكانه وانسل مسرعاً، في صمت تام، نحو الأسفل، عبر طريق سري، إلى حيث «الدودة الحلزونية» والتي كانت تلتصق بباطن قاع أنكوراج، بالقرب من موضع دفنة القيادة.

كانت الدودة الحلزونية تلك عبارة عن مركبة قديمة وصدئة، إلا أن كول كان سعيداً بقيادتها، خفواً بما تمكن هو وطاقمه من ملئها به من مقتنيات قاموا بسرقتها من المحال والفلل المهجورة بأعلى المدينة. وكان قد ألقى بآخر جعبة استطاع ملئها بالمسروقات، بين بقية الأكياس والبالات المكتظة، والتي كدسوها معاً في المقصورة الأمامية.

وهناك، بين ضجيج المحركات والآلات بقاع المدينة، كان طاقم «الدودة الحلزونية»- المكون بالأساس من ثلاثة صبية - يجلسون في انتظار كول، وقد شهدوا كل ما جرى عبر شاشات المراقبة، فبينما كان هو يتتبع هيستير عبر حي المحركات، كانت كاميراتهم السرية تتعقبها كذلك، وقد سمعوا حديثها مع رئيس المحركات، وأخذوا يتضاحكون في سخرية: {وااا، شبح!}. قالها سكيور، في حين أخذ جارجل يصيح في مرح: {كول.. كول، إن سكايبوس العجوز يظن أنك شبح ابنه، وقد عاد ليلقي عليه التحية!}.

{نعم، سمعت}. قالها كول بينما كان يتقدم ليتخذ مقعده داخل المركبة، وقد شعر بالضيق والاختناق من هوائها الخاطئ مقارنة بالهواء البارد النظيف في الأعلى بالمدينة. كان يتطلع نحو رفيقيه اللذين كانا لا يزالان يتمازحان ويضحكان في حماقة، وقد بدأ يراهما على أنهم أصغر وأكثر خمولاً وأقل حيوية من هؤلاء الأشخاص الذين كان يراقبهم تواء.

كان سكيور في نفس عمر كول تقريباً، إلا أنه كان أقوى جسداً وأكثر ثقةً بالنفس، وقد بدا غريباً بالنسبة لكول أن العم لم يضع سكيور على رأس تلك المهمة بدلاً منه، وكان يشعر في بعض الأحيان، من خلال بعض النكات التي كان سكيور يطلقها بين الحين والآخر، إن الفتى كذلك كان يفكر في ذات الأمر. أما جارجل، ذو العشرة أعوام والعينين المتسعتين فقد اندهشا على الدوام، فقد بدا غير مدرك لذلك التوتر القائم بين زميله، وكما كان كول يتوقع ويخشى، كان الصبي أخرق تماماً غير ذي نفع في المهمة على الإطلاق، فهو لا يجيد السرقة، ويتجمد رعباً كلما اقترب من موضع اختبائه أحد «اليابسين»، وفي أغلب المرات التي خرج فيها في مهمة سطو، كان يعود ويداه ترتجفان وسراويله مبللة، ليجدها سكيور- الذي كان يتلذذ دوماً باستغلال ضعف الآخرين- فرصة سانحة أمامه للاستقواء على الصبي وترهيبه، إلا أن كول كان يقف دوماً حائلاً بينه وبين الصبي المسكين. إنه لا ينسى أبداً أول مهمة تم تكليفه بها، حينما وجد نفسه عالقاً مع اثنين من الفتية الأكبر منه سناً في مركبة أسفل قاع مدينة «زيستات دانسك»، وكيف أنهم أرهبوه وعاملوه بعدوانية.

كان سكيور لا يزال يضحك هازئاً ويقول: {إنك تنزلق دوماً يا كول وتدع للناس فرصة لأن يروك. إنك لمحظوظ حقاً أن الرجل العجوز قد فقد عقله مما جعله يحسبك شبهاً... شبهاً!.. انتظر حتى نعود أدراجنا إلى جريم سباي وسوف أخبر الجميع بذلك... كول الغول.. والواو!..}

{هذا ليس مضحكاً يا سكيور}. صاح كول، فقد كان ما قاله السيد سكايبوس قد مسه بشكل أو بآخر وجعله يشعر بإحساس غريب لا يدري كنهه ولا يعرف السبب وراءه. ثم إنه اتجه نحو نافذة المقصورة بالمركبة ووقف يتأمل انعكاس صورته على زجاجها...

لم يكن ثمة شبه كبير بينه وبين صورة «اكسل» التي رآها حينما كان يفتش مكتب سكايبوس، فقد كان الفتى الراحل أكبر سناً وأكثر امتلاءً، طويل ووسيم، ذو عينين زرقاوين. أما كول فقد كانت له هيئة اللصوص ليس أكثر ولا أقل، نحيلاً كهيكل عظمي، ذا عينين سوداوين. أما الشيء الوحيد المشترك بينه وبين اكسل فكان الشعر، فقد كان كلاهما يمتلك شعراً أشقر مائلاً للأبيض. ولهذا حسب الرجل العجوز مفطور القلب أنه قد رأى ابنه الراحل حينما لمح كول.

ثم إنه استفاق من شروده بين أفكاره، ليجد سكيور لا يزال يحدثه: {...} وأنت تعلم جيداً مايقوله العم. إن أول قاعدة للصوص هي: لا تدع أحداً يلحك أو يمسك بك}.

{لن يمسك بي أحد ياسكيور، أنا حذر}.

{حقاً؟ حسناً، وكيف لمحوك إذن؟}.

{ كل شخص قد يصادفه سوء الحظ أحياناً... إن «بيج سبادجر» ذاته قد اضطر لمواجهة أحد هؤلاء اليايسين الذي استطاع رصده أسفل أركانجيل في العام الماضي}.

{هذا أمر مختلف. في الحقيقة إنك تمضي وقتاً أطول من اللازم في متابعة هؤلاء اليايسين، لا بأس في ذلك إن كان يتم عبر شاشات المراقبة، لكنك تتجول بينهم على أرضهم}.

{نعم، لقد فعل ذلك، لقد رأيته بنفسى}. قالها جارجل، سعياً منه لمداينة سكيور وإرضائه، إلا أن الأخير ما كان منه إلا أن ركله بلا رحمة زاجراً إياه: {اخرس أنت}.

{إنهم يثيرون الاهتمام}.

{إنهم يابسون!}. صاح سكيور وقد نفذ صبره {وأنت تعلم جيداً مايقوله العم عن هؤلاء اليا بسين، إنهم كالماشية، وعقولهم جافة لا تتمتع بالذكاء الذي تتمتع به عقولنا، ولهذا صار لنا الحق الكامل في أن نستولي على مقتنياتهم}.

{أعلم}. غمغم كول، وكان مثل سكيور قد تم تلقيه كل تلك الأفكار حينما كان مجرد مبتدئ في «معقل اللصوصية»... {نحن الصبية المفقودون، نحن أفضل لصوص في العالم}.

كان كول يعلم أن سكيور مصيب فيما يقول، لكنه في كثير من الأحيان كان يشعر بأنه لم يكن من المفترض به أن يصبح صبيّاً مفقوداً على الإطلاق، وقد اكتشف أنه يجب متابعة الناس أكثر من سرقتهم.

مرت لحظات، ثم نهض كول من مقعده، وتناول تقريره الأخير من فوق رف أعلى وحدة التحكم في الكاميرات، ثلاثة عشر صفحة مقتطعة من إحدى أفضل دفاتر المكاتبات الرسمية لفريا راسموسين، وقد تم تسويدها بالكامل بخط يده؛ ثم قال ملوحاً بالتقرير في وجه سكيور: {سوف أرسل ذلك التقرير إلى القاعدة. فالعلم يستشيط غضباً إن لم يتم اطلاعه أولاً بأول على كافة المستجدات}.

{ذلك لن يوازي مقدار غضبه لو أنك تسببت في الإيقاع بنا}.

كان حوض أسماك المراسلات يقع أسفل مقصورة نوم الصبية، وكانت تفوح منه نفس رائحة العرق والجوارب غير المغسولة. وكان الحوض به أرفف تتسع لعشر أسماك مراسلات، تم إرسال ثلاث منها بالفعل، وقد شعر كول بشئ من الأسى يعتريه وهو يشرع في إعداد السمكة الرابعة للانطلاق بالتقرير.. فبعد ستة أسابيع أخرى، ومع إطلاق آخر سمكة مراسلة، سوف يكون الوقت قد حان لحل «الدودة الحلزونية» عن قاع أنكوراج والعودة إلى الوطن، ولسوف يفتقد فريا وشعبها كثيراً... ولكن... ياله من أحق!...

إنهم مجرد حفنة من اليايسين... مجرد صور خرقاء لمجموعة من الأغبياء على شاشات المراقبة، هكذا راح يردد لنفسه.

كانت سمكة المراسلة أشبه مايكون بطوريدي فضي لامع، يكاد طولها يفوق طول كول. وكما هو الحال في كل مرة، انتابه شئ من الرهبة وهو يتفقد خزان وقود السمكة قبل أن يطوي تقريره ويضعه في الموضع المخصص للرسائل، المعزول جيداً عن الماء، بالقرب من خطم السمكة، تمهيداً لإطلاقها كالمعتاد... فمن كل مكان في الشمال، كان قادة تلك الحلزونات ملتزمين - مثله تماماً - بإرسال تقارير دورية عن كل شئ يحدث في مناطق تواجدهم، إلى العم، كي يكون على اطلاع دائم ومستمر بكافة المستجدات، ولكي يتمكن من التخطيط بحكمة لمزيد من السرقات الجريئة والمجزية، وهو ما كان يجعل كول يشعر بالذنب كلما اعتراه إحساس بشئ من الألفة أو الإعجاب بهؤلاء اليايسين، إذ يتذكر كم هو محظوظ بالفعل لكونه صبيًا مفقودًا يعمل لدى «العم»، فالعم دائماً يعرف ما هو الأفضل.

وفي غضون بضعة دقائق، كانت سمكة المراسلة قد انسلت من باطن «الدودة الحلزونية»، وانطلقت في صمت وخفاء أسفل أنكوراج فوق الثلوج، ومع اتخاذ المدينة سبيلها نحو الشمال، كانت السمكة هي الأخرى تشق طريقها بين الجليد نحو الأعماق، وبهدوء وبطء أخذت في حفر فرجة في الجليد الصلب، إلى أن وصلت أخيراً إلى حيث المياه السائلة القائمة أسفل الغطاء الجليدي الجامد. ومن وحدة الذكاء الاصطناعي المتحكم بها بدأت الذبذبات تتسارع، وشرعت السمكة زعانفها، ودارت مروحياتها معلنة بدء انطلاق الرحلة... صحيح أن تلك الأسماك إنما تنتمي للتقنيات القديمة، إلا أنها كانت كافية دوماً لأداء الغرض منها.

(١٣)

ويل هاوس

لم ترو هيستير لتوم ما جرى من أحداث غريبة في تلك الليلة، ولم تنطق بحرف عن الأشباح وما رآته في الطرف الخلفي من المدينة، كي لا تبدو في نظره سخيصة حمقاء. وقد أخذت تقنع نفسها أن ذلك الظل الذي رآته يتطلع إليها لم يكن سوى محض خيال. أما عن السيد سكايبوس، فهو رجل مخبول ليس إلا... المدينة برمتها ستكون عبارة عن مجموعة من المجانين فاقد العقل لو أنهم صدقوا أوهام فريا وبينني رويال حول وجود ساحة صيد خصبة جديدة هناك فيما وراء الجليد، ولسوف يكون توم واحدا من هؤلاء المجانين لو أنه آمن بتلك التخاريف.

لكنها كانت تعرف جيدا أنه ما من مجال لإقناعه بذلك، أو دفعه للتفكير في الأمر على نحو أكثر عقلانية، ولهذا فقد ارتأت أنه من الأفضل لها الآن التركيز على حمايته وإبعاده عن المخاطر.

مرت أيام، فأسابيع، وكانت أنكوراج لا تزال تتخذ سبيلها نحو الشمال، عبر البحار المتجمدة. في تلك الأثناء، كانت هيستير تقضي جل وقتها في

(١٣٠)

الميناء الجوي يتابع سير أعمال الصيانة التي يجريها السيد أكيوك على الجيني هانيفر؛ ولما لم يكن ثمة الكثير مما يمكن أن تقدمه له كمساعدة، حيث لم تكن تجيد أي شيء في أعمال الصيانة، فقد اكتفت بالبقاء على مقربة منه لتناوله ما يحتاج من عدد وأدوات، أو تجلب له بعضها من ورشته، وبين الحين والآخر كانت تصب له كوبا من مشروب الكاكو الداكن من الوعاء الحافظ للحرارة الخاص به، وقد كانت تعتقد أن وجودها المستمر في الورشة وتقديمها لتلك المساعدات البسيطة من شأنه أن يعجل من عملية إصلاح المنطاد واستعادة قدرته على التحليق من جديد، ليحملها بعيدا عن تلك المدينة المسكونة.

وكان توم ينضم إليها في الورشة أحيانا، ولكن ليس دائما، حيث كان يبقى بعيدا في معظم الأوقات، وقد قال لها ذات مرة: {لا ينبغي لنا أن نبقى في الورشة ونتسبب في إزعاج السيد أكيوك... وجودنا هنا يعطله عن عمله}، إلا أن كليهما كان يدرك الحقيقة جيدا ويعرف سبب عدم مرافقته إياها في الورشة والوقوف على سير الإصلاحات كما تفعل هي... إنه مستمتع بحياته الجديدة في أنكوراج، أيما استمتاع، وقد كان يشاق للعيش من جديد على متن مدينة متحركة، ويفتقد تلك الهددة الخفيفة المريحة التي تصدرها ذبذبات المحركات لتبث الحياة في المباني والشوارع... لقد كان يشاق لذلك الشعور بأنه يمضي قدما إلى مكان ما باستمرار، وأن يستيقظ كل صباح على منظر مختلف يطل عليه من نافذة غرفته، حتى وإن كان منظر الجليد الممتد والظلام. أما الأمر الآخر، والذي ربما ما كان توم ليرغب في الاعتراف به حتى ولو لذاته، فهو... فريا. لقد كان يشعر بانجذاب نحوها، وكثيرا ما كانا يلتقيان، سواء في متحف عجائبها، أو في مكتبة القصر، أو المقابلات الرسمية في حضور سميو أو الآنسة باي.

ومع كل يوم جديد، كان توم يقترب من المارجرافين أكثر، فأكثر... إنها تختلف كل الاختلاف عن هبستير، وفي ذات الوقت تماثل كثيراً أولئك الفتيات اللاتي لطالما رآوه في أحلامه أيام كان متدرباً يقضي أيامه وحيداً في متحف لندن. جميلة هي، ومثقفة، صحيح أنها متكلفة نوعاً، ومهووسة بالطقوس والتقاليد والأعراف، لكنه كان يتفهم ذلك تماماً، ويدرك أنها كذلك بحكم نشأتها وطبيعة حياتها. ومع الوقت، كان إعجابه بها يزداد يوماً بعد يوم.

أخيراً تماثل البروفيسور بيني رويال للشفاء التام، وانتقل ليقم في مقر الإقامة الرسمي لرئيس الملاحين، وهو عبارة عن مبنى عال يطلقون عليه «وييل هاوس»، يقف منتصباً في محيط القصر الشتوي، بالقرب من المعبد.

وفي الطابق الأعلى، من هذا المبنى، كانت تقع منصة قيادة المدينة، أما القسم السفلي فكان عبارة عن مسكن فاخر أنيق، حيث أقام بيني رويال. والحقيقة أنه كان راضياً كل الرضا عن وضعه الجديد في هذه المدينة، وسعيداً به إلى أقصى درجة، فلطالما كان ينظر إلى ذاته على أنه شخص مرموق رفيع المقام، وكان من دواعي سروره بالطبع أن يحيا أخيراً على متن مدينة يراه أهلها كذلك.

وبطبيعة الحال، لم يكن بيني رويال يملك أدنى فكرة عن كيفية قيادة مدينة جليدية، لذا فقد ظلت ويندولين باي تتولى أعمال القيادة الفعلية لأنكوراج يومياً، وكانت تقضي ساعة من كل صباح مع المستكشف الكبير يتدارسون الخرائط القليلة التي كانت في حوزة المدينة للمناطق الجليدية الغربية. أما باقي الوقت فقد كان الرجل يقضيه إما مسترخياً في حمام الساونا الخاص به، أو في التسلية بغرفة الاستقبال، أو يذهب للتسكع بين المحلات الراقية شبه المهجورة لانتقاء بعض من الثياب باهظة الأثمان التي تليق بوضعه ومنصبه الجديدين.

{لقد كنا قليلي الحظ بالفعل حينما جئنا إلى أنكوراج ياعزيزي توم}.
قالها البروفيسور لتوم وهما جالسان معاً في إحدى ساعات مابعد الظهر،
في مقر إقامته الجديد، وهو يشير بيد مرصعة بالمجوهرات والحلي إلى مظاهر
الأبهة والفخامة من حولهما إذ جلسا في غرفة المعيشة الفاخرة، حيث
السجاد المزخرف، واللوحات المؤطرة، والمدفئة البرونزية ثلاثية القوائم، تتوهج
منها النيران لتبعث الدفء والسلام بالغرفة، في حين تزار الرياح العاتية في
الخارج وتبعثر الجليد في كل مكان عبر المدينة.

{كيف تسير أعمال الإصلاحات في منطادكما؟}. سأله بيني رويال.

{آه. تسير ببطء}. أجابه توم، ولم يكن قد ذهب إلى الميناء منذ عدة
أيام، ولا يعلم أي شئ عن مدى تقدم الإصلاحات به، ولم يكن حتى يريد
التفكير في الأمر، فقد كان يعرف أنه بمجرد انتهاء أعمال الصيانة وجاهزية
المنطاد للتحليق من جديد، سوف ترغب هيستير في الرحيل، وستجره معها
بعيداً عن تلك المدينة الجميلة، وعن فرياء... إلا أنه شعر بالامتنان إزاء اهتمام
بينى رويال بالأمر.

{وماذا عن الرحلة إلى أمريكا يا بروفيسور؟}. سأله توم بدوره {هل تجري
الأمر على مايرام؟}.

{بالتأكيد}. هتف البروفيسور بحماسة، وهو يعدل من جلسته على
الأريكة ويصلح من وضع رداءه الحريري، ثم صب لنفسه كأساً آخر من
النبيذ، وقدم واحداً إلى توم... {يوجد بعض من أفضل أنواع النبيذ في قبو
هذا المنزل، وسوف تكون خسارة كبيرة لو لم نستمتع بكل قطرة منه قدر
الإمكان قبل أن... ..}.

{عليك أن تستبقي منه يا بروفيسور لنخب الاحتفال بالوصول إلى أمريكا}. قالها توم، الذي كان يجلس على مقعد صغير بالقرب من ساقى رجله العظيم، {هل حددت مسار الرحلة؟}.

{نعم ولا!}. أجاب البروفيسور ملوحاً بكأسه {نعم ولا ياتوم.. بمجرد أن نبليغ أقصى الغرب من جرين لاند سوف نبدأ بالتزليج على طول الطريق. لقد وضع ويندولين وسكايوس خطة شديدة التعقيد للوصول إلى أمريكا عبر سلك مسار متعرج بين العديد من الجزر التي ربما لم تعد موجودة الآن، ثم الانعطاف نحو الساحل الغربي لأمريكا. إلا أنني، ولحسن الحظ، قد تمكنت من اكتشاف طريق أكثر سهولة بكثير}. ثم إنه أشار إلى خارطة معلقة إلى الحائط، وقال: {سوف نقطع الطريق عبر جزيرة بافين إلى خليج هيدسون، حيث تمتد طبقة سميكة وجيدة من الجليد إلى اليمين نحو قلب قارة أمريكا الشمالية. إنه ذات الطريق الذي عبرته عائداً إلى وطني من رحلتي هناك. سوف نعثر على ذلك الطريق، ثم نرفع العجلة الخلفية للمدينة وننطلق عبره إلى حيث الأراضي الخضراء الموعودة}.

فأطلق توم تنهيدة، ثم قال في حزن: {كنت أتمنى لو آتي معكم إلى هناك}.

{لا، لا يا عزيزي!}. قالها الرجل بحدة {إن مكانك هو عبر «مسارات الطيور»، حيث السماء. ما إن يتم إنهاء إصلاح منطادك عليك أن تحلق من جديد أنت ورفيقتك.. الـ الجميلة إلى السماء. بالمناسبة، سمعت أن المارجرافين قد أعارتك بعضاً من كتي؟}.

فما إن سمع توم سيرة فريا حتى احمر وجهه..

{فهل قرأتهم؟}. قالها البروفيسور وهو يصب لنفسه مزيداً من النبيذ {جيدة، أليس كذلك؟}.

لم يدركتوما ماذا يقول، فقد وجد كتابات بيني رويال مثيرة بلا شك، ولكن... كانت المشكلة تكمن في أن تلك الرؤية التاريخية البديلة التي يطرحها الرجل في أعماله كانت غير مستساغة بالنسبة لعقلية متدرب من متحف لندن كتوم. ففي كتابه «أمريكا الجميلة» يقول بيني رويال إنه رأى بقايا ناطحات سحاب قديمة بين أطلال القارة الميتة، في المقابل لم يأت أي مستكشف آخر على ذكر مثل تلك المعالم، ولم تأت سيرتها في أي من كتب التاريخ الأخرى؛ علاوة على أن مثل تلك البقايا لو وجدت فلا بد وأنها قد تأكلت بفعل الصدأ والرياح منذ زمن بعيد. أفلا يحتمل إذن أن تكون تلك المشاهدات ليست سوى هلوسة من عقل بيني رويال، وقد حسبها حقيقة؟!

وفي كتابه الآخر المعنون: «نفايات؟ نفايات!»، يزعم بيني رويال أن تلك الألعاب الصغيرة التي تتخذ شكل قطارات وسيارات، والتي تم إكتشافها في بعض المواقع القديمة، لم تكن ألعاب على الإطلاق!، وكتب يقول: «بلا شك، كانت تلك الآلات والمركبات يتم استخدامها وقيادتها بواسطة كائنات بشرية دقيقة الحجم كان القدماء قد قاموا بتخليقها معمليا من خلال علوم الهندسة الوراثية، لأسباب غير معلومة»...

لم يكن لدى توم أدنى شك في أن بيني رويال مستكشف عظيم، لكن المشكلة هي أنه حين يجلس إلى آله الكاتبة، فإن خياله الخصب ربما يأخذه بعيداً، ويصور له أشياء لم تكن موجودة يوماً.

{توم؟}. هتف بيني رويال فأعاد توم إلى أرض الواقع بعيداً عن سيل أفكاره، {لا تنجل يا فتى، ولتعلم أن الكاتب الجيد لا يرفض أبداً النقد (البنائي)... أعني (النقل البنوي)....} (*) .

* - يقصد: نقداً بئاً.

{ لا أرى شيئاً...}. أردف توم، ثم صمت بغتة ولم يكمل جملة، ففي اللحظة التالية مباشرة، حيث كانت الرياح وثوران الثلوج قد خفت نوعاً، لاح له من بعيد ذلك البريق المنبعث من أضواء بعيدة نحو الشمال، وقد أدرك في التو أنها أضواء ضاحية قناصين، قد تبدت أمام أنكوراج عبر الفراغ الممتد.

(١٤)

الضاحية

جلست فريا تعد قائمة بالضيوف الذين ستدعوهم إلى العشاء معها، ولم يكن ذلك بالعمل السهل لها. فقد جرت التقاليد على أن يكون ضيوف المارجرافين من الأفراد الذين ينتمون إلى الطبقة العليا بالمدينة فقط، ولكن نظراً لما آلت إليه الأمور في أنكوراج، فإن ذلك يعني أن تقتصر الدعوة على السيد سكالبيوس فقط، والذي كان أبعد ما يكون عن أن يمثل صحة طيبة لأي أحد.

صحيح أن وصول بروفيسور بيني رويال إلى مدينتها قد أضفى نوعاً من البهجة في الأجواء، وصحيح كذلك أنه من المقبول - من ناحية الأعراف والتقاليد - أن تقوم المارجرافين باستضافة رئيس الملاحين على مائدتها، ومع ذلك فإن الرجل لم تعد لصحبته ذات البريق الأول الذي كانت عليه في الأيام الأولى لوصوله، وحتى قصصه الأخاذة قد باتت مع الوقت واهية نوعاً ما. كما أن الرجل كان يفرط في الشراب أكثر من اللازم.

أما الحقيقة التي لم تكن تريد الاعتراف بها ولو حتى أمام نفسها، أنها إنما ترغب في دعوى شخص واحد فقط دون غيره ليشاركها العشاء... توم. كانت تتنى أن يجالسها على مائدة العشاء، فقط هو وهو، وأن تراه يتطلع إليها على ضوء الشموع ويخبرها كم جميلة، وقد كانت على ثقة من أنه يريد ذلك. لكنه ليس سوى مجرد ملاح عادي، فكيف لها أن تدعوه إلى مائدة المارجرافين؟! وحتى وإن تحدثت التقاليد وقامت بدعوته، فسوف يأتي وبصحبه صديقه الكريمة تلك، وبهذا لن تجري الأمسية كما تريدها.

تراجعت فريا في مقعدها وهي تنهد في ضيق، ومن على الجدار المقابل، كانت صور الحاكات السابقات من أسلافها يتطلعن إليها في حنو، فراحت تنظر إليهن وتساءل في داخلها.. ترى مالذي كانت لتفعله أي منهن لو أنها كانت في مثل موقفها؟! ولكن، ما كان لهذا أن يحدث أبداً، فبالنسبة لأسلافها كانت التقاليد العريقة للمدينة هي ما يحكم ويتحكم في كل شيء، ويمثل دليلاً ناجعاً لا يخطئ أبداً، ونبراساً كاشفاً لما يجب وما لا يجب أن يكون؛ ولطالما كانت حيوات أولئك الجدات الحاكات دقيقة صارمة كدقات الساعة... [إنه قدرتي أن أصير حاكمة في مثل هذه السن المبكرة، وأن أتحمل، وأنا بعد في ربيع عمري، كل تلك القواعد والقوانين والأعراف التي ماعدت تصلح لهذا الزمان]

ومع ذلك، فقد كانت تدرك تماماً أنها إن هي نزعت عنها درع التقاليد الواقية، فسوف تواجه صنوفاً وأشكالاً من البلايا لا قبل لها بها، فهؤلاء الذين ظلوا على متن المدينة بعد الوباء ولم يغادروها إنما قد فعلوا ذلك لأنهم يوقرون المارجرافين ويثقون بحكمتها، فلو أنها الآن تخلت عن احترامها للتقاليد وسلكت مسلكاً لا يليق بمكانتها، فهل سيقون هم على احترامهم لها؟ وهل سيجارونها في خططها ويتبعونها أينما ذهبت؟...

ظلت تلك الأفكار تعتمل في رأسها بلا هوادة بينما كانت تمرر أناملها في شروود بين فراء كلبها الصغير الجالس في ركن الغرفة. ثم إنها عادت إلى رشدها أخيراً، وأولت انتباهها من جديد إلى قائمة المدعويين، ذلك حين اقتحم سميو الغرفة على حين غرة، ثم تذكر أن ذلك مخالف للتقاليد العتيقة، فتراجع خارجاً ثم وقف أمام الباب وقام بطرقه ثلاث مرات كما جرى العرف.

{يمكنك الدخول أيها الحاجب}.

فدخل من جديد، وهو بالكاد يلتقط أنفاسه، ثم أخذ يصلح من وضع قبعته، ويقول لاهناً {آسف، يا سمو إشرافتك، ولكن لدي أنباء سيئة من وحدة قيادة المدينة... يا إشرافتك، هناك ضاحية مفترسة قبالتنا}.

ما إن وصلت فرياً إلى وحدة القيادة حتى كان الطقس العاصف قد أغلق مجال الرؤية تماماً، وما عاد في الإمكان رؤية أي شئ في الخارج، سوى العاصفة الثلجية العاتية.

{حسنًا؟!} هتفت فرياً، ما إن خطت خارجة من المصعد، حتى قبل أن يعلن سميو عن وصولها كما تنص التقاليد، فانحنى ويندولين باي في كياسة، ثم قالت في رعب: {ضوء الحقول الجليدية... إنني واثقة من أنها «وولفرين هامبتون»، لقد رأيت بنفسى أبراجها الثلاثة المعدنية الواقعة خلف فكها.. لا بد أنها تقبع هناك وتنتظر البلدات التي تدنو نحو جرين لاند...}.

{وما هي «وولفرين هامبتون» أصلاً؟!} قاطعتها فرياً متسائلة، وهي تمنى في قرارها لو أنها كانت قد أولت دروسها الانتباه الكافي، لعرفت حينها ما تتحدث عنه باي دون حاجة للسؤال.

{هاهي ياسمو إشرافتك...}. قالها توم وهو يلوح بكتاب في يده، ولم تكن قد لاحظت وجوده إلا حينما تكلم، وقد شعرت حينها بشئ من الحرارة داخلها بمجرد أن سمعت صوته...

{لقد بحثت عنها في دليل «كاد» للمدن المتحركة}.

فتناولت منه الكتاب وهي تبسم، إلا أن ابتسامتها سرعان ما تلاشت بمجرد أن فتحت الكتاب على الصفحة التي كان قد وضع بها علامة ورأت الرسم التوضيحي المصور بها وما كُتب أدناه: ««ولفرين هامبتون»... ضاحية تتحدث باللغة الأنجليكانية، كانت قد نزحت شمالا في عام ٧٦٨، لتصبح واحدة من أكثر المفترسات الصغيرة ضراوة في أعالي الجليد. تمتلك فكين هائلين، وتعرف باستغلالها للبشر الذين تستعبدهم بقسوة في تشغيل محركاتها، مما يجعلها من أكثر المدن التي ينبغي تجنبها».

أغلقت فريا الكتاب، وفي تلك اللحظة اهتزت الألواح الأرضية أسفل قدميها، فأجفلت وقد أخذت نتصور الفكين الهائلين لولفرين هامبتون وهما يطبقان على مدينتها؛ لكن الأمر لم يكن كذلك، وإنما فقط توقفت محركات المدينة. وفي غضون لحظات قليلة كانت سرعة أنكوراج آخذة في التراجع، ونحمد صوت المحركات لدرجة أنه بات ممكنا سماع صوت زخات الثلج إذ ترتطم بالجدران الزجاجية للغرفة.

{مالذي يحدث؟}. تساءل توم {هل هناك خطب ما في المحركات؟}.

{إننا نتوقف}. أجابته ويندولين باي {بسبب العاصفة}.

{ولكن، هناك ضاحية مفترسة قبالتنا!}.

{أعلم ياتوم، وباله من توقيت قاتل، لكننا عادة ماتتوقف عن التحرك ونقوم بالرسو حينما تكون هناك عاصفة عاتية كهذه. إنه خطر داهم أن نتحرك خلال مثل تلك العواصف الشديدة التي تهب من ناحية أقصى مرتفعات الشمال، والتي قد تصل سرعتها إلى خمسمائة ميل في الساعة. وكثيرا ما أطاحت مثل تلك العواصف بالمدن الصغيرة، ففي شتاء ٦٩ تسببت عاصفة مماثلة في انقلاب مدينة «سكريلينج شافن» على ظهرها نكنفسه صغيرة}.

{يمكننا أن نستخدم «القطط»}. قالت فريا.

{قطط؟ أي قطط؟}. صاح بيني رويال {إنني أعاني من الحساسية}.

{سمو! إشراقها تقصد الجرات يابروفيسور}. قالتها الآتسة باي مفسرة، ثم {صحيح أنها ستمنحنا مزيدا من القدرة على التحرك، لكنها لن تكون كافية، ليس في ظل مثل تلك العاصفة}.

زارت العاصفة من جديد، وكأنما لتؤيد كلام ويندولين باي، وارتجت الجدران الزجاجية مصدرة صوت صرير، وقد تقوست قليلا نحو الداخل بفعل قوة الرياح.

{وماذا عن تلك الضاحية «وولفرين تونهام»؟!}. تساءل بيني رويال وهو بعد مترآخ فوق كرسيه {أولن يتوقفوا هم أيضا؟}.

فنظر الجميع إلى ويندولين باي، والتي هزت رأسها نفياً وقالت {بكل أسف لن يفعلوا. إنهم أقل ارتفاعاً وأثقل وزناً من مدينتنا، لذا يمكنهم ببساطة التحرك خلال العاصفة دون أن يصيبهم ضرر}.

{سحقاً}. قالها البروفيسور وهو يوشك على البكاء {إذن فسوف يلتهمونا لا محالة. لا بد أنهم قد تمكنوا من تحديد موقعنا قبل أن تحجب العاصفة الرؤية. فقط سوف يتبعون محسّاتهم ثم ينقضون علينا}.

وبرغم أنه كان لا يزال مترنحاً من أثر السكر، إلا أن كلامه قد بدا منطقياً لتوم، فقال معقّباً {لا يمكننا أن نجلس هكذا مكتوفي الأيدي وننتظر أن يتم التهامنا}.

ف نظرت الأنسة باي إلى مؤشرات أجهزة قياس سرعة الرياح، وقالت {لم يسبق لأنكورايج أن تحركت وسط عاصفة بهذه القوة..}.

فصاح توم {إذن ربما قد حان الوقت لتفعل ذلك!}، ثم إنه التفت نحو فريا، وقال {تحدثي إلى سكايبوس، قولي له أن يطفئ أنوار المدينة، ولنحول المسار، ثم يطلق المدينة على أقصى سرعة لها بقدر ما يمكنه عبر العاصفة. ربما من الأفضل أن تنقلب المدينة عن أن يتم التهامها، أليس كذلك؟}.

{كيف تجرؤ أن تتحدث إلى سمو إشرقتها بهذا الأسلوب!}. صاح سميو، أما فريا فقد كانت تشعر بسعادة وامتنان بالغين لا كثرات توم بأمر مدينتها إلى هذا الحد.

ومع ذلك، فهناك تقاليد لا بد من أخذها بعين الاعتبار عند اتخاذ أية قرارات، فقالت: {لا أظن أنني أستطيع فعل ذلك ياتوم، لا، لم يسبق لمارجراين أن أصدرت هكذا أمر من قبل}.

{وكذلك لم يسبق لمارجراين أن أصدرت أوامرها بالارتحال إلى أمريكا}. أجابها توم.

هنا كان بيني رويال قد تمكن أخيرا من رفع نفسه عن المقعد، وقبل أن يتمكن سميو أو أي أحد من ردعه، كان الرجل قد أزاح توم جانبا واندفع نحو فريا ثم قام بجرها من كتفها، وأخذ يهزها بعنف لدرجة جعلت حليها تهتز بعنف وتضرب بعضها بعضا مصدرة صوتا، وصاح: {افعلي ما يقول «تيم»!... نفذي مايقوله أيتها الفتاة الساذجة السخيفة الحمقاء. نفذي قبل أن ينتهي بنا الأمر جميعا وقد صرنا عبيدا في باطن تلك الـ} وولفرتينغام «!}.

{ياللهول، ماذا تفعل يا بروفيسور بيني رويال؟!}. قالتها باي شاهقة في رعب، في حين صرخ سميو {ارفع يديك القذرتين عن سمو إشرقتها}. وقد استل سيفه مشهرا إياه في مستوى ركبي بيني رويال!

أما فريا فقد حررت نفسها أخيرا من بين أيدي الرجل وقد كانت ترتجف من الغضب والسخط، وأخذت تمسح رذاذ اللعاب المتطاير من فمها على وجهها. كانت تشتعل غضبا، فما من أحد جرؤ من قبل على أن يخاطبها بتلك الطريقة، وللحظة أخذت تؤنب نفسها [تلك هي النتيجة الطبيعية لكسر التقاليد وتعيين أحد العوام في مركز رفيع كهذا].

ثم سرعان ماتذكرت «ولفرين هامبتون» التي تدنو من مدينتها عبر العاصفة، بفكيها العملاقين وأفران أحشائها المشتعلة، فالتفتت نحو ملاحها وقالت: {سوف نفعل ماقله توم... لا تقفوا هكذا محمقين. أبلغوا السيد سكايبوس، سوف نحول المسار ونسير بأقصى سرعة}.

ارتفعت مرساة المدينة عن الجليد ثانية، وبدأت التورينيات في قلب منطقة محركات سكايبوس تهدر من جديد، في حين تم إنزال الجراتات العريضة التي خرجت من أطراف أنكوراج فوق أذرع مائة، ترتعش بين سحب البخار ومضادات التجمد، إلى أن استقرت فوق الجليد. وفي غضون

لحظات كانت أنكوراج تحول مسارها، وقد ارتجت قليلاً بسبب الرياح العاتية التي تجتاحها. لو أن آلهة الثلوج تكون رحيمة معهم، فإن وولفرين هامبتون لن تلاحظ تلك المناورة. أما ما الذي أتى بتلك المدينة المفترسة هاهنا، وإلى أين تتجه بالضبط، فهو مالا يعلم به سوى الآلهة فقط.

والآن، هاهي أنكوراج قد أطفأت أضواءها وبدأت تتخذ سبيلها عبر الظلام الدامس.

في تلك الأثناء، كان كول منهمكاً في ملء جعبته بالمزيد من أجزاء الآلات في إحدى الورش الخاوية بمنطقة المحركات، حين بدأت المدينة في تحويل مسارها، وقد كادت الحركة المفاجئة تفقده توازنه وتوقعه أرضاً، فاحتضن جعبته بما فيها بقوة كي لا يسقط مافيا من مسروقات محدثة جلبه، وبسرعة وخفة أخذ يركض عبر الممرات والشوارع التي باتت مألوفة له، إلى حيث قلب حي المحركات، ثم انسل محتبئاً بين اثنين من خزانات الوقود الفارغة.

ومن مكنه سمع العمال يصيحون في بعضهم البعض ويهرعون هنا وهناك إلى مواقعهم، وقد فهم بالتدريج ما يحدث، فتكور حول نفسه وسط الظلال وهو يتساءل عما يتعين عليه فعله...

ولكن، في واقع الأمر، لقد كان في أعماقه يعرف جيداً ما ينبغي عليه فعله في مثل تلك الظروف، فقواعد العم واضحة لا تحتمل التأويل: في حال تعرضت المدينة، والتي يقومون بسرقتها لخطر الاقتراس، فإن أي مركبة ملتصقة بها من مركبات الصبية المفقودين عليها أن تتحل عنها فوراً، إعمالاً للقاعدة الأعم: لاتدع أحداً يكتشف أمرك ويمسك بك. ففي حال تم اكتشاف ولو مركبة واحدة من مركباتهم وعلمت مدن الشمال بأمر

وجودهم وكيف أنهم يتسللون إليها ويمارسون السطو عليها طوال كل تلك السنوات، فسوف تشرع تلك المدن في اتخاذ احتياطات مشددة بها ونشر حرسها في كل مكان، وبهذا سوف تنهار أعمال «الصبية المفقودين» وتصبح حياتهم من بعد ذلك مستحيلة.

ومع ذلك، فإن كول لم يتخذ طريقه عائداً إلى الدودة الحلزونية، فهو ما كان راغباً في الرحيل عن أنكوراج، ليس بعد، وقد أخذ يحاول إقناع نفسه بأن السبب في ذلك هو أن تلك المدينة هي مهمته الخاصة وأنها لا يزال بها الكثير من النفائس مما يمكن سرقة، وما كان يسمح لأحد، حتى ولو كان ضاحية مفترسة، أن يحرمه من صيده الثمين هذا، ويتسبب في فشل مهمته الأولى ليعود مهزوماً إلى موطنه..... هذا ما طفق يردده على نفسه، لكن ذلك لم يكن أبداً السبب الحقيقي وراء تمسكه بالبقاء في تلك المدينة، وكان في أعماق أعماقه يعرف ذلك جيداً...

لقد كان كول يخفي سراً عميقاً لا يمكنه أبداً البوح به لأي مخلوق. فالحقيقة الخفية التي كان يخفيها في قلبه هي أنه..... قد أحب هؤلاء القوم الذين يقوم بسرقتهم!، وهو يعلم أن ذلك خطأ كبير بالنسبة لصبي مفقود، لكنه لم يستطع أن يمنع نفسه من ذلك.

لقد كان يكثر كثيراً لأمر ويندولين باي ويشعر بتعاطف معها إزاء ما تخفيه من خوف شديد، وإحساسها الدائم بأنها غير كفء بما يكفي لمهام قيادة المدينة نحو أمريكا. كذلك كان يشعر بالقلق على حال السيد سكايبوس. ولكم أخذ بشجاعة سميو... والزوجين أكيوك... والرجال والنساء المكافحين في منطقة المحركات وفي السوق ومزارع الطحالب....

أما عن توم فقد كان منجذبا بشدة إلى شخصيته ولطفه، معجبا بحياته بين أرجاء السماء، وكثيرا ما كان يشعر بأنه هو ذاته كان ليصير مثل توم تماما لو لم يكن العم قد التقطه ليصبح صبيا مفقودا.

أما فريا، فما كان ليجد الكلمات الملائمة والوافية لوصف مزيج المشاعر التي أثارها في قلبه.

ارتفع هدير المحركات عالياً، وأخذت المدينة ترتج، ومن مخبئه تناهى إلى مسامع كول دوي سقوط أشياء ثقيلة فوق سطح المدينة، ثم أخذت تتدحرج بقوة في مكان ما عبر الشوارع، وبرغم ذلك كله فإنه ما كان ليطاوعه قلبه على الرحيل، لا يمكنه أن يترك هؤلاء القوم ويرحل عنهم... الآن فقط استطاع أن يواجه نفسه بتلك الحقيقة.

حسناً، لسوف يبقى في مخبئه لحين انتهاء ذلك كله، وكان يعلم أن سكيور وجارجل لا يمكنهما أبدا حل المركبة والرحيل دونه، وحتى وإن كانوا يرونه الآن مختبئا، فإنهما لا يمكنهما الاطلاع على أفكاره ولا مايعتمل داخل نفسه، ولسوف يخبرهما لاحقا أنه لم يكن ليجرؤ على المخاطرة بمحاولة العودة إلى المركبة في ظل كل تلك الفوضى... كل شئ سيكون على ميرام، ولسوف تنجو أنكوراج، إنه يثق في الآنسة باي، وسكايوس، وفريا.

لطالما شاهد توم عمليات الاصطياد والقنص، عبر شاشات الرصد على متن الطبقة الثانية من مدينته لندن، وكثيرا ما شارك قومه لحظات المرح وهم يراقبون مدينتهم؛ إذ تطارد البلدات التجارية والصناعية الصغرى ثم تنقض عليها لتفترسها اقتراسا.

أما الآن، فهذه هي المرة الأولى التي يتبادل فيها الأدوار ويعايش تلك الخبرة، ولكن من المنظور المقابل... الفريسة. هاهو ذا يجرب ولأول

مرة شعور الفريسة إذ تطاردها إحدى المفترسات، وهو شعور ممض قاس، لامتعة فيه على الإطلاق.

وقد كان في تلك الساعات يود لو كان لديه عمل ما لينهمك به مثل ويندولين باي وطاقمها، الذين عكفوا على رسم مزيد من الخرائط ومطالعة جداول الإحداثيات والمسارات، وقد أخذوا يعبون أكوابا لا تنتهي من القهوة لتساعدهم على التركيز والعمل، ومن حين لآخر تجدهم يتطلعون في تضرع نحو تماثيل آلهة الثلوج القائمة في المحراب المقدس بمقر قيادة المدينة، عليها تنقذهم من الاقتراس.

{لماذا يبدو الجميع على هذا القدر من العصبية والخوف إزاء تحويل مسار المدينة بين الرياح؟}. تساءل توم، ملتفتا نحو فريا التي كانت تقف في الجوار وليس لديها ما تفعله، مثله تماما، {إن الرياح ليست على هذا القدر من السوء، على الأقل هي لن تنسب في انقلاب المدينة، أليس كذلك؟}.

زمت فريا شفيتها وأومات، فقد كانت تعرف طبيعة مدينتها أكثر من توم، وكانت تشعر بتلك الرجفة التي تسري تحت قدميها وعبر ألواح المدينة، بينما تنسل العاصفة أسفلها محاولة رفعها في الهواء والإطاحة بها على الثلوج. ولم تكن الرياح فقط هي ما يخشونه... {أغلب مناطق أعالي الجليد آمنة}. قالت فريا {ومعظم الغطاء الجليدي بها يبلغ سمكه ألف قدم، وفي بعض المناطق قد يمتد سمك الجليد إلى قاع المحيط. ولكن، هناك بعض المناطق يكون غطاؤها الجليدي رقيقا. كذلك توجد الـ«بولينياس»، وهي بحيرات من الثلوج السائلة وسط الجليد، وأيضا توجد مشكلة أخرى تمثل في الحلقات الجليدية... بالنسبة للبولينياس فلن يكون من الصعب علينا تفاديها حيث إنها موضحة بالكامل في خرائط الآنسة باي، ولكن تبقى الحلقات الجليدية هي المشكلة الحقيقية، فبالرغم من كونها أصغر حجما من البولينياس، إلا أنها

منتشرة بشكل عشوائي تماماً على الجليد، فإذا انزلقت إحدى زلاجاتنا بها فسوف تنقلب المدينة؟.

هنا تذكر توم الصور الفوتوغرافية لتلك الحلقات والتي سبق ورآها في متحف العجائب، فتساءل: {وما السبب في تكونها؟}.

{لا أحد يعلم... ربما تكونت بفعل التيارات المائية أسفل الجليد، أو ربما بفعل الاهتزازات الناتجة عن تحركات المدن عبر الجليد. إنك دائماً ما تراها حيثما مرت إحدى المدن.. إنها غريبة جداً، فهي دائرية كاملة الاستدارة ذات حواف انسيابية تماماً. يقول بدو الجليد إن الأشباح هي من صنعها كفتحات لصيد الأسماك!}. قالتها ثم ضحكت، وقد سرها أن تتحدث عن أشياء أخرى كأساطير أعالي الجليد، بدلاً من التفكير في واقعهم المرعب وتلك الضاحية المفترسة المتربصة بهم هناك وسط العاصفة.

{هناك أشكال وألوان من الحكايا والقصص التي تدور حول أعالي الجليد، مثل أشباح سرطان البحر... العناكب العملاقة التي يوازي طولها ارتفاع الجبال الجليدية، حيث تروي القصص أن البعض قد رأى تلك الكائنات في ضوء الشفق القطبي.. لطالما زارتنى تلك الكائنات في كوايبيسي وأنا بعد صغيرة...}.

ثم إنها دنت من توم أكثر، حتى لامس ذراعها كم رداءه، وقد شعرت أن في ذلك جرأة كبيرة منها، وبدأ الأمر لها في أوله مخيفاً يجافي كل التقاليد والأعراف العتيقة، أما الآن وبينما هم يشقون عباب العاصفة ويتحدون وولفرين هامبتون، فقد بدا لها وكأنهم يتحدون معها تقاليد أنكوراج كذلك؛ وبدأ إحساس آخر يعتريها، أقوى من إحساس الخوف والرهبة... إحساس البهجة، نعم، تلك هي الكلمة الصحيحة لوصف مشاعرهما في تلك اللحظة...

كانت مبهجة لوجود توم إلى جوارها، وقد قررت في داخلها أنه لو قُدر لهم النجاة مما هم فيه الآن، فسوف تقدم على كسر مزيد من التقاليد وتقوم بدعوته ليشاركها العشاء، وحدهما.

{توم...}. همست فريا.

لكنه قد صاح في نفس اللحظة {آنسة باي، ماهذا؟!}.

وهناك، في الظلام خارج حدود أنكوراج، توهجت فجأة مجموعة من الأضواء، ثم ظهرت العجلات العملاقة المسننة والنوافذ المضيئة لمباني وولفرين هامبتون، على يمين المسار الجديد لأنكوراج، وقد أدركوا أن تلك هي خلفية الضاحية المرعبة.

لقد كانت وولفرين هامبتون تنعطف نحو المسار المعاكس حينما رصدت أنكوراج في الأفق، إلا أن فكها العملاقين قد جعلها من انعطافها ثانية تجاه المدينة بطيئاً ثقيلاً، كذلك كان الثلج والضباب الكثيف يحولان دون رؤية الضاحية المقترسة لفريستها، خاصة وسط الظلام.

{حمداً لكويرك}. همس توم مطلقاً زفرة ارتياح، ثم ضحك. وهنا، كانت أنامل فريا تضغط على أنامله، ففي أوج المفاجأة والفرحة تشابكت أناملهما معاً ولم يدر إلا وكفها الدافئ المكتنز في كفه، فأجفل وترك يدها سريعاً وهو يشعر بحرج شديد... وقد اكتشف أنه، منذ بدء المطاردة، لم يفكر في هيستير ولو للحظة واحدة.

هنا أصدرت الآنسة باي أوامرها بتغيير المسار من جديد، وإعادة توجيه المدينة عبر متاهات العاصفة الرهيبة. مرت ساعة، ثم أخرى، وبدأ شعور تدريجي بالنجاة من الهلاك يسود وحدة القيادة، وقد أدركوا جميعاً أن وولفرين هامبتون لن تهدر وقودها في محاولة مطاردتهم عبر هذا الظلام، كما

أنه بحلول الفجر سوف تكون العاصفة قد محت آثارهم على الجليد.
وأخيرا أحسوا بالخلاص، فأخذت الآنسة باي تعانق أفراد طاقمها في
سعادة، ثم قائد الدفة، وهي تهتف {لقد فعلناها، لقد نجونا}. كذلك كانت
فريا مبتهجة بخلاص مدينتها من الخطر المميت.
أما البروفيسور بيني رويال فقد راح في سبات عميق في ركن القاعة،
وقد شعر أخيرا بزوال الخطر.

وكان توم يعانق الملاحه المخضمة ويضحك في جذل، فقد كان سعيدا
أيما سعادة بالنجاة، وبأنه على متن هذه المدينة، بين هؤلاء القوم الطيبين
اللطفاء، وقد اتخذ قراره بأن يتحدث إلى هيسستير بمجرد انتهاء العاصفة ويحاول
إقناعها بعدم حاجتهما للإقلاع فور انتهاء إصلاحات الجيني هانيفر.

وما إن وضع توم كفه مستندا إلى طاولة الخرائط، حتى أحس بالإيقاع
المنتظم لمركات أنكوراج يعود من جديد، فشعر حينها بأنه في موطنه.

وفي فندق رخيص خلف الميناء الجوي على متن وولفرين هامبتون،
كانت الزوجات الخمس لويديجري بلينكو يمسكن ببطونهن في ألم وقد
تقلصت وجوههن واستحالت إلى اللون الأخضر، وأنينهن لا يتوقف لحظة
واحدة، إذ أخذت الضاحية تتمايل وترجرج في حركتها الغاضبة وسط
العاصفة بعدما ضاعت منها فريستها...

{لم أكن يوما في حياتي على متن بلدة مريعة كمثل تلك البلدة}. قالتها
إحدى الزوجات وهي تنشج من الألم، في حين صاحت الثانية {ألا يملك
ذلك الفندق أي آليات لامتصاص الصدمات؟!}.

{فيم كنت تفكر بالضبط، وأين كان عقلك، وأنت تأتي بنا إلى هذا المكان يا رجل؟}.

{كان عليك أن تعرف أنك لن تجد أثراً للجيني هانيفر على متن مثل تلك الضاحية}.

{ليتني كنت رحلت مع العزيز بيني رويال. لقد كان مغرماً بي بجنون!}.

{ليتني استمعت لنصيحة أمي!}.

{أريد أن نعود إلى أركانجيل}.

ظلت الزوجات يبكين ويخنن، ويمطرن زوجهن بالشكوى والصياح، إلا أن ويدجري بليנקو كان قد وضع في أذنيه قطعتين من الشمع ليصمهما عن شكواهن ونحيبهن، لكنه كان خائفاً هو الآخر، وكان يشعر بالغثيان والإعياء مثلهن تماماً، يفتقد منزله وحياته المريحة؛ وفي سره أخذ يلعن جماعة العاصفة الخضراء التي أرسلته في تلك المهمة المريعة.

لقد مرت عدة أسابيع الآن وهو لا يزال يرتحل عبر الأراضي الجليدية القاحلة، كبداو الجليد، ينتقل من بلدة إلى أخرى، باحثاً عن الجيني هانيفر، أو على الأقل يسعى للحصول على أية أخبار عنه. وقد أخبره بعض القوم أنهم قد شاهدوا المنطاد يحلق نحو الشمال عقب تحطم سرب «العاصفة الخضراء»، إلا أن أحداً لم يره منذ ذلك الحين وكأنه قد تبخر تماماً... إلى أن انتهى به المطاف هو وزوجاته الغاضبات على متن وولفرين هامبتون.

ثم إنه أخذ يفكر في تلك المدينة التي حاولت الضاحية المريعة الانقضاض عليها، أنكوراج؛ فلو أنه ألقع من هنا بمجرد انتهاء العاصفة فقد يتمكن من الهبوط بها... ولكن، ما الجدوى؟!، لقد كان على ثقة بأن هذين الملاحين

الشابين لن يطيرا بمنطادهما المتداعي هذا عبر كل تلك المسافة نحو أقصى الغرب. بالإضافة إلى ذلك فإنه كان قد بدأ يشعر أنه من الأهون عليه أن يواجه هؤلاء القتلة أعضاء العاصفة الخضراء، على أن يخبر زوجته أنهم بصدد الانتقال إلى مرفأ جديد على متن مدينة أخرى..... لقد حان الوقت لتغيير مخططاته.

ثم إنه نزع عن أذنيه سدادتي الشمع، في اللحظة التي كانت زوجته الثالثة تقول في كآبة {... والآه هاهم قد فقدوا فريستهم، ولسوف يكونوا غاضبين بشدة... سوف يقتلوننا لا محالة، وسوف يكون كل هذا ذنب بليينكو}.

{هراء}. صاح بليينكو بصرامة، ليذكرهم بأنه رب هذه الأسرة {لن يُقتل أحد. بمجرد أن تسكن العاصفة سوف نستقل منطادنا ونعود أدراجنا إلى أركانجيل. سوف أبيع المعلومات التي عرفتُها عن مسارات بعض البلدات إلى الصيادين هناك، وبهذا لن تكون رحلتنا قد ضاعت سدى... أما بالنسبة للعاصفة الخضراء، فالمر فأ الجوي بأركانجيل يستقبل أشكالا وأنواعا من الملاحين، ولسوف أستفسر منهم جميعاً عن أي معلومات حول الجيني هانيفر، فلا بد وأن أحدهم يعرف شيئاً عنه.

هستير وحيدة

مع دوي العاصفة، أخذ صوت الرياح المخيف يزأر عالياً، فأعلى، وقد أدت الريح لانهيار العديد من المباني الخاوية في الطبقة العليا، في حين فقد بعضها الآخر أسطحه ونوافذه. وكان اثنان من عمال السيد سكايبوس قد تجاسرا على الخروج إلى الأعلى من أجل إعادة تثبيت أحد الألواح الأرضية التي تفككت بفعل الرياح، فقط ليحدا نفسيهما وقد صارا كالريشة تحملها الريح العاتية، وكانا لا يزالان متشبثين بأسلاك السحب المثبتة إلى اللوح الأرضي الذي طار معهما إلى الأعلى، حتى بات المشهد المرعب أشبه بطائرة ورقية تتلاعب بها يد العاصفة وتطوحها في كل مكان، إلى أن اختفيا تماماً في الظلام.

في تلك الأثناء كانت هستير لا تزال في ورش الصيانة بصحبة السيد أكيوك، تساعده في أعمال إصلاح الجيني هانيفر، حينما دخل عليهما ابن أخيه مسرعاً لينبئهما بأن المدينة تتعرض للمطاردة. وكان أول ما خطر ببال هستير حينها أن تركض إلى حيث القصر الشتوي لتبقى مع توم، ولكن

ما إن بلغت بوابة عنبر الصيانة حتى ضربتها الرياح لتطيح بها إلى ركن العنبر. ومع اشتداد العاصفة الرهيبة، ومنظر الثلوج في كل مكان، أيقنت هيستير أنها لن تتمكن بأية حال من الوصول إلى ماهو أبعد من منزل السيد أكيوك...

وفي المطبخ، جلست هيستير في حين أعدت لها السيدة أكيوك بعضاً من حساء الطحالب، وقد أخذ الزوجان يحاولان بث شيء من الطمأنينة في نفسها، وقد أكدا لها أن عواصف أسوأ من تلك بكثير قد مرت بالمدينة دون أن يقع مكروه. وقد شعرت هيستير بامتنان لهما إزاء رغبتهما في طمأننتها، لكنها ليست طفلة، وقد أدركت جيداً أن وراء تلك الوجوه المتبسمة، قلوباً ترتعش خوفاً.. كانا خائفين مثلها تماماً، لكنهما حاولا قدر الإمكان إخفاء ذلك عنها.

ولم يكن الأمر يقتصر فقط على العاصفة المربعة غير المتوقعة التي أمست المدينة بين أنيابها، ولكن هناك أيضاً تلك المدينة المفترسة التي تتربص بهم لتبتلعهم... [ليس الآن!] قالتها هيستير لنفسها وهي تفرك أصابعها المتجمدة من البرد كي يتدفق الدم فيهما.. [لا أريد أن يتم التهامنا الآن.. نحتاج فقط لأسبوع أو بضعة أيام ليس إلا...] فقد انتهت تقريباً أعمال الصيانة في الجبني هانيفر ولم يتبق سوى بعض اللمسات النهائية؛ لقد تم إصلاح ما كان قد تلف في المحرك، وتم ترقيع الرق في الغلاف الغازي، أما خلايا الغاز وأنابيبه فقد تم ملئها، ولم يعد ينقص المنطاد الآن سوى بعض الطلاء، بالإضافة إلى بعض أعمال الصيانة البسيطة في الدائرة الكهربائية بالزورق؛ وإنها لسوف تكون سخريّة قاسية من الآلهة أن يتم التهامهم الآن وقد باتا على وشك الإقلاع.

وبعد حين، دق جرس الهاتف، فهرعت السيدة أكيوك لترد، ثم عادت لتزف إليهم البشرى: {إنها السيدة أوميكا. لقد علمت من منصة القيادة أننا قد أفلتنا من «وولفرين هامبتون»، وأن علينا الآن أن نستأنف المسير وسط الرياح لمسافة أخرى، قبل أن نرسو لحين انتهاء العاصفة. من الواضح أن السيد العزيز بيني رويال هو من اقترح ذلك على سمو إشرافتها. ياله من رجل عظيم، علينا جميعاً أن نقدم شكرنا لآلهة الثلوج على إرسالها له إلينا. وأنت يا عزيزتي هيستير، أحب أن أطمئنك أن فتاك الشاب بخير حال وأنه قد عاد سالماً إلى القصر الشتوي}.

وبعدها بقليل، اتصلت توم بنفسه بمنزل السيد أكيوك وقال نفس الكلام تقريباً، وقد جاء صوته ضعيفاً جافاً عبر أسلاك الهاتف، وكأنه يتحدث من بعد آخر...

{لكم كنت أتمنى أن أكون معك}. قالتها هيستير بصوت خافت وهي تلصق بوق التحدث بالسماحة بفمها كي لا تسمعها السيدة أكيوك.

{ماذا؟ عذراً؟.. لا، من الأفضل أن نبقي حيث نحن الآن. لقد أخبرتني فريا كيف أن بعض الناس قد يموتون تجمداً في الشوارع أثناء مثل تلك العواصف. لقد كادت الرياح تطيح بالركبة أثناء عودة سميوبنا من منصة القيادة إلى القصر الشتوي}.

{صرت تناديها باسمها المجرد الآن، فريا، إذن؟}

{ماذا؟}

{المنطاد قد بات جاهزاً تقريباً للتحليق من جديد. يمكننا المغادرة بحلول نهاية الأسبوع}.

{آه... جيد!}. قالها توم، وقد ميزت هيسدير نبذة التردد التي سرت في صوته حينها، بينما كانت أصوات أخرى تتردد في الخلفية من ناحيته، تتحدث في سعادة، وقد بدا أن هناك الكثير من القوم موجودين في القصر يحتفلون بالنجاة.

{ولكن... ربما يمكننا الانتظار هنا قليلاً}. قال توم {أريد لو نبقي هاهنا إلى أن نصل إلى أمريكا، وحينها... آه... سوف نرى...}.

فابتسمت هيسدير، وتنشقت قليلاً ثم حاولت التحدث من جديد، لكنها لم تستطع، فصمتت. إنه يبدو سعيداً، وقد تعلق بذلك المكان وأحبه، ولن يكون من الملائم أن تنتقص من سعادته أو أن تغضب منه، أو تخبره أنها إنما تفضل الارتحال إلى أي مكان آخر عدا القارة الميتة.

{هيسدير؟}.

{أنا أحبك ياتوم}.

{لا أسمعك بوضوح}.

{لا بأس... سوف أراك قريباً، بمجرد انتهاء العاصفة}.

لكن العاصفة ظلت قائمة تضرب أطناها في كل مكان، وما كان ثمة إشارات تنبئ بقرب انقضاءها. وقد ظلت أنكوراج تتحرك ببطء ناحية الغرب لبضعة ساعات أخرى، سعيًا لإبعاد المسافة بينها وبين وولفرين هامبتون. ومع ذلك فقد أخذت تتحرك بحذر شديد، ليس فقط خشية البحيرات السائلة أو طبقات الجليد الرفيعة، وإنما هناك خطر آخر كان على المدينة أن تحذر منه، فقد كانت الآن تدنو من مشارف «جرين لاند»، حيث تبرز التواءات الجبلية من بين أسطح الجليد لتمزق قيعان المدن التي لا تنتبه لمثل ذلك الخطر.

قام السيء سكايبوس بتخفيض الطاقة المستهلكة بالمدينة بمقدار النصف، ثم خفضها من جديد، ثم من جوانب المدينة انبعثت أضواء الاستكشاف، كأصابع طويلة بيضاء تمتد لتزيج ستار الثلوج جانباً، وانطلقت فرق المسح الأرضي فوق زلاجات آلية لاستكشاف الجليد، في حين عكفت الأنسة باي على تفقد خرائطها، والتضرع للنجوم أن تهديهم للطريق الصحيح... إلا أن تضرعاتها لم يستجب لها، وفي النهاية اضطرت المدينة للتوقف.

وفي منزل أكويك، جلست هيستير بجوار المدفأة، وأخذت نتطلع إلى صور الأبناء الراحلين لمضيفها، الكائنة في محراب المنزل، وكذلك إلى الصحائف التذكارية المعلقة والتي تخلد ذكرى مواليد وزيجات واحتفالات أسرة راسموسن الحاكمة. كانوا جميعاً لهم نفس ملامح فريا تقريباً... فرياً، والتي لا بد وأنها جالسة الآن بصحبة توم، حيث الدفء والدعة، في القصر الشتوي. ربما هما الآن يشربان النبيذ ويتحدثان عن التاريخ وحول كتبهم المفضلة...

امتلاأت عينا هيستير بالدموع، فسارعت بالاستئذان من الزوجين أكويك قبل أن يلاحظا عبراتها ويسألونها عن الخطب، وسارعت نحو الدرج، ثم اعتلته بسرعة إلى حيث الغرفة التي أعدها لها.

[ولماذا استمر في وضع يسبب لي كل هذا الألم؟!]، قالتها هيستير لنفسها، وقد راحت تفكر في أنه ربما يكون من الأفضل لها أن تواجه توم بمجرد انتهاء العاصفة، وأن تقول له إن كل شيء قد انتهى وأنه إن أراد البقاء هنا مع ملكة الثلوج تلك فليبق...

لكنها ما كانت لتقوى على مثل تلك المواجهة، إنه توم، الشيء الوحيد الجيد الذي حازت به في حياتها كلها. إن وضعها يختلف عن وضع فريا

وتوم تماماً، فكل منهما لطيف المعشر جميل الطلعة، يملك العديد من الفرص لإيجاد الحب، أما هي... هيسستير شاو... ما كان لها أن تجد شخصاً آخر ليحبها... [ليت وولفرين هامبتون قد التهمتنا!] رددتها باكية، وقد ثقلت رأسها وباتت على وشك النوم من فرط الإعياء والصداع...، على الأقل كان توم سيحتاج إلى وجودها بجواره من جديد في قسم العبيد بأحشاء تلك المدينة المفترسة...

وحينما صحت من غفوتها المجهدة، كان الليل قد انتصف، وقد همدت العاصفة أخيراً. ارتدت هيسستير ثيابها الثقيلة سريعاً، ووضعت القفازات والقناع الواقي من الصقيع، ثم اتجهت عبر الدرج نحو الطابق السفلي. وهناك، حيث كان صوت الغطيط يأتيها من ناحية غرفة نوم السيد والسيدة أكيوك، انسلت هيسستير نحو باب المطبخ الدافئ، ومن المطبخ خرجت من المنزل إلى حيث البرد.

كان القمر مكتملاً، يتبدى هناك حيث الأفق الجنوبي، كعملة مفقودة في السماء؛ وعلى ضوئه كان بمقدور هيسستير أن ترى مباني الطبقة العليا وقد غطتها الثلوج، في حين تددت الكتل المتجمدة من أعمدة الشوارع والرافعات في الميناء الجوي. لكم تمنى هيسستير أن يكون توم بصحبته الآن، يتشاركان معاً تلك الأمسية الباردة الجميلة.. فقط هي وهو، في تلك الشوارع المهجورة، ربما كانت حينها لتخبره بما يعتمل في نفسها.

ثم إنها راحت تركض، وتركض، عبر الثلوج، والهواء البارد يتسلل عبر قناعها الواقي ليلسع وجهها، ثم إنها صعدت الدرج المؤدي إلى حيث القصر الشتوي، ومن الأسفل كان صوت الموسيقى والضحكات المنبعثة من قسم المحركات يتناهى إلى مسامعها، إذ كانوا يحتفلون هناك بنجاة أنكوراج.

أخيرا بلغت بوابة القصر، فأخذت تدق الجرس، إلى أن انفتح الباب
كاشفاً عن وجه سميو..

{عذراً}. قالتها هيستير وهي تندفع إلى الداخل، ومعها اندفعت موجة من
الصقيع، إلى حيث الردهة.. {أعلم أن الوقت متأخر. لقد جئت لرؤية توم.
لاداعي لأن تزجج حالك، فأنا أعرف الطريق جيداً...}.

{هو ليس في غرفته}، قالها سميو وهو يلف عليه رداءه المنزلي فوق منامته
{إنه في متحف العجائب مع سمو اشراقته}.

{في تلك الساعة؟!}.

فأوماً سميو متجهماً {سمو اشراقته ترغب في ألا يزججهما أحد}.

فغمغت هيستير {حسناً، لسوف تزجج إذن، شئت ذلك أم لم تشأ}،
ثم إنها أزاحت سميو جانبا وانطلقت عبر ممرات القصر، بينما أخذت تقنع
نفسها أنهما ولا بد قد ذهبا إلى هناك لمشاهدة بعض من مقتنيات مجموعتها
من الخلفات القديمة، وفي غمرة انشغالهما لم يشعرا بمرور الوقت، وأنها ولا بد
سوف تجد توم الآن وقد انهمك في حديث طويل حول الأحجار الرونية،
أو أواني السيراميك من القرن الثالث والعشرين، أو أي من تلك الأمور...

كان الضوء ينسرب من الباب المفتوح للمتحف، وقد أبطأت هيستير
الخطى لما دنت منه. ربما كان من الأفضل أن تدلف مباشرة وتهتف في
مرح: {مرحباً}، لكنها لم تكن مرحلة يوماً، بل هي من النوع الانطوائي
الذي يفضل التوازي في الأركان المظلمة، وهو ما فعلته هذه المرة أيضاً،
حيث وجدت ركناً مظلماً خلف أحد هياكل المطاردين المنتصب على باب
المتحف، فتسللت خلفه، وتوارت. ومن مكنها هذا كان يوسعها أن تسمع
فرياً وتوم يتبادلان الحديث، لكن حديثهما كان خافتاً هامساً، فلم تتمكن من

تفسير مايقال. كان توم يضحك، ومع ضحكاته كان قلبها يخفق بعنف، فنذ سقوط لندن وحتى وصولهما إلى أنكوراج، كانت هي، هيستير، الشخص الوحيد القادر على جعله يضحك هكذا.

تسللت هيستير من جديد خارجة من مخبئها وتسربت عبر بوابة المتحف إلى الداخل، في حين كان توم وفريا في الجانب الآخر منه، يفصل بينهما وبينها العديد من واجهات العرض وآنية الحفظ المغبرة ؛ وعبر ألواح الزجاج السميكة للواجهات، كان في مقدورها أن ترى انعكاسا مبهما متماوجا لهما... كانا يقفان على مسافة قريبة جدا من بعضهما البعض، يتهاامسان بصوت خفيض، ففتحت هيستير فمها وهمت بقول أي شيء فقط لقطع تواصلهما وجذب انتباههما عن بعضهما البعض...

لكنها لم تستطع أن تبس بحرف، لقد ماتت الكلمات في حلقها. ومن موقعها حيث وقفت، شاهدت بعينها فريا إذ تدنو أكثر من توم، وفي لحظة واحدة تعانق الاثنان وراحا يتبادلان القبلات.

وقفت هيستير متجمدة في مكانها، دون صوت، فقط تتطلع إليهما وترقب الأنامل البيضاء لفريا تتحرك عبر الشعر الداكن لتوم، فيما كانت يدها تحوطان بكتفها.

منذ تلك الليلة في أحشاء لندن، يوم هاجمت فالانتاين ابتغاء قتله، لم تشعر هيستير بذلك الغضب العارم وتلك الرغبة النارية في قتل أحد مثلها تشعر الآن. كانت مشدودة متوترة كقوس، وقد باتت على استعداد تام لأن تقبض على أحد تلك الأسلحة الحادة المعروضة بالقاعة، لتقبض بها عليهما، وتظل تطعن.. وتطعن.. وتطعن، الاثنين، كليهما... توم.. توم..

كان الغضب يصعقها صعقاً، ومع ذلك فقد تراجعت في سكون، وتسلت من جديد خارج المتحف. وفي الرواق، كانت هناك واحدة من تلك الغرف الحرارية، فاندفعت هيستير إليها، ومنها إلى حيث الليل والبرد والثلوج، لتنهار باكية فوق الجليد، عاجزة لاتقوى على أي شيء. وكان الأمر الأكثر فظاعة بالنسبة لها من تلك القُبلة، هو أنها فكرت ولو للحظة واحدة في إيذاء توم... كيف لها أن تؤذيه؟! ولماذا؟، فالذنب ليس ذنبه هو، بل هو ذنب تلك الفتاة، تلك الفتاة التي سحرته. إنه لم ينظر إلى أي امرأة من قبل، إلى أن قابل تلك المارجرافين السخيفة. نعم، هو كذلك... هكذا راحت تردد لنفسها، وقد أخذت تتخيل نفسها وهي تقتل فرياء.. ولكن، أهذا هو التصرف الأمثل؟ وماذا سيكون رد فعل توم حينها؟، لسوف يكرهها كثيراً إن هي فعلت ذلك.

ثم إن الأمر لا يتعلق بفرياء وحدها، وإنما بتلك المدينة برمتها، تلك المدينة التي أسرت قلبه حتى صار متمسكاً بها..... لقد إنتهى كل شيء، وضاع منها توم، ولسوف تبقى في مكانها، وسط البرد والصقيع إلى أن تموت، ليجد حبيبها جسدها المتجمد في الصباح، ويمسي نادماً على ما قد وقع.

لكنها كانت تعلم جيداً أنها ما كانت لتموت بتلك السهولة، فلطالما نجت من الموت المحقق.

مرت بضعة لحظات، ثم نهضت من جديد على يديها وركبتيها، وأخذت تحاول تهدئة روعها وكفكفة دموعها. وكان الصقيع يقبض على حنجرتها قبضاً ويقضم شفتيها وأطراف أذنيها. وفي رأسها، بدأت الفكرة الخبيثة تتبلور وتتجسد حتى باتت كثعبان أحمر يتلوى ويلتف حول منحنها.

كانت فكرة مريعة بحق، لدرجة أنها احتاجت لبضع لحظات كي تستوعب أنها حقاً من بنات أفكارها الخاصة وأنها قادرة على خلق مثل تلك الفكرة الشنيعة. ثم إنها اتجهت صوب إحدى النوافذ، فمسحت عنها الثلوج ثم أخذت نتطلع إلى انعكاسها على الزجاج، وتساءل: أيمكن أن تنجح تلك الفكرة؟! وهل تجرؤ هي على تنفيذها؟ ولكن، ما كان أمامها من خيار آخر سوى المحاولة، فهي أمهلها الوحيد.

ثم إنها عقدت عزمها، فأحكمت غطاء الرأس فوق دماغها، وأعادت قناع البرد على وجهها، ثم اتخذت طريقها عبر الثلوج، على هدى ضوء القمر، صوب الميناء الجوي.

كان يوماً غريباً بالنسبة لتوم، فقد علّق داخل القصر الشتوي، حيث كانت العاصفة لا تزال تضرب النوافذ وتطيح بكل شئ في طريقها، بينما كانت هيستير في الجانب الآخر من المدينة... يوم غريب، وأمسية أغرب! حيث كان يجلس في المكتبة يطالع واحداً من كتب بيني رويال محاولاً التركيز فيما يقرأ، حينما دخل عليه سميو مرتدياً زي الحاجب، ليخبره أن المارجرافين تدعوه لمشاركتها العشاء، وقد بدا جلياً لتوم من التعبيرات البادية على وجه سميو أن تلك الدعوة تمثل شرفاً عظيماً. وحينما اتجه إلى غرفته ليستعد للعشاء، وجد زياً رسمياً نظيفاً في انتظاره... {إنه يخص الحاجب السابق}. قالها سميو وهو يساعد على ارتدائه {أحسب أن مقاسه يناسبك}.

ولم يكن توم قد ارتدى رداء مثل ذلك الرداء من قبل، وحينما نظر إلى صورته في المرآة فوجئ أمامه بشاب وسيم أنيق، لا يشابهه على الإطلاق. ولكم كان يشعر بتوتر شديد حينما راح يتبع سميو إلى حيث قاعة العشاء الخاصة بالمارجرافين؛ وكانت الرياح حينها لا تزال تضرب النوافذ، لكنها قد صارت أقل حدة من ذي قبل، وقد راح يفكر أن العاصفة ربما على

وشك الانتهاء، فقرر أن يتناول العشاء بأسرع ما يمكن ثم يذهب للبحث عن هبستير.

ولكن، ما كان ليتيسر له أبداً أن يتناول طعامه سريعاً وهو يجلس في عشاء رسمي في حضرة المارجرافين.

أخذ سميو، مرتدياً زي الخادم، يضع الأطباق واحداً تلو الآخر على طاولة العشاء، ثم يسرع إلى المطبخ ليرتدي زي الطاهي ويبدأ في إعداد المزيد من صنوف الطعام، أو يهرع إلى حيث قبو النبيذ لجلب قنينة أخرى من النبيذ المعتق.

ومع مرور الوقت، وجد توم نفسه يتراجع عن فكرة الاستئذان والخروج في ظل تلك العاصفة، فقد كانت فرياً رفيق طعام جيد، وقد شعر بالغبطة أنه بصحبتهما وحدهما.

كانت المارجرافين تبدو متألقة في تلك الليلة، وأكثر انطلافاً، وكأنها قد ارتأت أنها بتجروها على دعوة توم إلى العشاء إنما قد كسرت كل التقاليد، فصارت من بعد ذلك أكثر جرأة وتبسطاً في حديثها معه؛ وقد أخذت تحكي له الكثير عن عائلتها وتاريخ أنكوراج، وكذلك عن جدتها البعيدة «دوللي راسموسين»، تلك الفتاة التي كانت لاتزال في مرحلة الدراسة الثانوية في أنكوراج الأصلية، حينما بدأت تراودها رؤى تنبئها بحرب الستين دقيقة قبل أن تقع، وكيف أنها قد قادت جماعة من قومها إلى خارج المدينة قبيل نشوب الحرب وفناء موطنهم.

وكان توم يتطلع إليها إذ تتحدث، وقد لاحظ أنها قد حاولت تصفيف شعرها بطريقة تجعلها فاتنة، كما أنها قد ارتدت أكثر ثيابها أناقة وأقلها تلفاً...

أيعقل أن تكون قد كلفت نفسها عناء كل ذلك التأنيق من أجله هو؟
شعرتوم بالحماسة والإثارة جراء ذلك الخاطر، إلا أن شعورا آخر بالاحساس
بالذنب قد راوده في نفس الوقت، فأشاح بناظره عنها لتلقي عيناه بعيني
سميو اللتين كان يلوح بهما عدم الرضا عن ذلك الوضع، بينما كان يرفع
أطباق الحلوى عن المائدة ويصب القهوة.

{هل تريدن شيئاً آخر يا سميو إشراقتك؟}

{لا يا سميو، شكراً لك، يمكنك الانصراف. أظن أنني وتوم سوف
نذهب إلى متحف العجائب}. قالتها فريا وهي ترتشف قهوتها وتطلع إلى توم
من فوق فئجانه.

{بالطبع يا سميو إشراقتك. سوف انتظر مرافقتكما}.

فظرت إليه فريا بحدة ثم قالت {لا داعي لذلك يا سميو، يمكنك
الانصراف}.

شعرتوم بارتباك الخادم، وكان هو ذاته مرتبكاً، لكن ربما كان ذلك
من فعل النبذ وقد لعب برأسه، ثم إنه قال: {حسناً.. ربما في يوم آخر...}.
{لا ياتوم}. قالتها وقد أدنت أناملها لتلمس كفه، {الآن، الليلة. اسمع،
إن العاصفة لعلى وشك الانتهاء، لسوف يكون المتحف جميلاً في ضوء
القمر...}

وقد كان كذلك بالفعل... كان المتحف جميلاً في ضوء القمر المتسلل
من النوافذ، لكنه لم يكن أبداً في جمال فريا وبهائها، إذ أخذت تتقدم توم
نحو المتحف، وقد فهم الآن لماذا يحبها أهل أنكوراج ويتبعونها... وتمنى من
داخله لو كانت هيستير تشبهها قليلاً! لقد بات في الآونة الأخيرة يفكر كثيراً

في مبررات لما عليه شخصية هيستير وطبائعها، وصار يقول لنفسه في كل يوم أنها تتصف بتلك الطباع بسبب الفظائع التي مرت بها في حياتها... ولكن، فريا هي الأخرى قد مرت بالكثير من الآلام والأحداث الفظيعة، لكنها لا تحمل كل تلك المرارة والغضب في شخصيتها.

كان القمر يطل عليهما عبر إحدى النوافذ التي غطت الثلوج معظمها، وقد مست أشعته المعروضات المألوفة فجعلتها تتألق بنوره. والتمت الرقائق المفضضة داخل واجهة الحفظ الخاصة بها، وكأنما قد استحالت إلى نافذة تطل على عالم آخر، ذلك حينما التفتت فريا نحو توم في ظلال الضوء المفضض.

حينها أدرك توم أنها إنما ترغب في أن يقبلها، وقد شعر وكأن ثمة مغناطيس غريب يشد وجهيهما نحو بعضهما البعض. وما إن تلامست شفثاهما حتى ندت عن فريا أنه خافتة، ثم اقتربت منه أكثر فأكثر، فأحاطها بذراعيه تلقائياً. وقد كانت تفوح منها رائحة عرق خفيفة بدت غريبة في البداية، ثم استحالت حلوة جذابة بعد حين. أما فيها فقد كان به مذاق من نكهة القرفة.

فجأة، سمعا جلبة خفيفة تأتي من ناحية الباب، أعقبتها دفقة من الهواء البارد قادم من الممر، فأجفلت فريا، وكذلك توم الذي أبعدا عنه بلطف. {ما هذا؟}. همست فريا {أظن أنني سمعت أحدهم...}.

فاتجه توم نحو الباب، وقد شعر بالسرور لأنه أخيراً قد وجد عذراً للابتعاد عن أحضانها الدافئة ورائحتها الجذابة، ثم قال {لا يوجد أحد. أظن أنه صوت أنابيب التدفئة. إنها دائماً ماتصدر جلبة}.

{نعم، أعلم، إنه أمر مزعج. أنا واثقة من تلك الأنابيب لم يسبق استخدامها قبل أن تأتي إلى أعالي الجليد}. ثم إنها دنت منه من جديد ومدت ذراعيها {توم...}.

{يجب أن أذهب الآن}. قالها توم {الوقت قد تأخر. أنا آسف.. شكرا لك}، ثم هرع صاعدا عبر الدرج إلى حيث غرفته، وهناك أخذ يفكر في هيستير، محاولا تجاهل مذاق القرفة الذي علق في شفتيه من شفتي فريا. يال «هيت» المسكينة، لقد بدا من صوتها أثناء حديثهما عبر الهاتف كم أنها تشعر بالوحدة. يجب عليه أن يذهب إليها، فقط سوف يستلقي قليلا ويحاول جمع شتات أفكاره، ثم يخرج ليتوجه رأسا إلى الميناء.

ثم إنه أغلق عينيه، مستلذا بالنوم فوق الحاشية الطرية، وقد شعر بأن الغرفة تدور به. لقد شرب الكثير من النيذ... ولا بد أنه كان تحت تأثيره حينما قام بتبادل القبلات مع فريا. إنه يحب هيستير، ولكن... لماذا إذن لا يمكنه التوقف عن التفكير في فريا؟!... {أيها الأحق!}. قالها لنفسه بصوت عالٍ.

ومن فوقه أخذت أنابيب التدفئة تصلصل وتصدر جلبتها، وكأن شيئا ما بداخلها يرتج موافقا إياه الرأي، إلا أن توم لم يلحظ ذلك، فقد كان قد غرق في النعاس.

لم تكن هيستير هي الوحيدة التي شاهدت توم وفريا يتبادلان القبلات، وإنما كول كذلك، إذ كان يجلس بالمقصورة الأمامية بالركبة، ينتقل ببصره بين شاشات المراقبة بلا اكتراث، بينما ذهب سكيور وجارجل في مهمة سطو، ذلك حين انتبه فجأة على مشهد توم وفريا إذ يتعانقان... {توم! أيها الأحق!}، قالها الصبي من بين أسنانه.

وقد كان كول معجباً بتوم كثيراً، وكان أكثر ما أحبه فيه هو عطفه وطيبة قلبه، وهي صفات ليس لها أي وزن أو قيمة في «جريم سباي»؛ ففي موطنه يتم دفع الصبية الأكبر سناً إلى ترهيب وتعذيب الصبية الأصغر، الذين ما إن يشبوا قليلاً حتى يشرعوا بدورهم في تعذيب الأصغر منهم، وهكذا. ولطالما وصف العم ذلك بأنه «تدريب جيد على الحياة التي ليست سوى عبارة عن ضربات متتالية»... هكذا كان يردد دوماً، لم لأنه لم يلتق في حياته بشخص مثل توم الذي يعامل الناس دائماً بعطف ووداعة، ولا يتوقع منهم في المقابل أكثر من نفس العطف والوداعة. وهل يوجد ماهو أكثر عطفًا وطيبة من أن يعاشر فتاة مثل هيسستير شاو؟!، جاعلاً تلك القبيحة تشعر بأنها محبوبة ومرغوبة!؛ لقد بدا ذلك لكول فعلاً سامياً شديداً الرفعة، ولهذا فقد جاء مشهد توم إذ يقبل فرياً بهذا الشكل، شنيعاً ثقيل الوطأة على نفسه.. إنه بهذا يخون هيسستير بل ويخون نفسه كذلك، ملقياً بكل مبادئه وقيمه عرض الحائط..

ولكن، ما كان هذا هو السبب الوحيد الذي أثار غضب كول إزاء ماحدث، وإنما كان هناك سبب آخر قوي... الغيرة!

أخذ كول يتابع المشهد الدائر أمامه في غضب، وفي ركن الصورة، عند باب المتحف، لاحظ ذلك الشخص الذي يقف هناك ويراقبهما، فقام بتقريب الصورة قليلاً، ليكتشف أنها هيسستير، وقد كانت في تلك اللحظة تهرع مبتعدة في حين أجفل توم وفرياً على إثر الصوت الصادر عن خطواتها، فنباعداً وقد أخذاً ينظران نحو الباب في تردد، ثم أنهما تبادلاً بضعة كلمات بصوت خفيض لم يميز منه كول سوى: {لقد تأخر الوقت، عليّ أن أذهب}، ثم توم يخرج مسرعاً من المتحف.

{هيستير!}. هتف كول وهو يتنقل بين كاميرات المراقبة باحثاً عنها، ولم يكن يدري سبب كل هذا الحزن الذي اعتراه من أجلها، وإحساسه الممض بالأسى إزاء الألم الذي لا بد أنها تشعر به الآن. ربما كان ذلك يعود في جزء منه إلى إحساسه بالغيرة، وبأنها في حال ارتكبت أي حماقة أو قطعت علاقتها بتوم، فسوف ينتهي به المطاف ليرتبط بفريا.

أيا كانت الأسباب، فالحقيقة أن ماجرى قد سبب له ألماً وإحباطاً كبيرين لدرجة جعلت يديه ترتعشان.

لم يكن لهيستير أي أثر، حيث أخذ كول يبحث عنها متنقلاً بين الكاميرات في كافة أرجاء القصر، دون أثر لها. ثم إنه شرع يبحث عنها عبر الممرات والشوارع المحيطة، إلى أن تمكن أخيراً من رصد آثار خطوات أقدام على صفحة الجليد الأبيض في راسموسن بروسبكت، فدنا كول من الشاشة بينما أخذ يقرب الصورة محاولاً تمييز اتجاه آثار الخطوات، ثم راح يتبع تلك الآثار وهي تتجه نحو الميناء الجوي، وهو يغتمم {أين ذهبت تلك؟}.

رحلة ليلية

كان الزوجان أكيوك لايزالان يغطان في النوم حينما عادت هيستير، فتسللت إلى غرفتها وقامت بإخراج الأموال التي كان بيني رويال قد نقدها إياها في إير هيفن، من أسفل الحاشية حيث كانت تخبئها، ثم خرجت من المنزل مسرعة. ومدت الخطى متجهة إلى ورش الصيانة إلى أن بلغت العنبر الذي يقبع فيه الجيني هانيفر، وكانت الثلوج قد تراكت بفعل العاصفة أمام البوابة، فقامت بإزاحتها لتتمكن من فتحها، وفي الداخل، أضاءت الكشافات، فتألق الجسم الأحمر للمنطاد أمام عينيها، حيث كانت سلام من الجبال لا تزال متدلية على جانبي مقصورة المحرك النصف مطلية.

وفي عجلة اعتلت هيستير المنطاد، فشرعت في تشغيل آليات التدفئة، ثم خرجت من جديد متجهة نحو خزانات الوقود... لم يكن من الصعب تخمين مانتوي فعله، ومن مكانه أمام شاشة المراقبة أخذ كول يزوم ويدمدم: {هيستير، لا، لاتفعلي. لقد كان ثملاً، إنه لم يكن يعني ما فعل،}، وكان يجلس على حافة كرسيه من فرط الانفعال، وقد شعر وكأنه مصفد اليدين

عاجز تماماً عن الإتيان بأي فعل، تماماً كإله أصابه الوهن والضعف فبات يشهد الأحداث إذ تجري أمامه وهو يدرك إلَامَ ستفضي، إلا أنه غير قادر على التدخل أو تغيير مجراها...

ولكن، مهلاً، ربما يستطيع هو فعل شيء! فلو أن توم قد درى بما يحدث الآن فسوف يهرع مسرعاً إلى حيث الميناء لإثناء هيستير عما تنتويه، ولسوف يعتذر لها ويحاول تفسير ما جرى بشتى السبل. لقد رأى كول كيف كانت الأمور تجري بين هذين الاثنين ولا يجب أبداً أن يشكل ذلك الحادث نهاية علاقتهما... فقط لو أن توم علم بما يجري. ولكن من سيخبره؟!، إن كول هو الشخص الوحيد الذي بمقدوره فعل ذلك.

[لاتكن غيباً] هكذا قال لنفسه لائماً في غضب وهو يرفع يده عن أضرار الكاميرات، [مالذي يعنيه لك مجرد اثنين من الياسين؟! لاشيء، إنهما لا يساويان أبداً المخاطرة بكل شيء من أجلهما، لا يساويان إغضاب العم، أبداً!..]

إلا أن نفسه لم تطاوعه، فعاد ومد أنامله نحو أضرار التحكم وانتقل إلى الكاميرات داخل غرفة نوم توم بالقصر، ثم أخذ يضغط أضرار أرجل الكاميرا محرّكاً إياها كي تصدر صوت خرفشة، إذ تحتك بالجسم المعدني لأنابيب التدفئة حيث خبأها، عل صوت الاحتكاك يوقظه، إلا أن توم كان مستغرقاً في النعاس وقد فغرفاه، كان نائماً ولا يدري أن حياته في تلك اللحظات تتمزق تماماً.

[دعه.. لقد حاولت، لكنه لا يستيقظ، دعه، فالأمر لا يهم] هكذا أخذ الصبي يردد لنفسه، في حين كان الإحساس بالمسؤولية يمزقه... ثم إنه تفقّد هيستير مرة ثانية، وبعدها قام بإرسال إحدى الكاميرات عبر أنابيب

التدفئة إلى تلك الفيلا التي ذهب سكيور وجارجل في مهمة سطو عليها، وأخذ يبحث عنهما من غرفة إلى أخرى إلى أن وجدهما في المطبخ يستولون على بعض من الآنية والأطباق الفضية ويدسونها في جعباتهما. ومن موقعه أمام الشاشات راح كول يضغط بعض الأزرار، فقامت الكاميرا المخبأة في الأنابيب بالنقر بأذرعها ثلاث نقرات ثم توقفت هنيهة قبل أن تعيد الكرة وتضرب ثلاث نقرات أخرى على الجسم المعدني الداخلي للأنبوب، في إشارة مشفرة متعارف عليها ويفهمها الصبية الضالون جيدا: (عودوا الآن)، فأجفل الصبيان، وفي سرعة خرقاء أخذوا يجمعان ماتيسر لهما جمعه من المسروقات تمهيدا للعودة إلى المركبة.

أما كول فقد تردد للحظات، وقد أخذ يلعن قلبه الرقيق الذي سيودي به إلى موارد التهلكة، وراح يذكر نفسه بما سيفعله به العم لو أنه درى بما يحدث. وفي النهاية اتخذ قراره، فراح يركض معتليا الدرج، ثم عبر الفتحة السرية ليخرج إلى المدينة التي كان يغلفها الصمت.

كانت تخشى أن تكون خزانات الوقود متجمدة، إلا أنها كانت تراهن على خبرة وبراعة من تولوا إدارة الميناء على مدار ثمانمائة عام، فلا بد وأنهم كانوا قد اكتشفوا وسيلة ما للحفاظ على الوقود سائلا في ظل تلك الأجواء المتجمدة. وبالفعل كان الوقود مخلوطا بمادة مضادة للتجمد، وكذلك كانت أدوات التحكم في مضخة الوقود موضوعة في مبنى جيد التدفئة بجوار الخزان الرئيس. قامت هيسستير بفك خرطوم ضخ الوقود ثم حملت فوهته الكبيرة على كتفها وعادت عبر الجليد إلى العنبر، ثم شرعت في تثبيت فوهة الخرطوم في صمام بالجانب السفلي من المنطاد. ثم إنها آتت راجعة من جديد إلى مضخة الوقود وفتحتها، فراح الخرطوم يرتعش ويهتز قليلا مع تدفق الوقود عبره. وبينما كان خزان الوقود بالمنطاد آخذا في الامتلاء، اعتلت هي ظهر المنطاد

وشرعت في الاستعداد للإقلاع، ولم تكن أضواء الزورق تعمل بعد، إلا أن هيستير لم تكتثر لذلك وأخذت تجري استعداداتها على الضوء الصادر عن مصابيح العنبر.

وما إن بدأت في تحريك أناملها فوق لوحة التحكم حتى دبت الحياة في جوانب المنطاد، وأضاءت الأزرار لتماماً المنطاد بالوهج الصادر عنها.

استيقظ توم أخيراً، وقد أخذته المفاجأة بأنه قد راح في النوم!، وكان رأسه بعد ثقيلًا من أثر الخمر.

وما إن بدأ يستعيد كامل وعيه حتى فوجئ بأن ثمة شخصاً معه في غرفته، يميل عليه ويلبس وجهه بأصابع باردة... {فريا؟}. همس توم، إلا أنه اكتشف أن ذلك الشخص لم يكن المارجرافين، بل شخصاً آخر تماماً، وعلى الضوء الأزرق الصادر عن مصباح يد، فوجئ توم بوجه شاحب لشخص غريب تماماً ينحني قليلاً فوقه ويتطلع إليه.

لقد كان توم يعتقد بأنه قد بات يعرف كل شخص على متن أنكوراج ويستطيع تمييزه من النظرة الأولى، إلا أنه لم يستطع التعرف على ذلك الوجه الأبيض الكالح، وذلك الشعر الأشقر المائل للون الثلج!. كذلك كان صوت الغريب، غريباً هو الآخر!، ذا لكنة تختلف عن لكنة أهل أنكوراج... {لا وقت للشرح.. توم، عليك أن تأتي معي، هيستير في الميناء الجوي، سوف تغادر بدونك}.

{ماذا؟!!}. أجفل توم، وأخذ يهز رأسه محاولاً أن ينفذ عنها آثار النعاس والأحلام، أملاً في أن يكون ما يراه ويسمعه مجرد حلم آخر... من هذا الفتى؟ وما الذي يفعله هنا؟

{ولماذا تفعل هيستير ذلك؟}.

{بسببك، أيها الأحق}. صاح الفتى في غضب، ثم إنه نزع الأغطية عن
توم، ومد يده إلى حيث ملابس الخروج الخاصة به وألقاها إليه ليرتديها
سريعا، وقال: {تخيل ما كان عليه شعورها وهي تراك تعانق فريا راسموسين}.
{لم أفعل!}. صاح توم {لقد كان فقط... هيستير لا يمكن أن تكون
قد... على أية حال، كيف علمت بذلك كله؟}. سأله توم وقد يتوتر ويشعر
بخطورة الموقف هو الآخر، نخلع رداءه المستعار، وارتدى حذاءه وقناع
البرد الخاص به على عجل، ووضع عليه سترة الملاحين خاصته، ثم تبع الصبي
إلى خارج الغرفة، ثم إلى خارج القصر كله، عبر مدخل جانبي لم يكن حتى
قد لاحظ وجوده من قبل.

وفي الخارج، حيث الليل والظلام، كان البرد قارسا، وقبالة الجانب الغربي
من المدينة كانت جبال «جرين لاند» تنتصب فوق الجليد وقد بدت في ضوء
القمر أقرب مايكون من الأرض، في حين كانت أضواء الشمال تراقص
فوق أسطح المنازل، وقد شعر توم للحظة أنه إنما يسمع صوت تلك الأضواء
إذ تصدر جلبة وتقعقع كسلك كهربائي عار في صباح شتوي مطير....

وفي الليل والصقيع، مشى توم على أثر الصبي الغريب إلى أن هبطا الدرج
في راسموسين بروسبكت، ثم صعدا درجا آخر إلى حيث الميناء الجوي؛ وما
إن بلغا الميناء حتى أدرك توم أن صوت الضوضاء لم يكن ناتجا عن أضواء
الشمال، وإنما كان صوت الثلوج؛ إذ تتساقط من أعلى العنبر الموجود به
الجيني هانيفر حيث انفتحت قبته استعدادا لإقلاع المنطاد، أما صوت
الققعقة ذلك فلم يكن سوى صوت محركات الجيني هانيفر إذ تتخذ وضع
الاستعداد للتخليق.

{هيستير}. صرخ توم، واندفع عبر الثلوج...

وفي داخل العنبر كانت أضواء المنطاد تتألق، وانعكاساتها تتلألأ فوق الثلج. ومن موضعه خارج العنبر تناهى إلى مسامع توم صوت السلم الثقيل المصنوع من الحبال إذ يسقط جانبا، أعقبه صوت الرنين المميز لحل دعامات تثبيت المنطاد.... [لا يمكن أن تكون هيستير] أخذ يقول لنفسه ملتاغا وهو يهرع إلى داخل العنبر، ويصرخ مناديا إياها {هيستير.. هيستير}، وكان لا يصدق بعد أنها من الممكن أن تقلع وتتركه... [لا يمكن أن تكون قد علمت بأمر تلك القبلة الغبية... أيمكن ذلك؟!، لا... لقد شعرت بالاستياء حينما أخبرتها أنني أريد البقاء هنا، وهي الآن ترغب في أن تلقني درسا لا أكثر، نعم، لا بد أن الأمر كذلك!]... ظل يركض مقاوما السقوط فوق ركام الثلوج، محاولا اللحاق بها، ولكن كان الأوان قد فات، وبينما هو لا يزال على بعد عشرين ياردة من العنبر، كان الجيني هانيفر يحلق بالفعل إلى حيث السماء بسرعة عالية متجها نحو الجنوب الشرقي، إلى حيث الأفق الجليدي الممتد بلا نهاية. {هيستيريير} صرخ توم في غضب مفاجئ... لماذا لم تواجهه، كما كان يفعل أي شخص عادي، بدلا من رد الفعل العاصف هذا؟!

وكانت الرياح الغربية تتزايد، وكأنما لتزيد من سرعة المنطاد وتحمله بعيدا عنه. ثم إنه التفت نحو مرافقه الغامض، إلا أن الصبي كان قد اختفى، وألقى توم نفسه وحيدا تماما وما من أحد حوله.. سوى السيد أكيوك الذي جاء يهرع نحوه، وهو يصيح: {توم، ما الأمر؟ ما الذي حدث؟}.

{هيستير} قالها توم بصوت واهن ضعيف، ثم تهاوى فوق الثلوج، وخلف القناع الواقي من البرد كانت دموعه تنهمر فوق وجنتيه وهو يرقب آخر قبس من الأضواء الخلفية للجيني هانيفر إذ يتضاءل شيئا فشيئا، قبل أن يختفي تماما بين أضواء الشمال.

(١٧)

مابعد هيسدير

آب توم من حيث أتى، وشعور ممض رهيب بانخواء يمزق أحشاءه. لقد مضت بضعة ساعات منذ أن أقلع الجيني هانيفر، حاول خلالها السيد أكويك أن يتصل بهيسدير عبر الراديو، ولكن دونما إجابة...

{ربما هي لم تفتح جهاز الراديو بعد}. قالها مدير الميناء، {أو ربما هو لا يعمل. لم يتسن لي فرصة اختبار كافة الصمامات والأجزاء. ثم إنه لا يوجد غاز كاف بغلاف المنطاد، فقد قمت بضخ قدر يسير فقط منه لإختبار أنابيب وخلايا الغاز ليس إلا... أوه! لا أفهم لماذا أقدمت تلك الفتاة البائسة على الإقلاع بهذا الشكل الفجائي؟!}.

{لا أدري}. قالها توم، لكنه في حقيقة الأمر كان يعلم السبب جيداً، وقد راح يفكر... لو أنه فقط أدرك مبكراً كم كانت تكره هذا المكان.. ولو أنه تفهم إحساسها قبل أن يقع في حب هذه المدينة... لو أنه لم يقبل فرياً، ربما ما كان ذلك قد حدث وما كانت غادرته. وراح شعوره بالذنب يتفاقم، فقط ليتحول إلى غضب متعاضم، فرغم كل شئ هي أيضاً لم

(١٧٦)

نتفهم مشاعره أو تقدرها.. لقد أحب هذه المدينة، فلماذا إذن لا يظلم بها طالما أراد ذلك؟ إنها أنانية!، فقط لأنها تكره حياة المدن فإنها لم تكثرث على الإطلاق لما إذن كان هو يحب أن يقضي حياته كمشرذ بين السموات إلى الأبد أم لا.

ومع ذلك، فقد كان يدرك جيداً أن عليه أن يجدها ثانية... هو لا يعرف إن كانت ستعود لتأخذه أم لا، ولا يعرف حتى إن كان يريد ذلك، ولكنه ما كان بمقدوره أن يدع قصتهما تنتهي بتلك الطريقة المزرية الرهيبة.

كانت محركات المدينة قد عادت للعمل من جديد، بينما كان توم يخف خطاه بالطبقة العليا باتجاه القصر الشتوي، عبر ذلك الطريق السري الذي قطعه سابقاً مع الصبي الغامض. ولم يكن راغباً في رؤية فريا، فيما كان باطنه يحترق كورقة أضرمت فيها النيران، كلما تذكر مدار بينه وبينها في متحف العجائب، ومع ذلك فقد كانت المارجرافين هي الوحيدة القادرة على إصدار أوامرها للمدينة بتغيير مسارها والمحاق بالجيني هانيفر...

راح توم يعبر الطريق عبر ظلال مركز قيادة المدينة، حينما انفتح باب فجأة ليظهر أمامه بيني رويال في رداء حريري، وقد كانت عيناه متسعتين ومنتفختين، بينما راح يتقدم نحو الفتى مترنحاً عبر الثلوج، وهو يصيح: {تيم... تيم، أهذا صحيح؟... إنهم يقولون إن فتاتك قد غادرت، أقلت...}، قالها وقد بلغ موضع توم، فقبض على ذراعه بقوة، فأوماً الأخير وأطرق برأسه نحلاً.

{ولكن.. بدون الجيني هانيفر...}

فhez توم كتفيه وقال {ربما سيكون عليّ أن آتي معك إلى أمريكا يابروفيسور}.

ثم إنه حرر ذراعه من قبضة الرجل، وخف مسرعاً، تاركاً إياه يترنح عائداً إلى مسكنه وهو يمتهم {أمريكا.. هاها! نعم.. بالطبع.. أمريكا!}.

وفي داخل القصر الشتوي، وجد توم فرياً تنتظره، إذ كانت تجلس على مقعد وثير في إحدى أصغر غرف الاستقبال بالقصر، وهي غرفة تماثل في حجمها حجم ملعب لكرة القدم، مكسوة جدرانها بالعديد والعديد من المرايا، مما خلق لفرياً وتوم ألف إنعكاس...

{سمو إشرافتك. علينا أن نعود أدراجنا!}.

{نعود أدراجنا؟!}. صاحت فرياً، وقد كانت تتوقع أي شيء وكل شيء سوى هذا.

كانت سعيدة مبهجة بنبأ رحيل هيستير، وقد راحت تتخيل نفسها تواسي توم وتكرر على مسامعه أن ذلك الوضع هو الأمثل، وأنه سوف يكون أفضل حالاً من دون تلك الفتاة البشعة، وأنها إنما هي إرادة آلهة الثلوج التي شاءت أن يبقى هنا في أنكوراج، معها. وكانت قد إرتدت أفضل أثوابها وأجملها لمساعدته على نسيان فتاته!، وقد تركت الأضرار العلوية من ثوبها مفتوحة لتكشف عن مثلث صغير من اللحم البض الأبيض الناعم أسفل عنقها... لقد صارت فرياً أكثر جرأة ونضجاً الآن.

{كيف تطالبني بالعودة؟!}. قالتها ضاحكة في تردد، على أمل أن يكون حديثه هذا نوعاً من المزاح، {ولماذا علينا أن نعود من الأساس؟!}.

{لأن هيستير...}.

{لا يمكننا اللحاق بالمنطاد ياتوم، ثم لماذا نفعل ذلك أصلاً؟، أعني، إن وولفرين هامبتون في مكان ما خلفنا الآن...}.

إلا أنه لم يكن ينصت أو حتى ينظر لها، وقد اغرورقت عيناه بالدموع، فما كان من فريا سوى أن سارعت بإغلاق أضرار ثوبها العلوية في حرج شديد، ثم قالت: {لماذا أخطر بمدينتي من أجل فتاة مجنونة تطير على متن منطاد؟}.

{هي ليست مجنونة}.

{لكنها تتصرف كالجانين}.

{إنها مجروحة ومحبطة}.

هنا صاحت فريا ولم تتمكن من تمالك نفسها أكثر من ذلك: {حسناً، أنا أيضاً مجبطة... لقد ظننتك تكثرث بي. ألا يعني ما حدث بيننا في المتحف أي شيء لك؟ لقد ظننت أنك قد نسيت هيستير، إنها لا شيء، لا شيء، مجرد حثالة، وإنني لمسورة أنها قد تركتك ورحلت.. أنا أريدك أن تكون حبيبي أنا.. أنا.. أنا. وإني لآمل أن تدرك كم أن هذا لشرف عظيم لك}.

ظل توم واقفاً في مكانه يتطلع إليها في وجوم، ولم يتمكن من التفوه بحرف. الآن فقط يرى ما رآته هيستير في تلك المارجرافين ولم يدركه هو سابقاً... فتاة مدللة شريرة رديئة الطباع، تظن أن العالم إنما يدور حولها هي، وأنه قد تم تنظيمه بما يوافق هواها.

وقد كان يدرك تماماً أنها محقة في رفضها لطلبه بالعودة إلى الوراء، بل إنه كان يصير ضرباً من الجنون لو أنها كانت قد وافقته وأصدرت قراراً كهذا؛ ومع ذلك فقد كانت غير منطقية على الإطلاق في طريقة رفضها.

وقف توم للحظات ساكناً دون حركة أو كلمة، ثم إنه دمددم بشئ ما، ثم استدار وهم بالرحيل...

{إلى أين أنت ذاهب؟}. صاحت فريا بجدة: {من قال أنه يحق لك الانصراف هكذا؟ أنا أذن لك بالانصراف من حضرتي!}.

إلا أن توم لم ينتظر إزنها، وخرج مسرعاً من القاعة وقد صفق الباب من خلفه، تاركاً إياها وحيدة مع انعكاساتها اللانهائية عبر المرايا، إذ تتحرك رؤوسها ذات اليمين وذات اليسار مع حركة رأسها هي، وكأن انعكاساتها قد رحن ينظرن لبعضهن البعض في حيرة، ويتساءلن: ما الذي اقترفناه من خطأ ليصير الوضع على هذه الحال؟!

انطلق توم يركض عبر الممرات الطويلة للقصر الشتوي وهو لا يلوي على شيء، ولا يدري إلى أين تأخذه قدماه، حتى أنه بالكاد قد لمح الغرف التي مر بها أو التقطت أذناه الجلبة الصادرة من حين لآخر عن أنابيب التدفئة.

منذ أن سقط من لندن وهيستير كانت معه دائماً وإلى جواره، ترعاه وتوجهه لما يتوجب عليه فعله، وقد أحبته من صميم قلبها، على طريقتها الغريبة. والآن، هاهو ذا قد دفعها دفعاً بعيداً عنه، حتى أجبرها على الرحيل، بل إنه ما كان يعرف برحيلها من الأساس لولا ذاك الصبي..

هنا تذكر توم ذلك الزائر الغامض، الذي لم يفكر به لحظة منذ إقلاع الجيني هانيفر. ترى، من يكون هذا الصبي؟، ربما هو أحد العاملين في قسم المحركات؟.. هكذا تخمن توم من لباسه وهيئته، وقد تذكر تلك الطبقات من الملابس الداكنة والرداء الملطخ بالزيت والشحوم.

ولكن، كيف علم بما تنتويه هيستير؟ هل هي قد تعرفت عليه؟ ونجح في إكتساب ثقته؟، ترى، هل أخبرته بأسرار ما لم تخبر توم بها؟... راح توم يفكر وقد انتابه إحساس بالغيرة لمجرد احتمال أن هيستير قد تشاركت أسرارها مع شخص آخر سواه.

ثم طرأ خاطر آخر على بال توم، ماذا لو أن ذلك الصبي يعرف وجهتها التي انتوت الاتجاه نحوها؟... هنا عقد عزمه، لابد أن يجد الصبي وأن يتحدث إليه. نخرج من القصر من جديد مسرعاً، واتجه إلى أقرب درج يؤدي إلى الأسفل حيث قسم المحركات، ومنه أخذ يركض عبر الأدخنة والضوضاء الصادرة عن المحركات إلى حيث مكتب السيد سكلبيوس.

في تلك الأثناء كان سكيور وجارجل ينتظران رجوع كول، حيث عاد مسرعاً من الميناء الجوي وهو بالكاد يستطيع التقاط أنفاسه من الركض. وكانا قد تسلحا بالبنادق والسكاكين كإجراء احترازي في حال جاء بعض اليايسين في إثره.

فما إن دخل إلى المركبة حتى جروه جراً إلى الداخل ولم يسمح له بالتفوه بحرف لحين التيقن من أن أحدا لا يتبعه.

{ما هذا الذي فعلته، وفيم كنت تفكر بالضبط وأنت ترتكب تلك الحماقة؟} صاح سكيور في وجهه بغضب، {ماذا تظن نفسك فاعلاً؟ أنت تعلم جيداً أنه ممنوع علينا ترك المركبة دون حراسة، وكذلك محظور تماماً أن نتحدث إلى اليايسين، ألم نتعلم شيئاً في «معقل اللصوصية»؟!}، ثم إن الفتى الغاضب قام بتشغيل تسجيل صوتي أدرك توم أنه يخصه: {توم، توم... أسرع... توم، إنها تهم بالرحيل، أيها الأحق!}.

فهوى كول متهاكاً على الأرض، وقد أسند ظهره إلى كومة من الثياب المسروقة...

{لقد أحرقت نفسك يا كول}. قالها سكيور وقد علت وجهه ابتسامة مفاجئة {أنا أعني ما أقول، لقد أحرقت نفسك بالفعل. منذ الآن سوف أتولى أنا قيادة المركبة، ولسوف يتفهم العم قراري هذا حينما يعلم بما فعلته

أنت، وسوف يندم كثيراً على أنه لم يولني تلك المهمة منذ البداية. إنني في سبيلي لأن أرسل سمكة مراسلة إليه الليلة، وسوف أخبره في تقريرتي بكل ما حدث. منذ الآن فصاعداً لن تخرج في عمليات سطو هاهنا، يا محب الياكسين! كما أنك لن تذهب في مهام استطلاعية، ولا مزيد من التطلع إلى وجوه المارجرافينات... أتظن أنني لم ألحظ تعبيرات وجهك ونظراتك في كل مرة يظهر بها وجهها على الشاشات؟}.

هنا حاول جارجل التدخل، فقال: {ولكن ياسكيور...}.

{صمتاً}. صاحب سكيور وهو يقبض على رأس الصبي بذراعه بشدة، فهب كول ناهضاً وحاول الدفاع عن الصبي الصغير، إلا أن سكيور استدار ناحيته موجهاً له ركلة قوية، وقد بدا سعيداً منتشياً بإعلان القوة الذي يمارسه، وقال في غبطة: {عليك أن تلتزم الصمت يا كول، ومنذ الآن فصاعداً سوف أدير تلك المركبة على طريقي الخاصة}.

كان السيد سكايبوس يمضي معظم أوقاته في مكتبه، وهو عبارة عن حجرة صغيرة ضيقة تقع بين اثنين من أعمدة دعم الطبقة العليا، في قلب قسم المحركات. فقد كان منزله بالطبقة العليا متختم بالذكريات الحزينة، وما عاد يجد فيه راحة ولا سلاماً.

وكانت غرفة مكتبه تلك تحوي مكتباً صغيراً وخزانة لحفظ الملفات، وكذلك سريراً ضيقاً، وموقداً، وحوضاً صغيراً لغسل اليد، وتقويماً، بالإضافة إلى كوب مطلي بالميना، ليس إلا. ومن مشجب مثبت خلف الباب كانت أردية الحداد الخاصة بالسيد سكايبوس معلقة، تتدلى كأجنحة سوداء لطائر قاتم اللون كثيب، في حين كان الرجل نفسه يجلس خلف مكتبه كتمثال من الكأبة والحزن، يحدق في الجدار أمامه ؛ ذلك حين اقتحم توم المكتب

عليه وهو يصيح لاهثاً: {سيد سكايبوس... لقد رحلت هيستير، أخذت الجيني هانيفر ورحلت}.

فتطلع الرجل نحوه بعينين باردتين ثم أوماً برأسه، وعاد يحدق في الجدار خلف الفتى، وكأنما هناك فيلم يعرض علي صفحة الجدار ولا يراه سواه، ثم قال: {حسناً، لقد ذهبت، فلماذا تأتي إلي أنا الآن؟}.

فجلس توم متثاقلاً إلى المكتب قبالة الرجل، وقال: {هناك فتى، فتى ذو شعر أشقر باهت اللون، من قسم المحركات هو. أصغر مني سنّاً، ويبدو أنه يعرف كل شيء عن هيستير}.

هنا تحرك سكايبوس للمرة الأولى، ومال نحو توم، وعلى وجهه ارتسمت نظرة غريبة: {رأيتك أنت أيضاً؟}، فتلعثم توم إزاء رد فعل الرجل واهتمامه المفاجئ، ثم أجاب أخيراً: {أحسب أنه يمكنه أن يخبرنا إلى أين ذهبت}.

{لا يوجد على متن المدينة صبية بتلك الأوصاف التي ذكرتها، لا يوجد أحياء بهذا الوصف هنا}.

{ولكن... يبدو أنه قد تحدث إليها، فلو أنك فقط أخبرتني أين يمكن لي أن أجده....}.

{لا يمكنك أن تجد آكسل!.. هو سوف يجدهك وقتما يريد. ماذا قال لك؟ هل ذكرني؟ هل أبلغك بأي رسالة لوالده؟}.

{والده؟ لا!}.

وكان سكايبوس بالكاد ينصت لما يقوله توم، وقد أخذ يعبث في جيب رداثه بلهفة، إلى أن أخرج منه ما يشبه دفترًا فضياً صغيراً، ثم تبين لتوم أنه عبارة عن محراب صغير محمول يحوي صورة فوتوغرافية صغيرة ذات

إطار، وقد كان يعرف الكثير من الأشخاص الذين يحملون معهم مثل تلك الأشياء؛ وحينما فتح الرجل المحراب الصغير حانت من توم التفاتة نحو الصورة بداخله، فرأى شاباً صغيراً ممتلئاً يشبه سكايبوس إلى حد بعيد وكأنه نسخة مصغرة من الرجل... {آآ، ليس هذا هو الفتى الذي رأيته... من رأيته كان أصغر سناً وأكثر نحولاً...}.

فشعر الرجل بصدمة إزاء ما قاله توم لأول وهلة، لكنه سرعان ما قال: {لا تكن أحمق يا توم.. أشباح الموتى قد تتخذ أي هيئة تشاء. لقد كان عزيزي آكسل نحيلاً مثلك فيما سبق، وإنه لمن الطبيعي أن يظهر بالهيئة التي كان عليها في تلك الأيام، شاباً، وسيماً، ممتلئاً بالأمل...}.

ولم يكن توم يؤمن بالأشباح، أو على الأقل هو يحسب نفسه كذلك... [لا أحد يعود من الأرض التي لا تشرق عليها الشمس] هكذا كانت هيستير تردد دوماً، وقد راح هو الآخر يردد ذلك لنفسه مرات عدة ليطمئنها قليلاً بينما كان يبتعد عن مكتب السيد سكايبوس عائداً أدراجه إلى حيث السلم المؤدي إلى الطبقة العليا. لا يمكن أن يكون ذلك الفتى شبهاً، لقد شعر توم بوجوده المادي والتقطت أنفه رائحته... لا يمكن أن يكون شبهاً.

على أية حال، فإن آثار أقدام الفتى فوق الثلوج نحو عنبر المنطاد سوف تثبت ذلك... ولكن، ما إن بلغ توم الميناء الجوي حتى كانت الرياح قد اشتدت وراحت تعبث بالثلوج وتنشرها في كل مكان كالدخان، حتى صارت آثار الأقدام عند العنبر واهية باهتة بحيث يستحيل تمييزها أو تحديد ما إذا كان الفتى الغامض حقيقياً أم شبهاً، أم مجرد حلم.

ذهب المدينة المفترسة

كانت الرياح مواتية لهيستير تماماً، وقد ساعدتها على التحليق بعيداً عن أنكوراج سريعاً، إلا أنها كانت شديدة ومتقلبة كذلك، وكان على هيستير أن تولي كل تركيزها للإبقاء على المنطاد في مساره، وقد كان ذلك في حد ذاته أمراً جيداً، حيث لم يدع لها وقتاً للتفكير سواء في توم أو في الأمور التي كانت تخطط لها، وقد كانت على يقين بأنها إن فكرت قليلاً في أي من ذلك، فسوف ينتهي بها الأمر إلى تحويل مسار المنطاد عائدة إلى أنكوراج.

ومع ذلك، وبرغم كل شيء، لم تستطع هيستير أن تمنع نفسها من التفكير، بين الحين والآخر، فيما جرى وما عساه أن يكون عليه رد فعل توم حين علم برحيلها... ترى، هل شعر بالأسى؟، بل هل لاحظ غيابها أصلاً؟... وهل تقوم فرياراسموسن بمواساته الآن؟...

[لا يهم]، هكذا قالت لنفسها، [فقريباً سوف يعود كل شيء إلى سابق عهده، وسوف يكون توم ملكاً لي من جديد].

وفي اليوم الثاني من رحيلها، رأت هيستير تلك الضاحية المفترسة «وولفرين هامبتون» إذ كانت قد حولت مسارها بعد فشلها في اقتراس أنكوراج. وقد بدا أن حظ تلك الضاحية لم يتخل عنها، حيث كانت أمامها فريسة أخرى عبارة عن مجموعة من بلدات صيد الحيتان كانت العاصفة الثلجية العاتية قد أطاحت بها عن مسارها. وقد كانوا ثلاث بلدات، كل واحدة منها يفوق حجمها حجم وولفرين هامبتون، ومع ذلك فقد انطلقت الضاحية بسرعة نحوهم لتهاجم الواحدة تلو الأخرى وتحطم عجالاتهم تحطيمًا، لتلقي بالبلدات الثلاث في حالة من العجز والشلل التام، وقد فقدوا القدرة تمامًا على الهرب من المصير المحتوم. ومن المنطاد في الأعلى رأت هيستير الضاحية؛ إذ تعود لتشرع في التهام فرائسها الثمينة، وقد قدرت أن تلك المفترسة ستتهمك لعدة أسابيع في وجبتها الدسمة، وهو ما سرت له هيستير كثيرًا، فعلى الأقل قد ضمنت أن تلك الضاحية لن تتحول نحو الغرب لمطاردة أنكوراج من جديد، ولن تتدخل لتفسد عليها ما تخطط له.

ومضت هيستير في طريقها على مدار عدة أيام، وليال طويلة، مريرة، قضتها تنتقل بين موجات جهاز الراديو، إلى أن التقطت أخيرًا إشارة مضطربة مشوشة، فراحت تضبط مسارها، إلى أن وجدت ضالتها، حيث ازدادت الإشارة وضوحًا... وبعد بضع ساعات أخرى كانت ترى أركانجيل إذ كانت تلتهم إحدى فرائسها فوق الجليد.

وفي الميناء الجوي الضخم للمدينة المفترسة، شعرت هيستير بحنين غريب ومفاجئ لأجواء السلام في أنكوراج، وقد جعلها الطاقم الأرضي الفظيع لأركانجيل تفكر في حزن في السيد أكيوك الوداع اللطيف.

وكانت قد أنفقت نصف ما كانت قد تحصلت عليه من بيني رويال على تزويد المنطاد بالوقود والغاز، في حين أخفت النصف الآخر في واحدة من

المخبرات السرية التي كانت أنا فانج قد صنعتها في باطن المنطاد، ثم اتجهت من فورها - وشعور مرير بالذنب يعتمل بداخلها إزاء ماتنتوي فعله - نحو بورصة المدينة، وهو عبارة عن مبنى كبير يقع خلف مصنع الوقود، حيث يلتقي به التجار الوافدون بتجار المدينة. وهناك راحت تسأل عن مقر «يبتور ماسجارد»، لكنها لم تثلق سوى نظرات الازدراء، حتى أن امرأة هناك قد بصقت نحوها لتسقط بصقتها عند قدمي هيسستير، وبعد حين ساقَت إليها الأقدار تاجرا عجوزا ودود الملاح، يبدو أنه قد شعر بالشفقة تجاهها فقرر مساعدتها...

{أركانجيل ليست مثل باقي المدن ياعزيزتي}. هكذا أخبرها التاجر الطيب بينما كان يقودها نحو محطة المصاعد، {فالأثرياء هنا لا يقيمون في الطبقة العليا، وإنما الوسطى، الأكثر دفئا، والتي يدعونها «القلب». إن ماسجارد الشاب لديه قصر هناك، فقط انزلي في محطة «كيل» واسألي هناك}.

ثم إنه وقف يرقبها بعناية إذ تدفع أجرة ركوب المصعد ثم تدلف إليه، فما إن دخلت حتى أمسك التاجر بذيل ردائه وخف مسرعا، عائداً إلى متجره الكبير المكتظ، الكائن على الجانب الآخر من الميناء: متجر بلينكو للتقنيات القديمة والآثار!

{أسرعن}. صاح بلينكو في زوجاته وهو يلوح بذراعيه، بينما كان يهرع متجها صوب ردهة ضيقة تقع خلف المتجر، في حين رفعت زوجاته رؤوسهن عما كن منهنمكات به من روايات ومفارش تطريز و...

{إنها هنا، تلك الفتاة، القبيحة... تخيلن! بعد كل تلك الأسابيع التي أمضيتها في البحث والاستقصاء عنها، تأتيني هي بنفسها لأجدها ماثلة أمامي في بورصة مدينتنا!... هيا، أسرعن، علينا أن نستعد}.

ثم إنه فرك كفيه في سعادة، وقد أخذ يتخيل نفسه وهو يستمتع بالأموال التي ستغدقها عليه جماعة العاصفة الخضراء حينما يأتيهم ومعه هيستير والجيني هانيفر.

كانت طبقة «القلب» مكاناً محيراً بحق!، أشبه مايكون بكهف ضخم يعج بهدير محركات المدينة، يغمره الضباب والدخان وانبعاثات البخار، وقد تقاطعت به مئات الممرات وخطوط السكك الحديدية، والمصاعد. أما أبنيته فقد تراصت مكتظة جنباً إلى جنب مع بعضها البعض على أطراف الطبقة. وعلى الأرصفة كان عدد من العبيد، يرتدون أطواق حديدية في رقابهم، يقومون بكنسها وتنظيفها، في حين كان يمر صف آخر منهم ومن خلفهم كانت جماعة من الرجال يرتدون القراء، يوسعونهم ضرباً بالسياط، يقودونهم لأداء بعض المهام المنفرة في إحدى المناطق الخارجية الباردة.

حاولت هيستير ألا تنظر إلى أي مما يدور حولها، سواء لهؤلاء العبيد، أو للسيدات الثريات اللائي كن يمسكن بسلاسل ينتهي طرفها الآخر حول أعناق عدد من الصبية الصغار، أو لذلك الرجل الذي راح يوسع أحد العبيد ضرباً وركلاً لجرد أن العبد قد تقاطع طريقه عن غير عمد مع الرجل...

راحت هيستير تغض بصرها عن كل هذا، وهي تردد لنفسها أن ما يدور في هذه المدينة - حيث الأقوياء يفعلون ما يتبادر لهم فعله - ليس من شأنها.

وأخيراً وصلت إلى قصر ماسجارد، حيث انتصب تمثالان للإله الذئب، «إيسنجريم»، على جانبي بوابته. وفي الداخل كانت المشاعل الحديدية ثلاثية القوائم تتوهج بما فيها من نيران تملأ قاعة الاستقبال الواسعة بالضوء

والظلال. وهناك، وقفت امرأة شابة ترتدي طوقاً من أطواق العبيد لكنه مرصع بالجواهر، وقد أخذت تنظر إلى هيستير في ازدراء من رأسها وحتى قدميها، ثم سألتها عما تبغي، فأجابتها هيستير بنفس ماقالته للحراس عند البوابة الخارجية: {لدي معلومات أرغب في بيعها لصيادي أركانجيل}.

هنا، ومن ناحية الظلال في آخر القاعة تنهى إلى مسامع هيستير صوت هسيس محركات، ثم خرج عليها «بيتور ماسجارد» في عظمة، يتربع فوق مقعد طائر وثير من الجلد يتدلى من بالون غازي صغير... أريكة طائرة، إنها واحدة من مظاهر الرفاهية التي يحب الأثرياء من أمثال ماسجارد الشاب التباهي بامتلاكها. ثم إنه تحرك بمقعده الطائر نحو هيستير، إلى أن بات معلقا قبالتها مباشرة، في حين أخذت الفتاة ذات الطوق المرصع تتمسح برأسها عند أصابع قدمه كهرة.

{أنا أعرفك... إنك تلك الفتاة ذات الندبة في وجهها، والتي كانت في إيرهيفن... لقد أتيت استجابةً لعرضي، أليس كذلك؟}.

{لقد أتيت لأدلك على فريسة}. قالتها هيستير بصوت حاولت ألا يخرج مرتعشاً، فدنا ماسجارد بمقعده الطائر منها أكثر، وقد راح يتفرس فيها ويرقب أمارات الشعور بالذنب والخوف البادية على وجهها المشوه. إن مدينته لكبيرة جداً بحيث لا يمكنها النجاة من الموت جوعاً دون معونة وخدمات حثالات البشر من الوشاة أمثال تلك الفتاة الواقفة أمامه، وهو ما كان يمحّته..

{إذن؟}. سألتها ماسجارد أخيراً، {أية بلدة تلك التي تريدين الوشاية بها؟}.
{ليست مجرد بلدة... إنها مدينة، أنكوراج}.

حاول ماسجارد أن يبدو غير مكترث، إلا أن هيستير قد رأت لمعة الاهتمام في عينيه، فقررت أن تستغل الفرصة وتشعل اهتمامه ليستحيل رغبة حارقة لصيد تلك الفريسة المغرية، {لا بد أنك قد سمعت بأنكوراچ ياسيد ماسجارد، إنها مدينة كبيرة، ذات منازل ممتلئة بالأثاث الباهظ الثمن، وتملك أكبر عجلة دفع فوق الجليد. كذلك لديها نظام ممتاز من المحركات ينتمي للتقنيات القديمة. إنهم يدورون الآن حول جرين لاند، متجهين ناحية الغرب. ولماذا؟}

فهزت هيستير كتفها، وقد فضلت ألا تروي شيئاً عن الرحلة إلى أمريكا، إذ سيكون عصياً عليها أن تشرح له التفاصيل، كما سيكون من العسير عليه تصديقها، لذا فضلت أن تقول: {من يعرف؟! ربما وردتهم معلومات عن إحدى مواقع التقنيات القديمة، فأرادوا أن يذهبوا إليه للتنقيب به. أنا واثقة من أنك سوف تجد طريقة تحصل بها على كافة التفاصيل من المارجرافين الشابة الجميلة لتلك المدينة}.

فضحك ماسجارد مشيراً إلى عبدته: {لقد كانت جوليانا ابنة المارجراف قبل أن تأكل أركانجيل بلدة أبيها}.

{إذن تخيل ماستثله فريا راسموسن من إضافة قيمة إلى مجموعتك}. قالتها هيستير، وقد كانت تشعر حينها بأنها قد انفصلت عن ذاتها ووقفت خارج نفسها تراقب ماتفعله، دونما شعور بالذنب أو بأي شيء، ربما باستثناء إحساس واهن بالفخر بقدرتها على أن تكون بلا مشاعر، {وفي حال كانت مدينتك في حاجة إلى وجبة خلال رحلتها على الطريق إلى أنكوراچ، فإنه يمكنني أن أقدم لك إحداثيات مسار وولفرين هامبتون، وهي ضاحية مفترسة قد صادت لتوها صيداً ثميناً}.

كان ماسجارد مأخوذاً بما يسمع، فقد سبق وحصل على بعض من المعلومات عن أنكوراج و وولفرين هامبتون من ويدجري بليנקو، إلا أن التاجر المتملق لم يكن يعلم أي شيء عن مسار الضاحية المفترة الحالي. أما بالنسبة لأنكوراج فلم يكن ماسجارد واثقاً مما إذا كان يمكن له أن يصدق تلك المعلومات التي سمعها توأ عن مدينة جليدية تقع على بعد كل تلك المسافة البعيدة ناحية الغرب، إلا أن تلك الفتاة الماثلة أمامه تبدو على علم بما تقول حقاً؛ ومن ثم، ومع ما أدلى به بليנקو، فإن تلك المعلومات سوف تكون كافية لإقناع مجلس المدينة بتغيير مسارها.

ترك ماسجارد هيستير تقف لبرهة من الوقت دون أن يبدي أي رد فعل تجاه ماقالته، كي يشعرها بعدم الاهتمام، ثم إنه فتح فرجة في مسند الذراع بكرسيه الطائر، ومنها أخرج صفحة سميكة وقلماً من الحبر، وقام بتوقيعها، ثم ناول الورقة لعبدته التي مررتها إلى هيستير، فتناولتها الأخيرة لتجدها عبارة عن عقد مكتوب بالخط القوطي، وعليه العديد من الأختام التي تحمل أسماء عدد من آلهة أركانجيل ك«إيسنجريم» و«زاتشر».

{تعهد}، قالها ماسجارد موضحاً، وهو يضغط على أزرار محركات مقعده الطائر وهو على وشك الابتعاد {لو ثبتت صحة معلوماتك، فيمكنك حينها العودة والحصول على مكافأتك حينما نأكل أنكوراج. أعط كافة التفاصيل لكاتبتي}. إلا أن هيستير هزت رأسها وقالت {أنا لا أفعل ذلك للحصول على عملاتكم الذهبية}.

{لماذا إذن؟}.

{هناك شخص على متن أنكوراج، توم ناتسوورثي، الفتى الذي رأيته معي في إيريهفن. حينما تأكل المدينة، أريد منك أن تدعه لي. ولكن يجب

ألا يعرف شيئاً عن اتفاقنا، أريده أن يظن أنني قد أئيت لإنقاذه، أما أي شيء آخر في ذلك المكان النتن فهو لك، ولكن ليس توم، إنه ملكي أنا، هو مكافأتي}.

ظل ماسجارد يحدق فيها للحظة، ثم أرجع رأسه للوراء وانفجر في ضحكة عالية ترددت أصدائها في الغرفة.

بينما كانت تقف في انتظار المصعد، شعرت هيستير بألواح أركانجيل تهتز تحت قدميها، إذ كانت المدينة قد بدأت في التحرك ؛ وقد أخذت تتحسس حافظتها للتأكد من أن تعهد ماسجارد في حوزتها. لكم سيكون توم سعيداً برويتها إذ تأتي لإنقاذه من أحشاء المدينة المفترسة، ولا بد أنه سينسى عندها افتتانه بالمارجرافين، وسيعودان معاً مرة أخرى، ليحلقا عبر «مسارات الطيور».

لقد فعلت كل مايتعين عليها فعله من أجل استعادة توم، وما عاد من سبيل للتراجع. والآن، عليها أن تعود إلى الجيني هانيفر لتجلب منه بعض الأشياء، ثم تحاول أن تجد لنفسها غرفة في مكان ما في انتظار الرحلة المزمعة.

كان الليل قد حل حينما وصلت هيستير إلى الميناء، وقد راح الثلج يتساقط حول مصابيح إشارات الهبوط والتوجيه، في حين كانت أصوات الضحك الصاخب والموسيقى الرديئة تنبعث من ناحية الحانات المنتشرة هناك خلف ممرات الرسوم. ومن أسفل تلك الممرات كان المصباح الصغير المثبت هناك يضئ المكان بضوء خافت صانعا من حوله دوائر وحلقات من الظلال أسفل المناطيد التجارية الكبرى والتي كانت تحمل أسماء شمالية واضحة...

مضت هيستير في طريقها نحو ممرات الرسو منخفضة الإيجار، حيث استقر الجيني هانيفر هناك، وقد بدأت تشعر بالتوتر، فتلك المدينة خطيرة بحق، وقد نسيت هيستير كيفية التأقلم على البقاء وحيدة في مثل تلك الأجواء.

{آنسة شاو}.

فوجئت هيستير بمن يناديها، فأجفلت ومدت يدها سريعاً إلى حيث سكينها وهي تلتفت ناحية مصدر النداء، إلا أنها وجدت قبالتها ذلك التاجر العجوز اللطيف الذي ساعدها من قبل.

{سوف أصبحك إلى حيث منطادك، فهناك بعض من التجار من البدو هناك في المرفأ، وليس من الآمن أن تبقى امرأة شابة مثلك وحدها بالقرب من هؤلاء الهمجيين. أظن أن منطادك هو الجيني هانيفر، أليس كذلك؟}.

{نعم}. قالتها هيستير وهي تتساءل داخلها في تعجب كيف تأتى له أن يعرف اسمها وكذلك اسم منطادها. إلا أنها قد خمنت أنه ربما استفسر عنها أو اطلع على سجلات الوافدين الجدد في مكتب الميناء.

{هل قابلت ماسجارد؟}. سألتها التاجر، صديقها الجديد، {أظن أن لتلك المقابلة علاقة بذلك التحرك المفاجئ للمدينة ناحية الغرب... أحسب أنك قد بعث له معلومات عن خط سير بلدة ما، صحيح؟}.

فأومأت هيستير.

{أنا أيضاً لدي أعمال مماثلة}.

وبدون سابق إنذار، فوجئت هيستير بالرجل الطيب يدفعها بعنف نحو دعامة معدنية أسفل منطاد تجاري يدعى «تيمبوراري بليب»، فشقت من

الألم والصدمة، وراحت تحاول أن تعب هواءً كافياً في صدرها كي تتمكن من الصراخ وطلب الغوث، لكنها في تلك اللحظة شعرت بشئٍ معدني حاد ينغرس في جانب عنقها لثانية ثم ينسحب، وحينما التفتت نحو التاجر وجدته يقف على مسافة منها وهو يلهث، وفي يده كانت حقنة نحاسية تلتمع في الأضواء القادمة من الحانات البعيدة، ثم إنه دس الحقنة في جيبه.

حاولت هيستير أن تضع يدها على عنقها، إلا أن مفعول المخدر الذي حقنها به الرجل كان سريعاً، وبالفعل بدأت تشعر بأن أطرافها ما عادت تطاوعها... حاولت الصياح، ولكن لم يخرج من حلقها سوى أنة واهنة ضعيفة. ثم لم تدر بنفسها إلا وقد ترنحت لتسقط على الأرض ووجهها على بعد بضعة إنشات من حذاء الرجل.

{إني آسف حقاً}. سمعته يتحدث موجهها كلامه إليها، وقد بدا لها صوته قادماً من مكانٍ سحيق، تماماً كصوت يوم حدثته لآخر مرة عبر الهاتف أثناء العاصفة، {لكني لدي خمس زوجات أعيلهن، ولكل منهن طلباتها المكلفة}.

حاولت هيستير من جديد أن تصيح وقد راحت تجاهد للزحف فوق الألواح الأرضية، ولكن دون جدوى...

{لا أريدك أن تقلقي، إنني فقط سوف آخذك أنت ومنطادك إلى حيث «روجر رويست»، إنهم يريدون طرح بعض الأسئلة عليك هناك، هذا كل ما في الأمر}.

{ولكن...توم...}. أخذت هيستير تن في وهن شديد، ومن موضعها حيث وجهها على الأرض، رأت مزيداً من الأقدام ترتدي أحذية نسائية طويلة الرقبة، باهظة الأثمان، تدنو ناحيتها، ثم سمعت صوت امرأة يقول: {هل أنت واثق من أنها هي الفتاة المطلوبة يا بلينكو؟}.

ثم صوت آخر: {يااه!، إنها قبيحة جدا}.

{إنها ليست ذات قيمة لأي شخص}.

{بل هي تساوي عشرة آلاف من العملة...}. قالها الرجل {.. سوف أتحصل عليها بمجرد أن أصل بها إلى روجز رووست. سوف أصحبها على متن منطادها، وسوف أجر منطادي خلفه كي أعود به إلى هنا. لن أتأخر، ولسوف أعود محملاً بحقائب مكدسة بالأموال... اعتنين بالمتجر في غيابي ريثما أعود}.

{لا...}. جاهدت هيسستير من أجل التفوه بذلك، واللمع يعتصر قلبها، وقد كانت تدرك أن الرجل لو قام بأخذها من أركانجيل فلن يكون بوسعها إنقاذ توم، ولسوف تبتلعها أحشاء المدينة مع باقي أنكوراج.... ولسوف تذهب كل خططها هباء.

حاولت المقاومة، بينما راحوا يفتشون جيوبها بحثاً عن مفاتيح الجيني هانيفر، لكنها كانت قد سُلت تماماً، فلم تستطع أن تأتي بأي حركة ولا حتى أن تطرف بعينها.

وقد استغرق الأمر وقتاً حتى فقدت وعيها بشكل تام، ومع ذلك - وهذا أسوأ ما في الأمر- كانت تشعر بكل ما يدور حولها، بينما كان التاجر وزوجاته يتعاونون على جرّها جراً إلى داخل الجيني هانيفر، ثم راحوا يتخذون كافة الاستعدادات النهائية للإقلاع.

غرفة الذاكرة

أيقظتها المياه المثلجة... طوفان شنيع من المياه شديدة البرودة، أطاح بها عبر الأرضية الحجرية حتى اصطدمت بجدار من البلاط الأبيض، وقد راحت تشهق بعنف وتصرخ، وقد غمرت المياه فمها حتى كادت تختنق، في حين التصق شعرها بوجهها ليحول بينها وبين رؤية الموجودات من حولها، وحتى حينما أزاحته جانباً، لم يكن ثمة شئ ليراه.. مجرد غرفة بيضاء باردة يضيئها مصباح أرجون وحيد، بينما أحاط بها عدد من الرجال يرتدون أردية بيضاء ويحملون خراطيم مياه ضخمة يصوبونها نحوها لتغرق في شلالات مرعبة من الماء.

{كفى}، دوى الصوت الأنثوي، فتوقف الطوفان، وتراجع الرجال جانباً وراحوا يثبتون الخراطيم إلى إطار معدني في الحائط. أما هيسستير فقد كانت في حالة شنيعة، وقد راحت ترتجف وثقياً المياه التي كادت تقتلها اختناقاً، وهي تسب وتلعن أي شئ وكل شئ في هيسستيرياً، بينما أخذت بقايا المياه على الأرض تجري لتتسرب عبر فتحة للصرف في وسط الغرفة.

وفي رأسها المشوش المهزوز، بدأت هيستير تسترجع ما قد حدث ببطء...
أركانجيل... التاجر... الحقنة في عنقها... نقلها إلى الجيني هانيفر... عودة
وعيا أثناء الرحلة لتكتشف أنها مقيدة... صراخ... مقاومة... حقنة مخدر
أخرى... فقدان الوعي من جديد ونقلها من أركانجيل إلى... إلى هذا
المكان!... {توم}، أنت هيستير في وهن.

ثم أنها رأت أقداما ترتدي حذاء طويلاً، تقترب منها، رفعت رأسها
وهي تزجر، متوقعة أن تجد التاجر، إلا أن القادم لم يكن هو، وإنما كان
امرأة شابة ترتدي زياً أبيض وعلى صدرها شارة برونزية تقول إنها: ملازم
أول في جماعة مناهضة التحرك، وعلى ذراعها شارة أخرى مطرزة تحمل
علامة الصاعقة خضراء اللون.

{البسوها}. قالتها المرأة آمرة، فسحب الرجال هيستير من شعرها ليقفوها
على قدميها، ولم يكلفوا أنفسهم عناء تجفيفها من كل تلك المياه التي أغرقتها،
وإنما أمسكوا بذراعيها وساقها وقاموا بحشرهم حشرا في زي رمادي لا يميزه
أي شيء، ولم تكن هيستير بقادرة على الوقوف، فضلا عن المقاومة؛ ثم إنهم
أخذوا يدفعونها، حافية القدمين، إلى خارج الغرفة، عبر ممر شديد الرطوبة،
تتقدمهم الضابطة.

وعلى جانبي الممر انتشرت ملصقات تصور أسرابا من المناطيد تهاجم
المدن، ورجالا ونساء في سن الشباب، حسني الطلعة، يرتدون ثيابا بيضاء
ويتطلعون نحو الشمس وهي تشرق من وراء تل أخضر.

مر صف من الجنود، وقد أخذت خطواتهم، بأحذيتهم الثقيلة، تهدر عبر
الممر، وكانت أعمار معظمهم لا تتجاوز بأي حال عمر هيستير، إلا أنهم كانوا
جميعا يتمنطقون بالسيوف تتدلى على جانبهم، وشارات الصاعقة الخضراء

تألق على أذرعهم، أما وجوههم فقد كانت تحمل نفس التعبيرات الصارمة الحادة التي ترسم دوماً على وجوه الأشخاص الذين يؤمنون بصوابية قضيتهم. وفي نهاية الممر، كان هناك باب معدني، ومن خلفه كانت ززانة...، قبر مستطيل ضيق ذو نافذة واحدة عالية، وسقف خرساني متداع امتدت عبره عدة أنابيب للتدفئة، لكنها لم تكن تمنح أي تدفئة من أي نوع.

كانت هيستير ترتجف داخل الرداء الخشن، في حين لم يكن جسدها قد جف بعد، فألقى إليها أحد الجنود بمعطفها القديم، فتناولته ممتنة، ثم قالت بصوت مرتجف ولسان معوج من أثر الصدمة والمخدر الذي لم يكن مفعوله قد انتهى بالكامل بعد، نخرجت كلماتها مشوهة من فم مشوه أصلاً: {وأي باقي ملابس؟}. لكن أحداً لم يتمكن من فهم ما تقول.

أما الضابطة فقد أمرت قائلة: {الحذاء}، ثم تناولت حذاءً عالي الرقبة من أحد رجالها وألقت به إلى هيستير: {لقد أحرقنا باقي ملابسك، أيتها الهمجية، فأنت لن تحتاجيهم مرة ثانية}، ثم انسحبت المرأة وقام أحد الجنود بإغلاق الباب على هيستير، ومن الخارج سمعت صوت المفاتيح إذ تدور في الباب، ثم وقع أقدام بتعد.

وكان بإمكان هيستير من موضعها هذا أن تسمع صوت البحر آتياً من مكان ما منخفض عن موقع الززانة. ثم إنها جلست متكورة على نفسها، في ذلك الصقيع، وانخرطت في بكاء مرير. لم تكن تبكي نفسها، ولا حتى توم، وإنما كانت تبكي ملابسها المحترقة! حيث سترتها التي تحمل في جيبها الداخلي صورة فوتوغرافية لتوم، والوشاح الأحمر الذي كان قد ابتاعه لها يوماً... الآن لم يعد تملك أي أثر أو تذكار منه.

ومع الخيوط الأولى من فجر اليوم التالي، انفتح باب الزلزاة، ومن خلفه ظهر أحد الجنود يأمرها: {هلهي أيتها الهمجية، القائدة تنتظرك!}.

كانت القائدة تنتظر في غرفة فسيحة نظيفة، على جدرانها كانت تبدى صور باهتة لدلافين وحوريات البحر، من وراء طلاء كلسي خفيف، وقد توسط أحد الجدران نافذة مستديرة تطل على البحر.

و خلف مكتب معدني كبير، استقرت القائدة فوق مقعدها، وقد راحت تدق بأناملها البنية فوق ملف ذي غلاف مقوى. فما إن دخل الجندي هيسستير إلى المكتب حتى نهضت القائدة وهي تقول للحراس: {يمكنكم الانصراف!}.

{ولكن، أيتها القائدة...}. قالها واحد منهم في تردد، إلا أنها قاطعته في حدة {أظن أنني قادرة على التعامل مع همجية هزيلة كهذه!}.

فأذعن الرجال، وانتظرت القائدة حتى انصرفوا، ثم دارت ببطء حول مكتبها المعدني وهي تتحدق في هيسستير بثبات. وحينها أدركت هيسستير من تكون تلك القائدة، فقد سبق لها أن واجهت تلك النظرات القاسية الحادة من قبل... إنها «ساذيا»، زميلة «أنا فانج من» بوتامونج جومبا «».

ولم تكن هيسستير متفاجئة بذلك، فنذ أن وطأت قدمها أنكوراج، وحياتها قد راحت تتخذ منحى غريباً أشبه بالأحلام، ولهذا فلم تجده أمراً عجيماً أن تلتقي، بعد كل مامرت به، بوجه مألوف، غير ودود على الإطلاق.

وكان عامان ونصف فقط قد مضيا منذ لقائهما الأخير، إلا أن «ساذيا» قد بدت أكبر سناً مما كان يجب أن تكون عليه بعد تلك المدة. كان وجهها كالحلأ متجهماً، وفي عينيها الداكنتين قد أطلت نظرة لم تستطع هيسستير قراءتها أو تفسيرها، نظرة هي مزيج من الغضب والإحساس بالذنب، والفخر،

والخوف! مزيج عجيب متناقض، بدا كأنه قد اختلط بداخلها، فتولد عنه شيء آخر لا يمكن تفسيره.

{مرحبا بك في المنشأة}. قالتها ساذيا ببرود، فنظرت إليها هيستير باندهاش، ثم هتفت: {ما هذا المكان؟ أين يقع بالضبط؟.. لم أكن أظن أن جماعتك قد تبقى لها أية قواعد في الشمال منذ سقوط «سبيتزبيرجن»}.

{أنت تجهلين الكثير عن جماعتي يا آنسة شاو}. قالتها القائدة باسمه، {صحيح أن المجلس الأعلى للجماعة قد سحب قواته من الشمال، إلا أن بعضا منا ما كان ليقبل بالهزيمة بهذه البساطة، لذا فقد أبقى العاصفة الخضراء على عدة قواعد. وبما أنك لن تخرجي من هذا المكان حية فيإمكانني أن أخبرك أن تلك المنشأة إنما تقع في جزيرة روجزرووست والتي تبعد حوالي مائتي ميل من الطرف الغربي لجرين لاند}.

{جميل}. قالتها هيستير بسخرية {وهل أتيتم إلى هنا للتمتع بالطقس مثلاً؟!}.

فما كان من ساذيا إلا أن صفعتها بقوة جعلت رأسها يرتج..

{إنه المكان الذي نشأت فيه أنا فانج، فقد كان والداها يمتنان التجارة في هذه النواحي، قبل أن يتم استعبادهما في أركانجيل}.

{نعم، أسباب عاطفية هي إذن}. دمدمت هيستير، ثم اعترأها التوتر، إذ كانت تتوقع صفقة ثانية، إلا أن ساذيا لم تفعل، وإنما أشاحت بوجهها عنها واتجهت نحو النافذة، ثم قالت: {لقد دمرت إحدى وحداتنا القتالية فوق ممر «دراكين» منذ ثلاثة أسابيع}.

{لأنهم هاجموا منطادي}. أجابتها هيستير.

فصاحت الفتاة في غضب عارم {إنه ليس منطادك... إنه منطاد أنا فانج، أنت سرقتك في تلك الليلة التي ماتت فيها، أنت وحبييك الهمجي توم ناتسورثي... أين هو بالمناسبة ؟ لا تقولي لي إنه قد هجرك؟}.

فهزت هيستير كتفها ولم تحر جوابا.

{إذن، ماذا كنت تفعلين بمفردك على متن أركانجيل؟}.

{كنت أبيع معلومات عن بضعة مدن للصيادين هناك}.

{أصدقك تماما، فالخيانة والغدر يسريان في دمائك}.

فعبست هيستير وأخذت تحديق الفتاة بغضب... هل قامت ساذيا باختطافها وجرها عبر كل تلك المسافة فقط لتكيل الإهانات لأبويها الراحلين؟!... {لو كنت تقصدين أنني قد ورثت الخيانة عن أمي، فإنها لم تكن سوى مجرد مستكشفة حمقاء أخذت تنقب في الأرض لتستخرج في النهاية ذلك السلاح الكارثي المسمى «ميدوسا»، لكنها لم تخن أحدا أبدا}.

{لا}. قالتها ساذيا مؤيدة لهيستير في تلك النقطة، ثم {ولكن، ماذا عن أليك؟....}.

{أبي كان مزارعاً ليس إلا}. صاحت هيستير وقد اعترأها غضب عنيف إزاء تلك الفتاة التي تقف أمامها وتصر على إهانة ذكرى والدها المسكين الذي لم يرتكب أي شرور في حياته..

{أنت كاذبة!..}. قالتها ساذيا بحدة {... أبوك هو ثاديوس فالانتاين}.

كانت الثلوج تتساقط في الخارج كحبيبات من السكر المتجمد، ومن موضعها في مكتب القائدة كانت هيستير ترى قمم الجبال الجليدية تبرز من بين الأمواج الرمادية القائمة لبحر الشتاء...

... وفي صوت واهن ضعيف، قالت {هذا الكلام غير صحيح، لا}.

فسحبت ساذيا ورقة من الملف على مكتبها وقالت: {هذا هو التقرير الذي أعدته أنا فانج للمجلس الأعلى للجماعة، في ذلك اليوم الذي جاءت بك أنت وحيبيك إلى «بوتامونخ جومبا». هل تعلمين ماذا كتبت عنكما؟... (اثنان من الشباب، أحدهما متدرب شاب، وسيم، في عصبة المؤرخين من لندن، وهو شخص جيد غير مؤذ على الإطلاق. أما الثانية فهي فتاة مسكينة مشوهة، وإنني لواثقة من أنها الابنة المفقودة لباندورا راي وثاديوس فالانتاين).

{والدي كان ديفيد شاو، من جزيرة البلوط...}.

{لقد كان لوالدتك عشاق كثير قبل أن تتزوج من ديفيد شاو}. قالتها ساذيا بصوت يحمل نبرة استنكار {وكان فالانتاين واحدا منهم، وأنت ابنته. ما كانت أنا لتكتب مثل ذلك الكلام لو لم تكن واثقة منه}.

{والدي هو ديفيد شاو}. رددت هيستير في صوت أشبه بالبكاء.... إلا أنها، في أعماق أعماقها، كانت تعرف جيدا أن مآرده غير صحيح... لقد أدركت ذلك منذ أن التقت عيناها بعيني فالانتاين وهو راکع أمام جسد ابنته التي كانت تحتضر، كثرين. ففي تلك اللحظة تحديدا تولد بينهما ذلك التواصل العميق الذي لا يكون إلا بين أب وابنته، كشرارة كهربائية.. كنصف اعتراف بحقيقة سرعان ما قامت بوأدها بأقصى وأقصى ما أمكنها، لأنها أبدا ما كان لها أن تقبل به أباً لها.

لقد علمت حينها أنه أبوها، ولذا فلا عجب أنها لم تتمكن آنذاك من حمل نفسها على قتله...

{أنا كانت مخطئة بصددك إذن؟ أهذا ما تريدن قوله؟}. جاءها صوت ساذيا من جديد ليخرجها من حجم أفكارها.

كانت الثلوج قد توقفت، وبدأت بعض من أشعة الشمس في الظهور لتبدد شيئا من الضباب الرمادي الكثيف.. {أنت لم تكوني مفقودة يوما، وتوم ليس بالشخص الصالح غير المؤدي. لقد كنتما منذ البداية في صف فالانتاين وتعملان لصالحه، وقد قمتما باستغلال طيبة أنا وكرمها للدخول إلى «بوتامونخ جومبا» ومساعدته على تدمير أسطولنا الجوي}.

{لا!}. صاحت هيستير.

{نعم، لقد استدرجتنا أنا إلى حيث المكان الذي قتلها به ثم سرقتنا منطادها}.

راحت هيستير تهز رأسها نافية تلك الاتهامات وهي تصيح: {أنت مخطئة تماما}.

{كفي كذبا!}. صاحت ساذيا وقد التفتت نحوها من جديد في عصبية، وكانت الدموع تتلأأ في عينيها.

وحاولت هيستير أن تتذكر تلك الليلة في بوتامونخ جومبا... كانت ليلة مفعمة بالنيران والركض.. ثم خطر لها أن ساذيا لم تتصرف بحكمة في تلك الليلة - وهو الأمر الذي كانت تدركه ساذيا نفسها جيدا - وربما كان هذا هو السبب الحقيقي وراء غضبها المستعر... لقد تركت معلمتها وصديقتها الحبيبة أنا فانج تذهب وتواجه فالانتاين وحدها، لتلقى حتفها على يديه. إنها لن تسامح نفسها أبدا على ذلك، وهذا هو سر حنقها بينما لم يعد أمامها من سبيل سوى إما النسيان أو الغرق في الحزن والأسى وجلد الذات أو... إلقاء اللائمة على شخص آخر، كابنة فالانتاين!

{سوف تدفعين ثمن فعلتك... ولكن أولاً ربما كان لديك فرصة للتكفير عن ذنبك}. قالتها ساذيا بينما كانت تسحب سلاحها الناري من أحد أدراج مكتبها وتشير به نحو باب صغير في الجانب المقابل بالغرفة، فسارت هيستير نحوه، دونما اكتراث لما تنتوي ساذيا فعله بها، سواء كانت ستطلق عليها النار لترديها قتيلة أم لا، ففي تلك اللحظات كانت فكرة واحدة دون سواها تسيطر عليها.... ابنة فالانتاين.

هي ابنة فالانتاين، فلا عجب إذن أن أقدمت، دون أن يرف لها جفن، على بيع مدينة كاملة ملائ بأناس صالحين، إلى أركانجيل كي تفرسهم وتستعبدهم... إنها ابنة فالانتاين، وقد ورثت عنه الغدر.

خرجت هيستير من الباب الجانبي، ثم هبطت بضعة درجات معدنية تقود إلى نفق يؤدي في نهايته إلى حجرة صغيرة تفضي بدورها إلى قاعة أكبر. وهناك، وقف اثنان من الحراس ينظران ببرود نحو هيستير من خلال نظاراتهم الزجاجية المثبتة إلى الخوذات المعدنية التي يرتدونها، في حين كان رجل أخريقف منتظراً في نفاد صبر بجانب باب معدني ثقيل، وقد راح يقضم أظافره في عصبية، وعلى صلعته ووجهه انعكست الأضواء القادمة من مصابيح الأرجون المثبتة إلى الجدران؛ حيث فوجئت هيستير بشارة العجلة الحمراء تتوسط حاجبيه...

{إنه مهندس!... مهندس من لندن! ظننتهم جميعاً قد ماتوا}. هتفت هيستير باندهاش.

{لقد نجا بعضهم}. أجابها ساذيا {بعدما انفجرت لندن، ذهبت على رأس وحدة لتفقدوها والقبض على أي ناجين بقوا منها، حيث تم إرسال معظمهم للعمل في معسكرات العبيد بأراضي الجماعة. وحينما قت

باستجواب دكتور «بوب جوي» حول طبيعة عمله، اكتشفت أنه قد يكون مفيد لنا ويساعدنا}.

{يساعدكم؟ في ماذا؟ لقد حسبت أن جماعة مناهضة التحرك تكره التقنيات القديمة؟!}

{لطالما كان هناك أعضاء بالجماعة يؤمنون أنه لكي نهزم المدن المتحركة فعلياً أن نحاربهم بنفس آلاتهم وتقنياتهم الحقيبة... وبعد ما ارتكبتما أنت وأبوك في بوتامونج جومبا، صارت أصوات هؤلاء الأعضاء أقوى وأعلى، ومن هؤلاء الضباط الشباب تشكلت عشيرة فرعية سرية، «العاصفة الخضراء». وحينما أخبرتهم عن دكتور بوب جوي وما يمكن أن يقدمه لنا، وافقوا جميعاً على انضمامه إلينا وسمحوا لي بإقامة هذه «المنشأة»..}

افترغ المهندس عن أسنان صفراء كبيرة، في إبتسامة عصبية، ثم قال: {هذه هي هيسثير شاو إذن، أليس كذلك؟... ربما تكون ذات نفع لنا. نعم.. نعم، نحن نحتاج لأحد ممن كانوا حاضرين في المجمع، إن جاز لي قول ذلك. ربما منحنا وجودها في داخل غرفة الذاكرة المحفز الذي نتطلع إليه}.

{أبدأ إذن}. صاحت ساذياً، وقد لاحظت هيسثير أنها قد بدت أكثر عصبية.

هنا سحب دكتور بوب جوي سلسلة من الرافعات المثبتة إلى الباب، فانطلق صوت عدد هائل من الأقفال الكهرومغناطيسية تنفتح جميعاً مصدرة جلبة شديدة، في حين توتر الحراس وراحوا يضبطون صمامات الأمان في أسلحتهم النارية، بينما أخذت هيسثير تتطلع إلى كل ما يدور حولها في دهشة وعدم فهم، لكنها كانت قد أدركت أن إجراءات السلامة

المحيطة بتلك الغرفة ليس المقصود منها منع من في الخارج من الدخول إليها، وإنما الإبقاء على ما في داخلها والحيلولة دون خروجه! وهنا انفتح الباب.

فيما بعد سوف تعرف هيستير أن غرفة الذاكرة تلك كانت عبارة عن خزان غير مستخدم للوقود، وهو واحد من عشرات الكرات الفولاذية المتكئة بين صخور الجزيرة. أما حينها، فقد بدا لها المكان للوهلة الأولى على أنه مجرد غرفة عارمة الضخامة، ذات جدران صدئة، مقببة السقف ومقعرة من الأسفل، في شكل أشبه مايكون بالوعاء.

وعلى جميع الجدران، انتشرت صور كبيرة من كل شكل ونوع... صور لأشخاص يتبسمون في مرح وسعادة، وصور أخرى لأركانجيل، وثالثة لمرسيليا....

وعلى واحد من الجدران كانت لوحة مرسومة لبوتامونخ جومبا وقد تم تثبيتها في إطار من الإبنوس. كذلك كانت هناك صور لأجزاء من فيلم تتكرر بلا نهاية على ألواح بيضاء. وصورة لفتاة ذهبية البشرة ذات ضفيرة طويلة تقف وسط مرج أخضر وتضحك.

راحت هيستير تجول بعينها بين أرجاء الغرفة والصور، وقد انتابها شعور غامض ومباغت بالخوف والرغبة، دون أن تدري سبب ذلك الشعور الفجائي.

وكان ممر طويل يمتد حول حافة الغرفة الكروية العجيبة، ومنه استطال جسر ضيق يصل إلى منصة مركزية كائنة في وسط الغرفة، وهناك كان شخص ما يقف، وقد ارتدى رداء رماديا شبيه بمسوح الرهبان، وقد غطى رأسه.

حاولت هيستير التراجع نحو الباب، إلا أن أحد الحراس دفعها دفعا إلى الأمام مرة ثانية، في حين تقدمت ساذيا وبوب جوي عبر الجسر إلى حيث المنصة، وما إن بلغاها حتى رأت هيستير ساذيا وهي تمس ذراع الشخص الغامض الواقف هناك.... وتبكي!. كانت تبكي في صمت وقد التمع وجهها بالدموع في الضوء الخافت للغرفة.

{لقد أحضرت لك هدية}. قالت ساذيا في رفق {زائر، شخص لا بد وأنك تتذكرينه جيدا}.

وهنا التفت الشخص الغامض نحو هيستير، وقام بإزاحة غطاء الرأس كاشفاً عن وجهه... وأمام عينيها المذهولتين وقفت... أنا فأنج!.

(٢٠)

نموذج جديد

الحق أن دكتور بوب جوي قد أجاد عمله فعلاً لصالح سادته الجدد. فقد أمضى الرجل، وفريقه من المهندسين، سنوات عدة، يدرسون تقنيات صنع المطاردين، كذلك كانوا قد تعرفوا على الكثير جداً من جوانب تلك التقنيات من «جريك»، ذلك المطارد الذي كان قد تبني هيسدير فيما مضى. وقد برعوا حقاً في إتقان استخدام تلك التقنيات، حتى أنهم تمكنوا من صنع مطاردين بأنفسهم؛ وكانت هيسدير قد شهدت بنفسها فرقة من هؤلاء الرجال العائدين من الموت، يسرون في شوارع لندن ليلة انفجار الميدوسا.

ومع ذلك، فإن ما رأيته هيسدير في تلك الليلة من كائنات متحركة بلا عقل، لا يمكن بأي حال من الأحوال مقارنته مع ذلك الذي يقف قبلها الآن... أنا فأنج!!

كانت تقف أمامها، نخيلة، رشيقة، يماثل طولها طول فأنج وقتما كانت لا تزال على قيد الحياة. أما وجهها فقد تم تغطيته بقناع الموت المصنوع من

البرونز على هيئة وملاح فانج. ومن جمجمتها خرجت مجموعة من الأنابيب والأسلاك الملتوية لتتجمع بدقة خلف رأسها. وقد راحت تطلع إلى هيستير بهدوء وفضول بدا إنسانيا جدا، لدرجة أن هيستير قد حسبت للحظة أن ذلك المهندس قد تمكن بحق من إعادة أنا فانج إلى الحياة.

عادت ساذيا تتحدث من جديد، بسرعة هذه المرة: {هي لا تتذكر بعد، لكنها سوف تفعل.. سوف يكون هذا المكان بمثابة ذاكرتها حتى تعود إليها ذكرياتها الخاصة... لقد جمعنا لها هنا صورا لكل شخص عرفته على مدار حياتها، وكذلك لكل مكان ذهبت إليه يوما، والمدن التي حاربتها... صورا لأحبائها ولأعدائها. سوف ترجع إليها ذاكرتها... لقد عادت هي منذ بضعة أشهر ليس إلا،...}. ثم إنها توقفت عن الاسترسال بغتة، وكأنها أدركت أخيرا أن ماقالته توأ قد زاد من فظاعة الشيء المرعب الذي فعلته.

{آه!.. يالآلهة!}. صاحت هيستير في هلع {لماذا لم تدعيها ترقد في سلام؟}.

{لأننا في حاجة إليها}. صاحت ساذيا {لقد ضلت الجماعة طريقها، وصرنا نتخبط تماما. إننا نحتاج إلى قادة جدد، ولطالما كانت أنا أفضل من فينا، ولسوف تقودنا هي على طريق النصر!}.

هنا، قام المطارد، أنا، بثني ذراعيه، ومن كل طرف من أصابعه برز نصل حاد لامع رفيع...

{هذه ليست أنا}. هتفت هيستير {لا أحد يعود من الأرض التي لا تشرق عليها الشمس. ربما نجح مهندسوك في إعادة الحركة إلى جثتها في شكل مطارد، لكنها ليست هي. لقد عرفت أحد المطاردين يوما، ولم يكن يتذكر من كان عليه أثناء حياته.. إن هؤلاء العائدين من الموت لا يعودون

نفس الأشخاص أبداً، وإنك إذ تثبتين إلى رؤوسهم تلك التقنيات القديمة فأنت لاتعيدين نفس الشخص وإنما تصنعين كائناً آخر مختلفاً تماماً..}.

{لم أكن أعلم أنك خبيرة هكذا يا آنسة شاو}. قالها بوب جوي وهو يضحك في استهزاء {بالطبع إنك إذ تتحدثين هكذا فإن مايدور في ذهنك هو نموذج «جريك»، ذلك النموذج القديم من المطاردين؛ والحق أنه ليس سوى نسخة متقدمة رديئة، أما ما صنعتته أنا فمختلف كل الاختلاف. فقبل أن أقوم بتثبيت تقنية المطارد في رأس الآنسة فانج، قت ببرمجتها أولاً على البحث عن مراكز الذاكرة بالمخ البشري، وإنني لعلی ثقة تامة بأننا سوف نتمكن من استعادة ذاكرتها المدفونة في مكان ما في مخها، وهذا هو بالضبط الغرض من تلك الغرفة... تحفيز ذكرياتها من حياتها السابقة. إلا أن الأمر برمته يتوقف على إيجاد المحفز المناسب... سواء كان ذلك المحفز يتمثل في رائحة ماء، أو غرض من الأغراض، أو وجه.. ولهذا السبب تحديداً أنت هنا الآن}.

هنا قامت ساذيا بدفع هيستير للأمام إلى مسافة أقرب للمطار، وقالت برفق: {انظري ياعزيزتي.. انظري... إنها هيستير شاو، ابنة فالانتاين. لا بد أنك تتذكرين كيف وجدتتها وأتيت بها إلى بوتامونج جومبا؟.. لقد كانت هناك كذلك حينما لقيت مصرعك}.

ظل المطارد يتطلع إلى هيستير، ثم إنه انحنى نحوها قليلاً وأخذ يتفرس في ملامحها، ومن خلف القناع البرونزي كان لسان أسود ميت يلحق الشفتين الجافتين للجثمان المتحرك.

ثم أخيراً، تحدث المطارد، نخرج صوته جافاً خافتاً، كرياح الليل إذ تدور في وديان حجرية قفرة: {أنا لا أعرف هذه الفتاة}.

{بل تعرفينها يا آنا}. قالتها ساذايا بإلحاح أشبه بالتوسل {يجب أن تحاولي التذكر}.

فرفع المطارد وجهه وراح يتأمل مئات الصور المثبتة على الجدران والسقف من حوله... صور لوالدا آنا.. ستيلتون كليل الذي كان رئيس العبيد حينما كانت أنا لاتزال أسيرة في معسكرات العبودية بأركانجيل... صورة لفالاتين... كابتن خورا... باندورا راي...

ولكن لم يكن هناك أي صور تحمل وجه هيسستير المشوه.

ثم عاد المطارد ليثبت عينيه على هيسستير من جديد، ومن يديه راحت النصال ترتعش وتنسحب وتمدد مراراً في عصبية، ثم: {أنا لا أعرف هذه الفتاة... أنا لست أنا فانج.. إنك تضعين وقتي.. أريد أن أغادر ذلك المكان}.

{بالطبع سوف تفعلين، ولكن أولاً عليك أن تحاولي التذكر، عليك أن تستعيدي ذاتك من جديد قبل أن نعيدك إلى الوطن.. كل شخص هناك يحبك كثيراً، وحينما يعرفون نبأ عودتك فسوف يهبون جميعاً ويتبعونك}.

{آآآ.. أيتها القائدة}. تتم بوب جوي متراجعا نحو الجسر {أعتقد أن علينا أن ننسحب الآن..}.

{أنا لست أنا فانج}.

{أيتها القائدة، يجب أن...}.

{آنا، أرجوك حاولي..}.

ثم، وبحركة غريزية محضة، أمسكت هيسستير بساذايا وقامت بجذبها بقوة إلى الورا فيما كان المطارد، في لمح البصر، قد رفع ذراعه فجأة مشهراً

نصّاله الحادة على بُعد إنش واحد لا غير من حنجرة القائدة. وبسرعة رفع أحد الحراس بندقيته الآلية مصوباً إياها نحو المطارد، فوقف الأخير متردداً، بينما تراجعوا جميعاً عبر الجسر بعيداً عنه. وما إن بلغوا الباب حتى قام الحارس الواقف قبّالته بسحب رافعة ثقيلة حمراء المقبض، فانبعث أضواء الإنذار الحمراء، ودوى أزيز ذبذبات كهربائية.

{أنا لست أنا فأنج}. صاح المطارد بقوة، وقد دوى صوته في أذني هيستير بينما كانوا يعودون أدراجهم عبر الحجرة الصغيرة، فالتفتت نحوه في اللحظة التي كان الحارس يغلق فيها الباب الثقيل، لتجده لا يزال في مكانه على المنصة، واقفاً يتطلع إليها ونصّاله لا تزال مشهورة لامعة ترف بشدة.

{مدهش!... مدهش!}. أخذ بوب جوي يردد بينما يقوم بتدوين بعض الملاحظات، ثم قال: {ربما لم يكن من الحكمة تركيب تلك النصال في أطرافه الآن...}.

{ما الأمر؟ ما الذي حدث؟.. ما الذي دهاها؟!}. سأله ساذيا.

{من الصعب تحديد ذلك الآن}. أجابها المهندس {ولكنني أعتقد أن آليات استدعاء الذاكرة التي أضفتها إلى منحنها قد تصادمت مع غرائزها الهمجية فأثارتها}.

{أتعني أن ذلك المطارد مجنون؟}. تساءلت هيستير.

{في الواقع يا آنسة شاو، إن مصطلح «مجنون» هذا ليس هو المصطلح الملائم لوصف الوضع... لنقل أن الآنسة فأنج «عاقلة ولكن بشكل مختلف نوعاً»}.

{مسكينة يا أنا!}. همست ساذيا وهي تتحسس عنقها.

{لا تقلقي بشأن آنا}. قالت هيستير {إنها ميتة الآن، وإنما أنت المسكينة حقاً وينبغي أن تقلقي على نفسك أنت وليس هي. لقد جلبت لجماعتك آلة قتل مجنونة هاهنا ولن يتمكن حراسك ولا أسلحتك البائسة تلك من الإبقاء عليها في تلك الحجرة إلى الأبد، فلو أنها هبطت عن تلك المنصة فسوف يمكنها الوصول إلى الباب و...}.

{الجسر مكهرب يا آنسة شاو}. قالها بوب جوي مقاطعاً في حزم {كما أن العوارض أسفل المنصة مكهربة هي الأخرى، وحتى بالنسبة لمطارد فإن الصدمات الكهربائية العنيفة يمكن أن تحدث له أضراراً كبيرة. أما بالنسبة للبنادق، فإني أعتقد أن الآنسة فأنج لازالت تخشاهم مثلها في ذلك مثل أي إنسان عادي، فهي لا تدرك بعد مدى قوتها كمطارد، ولهذا فلا تزال الأسلحة تشكل عامل خطر في عقلها، وهذا في حد ذاته قد يكون دليلاً على أنها تملك بالفعل ذكريات باقية من حياتها السابقة كإنسان}.

فنظرت ساذياً إليه، وقد لاح الأمل في عينيها، وقالت: {نعم، نعم، يادكتور، ينبغي ألا نياس.. سوف نأتي بهيستير إلى هنا مرة أخرى عليها تساعدنا على التذكر}، ثم استدارت مبتعدة وهي تبتسم.

أما بوب جوي، فقد لاحظت هيستير نظرات الذعر الخفية التي تلوح في عينيها من خلف عويناته... ففي حقيقة الأمر، لم يكن لدي ذلك المهندس من لندن أدنى فكرة عن كيفية استعادة ذاكرة الملاح الميتهة!، وقد فهمت هيستير ذلك من نظراته الهلعة، وأدركت أن ساذياً لابد وأنها سوف تدرك ذلك بدورها قريباً، وسوف تعلم حينها أن محاولة إعادة صديقتها من الأرض التي لا تشرق عليها الشمس كان محكوماً عليها بالفشل منذ البداية، وحينها لن يكون هناك أي سبب يدفعها للإبقاء على هيستير....[سوف أموت هنا] هكذا قالت هيستير لنفسها، بينما كان الحراس يقتادونها من جديد

إلى زنانتها ويغلقون الباب عليها... [سوف أموت هنا، سواء على يد ساذيا، أو على يد ذلك الكائن المجنون، ولن أرى توم ثانية. لن أتمكن من إنقاذه، وسوف يموت هو الآخر في معازل العبيد بأركانجيل.. سوف يموت وهو يلعني].

وغرقت هيسدير في بحر أفكارها السوداء، وقد أسندت ظهرها إلى الجدار وراحت تنزلق ببطء وأسى إلى أن ركعت على ركبتها ثم تكورت حول نفسها. ومن أنابيب التدفئة في السقف جاءها صوت الخشخشة والجلبة الصادرة عن المواسير القديمة، وكأنا ليذكرها بأنكوراج، وراحت تفكر في السيد سكايبوس، وساذيا، وكل هؤلاء الذين فقدوا أحبائهم، فانغمسوا في محاولات يائسة من أجل استعادتهم مرة ثانية، وبكت... {أأاه ياتوم.. أأاه}. وظلت تبكي وتنتحب، وقلبا ينفطر من الألم، إذ راحت تتخيل توم وهو آمن سعيد في أنكوراج، ولا يدري أنها قد أرسلت أركانجيل الرهينة في إثره.

(٢١)

عناكب وأكاذيب

مر أسبوع، فالثاني، ثم الثالث، وكانت أنكوراج لاتزال في طريقها نحو الغرب، عبر الأطراف الشمالية لجرين لاند، في حين كانت فرق المسح الأرضي الخاصة بها تنتشر أمامها لجس الجليد والتحقق من مدى قدرته على تحمل المدينة الثقيلة؛ فلم يسبق لمدينة من قبل أن سلكت هذا الطريق أبداً، وما كانت الآنسة باي لتثق في الخرائط التي بحوزتهم وحدها.

أما فريا فقد كانت تشعر وكأنها تهيم على وجهها بلا وجهة أو هدف، وقد راحت تُسأل نفسها كل يوم... لماذا هي غير سعيدة؟ وكيف انقلب كل شيء هكذا رغم أن كل شيء كان يسير كما خططت له؟. أما أكثر ما كان يؤلمها فهو عزوف توم عنها... لماذا لا يريد لها؟

[لا يمكن أن يكون مازال يفتقد هيلستير، أيعقل ذلك؟!] هكذا أخذت تفكر في ذلك اليوم وهي تقف أمام مِرآتها تمسح الغبار عن صفحتها لتتفحص هيئتها [لا يمكن أن يكون يفضلها علي!]

في بعض الأحيان كانت تنتحب رثاءً لحالها، ولكم أمضت الساعات تفكر وتعد الخطة تلو الأخرى لاستعادته إليها وجعله يحبها. وفي أحيان أخرى كانت تسير بين ممرات القصر المغبرة، لاتلوي على شيء، وهي تتم في غضب بكل ما كان ينبغي أن تقوله لتوم يوم جدالهما بشأن رحيل هيسدير. بل وقد وصلت بها الحال أن فكرت لمرة أو مرتين أن تأمر بقطع رأسه بحجة اتهامه بارتكاب الخيانة العظمى، لكنها تذكرت أن جلاد المدينة - وهو رجل من النبلاء كان منصبه شرفيا بحتا - قد مات، وما كانت لتثق في قدرة سميو على رفع الفأس أصلا لتنفيذ الإعدام.

وكان توم قد ترك جناحه في القصر الشتوي وانتقل ليقم في شقة مهجورة بمبنى كبير خاو في «راسموسن بروسبكت»، بالقرب من الميناء الجوي، ويمنأى عن متحف العجائب ومكتبة المارجرافين كي لا يشتتا عقله، فقد كرس أيامه وساعاته في الرثاء لحاله وما آل إليه، والتفكير في كيفية استعادة هيسدير من جديد، أو على الأقل معرفة الوجهة التي ارتحلت إليها.

لم يكن هناك أي طريق قبالة أنكوراج، وكان ذلك واضحاً تماماً؛ كذلك كان توم قد تحدث مع السيد أكيوك وطلب منه استعارة الـ«جروكولوس» للارتحال به بحثاً عن هيسدير، إلا أن السيد أكيوك قد أكد له أن الجوكولوس ليس سوى مجرد جرار سحب ولم يسبق أن تحرك على مسافة أبعد من نصف ميل من الميناء من قبل، كذلك فمن المستحيل تحميله بكميات الوقود اللازمة للارتحال على مسافة طويلة كما يرغب توم... {علاوة على ذلك}. قال السيد أكيوك {ما الذي ستملؤه به بالضبط؟!..} لقد كنت أتحقق من خزانات الوقود بالميناء واكتشفت أنه لم يتبق منه شيء تقريباً.. أنا لا أفهم ما الذي يجري بالضبط!، فالعدادات تظهر أن الخزانات ممتلئة بالوقود، في حين أنها تكاد تكون خاوية تماماً!..}

ولم يكن الوقود هو الشيء الوحيد المفقود هاهنا... وإنما ذلك الزائر الغامض كذلك!. فقد راح توم - الذي لم يقتنع بأحاديث سكليوس عن الأشباح - يسأل القاضي والداني في قسم المحركات عن صديق هيبستير العجيب هذا، دون جدوى، فما من أحد يعرف هويته، إلا أنه أدرك من حديثه مع العاملين بالقسم أن كل منهم لديه مشاهدات غامضة لأشخاص ينسربون بسرعة وخفة عبر أركان القسم، في أماكن لا ينبغي لأحد أن يكون موجوداً بها.

كذلك توجد مشكلة اختفاء الأدوات!، حيث يعيدها العمال إلى أماكنها عقب انتهاء دوام العمل، ثم يعودون في اليوم التالي فلا يجدون لها أثراً!....

أشياء تختفي من الخزائن والغرف المغلقة، وخزانات الوقود تفرغ عن بكرة أبيها حتى وإن أظهرت العدادات عكس ذلك... {مالذي يجري هنا؟!}. تساءل توم مندهشاً: {من ذا الذى يمكن أن يكون ضالماً في الاستيلاء على كل تلك الأغراض؟... أعتقدون أن هناك شخصاً ما موجود على متن المدينة ولا نعلم بوجوده؟ شخص ما ظل قابلاً في مكان سري بعد الوباء كي يستولي على ما يتيسر له؟}.

{بحقك أيها الفتى!}. قالها أحد العمال ضاحكاً {ومن هذا الذي يبقى على متن مدينة كهذه؟.. لم يبق في أنكوراج من أحياء سوى هؤلاء الذين عقدوا العزم على معاونة سمو إشرافها على الارتحال بالمدينة إلى أمريكا، فقط. أما حديثك هذا عن لص يقبع في السر ليسرق المدينة فلا معنى له، وإلا قل لنا إذن كيف لهذا اللص أن يتأتى له بيع مسروقاته تلك؟ ولمن؟، لا يوجد أي مدن حولنا، ولا أحد!}.

{إذن، من عساه يكون من يفعل ذلك؟}.

{الأشباح}. قالوها جميعاً، وفي آن واحد، وقد راحوا يمسون بأصابعهم التمايم التي علقوها حول رقابهم، {لطالما كانت أعالي الجليد مسكونة بالأشباح، والتي تأتي بين الحين والآخر على متن المدن وتمارس ألعياها على الأحياء. الكل يعرفون ذلك}.

وقف توم يستمع إلى مايقولون وقد اعترته الحيرة والارتباك، فقد كان يدرك أن هناك شيئاً ما غير طبيعي، بل ومخيف، في قسم المحركات، لكنه لا يدري كنهه بالضبط، وكثيراً ما انتابه إحساس عجيب أثناء وجوده هناك بأن ثمة من يراقبه!، لكنه في ذات الوقت لا يستطيع استساغة فكرة الأشباح تلك، كما أنه لم يستوعب بالضبط ما الذي قد تفعله الأشباح بالزيت والوقود والمعدات، وكذلك بالمقتنيات من متحف المارجرافين!

إنه على وشك الوصول إلينا}. قالها سكيور وقد جلس يتابع شاشات المراقبة في أحد المساءات بينما كان توم يتجول بين بعض المباني المهجورة الكائنة على حافة حي المحركات، {إنه يعرف بأمرنا}.

{هو لا يعرف أي شيء}. قالها كول في ضجر {هو يرتاب فقط، وهو لا يعرف حتى فيم يرتاب بالضبط، وإنما كل ما يعرفه أن ثمة شيء ما يحدث لكنه لا يدري ماهو}.

فنظر إليه سكيور مندھشاً، ثم انفجر ضحكاً وقال: {أنت تعرف مايفكر فيه جيداً، أليس كذلك؟}.

{أنا فقط أقول إنه لا داع لتقلق بشأنه. هذا كل ما في الأمر}.

{أما أنا فأقول إنه ربما بات علينا أن نتخلص منه، ولنجعل الأمر يبدو كحادث، ما رأيك؟}.

لم يجر كول جواباً. والحقيقة أنه منذ أن بدأ توم تحرياته بصدد زائره الغامض والأحداث العجيبة التي تجري، قد صار هؤلاء اللصوص في وضع لا يحسدون عليه، وقد أدت شكوك توم لتأخيرهم كثيراً في مهمتهم بالمدينة؛ وفي كل ليلة يصعد فيها كول وسكيور إلى الطابق العلوي للسرقة، فإنهما لا يستطيعون عمل أي شئ خوفاً من إثارة المزيد من شكوك توم، فيعودان إلى المركبة خالي الوفاض، وهو ما كان يثير حنق سكيور كثيراً، فنذ استيلائه على قيادة المركبة، كان قد قرر أن يعود بها إلى الوطن وهي مكتظة بالمسروقات ليثبت للعم أنه كان على صواب يوم اتخذ قرار الاستيلاء على قيادة تلك المهمة وإزاحة كول. أما الآن، وبسبب توم، صار عليهم أن يكونوا أكثر حرصاً مما أثر على أعمالهم كثيراً.

ولم تكن تلك هي المشكلة الوحيدة التي تواجه اللصوص، بل كان هناك ما هو أكبر وأخطر، فقد بات لزاماً عليهم الآن أن يقوموا بفك خراطيم شفت الوقود من الخزانات في الميناء الجوي قبل أن يكشفها توم، بينما تعتمد أسماء المراسلات ومعظم أنظمة التشغيل في المركبة على الوقود المسروق.

كانت نفس اللص داخل كول تدرك جيداً أن سكيور على حق في تفكيره... مجرد طعنة سريعة من سكين حاد بين أضلع توم في شارع مهجور، وتنتهي مشاكلكم تماماً، وتعود أعمال السرقة إلى سابق وتيرتها. إلا أن الجانب الآخر في شخصيته، الجانب الطيب، ما كان ليتحمل تلك الفكرة أو يتقبلها.

وقد راح في قراره يتنى لو أن سكيور يستسلم ويقرر العودة إلى «جريم سباي» تاركاً إياه في أنكوراج ليبقى يشاهد توم وفريا وباقي أهل المدينة.

وفي بعض الأحيان كان يفكر في أن يخرج إلى هؤلاء الناس ويسلم نفسه لهم تاركاً أمره بين أيديهم، رهن رحمتهم وكرمهم...

رحمتهم؟! عجباً!، لطالما قيل له إن الياسين لا يتمتعون بأي إحساس بالرحمة... قالها له مدربوه في معقل اللصوص.. ورددها زملاؤه على مسامعهم... وما برح صوت العم يهمس بها عبر مكبرات الصوت في قاعة الطعام بجريم سباي؛ كلهم كانوا يكررون نفس الكلمات ويؤكدون ليلاً ونهاراً أنه مهما بدا الياسون متحضرين، ومهما كانت مدتهم مريحة وفتياتهم جميلات، فإنهم لا محالة سيرتكبون أبشع الأفعال لو أنهم فقط أمسكوا بأحد الصبية المفقودين.

والآن، لم يعد كول متأكداً من مدى صحة كل ما نشأ عليه من تعاليم، إلا أنه لم يكن يمتلك الشجاعة الكافية للتحقق بنفسه من تلك الإدعاءات، وكيف له أن يفعل؟! أيعقل أن يخرج على القوم ليقول لهم : مرحباً، أنا كول، لقد كنت أقوم بسرقتكم...!

وبعد حين، بدأت آلة التلغراف تهدر في الجزء الخلفي من الكابينة لتعيد كول إلى الواقع وتقطع عليه استرساله في أفكاره.

أجفل الصبية الثلاثة، وقفز سكيور وكول في نفس اللحظة من أماكنهما، حتى جارجل، الذي صار أكثر توتراً الآن تحت القيادة القاسية لسكيور، وقف مرتعباً؛ بينما راحت الآلة تهدر وقد أخذت أطرافها النحاسية تتحرك للأعلى وللأسفل، في حين بدأ شريط طويل من الورق الأبيض المثقوب يخرج من فتحتها. وفي مكان ما أسفل أنكوراج كانت سمكة مراسلة قادمة من جريم سباي تشق طريقها وتبث إشارات عبر الجليد. أخذ الصبية الثلاثة يتبادلون النظرات في حيرة، فقد كان حدثاً نادراً أن تتلقى مركبة للصوص

رسالة من العم، ولم يسبق لכול أو سكيور أن رأى أي منهما شيئاً مماثلاً في أي مهمة خرجوا إليها.

وفي غمار حالة الارتباك التي تملكته نسي سكيور أنه قد صار القائد، ونظر إلى كول في حيرة وقلق، وقال: {في رأيك ما الأمر؟ هل تظن أن ثمة خطباً ما في جريم سباي؟}.

{أنت القائد الآن ياسكيو}. قالها له كول {من الأفضل أن تتحقق بنفسك}.

فاندفع سكيور إلى حيث الآلة دافعاً جارجل جانباً في عصبية، ثم التقط الشريط المثقب. وما إن شرع يتأمل في الرسالة حتى اكفهر وجهه...

{ما الخطب ياسكيور؟}. سأله جارجل في ترقب {أهي من العم؟}، فأوماً سكيور دون أن ينطق بشيء، وقد أخذ ينظر إلى زميله ثم يعاود التحديق ثانية في الرسالة، وكأنه لا يصدق ما يقرأ.

ثم بعد لحظات قال: {بالطبع هي من العم. يقول إنه قد اطلع على التقارير التي أرسلناها إليه، ويطلبنا بالعودة فوراً إلى جريم سباي... وأن نحضر توم ناتسوورثي معنا!}.

{بروفيسور بيني رويال}.

ما عاد أحد في أنكوراج يرى المستكشف العظيم خلال الأسابيع القليلة الماضية إلا فيما ندر، فقد بات يقضي جل وقته داخل مستقره الفاخر، ولم يعد حتى يحضر اجتماعات اللجنة التوجيهية. وحينما أرسلت فريا سميو إليه، تحجج بأنه {أعاني من الإنفلونزا}، قالها بصوت خافت مبحوح.

ولكن في تلك الليلة، حين كان توم عائداً أدراجه من قسم المحركات إلى الأعلى حيث «راسموسن بروسبكت»، فوجئ أمامه بالهيئة المألوفة لبيني رويال، إذ كان يترنح بين الثلوج... {بروفيسور بيني رويال}. صاح توم من جديد، وأخذ يعدو نحو الرجل، إلى أن بلغه بالقرب من سفح مقر وحدة قيادة المدينة.

{آه... تم!}. قالها بيني رويال، وقد علت وجهه ابتسامة شاحبة، وخرج صوته مضطرباً مشوشاً، وبين ذراعيه استقر عدد من قنينات النبذ الأحمر الرخيص قد أتى بها للتو من إحدى الحانات المهجورة..

{سعيد برؤيتك من جديد. أظن أنك لم يحالفك الحظ في استعارة ذلك المنطاد، هه؟}.

{منطاد؟!}

{نعم، لقد أخبرني أحدهم أنك حاولت إقناع أكويك بإعارتك مقطورته الطائرة تلك، «الكرابلوس» أو أيا كان اسمها. كنت تريدها للهرب من تلك العوالم الشمالية المملة والعودة إلى الحضارة}.

{ذلك كان منذ عدة أسابيع يا بروفيسور}.

{آه، حقاً؟}

{ولم أوفق}.

{آه، للأسف}.

ثم وقفاه لهنية والصمت المربك يلفهما، بينما كان بيني رويال يترنح قليلاً. إلى أن قطع توم ذلك الصمت قائلاً: {لقد كنت أبحث عنك منذ فترة طويلة، فثمة أمر أريد أن أستفسر منك عنه باعتبارك مستكشفاً ومؤرخاً}.

{آه بالطبع. من الأفضل أن تأتي إلى الداخل}.

وفي الداخل، كان المقر الرسمي للرئيس الشرقي للملاحين قد تدهور كثيراً منذ أن رآه توم آخر مرة! ففي كل موضع انتشرت أكوام من الورق والأواني المتسخة، وعلى الأرض تكومت الملابس الباهظة الأثمان في إهمال، أما الأرائك فقد امتلأت بالزجاجات الفارغة للنبيذ...

{مرحباً، مرحباً بك}، قالها بيني رويال وهو يشير إلى توم كي يجلس على أحد الكراسي في حين أخذ هو يبحث عن فتاحة زجاجات الخمر بين ركام المهملات على مكتبه... {والآن، كيف يمكنني أن أساعدك؟}.

فهز توم رأسه محاولاً استجماع أفكاره، ثم قال أخيراً: {إنه فقط...! آآ... حسناً، خلال أسفارك، هل صادفتك يوماً قصص حول وجود متسللين ما على متن المدن الجليدية؟}.

ما إن سمع بيني رويال ذلك حتى كادت زجاجة النبيذ أن تسقط من يده... {متسللون؟ لا! لماذا؟}.. أنت لاتعني أن هناك متسللين على متن هذه المدينة، أليس كذلك؟...}.

{لا، لست متأكداً من شيء... ربما... هناك شخص ما يسرق العديد من الأغراض من المدينة، وعن نفسي لا أجد سبباً يحمل أحداً من أهلها على السرقة، فكل شيء متاح لهم، ويمكن لأي منهم الحصول على ما يريد دونما سرقة}.

فتح بيني رويال زجاجة النبيذ التي في يده وراح يعب منها مباشرة جرعة كبيرة من السائل الأحمر لتهدئة أعصابه، قبل أن يقول: {ربما هناك طفيلي إذن!}.

{طفيلي؟! ماذا تقصد؟}.

{ألم تقرأ كتابي «زيجورات، مدن الإله الثعبان»؟، كتابي المدهش الذي يدور حول رحلتي عبر «نوفو مايا «؟... في هذا الكتاب يوجد فصل كامل عن البلدات الطفيلية أمثال» لاس كيوداديس فامبيراس»}.

{أنا لم أقرأ في حياتي عن بلدات طفيلية}. قالها توم في تشكك، ثم {هل تعني نوعاً من بلدات جامعي المخلفات؟}.

{لا، لا}. أجاب بيني رويال بينما كان يتخذ مجلسه بالقرب من توم {هناك أكثر من طريقة لاقتراس المدن. هناك أنواع من البلدات يمكنك أن تسميها مصاصات الدماء، عادة ماتخفي نفسها بين النفايات في العراء إلى أن تمر بها إحدى المدن، وعندها تلتصق البلدة مصاصة الدماء بباطنها من خلال ممصات هائلة، دون أن تشعر المدينة المسكينة بأي شيء. ومن تلك البلدات يخرج الطفيليون ليتسللوا على متنها ويشرعون في استنزاف كل ما تيسر لهم الوصول إليه... خزانات الوقود.. معدات... أي شيء، كما قد يقتلون الرجال واحداً تلو الآخر، ويختطفون الشابات الجميلات لبيعهن في أسواق العبيد في «إيتزال» لاستخدامهن كقرايين لآلهة البراكين. وفي نهاية المطاف ينتهي الأمر بالمدينة البائسة بالتوقف التام، كهيكل جاف خاو من الحياة، ويمسي أهلها وقد صاروا موتى أو أسرى، ثم يقوم الطفيليون بتجريدتها من محرقاتها ويتركونها وقد فرغت تماماً وصارت مدينة ميتة، لبيحثوا عن فريسة أخرى ليمتصوا منها الحياة ويقتاتوا عليها}.

ظل توم صامتاً ينصت إلى ما يقول الرجل، ويفكر، ثم قال أخيراً {ولكن هذا مستحيل، إذ كيف يمكن لمدينة ألا تدري بأن هناك بلدة كاملة تتعلق

بها!، وكيف لا يرصد أهلها هؤلاء الطفيلين الذين يجولون بينهم ويسرقون أغراضهم؟ هذا غير منطقي و... ممصات هائلة؟! كيف هذا؟!.

فنظر بيني رويال إلى توم مصدوما من طريقة كلامه وقال {توم، ماهذا الذي تقوله؟!}.

{أقول إنك.. إنك قد اخترعت كل هذا! تماما كملك الحكايات التي ذكرتها في كتابك «نفايات؟»، وأطلال المباني القديمة التي قلت إنك رأيته بعينيك في أمريكا... اه، يالكويرك العظيم!}. ثم إن توم قد بدأ يشعر ببرودة مفاجئة تتسلل عبر أوصاله، إلا أنه استرسل {هل حقا ارتحلت إلى أمريكا يوماً؟ أم أن ذلك كله كان من تأليفك كذلك؟}.

{بالطبع ذهبت إلى هناك}. صاح بيني رويال في غضب.

{لا أصدقك}. قلها توم، الذي نشأ على احترام الأكبر سنا وتجميل المؤرخين، والذي ما كان ليجرؤ أبداً على التفوه بمثل ما قال الآن أو حتى مجرد التفكير فيه. لكنه قد تغير... ثلاثة أسابيع بدون هيسستير كانت كفيلة بتغييره أكثر مما كان يتخيل.

ثم إنه هب واقفا وهو بعد يحرق في وجه بيني رويال المحتقن المتصبب عرقا، وقد أدرك أخيراً أن الرجل كان يكذب طوال الوقت، {كل هذا كان محض خيال منك؟ أليس كذلك؟... رحلتك إلى أمريكا لم تكن سوى مجرد قصة استوحيتها من حكايات الملاحين وأسطورة خارطة «سورين أولفينسون» المفقودة التي ربما لم توجد قط!}.

{كيف تجرؤ؟...}. صاح بيني رويال وهو يرفع نفسه عن كرسيه بصعوبة ويشير نحو توم بقنينة النبيذ الفارغة {كيف يجرؤ مجرد متدرب سابق في التاريخ مثلك على إهانتني.. لقد بيع من كتبي أكثر من مائة ألف نسخة،

وترجمت إلى عشرات اللغات... وكثيرا ما كتبت عني كبريات الصحف
تمتدح أعمالي... لقد قالت عني مجلة «شادر فيلد جازيت» أنني مفكر لامع
أتمتع بمصداقية عالية، وامتدحتني الـ«بينزرستات كوبلينز أدفرتايزر» «قائلة
إنني قد حركت بأعمالي المياه الراكدّة، أما الـ«وانت جيت ويبكلي» فقد
وصفت كتبي بأنها دفقة من الهواء المنعش المتجدد في عالم التاريخ...».

هواء منعش، هذا هو بالضبط ما كان توم يحتاج إليه في تلك اللحظات،
فما كان منه إلا أن اندفع نحو الخارج، تاركا المؤرخ الغاضب يرغي ويزبد،
وأُسرع يركض عبر الدرج إلى أن وصل إلى الباب، ومنه إلى الشارع،
حيث الهواء النقي.

لقد أدرك الآن لماذا كان بيني رويال يبدي كل هذا الاهتمام بسير
الإصلاحات في الجيني هانيفر، وكذلك لماذا كان فزعا مذهولا حينما علم
بنبا رحيل هيلستير وحدها. لقد كان حديثه عن الأراضي الخضراء في
أمريكا محض أكاذيب، وكان يدرك جيدا أن فريا راسموسن إنما تقود
مدينتها نحو حتفها...

شرع توم يركض تجاه القصر الشتوي، لكنه مالبث أن تراجع، ففريا لن
تكون الشخص المناسب للحديث معه في الأمر، فقد بذلت في سبيل تلك
الرحلة كل شيء ممكن، ولو أنه فجر في وجهها الآن تلك الكارثة واخبرها أن
بينى رويال كان كاذبا منذ البداية فسوف تنهار تماما، بل الأسوأ من ذلك
أنها قد تظن أن تلك خدعة من توم لجعلها تحول مسار مدينتها كي يتمكن
من البحث عن هيلستير... {السيد سكايبوس}. قالها لنفسه بصوت عال،
فالرجل لم يبد مقتنعا أبداً ببيني رويال أو مصدقا له، ولسوف ينصت لما
سيقوله توم.

فاستدار وشرع يركض بأقصى سرعة نحو الدرج المؤدي لقسم المحركات. وبينما كان يمر من أمام مقر قيادة المدينة، كان بيني رويال قد هرع إلى شرفته ووقف يراقبه ويصرخ: {موهبة مذهلة... هكذا وصفتني ال«ويل تابرز ويكلي»!}

وفي الأسفل، حيث الظلام والحرارة، كانت المحركات تهدر وتضطرب بالحركة، بينما تقود المدينة نحو كارثة. استوقف توم أول من صادفهم في طريقه وسألهم في عجلة عن مكان وجود سكايبوس حالياً، فأشاروا برؤوسهم نحو الطرف الخلفي للمدينة، وهم يمسون تماثهم بأناملهم: {لقد ذهب لبحث عن ابنه، كما يفعل كل ليلة}، فركض توم إلى هناك عبر الشوارع الخاوية الصدئة حيث لا توجد أية حركة أو أصوات... تقريباً!، فبمجرد أن مر أسفل إحدى مصابيح الأرجون المتدلية، حتى لاحظ بطرف عينه حركة خفيفة جداً، هناك عند فتحات التهوية، فتوقف وهو يلتقط أنفاسه بصعوبة، في حين كان قلبه يخفق بعنف، وقد وقفت الشعيرات على معصميه ومؤخرة عنقه كالإبر الصغيرة. وكان قد نسي كل شيء عن المتسللين في غمرة غضبه من بيني رويال، أما الآن فقد عاد وتذكرهم من جديد.

كان ممر التهوية يبدو خاوياً الآن، إلا أنه كان واثقاً من أن ثمة شيئاً ما كان يتحرك عبره قبل أن يتوارى سريعاً بين الظلال بمجرد أن لمح توم، كذلك كان متأكداً من أن ذلك الشيء لا يزال مختبئاً هناك، ويراقبه.

{اه يا هيسستير!} قالها متندداً وقد اجتاحه خوف عارم... كم كان يتنى لو أنها برفقته الآن، لأمكنها حينها التعامل مع هذا الموقف، أما هو فلم يكن واثقاً من قدرته على ذلك، ليس وهو بمفرده. ثم إنه راح يحاول تخيل ما كانت هيسستير لتفعله في مثل ذلك الموقف... وبعد لحظة حمل نفسه على الماضي في طريقه من جديد، خطوة تلو الأخرى، دون أن ينظر في اتجاه

الممر، إلى أن بات متأكدا من أنه قد صار بعيدا عن أنظار ذلك الذي
يحتجى هناك.

{أظن أنه رأنا}. قالها كول.

{لا يمكن}. أجابه سكيور.

فhez كول كتفيه غير راض عن الأمر برمته. لقد ظلوا يتبعون توم
بكاميراتهم طوال المساء، في انتظار أن يصل إلى مكان خاو وقريب بما يكفي
من مركبتهم لينفذوا أوامر العم الغامضة. ولم يكن قد سبق لهؤلاء الصبية
من قبل أن تابعوا أحدا من اليايسين عن كشب كل هذا الوقت، وحينما
نظر توم نحو كاميرا المراقبة، كان هناك شيء ما في ملامحه جعل كول يشعر
بعدم ارتياح... {بحقك ياسكيور.. سوف يكتشفنا لا محالة}. همس كول:
{لسوف يشعر بعد حين أنه مراقب، فضلا عن أنه يشعر بالارتياح منذ
البداية..}.

{لن يرانا}. قالها سكيور في حزم. لقد جعلته الرسالة الغريبة من العم
متوترا، ومع تلك المهمة الجديدة المتعلقة بتعقب توم، بات عليه أن يعترف
أن جارجل يجيد حقًا تشغيل كاميرات المراقبة، بل إنه الأفضل في هذا
الصدد من بين ثلاثتهم. والآن لم يعد لديه من يقين يتشبه به سوى تفوقه
كصبي مفقود على هؤلاء اليايسين.. {ربما هؤلاء اليايسون ينظرون بأعينهم،
لكنهم لا يرون أبدا!!.. إنهم لا يملكون قدراتنا على الملاحظة... إنهم حفة
من الأغبياء كما قلت لك من قبل}.

بينما كان توم يتسلل في الظلام نحو ممر التهوية، فإذا به يلح وميضاً
خافتاً يتسلل عبر فتحة صغيرة في الأنابيب المعدنية الممتدة، فراح يدق
النظر، ليكتشف أن الوميض كان صادرا عن جسم صغير في حجم قبضة

اليده، يسير على عدد من الأرجل... [هذا ليس فأراً، لا يمكن أن يكون كذلك] أخذ يفكر [فكل فئران أنكوراج قد قضت في الوباء... إنه.. إنه شيء ميكانيكي!] ثم بدأ توم يميز كنه ذلك الجسم... إنه ليس سوى كاميرا ذات عدسة واحدة، تتحرك فوق أرجل ميكانيكية. هنا تذكر توم ذلك الصبي الغامض الذي جاءه ليلة رحيل هيسدير، وبدأ يربط الخيوط ببعضها البعض... هكذا إذن اتضح كل شيء!... لقد كان الصبي يراقبهم منذ البداية عبر تلك الكاميرات، ولهذا كان يعرف بكل شيء قد جرى في الميناء الجوي والقصر الشتوي... ترى، كم من تلك الكاميرات موجودة الآن تتجول عبر شبكة أنابيب المدينة وتراقب كل شيء؟ ولأي غرض هذا؟.. ولماذا يراقبه ذلك الصبي؟!

{أين هو يا جارجل؟ اعثر عليه الآن...}

{أظن أنه قد رحل}. قالها جارجل إذ راح يتجول عبر شاشات المراقبة بين الكاميرات .

{كن حذراً}. هتف كول {توم لا يزال موجودا في مكان ما هناك، أنا متأكد من ذلك}.

أخذ توم نفساً عميقاً من الهواء، ثم وثب نحو أنابيب التهوية، فتراجع الجسم المعدني إلى الخلف، محدثاً صوت خرفشة جراء احتكاك أرجله بالأنبوب المعدني، إلا أن توم، والذي كان لا يزال يرتدي القفازات الثقيلة، قد تمكن من الإمساك ببعض من الأرجل المعدنية، ثم سحب بقوة...
{لقد أمسك بنا!}...

كانت أشبه مايكون بعنكبوت ضخم قليلاً، ذات ثمانية أرجل فولاذية مثبت إليها مغناطيس في كل قدم للتشبث، وجسم مكور مصفح، وفي

منتصفه عدسة شبيهة بعين قشريات «السايكلوب» البحرية. ومن طرف ذلك الجسم العجيب كان هناك سلك معدني رفيع يمتد إلى داخل الأنابيب. وفجأة ارتعش ذلك السلك ثم انسحب بقوة إلى داخل الأنبوب منتزعا الكاميرا من بين يدي توم، فوثب من جديد محاولا الإمساك بها، إلا أن حركة السلك كانت أسرع منه، وتراجع العنكبوت المعدني ليختفي من جديد داخل الأنبوب إلى حيث أعماق المدينة الغافلة.

كان توم لا يزال واقفا في مكانه وقد تسارعت ضربات قلبه بعنف... وراح يفكر [من ذا الذي يمكن أن يملك مثل تلك الآلة العجيبة؟! ومن هذا الذي يرغب في التجسس على أهل أنكوراج؟!]، واسترجع توم في ذهنه ما قاله بيني رويال عن الطفيليين والمدن مصاصة الدماء، ولم تبد الفكرة خرافية أو مستبعدة هذه المرة.

استند توم إلى الجدار المجاور محاولا التقاط أنفاسه، ثم بدأ في الركض مرة أخرى، وقد أخذ يصيح مناديا عليه، فترددت أصدااء صيحاته بين جنبات الشوارع الضيقة... {ياسيد سكايبوس}.

{لاا، لقد فقدناه من جديد...}. صاح جارجل وهو يتنقل من كاميرا إلى أخرى في عصبية بحثا عن توم، ومن مكبرات الصوت كانت صيحاته تتردد في المركبة {ياسيد سكايبوس... إنه ليس شبعا...} إنني أعرف من أين أتى!.

{أعتقد أنه يتجه نحو الطرف الخلفي}.

{سوف نذهب للإمساك به سريعا}. صاح سكيور في صوت أشبه بالبكاء، بينما هو يفتش بين الصناديق عن مسدس وشبكة صيد، {هذا الفتى سوف يكشفنا. وسوف يقتلنا العم. نعم، سوف يقتلنا حقا. يا للآلهة!

أنا لا أحب ذلك، نحن لصوص ولسنا خاطفين، ولم يسبق لنا أبداً أن قمنا
بخطف يابسين، خاصة لو كانوا كبار كهذا الشاب...}.

{العم يعرف أفضل}. قالها جارجل مذكراً إياه بما حفظوه عن ظهر
قلب، إلا أن سكيور قد صاح فيه {اخرس}.

{سوف أذهب أنا}. قالها كول، وقد كان هادئاً متماسكاً تماماً.

{ليس بدوني}. صاح سكيور، {فأنا لا أثق في محب لليابسين مثلك}.

{لا بأس}. أجابه كول وهو في طريقه نحو فتحة المركبة، {ولكن دعني
أقم أنا بتلك المهمة، إنه يعرفني وسوف أعرف كيف أتعامل معه وأنه
الأمر}.

{سيد سكايبوس}.

اندفع توم نحو الرواق بالطرف الخلفي للمدينة، وكان القمر ساطعاً في
مدار قريب من الأرض، وأذرع عجلة الدفع الخلفية تعكس نوره على
الألواح الأرضية. وهناك... كان الصبي ينتظر توم، وقد بدا كشبح رمادي
في ضوء القمر.

{كيف حالك يا توم؟}... كان يبدو عصبياً، ونَجَلًا إلى حد ما، لكنه
كان يتحدث بلطف، وكأنه كان من الطبيعي أن يلتقياً في مثل هذا المكان،
وبتلك الطريقة.

أجفل توم، حتى كادت أن تصدر عنه صيحة، إلا أنه ابتلعها قبل أن
تخرج، ثم قال للصبي وهو يتراجع خطوة إلى الوراء {من أنت؟... تلك
الأجسام الشبيهة بالعناكب، لا بد أن لديك الكثير منها، تنشرها في كافة
أرجاء المدينة لتراقب عبرها كل شيء، فلماذا؟ ولأي غرض؟... من أنت؟!}.

فرغ الصبي يده مستوقفاً توم الذي كان يتقهقر للوراء، وقال {اسمي كول}.

في تلك اللحظات كان توم يشعر أن فيه قد صار جافاً كالخشب من فرط الذعر، وقد أخذ مارواه بيني رويال عن الطفيليين يدق في عقله كآقوس خطر.. (إنهم يقتلون رجال المدن، الواحد تلو الآخر... وفي نهاية المطاف ينتهي الأمر بالمدينة البائسة بالتوقف التام، كهيكل جاف خاو من الحياة، ويمسي أهلها وقد صاروا موتى أو أسرى..).

{لا تخش شيئاً}. قالها كول وقد افترغ ثغره فجأة عن ابتسامة وكأنه قد قرأ ما يدور في عقل توم، {نحن فقط لصوص، وها نحن الآن سوف نعود إلى الديار، ولكن سوف تكون مضطراً للرحيل معنا. تلك هي أوامر العم}.

وفي اللحظات التالية كان كل شيء قد حدث بسرعة وفي آن واحد... فما إن شرع توم في الركض، حتى فوجئ بشبكة من أسلاك معدنية تهوى فوقه لتسقطه بقوة على الأرض، وقد سمع كول يصرخ في ذات اللحظة {سكيور لا}.

في حين صاح صوت آخر: {آكسل؟!}.

فرغ توم رأسه باتجاه الصوت ليجد سكايبوس عند الطرف الآخر من الرواق يتطلع كالمسحور نحو الصبي ذي الشعر الأشقر الذي حسبه في البداية شبح ابنه الراحل. ومن بين الظلال سمع توم دوي إطلاق طلقة من مسدس غازي، أعقبها وميض قوي مفاجئ من اللهب الأزرق، فصاح سكايبوس وهرع ينتحي جانبا متخذاً لنفسه ساتراً، بينما قفز صبي آخر بدا من هيئته أنه أكبر من كول، ذو شعر داكن طويل، إلى حيث موضع توم، وفي لمح البصر كان هو وكول يتعاونان على رفع توم، الذي كان لا يزال يقاوم محاولاً تحرير نفسه من الشبكة، لكن دون جدوى، وبالفعل حمله الاثنان ثم هرعا بحملهما الثقيل إلى حيث ممر خفي.

كان ذلك الممر قاتم مظلم، وكانت الألواح الأرضية به تصدر صريرا تحت وقع أقدامهما وتهتز بإيقاع رتيب، ومن الأرضية انتصبت عدد من المواسير الضخمة إلى الأعلى، وكأنما هي أشجار في غابة من المعدن. ومن موضع ما خلفهم كان وهج خافت من ضوء القمر يلوح من بعيد.

{أيها الشاب، عد إلى هنا.. توقف}. جاءهم الصوت الغاضب لسكايوس، فما إن سمع توم صوت الرجل حتى رفع عقيرته صارخا {سيد سكايوس، إنهم طفيليون، لصوص، إنهم....}، إلا أن خاطفيه قد أسقطوه أرضا بقسوة فلم يكمل عبارته. ومن موضعه على الأرض رآهما إذ ينخيان نحو فرجة بين اثنين من المواسير، وقام كول بنزع جزء من اللوح الأرضي ورفع، لتبدى من ورائه فتحة، فأدرك توم حينها أن ذلك اللوح ما كان سوى غطاء مموه.

{توقف}. كان صوت سكايوس لا يزال يتردد، وقد بات على مسافة أقرب الآن، هنا رفع زميل كول مسدس الغاز مرة ثانية وأطلق طلقة، إلا أنه كان قد صوبه هذه المرة نحو أحد المواسير محدثا ثقبا بها، فاندفع الدخان الأبيض الكثيف ليغطي كل شيء ويحجب الرؤية تماما.

{توم}. صاح الرجل من جديد {سوف أحضر مساعدة}.

{سيد سكايوس}. صرخ توم، إلا أن الرجل كان قد هرع بالفعل، وسمعه توم يصيح طالبا العون، ومن بين الدخان، رأى توم موضع الفتحة، وذلك الضوء الأزرق المنبعث منها، ثم قام خاطفاه برفعه من جديد وإلقائه عبر الفتحة نحو الأسفل، ليسقط بقوة فوق أرضية صلبة، ومن بعده هبط الصبيان عبر سلم معدني، ثم قاما بإعادة إغلاق الفتحة العلوية.

(٢٢)

الدودة الحلزونية

في تلك الغرفة الخائقة، ذات المصابيح الزرقاء والرائحة العطنة، المكتظة عن آخرها بالمسروقات، وجد توم نفسه ملقى فوق الأرض الباردة. فكافح ليتخذ وضع الجلوس، وكانت إحدى يديه قد تحررت من الشبكة المعدنية أثناء سقوطه، فما إن انتبه لذلك وشرع يحاول تحرير نفسه بالكامل من تلك الشبكة اللعينة، حتى فوجئ بكول يقبض على ذراعيه من الخلف، في حين جثم زميله - وقد عرف توم أن اسمه سكيور - أمامه وفي يده كان سكين صغير ذو حافة مسننة، وقد وضعه فوق حنجرة توم.

{لا، رجاء}. قالها توم من بين أسنانه، بالرغم من أنه كان متأكدا من أن هؤلاء الغرباء لا يمكن أن يكونوا قد تجشموا كل ذلك العناء في خطفه وحمله إلى هذا المكان، فقط ليقتلوه. ومع ذلك فقد كان ملمس النصل البارد فوق عنقه والنظرة الوحشية في عين الفتى سكيور، كفيلين بإثارة ذعره.

{لا تفعل يا سكيور}. قالها كول.

(٢٣٤)

{فقط أردته أن يعلم ما سيصيبه إن هو حاول الإتيان بأي فعل أخرج}،
ثم سحب الفتى سكينه من فوق عنق توم ببطء..

{معه حق ياتوم}، قالها كول، وهو يساعده على النهوض {أنت لن تتمكن
من الهرب، أبداً، لذا فمن الأفضل لك ألا تحاول.. إنك لن تكون سعيداً
لو اضطررنا لحبسك في أحد صناديق الشحن}.. ثم إنه سحب حبلاً من جيبه
وقام بربط معصمي توم معاً {هذا سيبقى فقط إلى أن نبتعد عن أنكوراج،
وبعدها سوف نقوم بفك وثاقتك.. فقط لو أنك تصرفت بعقلانية}.

{نبتعد عن أنكوراج؟!}.. سأله توم وهو يراقب أنامل الصبي إذ توثق
عقدة الحبل، {وإلى أين؟}.

{إلى ديارنا}.. أجابه كول {العم يريد أن يراك}.

{عم من؟!}

هنا انفتح باب دائري خلف كول فجأة، تماماً كحاجب الكاميرا
الفوتوغرافية ينفتح دفعة واحدة. ومن وراء ذلك الباب تبدت مجموعة
معقدة من الأدوات والمعدات، ثم هرع صبي ثالث صغير السن، صائحاً
{سكيور، علينا أن نذهب}.

فابتسم كول بسرعة نحو توم قائلاً: {مرحباً بك على متن «الدودة
الحلزونية»}. ثم ركض مسرعاً عبر الباب الدائري إلى حيث تلك الغرفة
الثانية، ثم تبعه توم حيث دفعه سكيور بقوة...

الآن فقط أدرك أن تلك الغرفة الصغيرة ذات الضوء الأزرق ليست
مجرد قبو تحت الأرض في أنكوراج، كما اعتقد أول الأمر، كذلك ليست في
واحدة من البلدات الطفيلية التي تحدث عنها بيني رويال، وإنما هي مركبة،

وتلك تحديدا هي غرفة التحكم بها؛ عبارة عن مقصورة هلالية الشكل ذات لوحات تحكم تزدهم بالرافعات والأزرار، ونوافذ مقعرة تطل على الظلام في الخارج. وفي إحدى المنصات استقرت ست شاشات مراقبة بيضاوية الشكل، تظهر مناظر مختلفة عبر أنكوراج... قسم محركات سكايبوس... الرواق بالطرف الخلفي للمدينة... حي راسموسن بروسبكت... أحد الممرات بالقصر الشتوي. وعلى الشاشة الخامسة تبدى مشهد فريا راسموسن وهي نائمة في سلام، أما الشاشة السادسة فكانت تظهر سكايبوس يتقدم مجموعة عمال قسم المحركات باتجاه الفتحة السرية التي دخل منها الصبية وتوم.

{إنهم في طريقهم إلينا}. صاح اللص الأصغر سنا بينهم في هلع واضح.
{لابأس يا جارجل، لقد حان الوقت للرحيل}. ثم اتجه كول إلى حيث إحدى اللوحات ذات الرافعات.

كانت أدوات المراقبة، ككل شئ آخر على تلك المركبة، يدوية الصنع، وقد أخذت تصدر أصوات صرير بينما كان يتم سحبها الواحدة تلو الأخرى، ومع كل كاميرا كان يتم سحبها عبر الأسلاك الموصلة لها، كانت الصورة على إحدى الشاشات تختفي لتحل محلها نقاط بيضاء لانهائية، ثم بدأت أصوات الهسيس والإحتكاك المعدني تملأ المقصورة مع كل كاميرا تنسحب عبر أنابيب التدفئة والتهوية التي انتشرت بها في أنكوراج، عائدة إلى المقصورة... لا بد أن الناس عبر أنكوراج قد فوجئوا بتلك الجلبة والأصوات العجيبة المنبعثة من أنابيب التدفئة الخاصة بهم في كل مكان.

كان صوت الصلصلة يزداد صخبا مع عودة كل الكاميرات لتستقر أخيرا في الفجوات المخصصة لها بمقصورة التحكم فوق رأس توم مباشرة، ليتم بعد ذلك إغلاق تلك الفجوات بأغطية معدنية مصفحة.

ومع تلاشي أصداء آخر كاميرا وصلت إلى المركبة، كان صوت آخر ينبعث، ولكن من الخارج هذه المرة، حيث كان سكليوس ورجاله قد بلغوا موضع غطاء الفتحة المموهة وشرعوا في تحطيم الغطاء بالمطارق.

وقف كول وسكيور جنباً إلى جنب أمام لوحات التحكم، بينما راحت أيديهم تتحرك بسرعة وثبات عبر مجموعة الأزرار والروافع. في حين أخذ توم - الذي كان يولي عناية شديدة بمعدات وأدوات الجيني هانيفر - يراقبهما مصدوماً من الحالة المزرية لتلك الأدوات، حيث الصداً والتآكل والقذارة يغلفون كل شيء بها، كما كانت الدائرة الكهربائية بالمركبة على غير مايرام، حيث كانت الأزرار تصدر وميضاً أزرق كلما تم الضغط عليها. ومع ذلك فقد كان كل شيء يعمل جيداً، وبدأت المركبة في الاهتزاز، في حين أخذت مؤشرات العدادات تتحرك، فأدرك توم حينها أن تلك المركبة العجيبة على وشك الرحيل به عن أنكوراج قبل أن يتمكن سكليوس ورجاله من الوصول إليه وإنقاذه.

{استعدوا للهبوط}. صاح سكيور، وهنا دوى صوت لم يألفه توم من قبل، صوت مغاير لذلك الذي يصدر عن الجيني هانيفر حين يبدأ في الإقلاع، بينما تحل عنه أعمدة تثبيته إلى المرفأ. وبعد لحظات بدأ إحساس مريع بالسقوط، والغثيان، يعتري توم، بينما كانت «الدودة الحلزونية» تتحرر عن المدينة وتنزل نحو الأسفل.

شعر توم بمعدته تنقلب، فقبض بيده على الحاجز المعدني وقد أخذ يتساءل في عجب: أهذه سفينة جوية؟! لكنها لا تحلق إلى الأعلى، بل تسقط. وفي اللحظة التالية وقع ارتجاج شديد للمركبة من أثر سقوطها بقوة فوق الأرض الجليدية.

ومن النوافذ كانت أعمدة الدعم والزلاجات الضخمة للمدينة تتبدى أشكالها من وراء الرذاذ المتناثر من الجليد على الزجاج، ثم فجأة اختفت معالم المدينة ولم يعد يتبدى شئ من النوافذ سوى الأراضي الجليدية الشاسعة؛ في حين أخذ جارجل يتفحص أدوات التحكم ومؤشرات المقاييس ويقول: {تم رصد طبقة جليد رفيعة في الشرق إلى الشمال الشرقي، على بعد ستة أميال}.

لم يكن لدى توم أدنى فكرة عن حجم أو شكل تلك المركبة، أما سكايبوس ورجاله في الأعلى فقد رأوها في ضوء القمر كأوضح ما يكون، بينما هي تنطلق من أسفل المدينة. كانت تبدو وكأنها عنكبوت معدني ضخم يسير على ثمانية أرجل هيدروليكية، في نهاية كل منها قرص مخلي عريض. ومن منافذ العادم على جوانبها كان دخان أسود ينبعث بكثافة، فيما كانت تتجه نحو الشرق.

{طفيليون!}. صرخ سكايبوس وهو يعدو نحو منصة الصيانة فوق عجلة المدينة كي يشاهد تلك المركبة العجيبة عن كثب، وقد كان الغضب يغلي في داخله، لتتفجر معه كل المشاعر والآلام التي كتبها بداخله منذ وفاة ابنه...

لقد خدعوه، تلك الطفيليات الحفيرة قد خدعته، وتسلمت إلى مدينته كاللحشرات لتعيث بها سلبا ونهباً، بل وصل بهم الأمر أن تلاعبوا به وبمشاعره واستدرجوه كي يصدق أن شبح ابنه اكسل قد عاد... {سوف نوقفهم}. صاح الرجل في طاقه {سوف نعلمهم درسا ونزيهم عاقبة من يتجرأ على سرقة أنكوراج. أبلغوا وحدة قيادة المدينة في «ويل هاوس» بما جرى، وأنتم يا أوميك وكينغيج ونيفز، تعالوا معي}.

اتخذت أنكوراج طريقها عبر الجليد، ولفترة لم يتمكن سكايبوس ورجاله من رصد أي شيء بسبب زوبعة الثلوج التي أثارها جرافات المدينة من حولها، وكان ستار أبيض كثيف قد أسدل على المشهد أمامهم. ثم، وبعد لحظات، بدأت تظهر مركبة الطفيليين من جديد، على بعد ميل أمام أنكوراج، حيث كانت تتوجه نحو الشمال الشرقي. وعلى الفور انطلقت أنكوراج في إثرها في حين قام عمال سكايبوس بفتح الفكين العملاقين لها وإزالة الثلوج المتراكمة على جانبي الأسنان الفولاذية، بينما أضيئت كشافات البحث القوية ليمتد ضوءها عبر الثلوج نحو مركبة الطفيليين أمامهم... كانت أنكوراج سريعة بحق، وقد أخذت تقترب أكثر فأكثر، إلى أن كاد فكها الفولاذيان يقبضان على مؤخرة المركبة.

{أكثر، اقتربوا أكثر}. راح سكايبوس يصيح في رجاله إذ وقف في مقدمة أحشاء مدينته، {هذه المرة سوف ننقض عليهم، هلموا}.

في تلك الأثناء كانت ويندولين باي تتفحص خرائطها، وقد وجدت أن المدينة إنما تتجه بسرعة نحو منطقة كان فريق المسح الأرضي قد حددها بعلا مات حمراء تعني ضرورة تجنبها، وهي عبارة عن منطقة مياه سائلة مغطاة بطبقة رقيقة من الجليد الذي لن يتحمل بأي حال وزن أنكوراج. فالتجّعت باي فوراً إلى جهاز التلغراف المتصل بقسم المحركات، وقامت بإرسال برقية بضرورة التوقف فوراً. وبالفعل توقفت المحركات وتم إنزال كافة المراسي. وقد راحت المدينة ترتج بعنف إزاء كبح حركتها المفاجئ هذا، لدرجة أن بعض قطع البلاط والقرميد في أسطح المنازل قد تهاوت، كما انهارت شرفة واحد من المباني الصدئة في الطبقة العليا. في حين أخذت مركبة الطفيليين تمضي قدماً بأسرع ما أمكنها عبر الجليد نحو المنطقة الخطرة، فيما راح سكايبوس يراقبهم عبر الفكين المفتوحين لمدينته وهم يركضون، ثم يخفضون

من سرعتهم تدرّيجيا إلى أن توقفوا.... {هاهاها!، لقد دفعناهم إلى حيث طبقة الجليد الهشة، ولن يجروا على التقدم لأبعد من ذلك}. ثم إنه ركض عائدا عبر الأحشاء إلى المراب، حيث مركبات فريق المسح الأرضي، وقد انتزع في طريقه إحدى بنديات الصيد من يد واحد من رجاله، فيما قام واحد آخر من العمال بإخراج إحدى تلك المركبات من أجله وأدار محركها، فقفز سكايبوس إلى متنها وانطلق بها عبر إحدى المخارج.

وفوق الجليد، دار سكايبوس بالمركبة حول فك المدينة ثم انطلق مسرعا نحو المركبة التي باتت في ناظريه أشبه بعنكبوت محاصر، في حين تبعه عدد من رجاله على متن مركبات أخرى وهم يصيحون في حماسة وغضب.

وفي داخل مركبة الطفيليين كان توم يتطلع عبر النافذة، محاولا رؤية شيء مما يدور في الخارج، في حين كانت أضواء البحث المسلطة على المركبة من أنكوراج تعمي بصره، وقد التقطت أذناه صياح منقذيه وأصوات محركات مركباتهم إذ ينطلقون نحو مركبة خاطفيه سعيًا لتحريره. ثم دوى صوت إطلاق نار في الهواء....

{لو أنكم تركتموني أذهب فسوف أتحدث معهم وأطلب منهم ألا يمسوكم بأذى... سكايبوس ليس رجلا سيئا، وسوف يعاملكم معاملة جيدة لو أنكم قتم برد الأشياء التي سرقتموها من قسم المحركات. كما أنني على يقين من أن فريالن تعاقبكم}.

فنظر إليه الصبي الأصغر، جارجل، وقد بدا من نظراته أنه كان على وشك الاقتناع بما قاله، وراح ينقل بصره في رعب ما بين توم والنافذة حيث مركبات الرجال التي تدنو نحوهم حثيثا. أما سكيور فقد أمر توم أن {اصمت}، في حين كان كول لا يزال جالسا في مكانه أمام لوحات التحكم

وأنا مله الشاحبة تروح وتجي فوق الأزارار. ولجأة عادت الدودة الحلزونية للحركة من جديد، حيث شرعت تهبط بهيكلها البدين إلى أن استقر باطنها فوق الجليد الهش، ومن أسفلها خرجت شفرات ومناشير حادة دوارة، بينما قامت نفاثاتها بنثر دفقات من الماء الساخن فوق الجليد، فتصاعدت من حولها سحابة من البخار. ثم بدأت شفرات المنشار الدوار في قطع دائرة في طبقة الجليد أسفل المركبة، صانعة فتحة مستديرة نحو الماء السائل، فما إن انتهت حتى انسحبت الشفرات إلى مواضعها، ثم راحت المركبة تدفع نفسها ببطء وثقة إلى الأسفل عبر تلك الفتحة، وتزيج بقايا الجليد بأرجلها لتفسح لنفسها مجالا للنزول إلى المياه.

وعلى بعد مائة ياردة لا أكثر، كان سكايبوس ورجاله يشهدون ما يحدث أمامهم، فرفع الرجل يده عن أدوات التحكم في مركبته، والتقط بندقيته مصوباً إياها نحو مركبة الخاطفين أمامه، إلا أن الرصاصة قد ارتطمت بالجسم المعدني المصفح لترتد عبر الجليد، ورأى سكايبوس المركبة إذ تغطس شيئاً فشيئاً، في حين انطوت أرجلها الطويلة الواحدة تلو الأخرى داخل الحفرة، إلى أن غمرتها المياه بالكامل، واختفت عن الأنظار. أوقف سكايبوس محركات مركبته وألقى البندقية من يده في سخط. لقد أفلتت فريسته من يده ونجا هؤلاء الطفيليون وقد اختطفوا توم معهم، حيث لا مهرب له. يالتوم المسكين!... فبالرغم من فظاظة الفتى معه في البداية، إلا أنه قد أحب ذلك الملاح الشاب... يالتوم المسكين... يا لأكسل المسكين، الذي مات، وما كان شبحه ليهم في طرقات أنكوراج، بالطبع، فما من أحد يعود من الأرض التي لا تشرق عليها الشمس.

لقد أهاج اختطاف توم ورحيله بهذا الشكل مشاعره التي لم تهدأ يوماً، وقد شعر بامتنان لارتدائه القناع الواقى من الصقيع الذي حال دون أن

يرى رجاله دموعه المنهمرة من مقلتيه، إذ كانوا قد بلغوا موضعه بزلاجاتهم، في حين هرع بعض منهم نحو الحفرة التي صنعتها مركبة الطفيليين وطفقوا يتفحصونها وينظرون عبرها. كانت عبارة عن حلقة واسعة من المياه السائلة، ترتطم أمواجها بجواف الفتحة مصدرة صوتا بدا في آذانهم كضحكات سخرية منهم.

في تلك الأثناء، كانت فريا قد صحت من نومها على الفوضى الضاربة أطناها في مدينتها، والجلبة الصادرة عن ارتطام الأشياء ببعضها البعض وتساقط زجاجات صابون الشعر والدهانات من على أرفف حمامها الخاص؛ فراحت فريا تدق الجرس طلباً لسميو، مرات ثم مرات، لكنه لم يحضر. وفي النهاية اضطرت للخروج من القصر الشتوي بمفردها... ربما هي أول مارجرافين تفعل ذلك منذ زمن «دولي راسموسن»!

وفي مركز قيادة المدينة، كان الجميع يصيحون ويصرخون، متحدثين عن الطفيليين، وقد استغرق الأمر وقتاً حتى استطاعت فريا أن تفهم من بين صراخهم أن توم قد رحل. فانطلقت تركض خارجة من المكان عبر الجسر، ثم الدرج المؤدي إلى القصر، فما كانت لتسمح أبداً أن يرى الجمع هناك دموعها التي راحت تنسال فوق وجنتيها.

ذلك فيما كان السيد سكايبوس في طريقه إلى الأعلى، حيث إلتقى بفريا، وكانت الثلوج الذائبة لا تزال تقطر منه، بينما كان قد خلع قفازاته وقناعه، وقد بدا وجهه لفريا أكثر حيوية و«حياة»!، أكثر من أي مرة رآته فيها منذ الوباء، كما لو أن اكتشافه للطفيليين قد حرره بشكل أو بآخر، أو ربما حرر شيء فيه؛ فما إن رآها حتى ابتسم لها قائلاً: إنها مركبة مذهلة حقاً، باسمو إشراقتك، لقد حفرت مباشرة في صفحة الجليد وانزلت إلى حيث

المياه بسلاسة بالغة... لا بد أنها من صنع الشياطين!.. في الحقيقة لقد سمعت الكثير من الحكايات عن الطفيليين في أعالي الجليد، لكني، أعترف، لطالما كنت أعتبرها مجرد أساطير قديمة يحكيها العجائز. أما الآن، فإني أتمنى لو كنت أكثر سعة أفق وانفتاحاً لأصغي جيداً لتلك الحكايات}.

{لقد أخذوا توم}. قالتها فرياً بصوت واهن.

{نعم، للأسف. لقد كان شاباً شجاعاً، وقد حاول تحذيري منهم. لقد أمسكوا به وقاموا بجره معهم إلى حيث مركبتهم}.

{مالذي سيفعلونه به؟}.

فنظر إليها مدير المحركات ثم هز رأسه بينما كان ينزع عنه قبعته احتراماً للموقف الأليم، ولم يكن يدري حقاً ما الذي قد يرغب هؤلاء الطفيليون من ملاح شاب، لكنه كان يدرك أنه لن يكون أمراً جيداً على الإطلاق.

{أليس في مقدورنا فعل شيء؟}. سألتها فرياً في حزن {ألا يمكننا أن نحفر عبر الجليد أو أي شيء آخر، لنصل إليهم؟... ماذا إن عاود هؤلاء الطفيليون الظهور ثانية من الماء؟ يجب أن ننتظر هنا...}.

إلا أن سكايبوس هز رأسه وقال: {لقد رحلت المركبة باسمو إشراقتك، ولا يمكننا البقاء هنا}.

شبهت فرياً، وكأنما الرجل قد وجه إليها صفعه، فهي لم تعتد أن يجادلها أحد في أوامرها... {توم صديق لنا، وأنا لن أتخلي عنه هكذا}.

{إنه مجرد فتى باسمو إشراقتك، أما نحن فلدينا مدينة بأكملها علينا أن نفكر في صالحها. وولفرين هامبتون لا تزال تترصد بنا وتسعى في إثرنا، ومن ثم فعلياً أن نمضي في طريقنا فوراً}.

فهزت فريا رأسها في عناد، إلا أنها كانت تعلم جيدا أن الرجل على حق فيما يقول، وكانت أبت من قبل أن تحول مسار مدينتها لتستعيد هيسثير حينما توسل لها توم، والآن أيضا لا يمكنها المجازفة بمدينتها من أجل استعادته هو، حتى وإن أرادت ذلك بشدة... وفي أعماقها تمت لو كانت أكثر لطفًا ومودة معه خلال الأسابيع الماضية.. تمت لو كانت كلماتها له أقل برودة وجفاء.

{تعالى أيتها المارجرافين}. قالها سكليوس برفق وهو يمد كفه نحوها، فنظرت فريا إلى كفه الممدودة متفاجئة لأول وهلة، ثم إنها مدت كفها بدورها إليه، ومعا صعدا الدرج إلى حيث الجسر، وما إن دخلت فريا إلى مقر قيادة المدينة من جديد حتى صمت الجميع، فأدركت أنهم ولا بد كانوا يتحدثون عنها حتى لحظة دخولها.

ثم إنها تنشقت قليلاً لتتنع العبرات من التساقط من أنفها، ومسحت عينيها، ثم قالت: {أريد من الآنسة باي أن تضع المدينة على المسار}. فسألتها باي بلطف {على أي مسار يا سمو إشرافتك؟}.

{الغرب}.

{آه، يالكليو!... أمريكا!}. هتف بيني رويال، والذي كان يقبع في ركن القاعة ولا يلاحظ أحد تقريباً وجوده، {يا لبوسكيت.. آه}.

كانت المحركات قد بدأت في العمل من جديد، وقد شعرت فريا باهتزازات الألواح الأرضية من تحت قدميها. ثم إنها تركتهم هناك في مركز القيادة، وآبت راجعة عبر الجسر، وهناك وقفت ترنو نحو الطرف الخلفي من مدينتها التي بدأت تتحرك، تاركة وراءها آثار زلاجاتها، وحفرة دائرية تتوسطها لجة من الماء السائل.

(٢٣)

أعماق خفية

مرت أيام يصعب تحديد عددها، وقد بدا من الضوء الأزرق القاتم في قلب «الدودة الحلزونية» أن الزمن قد توقف عند الساعة الرابعة إلا ربع من عصر ذلك اليوم في نوفمبر، يوم اختطف توم من قلب أنكوراج.

كان توم ينام فوق كومة من المنسوجات والأغطية التي تم نهبها من الفيلات المهجورة في المدينة، وفي بعض الأحيان كان يحلم بأنه يسير يدا بيد مع شخص ما في الممرات المغبرة للقصر الشتوي، ثم يستيقظ وهو لا يدري أكان يسير في حلمه بصحبة هيسستير أم فرياً؟! ويتساءل في أعماقه: هل حقاً لن يرى أي منهن مرة ثانية؟

ولكم راح يتخيل نفسه وقد تمكن من الفرار من تلك المركبة، ليصل إلى السطح، ثم ينطلق بحثاً عن هيسستير... لكن ذلك كان مستحيلاً، فتلك «الدودة الحلزونية» كانت تسبح عبر المياه تحت سطح الجليد، وما كان من مهرب أو منفذ إلى الخارج.

وفي أوقات أخرى كان يتخيل أنه قد تمكن بشكل أو بآخر من الوصول إلى أدوات التحكم بالمركبة، وقام بإرسال رسالة تحذيرية إلى أنكوراج محذرا فريا من أكاذيب بيني رويال... ولكن، حتى لو استطاع بلوغ منصة التحكم، فكيف له أن يميز أي من تلك الأجهزة الصدئة هو جهاز الإرسال؟!، وبفرض أنه تمكن من تمييزه، فإن هؤلاء الصبية ما كانوا ليدعوه أبدا يقرب أدوات التحكم، فهم يراقبونه باستمرار ويتخذون حذرهم منه، كما أن سكيور تحديدا كان عدائيا قليل الكلام، متفاخر بقوته، وقد ذكره كثيرا بزميله في عصبة المؤرخين «ميليفانت»، الذي كثيرا ما كان يهدد توم ويزججه كثيرا أيام كان متدربا بالعصبة. أما جارجل، الذي لا يمكن أن يكون عمره قد تجاوز العاشرة أو الحادية عشرة بأي حال، فقد كان دائم التحديق بتوم، بعينين متسعيتين دوما، حينما يظن أن الأخير لا ينظر تجاهه.

فقط كان كول هو الوحيد الذي يبدو مستعدا للتحدث، بالرغم من حذره وغرابة أطواره، ورفضه للإجابة على أي سؤال يطرحه توم، فقط كان يردد في كل مرة: {سوف تفهم كل شيء حينما نصل إلى هناك}.

{إلى أين؟}.

{الديار، قاعدتنا، حيث يحيا العم}.

{ومن هو عمك هذا؟}.

{ليس عمي، إنه «العم» فقط. إنه زعيم الصبية المفقودين، ولكن لا أحد يعرف اسمه الحقيقي. لقد سمعت أنه كان رجلا عظيما يوما ما علي متن «برايدافيك» أو «أركانجيل» أو واحدة من تلك المدن الكبيرة، إلا أنه قد تم طرده منها لسبب ما، ذلك حينما اتجه إلى عالم اللصوصية... إنه عبقرى، وقد قام باختراع المركبات كمركبتنا تلك، وكذلك كاميرات المراقبة خاصتنا؛ ثم إنه وجدنا وقام بإنشاء «معقل اللصوصية» لتدريبنا به}.

{وجدكم؟ وجدكم أين؟}

{لا أعلم}. قالها كول وقد كان صادقاً، {في أي مكان، علي متن مدن مختلفة. فقط ما أعرفه أن مركبات العم تختطف الأطفال وتأخذهم ليتم تدريبهم كصبية مفقودين، تماماً كما يسرقون أي شيء آخر يحتاجه العم. لقد كنت صغيراً جداً حينما تم أخذي، ولا أتذكر أي شيء عما كان قبل ذلك الوقت. كلنا لا نتذكر}.

{ولكن... هذا فظيع!}

{لا، ليس كذلك}. قالها الصبي وهو يضحك، وقد كان ينهي كلامه دوماً بالضحك. والحقيقة أن الوضع كان مدعاة للضحك والبكاء في آن معاً، إذ يحاول الصبي تبرير تلك الحياة التي لطالما اعتبرها أمراً مسلماً به، لشخص غريب مثل توم؛ إذ كيف له أن يقنع توم أن نقله إلى معقل اللصوص هو شرف له؟!، وأنه من الأفضل للمرء أن يكون صبياً مفقوداً عن أن يكون مجرد يابس ممل؟!... {سوف تفهم كل شيء حينما نصل إلى هناك}.

ثم راح كول يحاول تغيير دفة الحديث، فهو لم يكن راغباً في التفكير في العم وكيف سيرر أخطائه وتصرفاته الخرقاء على متن أنكوراج له، ولهذا أخذ يسأل توم عن فريا وكيف تبدو، {هل أنت تظن حقاً أن بيني رويال لا يعرف الطريق إلى أمريكا؟}.

{بل هو يعرف، أي شخص لديه ولو نصف عقل يمكنه أن يحدد الطريق إلى أمريكا باستخدام الخرائط القديمة. ولكن المشكلة تكمن في حقيقة ما سيجدونه هناك. أعتقد أنه يكذب بصدد ذلك، فلا أظن أن ثمة أراضٍ خضراء موجودة سوى في مخيلة السيد بيني رويال فقط}. وهنا أمسك توم برأسه في أسى، فقد كان يتمنى لو أتيح له الإفضاء لفريا بخافه قبل أن يقوم

الصبية المفقودون باختطافه، أما الآن فلا بد وأن أنكوراج قد قطعت مسافة طويلة على الطريق نحو أمريكا ولن يكون لديها وقود كاف للعودة.

{لكنك لاتعلم على وجه اليقين}. قالها كول وهو يمد يده نحو توم ليربت على ذراعه، ثم سرعان ما سحبها ثانية، وكأن مجرد لمس أحد الياسين كفيل بإحراقه! {فرغم كل شئ كان الرجل على صواب بشأن الطفيليين، نوعاً ما}. ثم جاء يوم، أو ربما ليلة، استيقظ فيها توم من أحلامه المضطربة على صباح كول: {توم، لقد وصلنا، عدنا إلى الوطن!}.

فهب من فوره من فوق كومة المنسوجات التي ينام فوقها، وهرع نحو مقصورة التحكم ليلقي نظرة، إلا إلا أنه وجد أن المركبة لاتزال في أعماق المياه. ثم تنأى إلى مسامعه صدى دقات تتردد من إحدى الآلات، فرفع سكيور- الذي كان منشغلاً حينها في ضبط بعض أدوات التحكم- رأسه، ثم قال: {إنها إشارة العم}.

وبعد حين بدأ الظلام خارج النوافذ يتبدد ليحل محله ضوء أزرق كضوء الشفق، ثم أدرك توم أن المركبة لم تعد تحت طبقة الجليد، وإنما قد خرجت إلى البحر المفتوح، حيث أخذت أشعة الشمس تتلأل على السطح المتماوج للمياه في الأعلى على بعد مئات الأمتار منهم.

وبعد لحظات بدأت بعض الأشكال تتبدى عبر النوافذ، فرأى توم قيعان بعض الجبال الجليدية الضخمة تمر المركبة من بينها، ثم راحت تظهر أشكال وهيئات أخرى... أعمدة ضخمة مغطاة بالطحالب.. عوارض عملاقة... مروحة دفع تلتمع أذرعها الكبيرة... لقد كانت «الدودة الحلزونية» في تلك اللحظات تتخذ طريقها عبر شوارع مدينة عائمة ضخمة، باتت غارقة وقد غمرتها المياه.

{مرحبا بك في «جريم سباي»}. قالها سكيور بينما كان يتجه بالمركبة نحو الأعلى.

وكان توم قد سبق له أن سمع بجريم سباي، أكبر المدن العائمة المفترسة في الشمال الأطلسي، وأكثرها قسوة وضراوة؛ وكانت قد غرقت بفعل الثلوج خلال الشتاء الحديدي قبل تسعين عاما مضت.

راح توم يتطلع إلى المناظر التي تمر من أمامه عبر نوافذ المركبة وتتخذ سبيلها بين طرقات المدينة الغارقة، حيث الأسماك تتجول بين المنازل والمعابد المغمورة بالمياه، والأبنية الإدارية الضخمة التي أحاطتها الطحالب.

ثم، من بين المياه الرمادية والطحالب السوداء والزرقاء، تبدى شيئا ما بدا دافئا ولامعا، فتهلل جارجل وافتر ثغر سكيور العابس دوما، عن ابتسامة عربية، وقد راح يرفع ذراع توجيه المركبة نحو الأمام، لترتفع إلى حيث حافة الطبقة العليا بالمدينة.

هنا شق توم من المفاجأة، فأمامه مباشرة كانت الأضواء نثلاً ساطعة عبر نوافذ مبنى البلدية بالمدينة، وفي الداخل كان أناس يروحون ويحيئون. إن هذا المبنى الغارق ينبض بالحياة والحركة في أعلاه، كمنزل دافئ في ليلة شتوية...

{ما هذا؟!}. تساءل توم متعجباً {أعني... كيف؟!}.

{إنه موطننا}. قالها كول، والذي ظل لفترة صامتا تماما، وقد راح يفكر في قلق فيما ينتظره من العم، إلا أن ذلك لم يمنعه من الشعور بالفخر بأن جريم سباي قد أثارت انبهار توم، الملاح الذي جاب العديد من المدن، إلى هذا الحد؛ في حين صاح جارجل {لقد أنشأها العم}.

انزلت المركبة إلى حيث طابق ملئ بالمياه بمبنى البلدية، ثم اتخذت طريقها عبر أنفاق أنبوية ذات أبواب ميكانيكية على طولها، كانت تنفتح تتر المركبة ثم تغلق خلفها تلقائياً. لقد ساعد هذا النظام الاوتوماتيكي من الأبواب والأقفال في الحفاظ على باقي المبنى جافاً سالماً.

إلا أن توم ما كان ليفهم ذلك، وقد شعر بالارتياح أخيراً حينما خرجت المركبة إلى السطح من جديد لتستقر أخيراً في حوض مغطى.

أخيراً توقفت ضوضاء المحركات، لتظهر أصوات ضوضاء وجلبة أخرى تأتي من الخارج هذه المرة، حيث انطلقت أذرع الإرساء ترفع المركبة عن المياه؛ ومن سقف المركبة انفتح باب علوي، فجاء كول بسلم وثبته إلى الفتحة، ثم قال لتوم: {اصعد أنت أولاً}، فأذعن الأخير، وبدأ في تسلق الدرجات إلى أن بلغ ظهر المركبة، فوقف يتنفس الهواء الخارجي البارد المشبع برائحة الأمونيا، وطفق يقلب وجهه في الموجودات من حوله.

كانت المركبة ترسو في حوض دائري بقاعة ضخمة، يبدو أنها كانت يوماً ما القاعة الرئيسية لمجلس البلدية، حيث كان يتوسط السقف لوحة تجسد ربة الداروينية البلدية - والتي تتخذ هيئة امرأة شابة ممتلئة البدن ذات جناحين - إذ توجه آباء المدينة نحو المستقبل المزهر. في حين انتشرت العشرات من أحواض الرسو المماثلة، على كل منها رافعة معقدة.

وفي أكثر من حوض من تلك الأحواض كانت تتدلى واحدة من تلك المركبات.

وقد ذهل توم تماماً من شكل وهيئة تلك المركبات والتي بدا أنها قد أنشئت من بقايا وأجزاء أي آلات كان يتيسر لهم هنا الحصول عليها؛ وقد كان يبدو أن بعضاً من تلك المركبات كان يخضع للإصلاح حينما وصلت

المركبة التي تجل توم، حيث كان عدد من الفتية - أكبر قليلا من سكيور وجارجل - يعكفون على إصلاحها، إلا أنهم قد انصرفوا الآن عما يفعلون وجاءوا جميعا يتحلقون بالقرب من الدودة الحلزونية وقد راحوا يحدقون في توم.

وكان كول قد صعد خارجا من المركبة، واتجه ليقف بجوار توم، فنظر له الأخير ممتنا. فحتى في أكثر المدن، والتي هبط على متنها الجيني هانيفر، عدائية، لم يشهد توم قوما أكثر عدائية وقسوة من هؤلاء الذين يقف قبالتهم الآن.

كانوا شبابا جميعهم ، بعضهم في مثل عمره، وبعضهم الآخر أصغر منه سنا، في حين كان هناك بعض الصبية تقل أعمارهم عن عمر جارجل. وقد وقفوا يتطلعون إليه بنظرات تلوح فيها مشاعر الكراهية الممتزجة بالخوف.

كانوا شعنى الرؤوس والوجوه، حتى الفتية الأكبر سنا، والذين كان بإمكانهم الخلاقة، ما كانوا ليكثرثوا بذلك. أما ملابسهم فكانت مجموعة عجيبة من الثياب غير المتناسقة على الإطلاق، ولا تتماشى قياساتها مع أحجامهم... كانت عبارة عن قطع بعضها فوق بعض...

قلنسوات وشالات نسائية.. بدل غطس وخوذات ملاحين... ثياب تليق بحفلات الشاي ومصافي طهي تم ضغطها واستخدامها كقبعات...

ونفأة انبعثت جلبة من الأعلى، فرفعوا جميعاً رؤوسهم، ومن مكبرات الصوت المثبتة إلى رافعات الرسو، خرج صوت بدا وكأنه يأتي من كل مكان في آن واحد: {احضروا اليا بس إلى مكنتي أيها الصبية، سوف أقبله فورا}.

(٢٤)

العم

لم تكن جريم سباي، كما كان توم يتخيلها، كمخبأ تحت الماء لزعيم عصابة. فقد كانت شديدة البرودة، تفوح منها رائحة العفن والكرب المسلووق.

أما المبنى الرئيس المتألق من الخارج، فقد كان شديد الفوضوية من الداخل، حيث نتكدس فيه صنوف وأنواع مختلفة من الغنائم التي تم التحصل عليها عبر سنوات من السلب والنهب.. بل يمكن القول إنه كان أشبه بمتجر للعاديات تراكت فيه أشكال وألوان من المعروضات دون تنسيق.

وفي الممرات كانت بالات وأكوام المنسوجات المطرزة والقيمة تتجمع هناك، ومن فوقها انتشر العفن.

وبينما كان يسير عبر الممرات إلى حيث مكتب العم، ملح توم عبر الأبواب المفتوحة لبعض الغرف أكواما وأكواما من الملابس والكتب والحلي والمجوهرات والأسلحة، بل وحتى المجسّدات البلاستيكية لعرض الملابس والتي تم الاستيلاء عليها من بعض المتاجر الراقية، إضافة إلى أعداد

من الشاشات والبطاريات، ومصابيح، وأجزاء من ماكينات كبيرة تم انتزاعها من باطن بعض المدن... كلها مكدسة بعضها فوق بعض على الأرفف.

وفي كل ركن كانت الكاميرات الشبيهة بالعناكب تتجول هنا وهناك، في حين يتدلى بعضها من السقف وعلى الجدران، وحتى الزوايا والأركان المعتمة كانت أرجلها المعدنية تلتمع وتتحرك هناك. وقد أخذت أعينها المركبة تتبع توم وقد صحبه سكيور وكول عبر درج طويل إلى حيث مكتب العم... لقد أدرك توم الآن معنى أن يحيا الإنسان في جريم سباي... إنها تعني ببساطة أن يبقى للأبد تحت ناظري العم عبر كاميراته التي لا تحصى.

وكان العم يعرف، بالطبع، بأنهم قد دنوا من غرفة مكتبه، فإذ دخل الفتية الثلاثة إليها حتى نهض من مقعده متجها صوبهم، على ضوء الآلاف من شاشات المراقبة المترصة في الغرفة.

كان رجلاً قصير القامة، نحيلًا، شاحب البشرة من أثر العيش لزمن طويل بعيداً عن التعرض لأشعة الشمس، يرتدي عوينات هلالية الشكل استقرت فوق أنفه، وقفازات بلا أصابع، وكذلك قبعة خماسية الزوايا تتدلى من تحتها جدائل شعره الأبيض، ورداء موشى لا بد وأنه كان يوماً ما يمثل زيا رسمياً لأحد الضباط، أو ربما كان لأحد عمال محطات المصاعد، ومن فوقه روب حريري طويل امتد ذيله إلى الأرض الصدئة، وكان يضع قدميه في خفين على شكل أرنيين.

وكان فتات الطعام لا يزال يلتصق بالشعيرات الرمادية النامية فوق ذقنه، حين إقترب من الفتية، ثم: {كول، فتاي العزيز... شكرالك على طاعتك لعمك العجوز وجلب ذلك اليابس إليه. أحسب أن أحدا لم يؤذنه، أليس كذلك؟}.

لم يجر كول جوابا وقد تذكر سلوكه الطائش في أنكوراج وما فعله هناك،
والتقارير التي لا بد وأن سكيور قد أرسلها عن تصرفاته، في حين أجاب
سكيور: {إنه بخير أيها العم، كما أمرت بالضبط}.

{ممتاز، ممتاز}. غمغم العم في سرور، ثم قال: {وأنت ياسكيور، يبدو لي
إنك قد قت بالكثير من الأعمال}.

فأوما سكيور، ولكن قبل أن يتمكن من التفوه بحرف فوجئ بالعم
يصفعه بقوة ليسقطه أرضا وهو يطلق صرخة طفولية من الألم والصدمة،
ولم يكتف العم بذلك، بل راح يركله بعنف عدة مرات، وقد كان الرجل
يرتدي من تحت خفي الأرنب غطاء أصابع من الصلب...

{من تظن نفسك؟}. صاح العم في غضب {كي تنصب نفسك قائدا
للمركبة بدون أمري؟ ألا تعلم ما يحدث للصبية الذين يخالفون أوامري؟ ألا
تذكر ما فعلته ب«سيوار» حينما فعل نفس فعلتك؟}.

{نعم.. نعم أيها العم}. أجابه سكيور بايكا {لكنه لم يكن خطئي أنا،
فكول قد تحدث إلى اليابس، وكنت أظن أن القواعد....}.

{إذن فكول قد تحايل على القواعد قليلاً}. قالها العم، ولكن بلطف هذه
المرة، ثم عاد وركل سكيور من جديد، ثم {إنني رجل عاقل واقعي، ولا
أمانع لو أن صبيتي استخدموا قريحتهم نوعا ما... أعني، إن اليابس الذي
كشف كول نفسه له ليس بأي يابس، أليس كذلك؟ إنه صديقنا توم}.

كان الرجل يدور ويتحرك حول توم طوال الوقت، ثم إنه دنا منه إلى
أن بلغه، ثم مد يدا باردة ممسكا بذقنه ورفع وجهه بيده نحو الضوء، فبادره
توم: {أنا لن أساعدك، لو كنت تخطط لمهاجمة أنكوراج أو ماشابه فأنا لن
أعاونك في ذلك}.

فضحك العم ضحكة رفيعة، ثم قال: {أهاجم أنكوراج؟ أنا لا أفكر في ذلك من الأساس ياتوم. إن صبيتي لصوص وليسوا محاربين. لصوص وبصاصون، إنهم يراقبون ويسمعون كل شيء ثم يرسلون لي التقارير بما يدور على متن المدن. نعم، هكذا أدير أعمالي، ولهذا لم يتم الإمساك بي أبدا. العديد والعديد من التقارير تردني، فأقوم بتجميعها وفحصها ومقارنتها، ثم أستخلص منها الملاحظات الهامة. كذلك أبحث فيما بينها عن الأسماء التي يرد ذكرها في بعض المناطق الغربية، مثل «هيسدير شاو».. أو «توم ناتسوورثي»..}

{هيسدير؟} صاح توم وهو يتقدم نحو العم بحركة فجائية، إلا أن كول أمسك به، {ماذا سمعت عن هيسدير؟}.

ومن الظل خلف مقعد العم كان حارسان، قد استلا سيفيهما - وقد فوجئا بحركة توم- وكادا يتقدمان نحوه، إلا أن العم قد أشار إليهما أن يتعدا.

{إذن فتقارير كول كانت صحيحة... أنت حبيب هيسدير شاو؟} قالها الرجل بنبرة لعب كريمة، وشعر توم بوجهه وقد اعتلته الحمرة وهو يومئ أن نعم، فراح العم يتطلع إليه للحظة ثم قهقه ضاحكًا، ثم: {لقد كان المنطاد هو أول مالفت انتباهي إليك.. الجيني هانيفر، نعم، أنا أعرفه، إنه منطاد تلك الحيزبون أنا فانج، أليس كذلك؟}.

{أنا كانت صديقة لنا} قال توم.

{صديقة، هه؟}.

{لقد ماتت}.

{أعلم}.

{وقد ورثنا منطادها، نوعاً}.

{ورثناه؟!!}. ثم انفجر العم ضاحكا ضحكة طويلة عالية، ثم قال من بين ضحكاته: {اه، إنني أحب ذلك كثيرا، ورثناه؟! حسنا، كما ترى، لدينا هنا الكثير والكثير من الأشياء التي قد «ورثناها» جميعا أنا وصبيتي... آه ياتوم، ليتني أخذتك قبل عشرة أعوام، لكنت صنعت منك صبيا مفقودا}. ثم راح يضحك من جديد وهو يعود ليستقر فوق مقعده.

نظر توم إلى كول ثم إلى سكيور، والذي كان قد نهض على قدميه من جديد، وكانت آثار الصفعة لا تزال باقية على وجهه، وقد راح يتساءل في أعماقه: [لماذا يتعاونون معه؟ ولماذا يصبرون على تلك المعاملة؟ إنهم جميعا أصغر منه وأقوى، فلماذا يطيعونه؟].

لكن الإجابة كانت ماثلة أمامه بوضوح، على الجدران من حوله، حيث شاشات المراقبة من كل شكل وحجم ترص بجانب بعضها البعض لتغطي الجدران وتكشف عن كل حركة تدور في جريم سباي، ومن السماعات كانت الأحاديث، بل والهمسات، يتم رصدها على مدار الساعة. لقد كان العم مطلعاً على كل حرف يقال وكل فعل يتم إتيانه على متن مدينته هذه، فمن ذا الذي يجرو إذن على تحديه؟

بعد هنية، بادر توم الرجل قائلاً وهو يجاهد كي يتحدث بتأدب معه: {لقد ذكرت شيئاً عن هيسستير}.

{المعلومات ياتوم}. أجابه الرجل متجاهلاً سؤاله، وعلى عويناته انعكست الصور المعروضة على شاشات المراقبة، {المعلومات، هي مفتاح كل شيء. إن التقارير التي يرسلها إلي صبيتي إنما تتجمع معاً لتشكّل صورة كاملة. إنني ربما الشخص الوحيد في العالم الذي يعرف كافة التفاصيل حول مايدور

في الشمال، وانني لأولي اهتماماً كبيراً لأدق التفاصيل وأكثرها غرابة.
وكذلك لكافة التغيرات، فالتغيرات قد تصبح خطيرة حقاً.

{وماذا عن هيستير؟} سأله توم ثانية {أنت تعلم شيئاً عن هيستير؟}.

{على سبيل المثال.. توجد جزيرة تدعى روجز روست، ليست بعيدة
عن هنا، كانت يوماً بمثابة مخبأ لـ«ريد لوكي» وقراصنته الجويين. ولم يكن
ريد لوكي سيئاً، كما لم يزعجنا قط، فقد كان وجماعته لصوصاً أيضاً ولكن
من نوع آخر، لذا لم نتعارض أعمالنا يوماً. لكنه قد رحل، أو بالأحرى قُتل
وتم احتلال وكره من جانب حفنة من مناهضي التحرك، يسمون أنفسهم
«العاصفة الخضراء»، إنهم عبارة عن جماعة من الإرهابيين... هل سمعت
يوماً عن العاصفة الخضراء ياتوم؟}.

كان توم واقفاً قبالة الرجل يفكر في هيستير ويحاول إيجاد إجابة، وقد
تذكر بيبي رويال إذ كان يصيح بشئ ما عن العاصفة الخضراء أثناء تلك
المطاردة فوق «تانهاسر»، لكن أموراً كثيرة كانت قد جرت منذ ذلك الحين
ولو يعد يتذكر حرفاً مما قاله الرجل حينها...

فقال في النهاية: {تقريباً، لا}.

{حسناً، هم يعرفونك، وإلا فلماذا أرسلوا جاسوساً يتتبع أخبار منطادك
إذن؟ ولماذا أخذوا فتاتك في ضيافتهم؟}.

{هيستير لديهم؟} صاح توم: {هل انت متأكد؟}.

{هذا ماقلته توا} ثم إنه قام من مقعده من جديد وهو يفرك كفيه
ويضغط مفاصل أصابعه بينما يعطف حول توم: {ومع ذلك، فإن كلمة
«ضيافة» ليست هي الكلمة المناسبة لوصف الأمر، فهي ليست سعيدة

لديهم، فهي قابعة في ززانة بمفردها تماماً، ومن حين لآخر يتم أخذها لغرض لايعلمه أحد... ربما للاستجواب... للتعذيب...}.

{ولكن، كيف وصلت إلى هناك؟ ولماذا؟ وما الذي يريدونه منها؟}.
كان توم مرتبكا تماماً ولا يدري إن كان العم يخبره الحقيقة أم أنه يمزح على حسابه. فقط كان كل مايعتمل في ذهنه هو أن هيستير سجيننة تعاني، ثم قال: {لا يمكنني البقاء هنا... يجب أن أذهب إلى تلك الجزيرة وأحاول مساعدتها....}.

{بالطبع يجب عليك ذلك أيها الفتى العزيز، ولهذا قد جئت بك إلى هنا، فأنا وأنت بيننا الآن مصلحة مشتركة، ولهذا فسوف تذهب لهنالك لإنقاذ فتاتك المسكينة، وسنساعدك أنا وصبيتي}.

{ولكن، لماذا؟!}. تساءل توم في شك، صحيح أنه كان دائم الثقة في الآخرين، يحسن الظن بهم بطبيعته، وهو ما كانت هيستير تنتقده دوماً، إلا أنه ليس ساذجا لدرجة الوثوق في رجل مثل «العم».

{ولماذا ترغب في مساعدتي أنا وهيستير؟.. ما الذي يعنيه ذلك لك؟}.
{اوو! سؤال جيد!}. قالها العم وهو يضحك من جديد، وكان لايزال يفرك كفيه، ثم {تعال معي، دعنا نتناول الطعام، لقد تم تجهيز العشاء في غرفة الخرائط. كول تعال معنا، أما أنت ياسكيور فلتذهب من هنا}.

فانسل سكيور ككلب شقي، في حين تقدم العم مرافقيه الشابين، عبر باب خلفي، خارجين من غرفة شاشات المراقبة تلك، ثم اعتلى كل واحد منهما درجا يوصل إلى غرفة تعج بالأرفف الخشبية التي امتدت من الأرض وحتى السقف، وعليها تكدست أعداد لا تحصى من الخرائط المطوية والملفوفة، في حين كان عدد من الصبية البأسين، والذين فشلوا في

أن يصبحوا لصوصاً فقام العم بتحويلهم إلى هنا لتولي أعمال ترتيب الخرائط وتحضير رسومات الشوارع والممرات التي سيحتاجها العم للتخطيط للسرقات الجديدة، ووضعها مكان تلك التي انتهى من استخدامها... في هذا المكان سوف ينتهي الحال بجارجل الصغير المسكين، خاصة بعد التقارير الخاصة بمهمة أنكوراج، ولن يقدم العم على إرسال الصبي مرة أخرى إلى أي مهمة خارجية... هكذا راح كول يفكر بينما كان يتأمل هؤلاء الصبية، وقد شعر بالحزن من أجل الصبي الصغير المسكين. جلس العم إلى رأس المائدة، وقام فوراً بتشغيل شاشة مراقبة صغيرة موضوعة هناك فوق المائدة بجوار طبقه، كي يتسنى له متابعة صبيته حتى أثناء تناوله للطعام.

{اجلسا}. صاح العم وهويشير نحو الطعام، {كُلُوا.. كُلُوا}.

والحقيقة أنه لم يكن ثمة شيء ليؤكل في جريم سباي سوى تلك الأطعمة التي يسرقها الصبية المفقودون، والذين ما كانوا ليسرقوا سوى كل مايجبه الصبية في مثل أعمارهم ممن ليس لديهم من يوجههم بصدد الأطعمة المتوازنة أو يفرض عليهم نمط غذاء صحي، لذا كانت مسروقاتهم من الطعام تنحصر في البسكويت المحلى والشيكولاتة، شطائر لحم الخنزير المقدد، قطع من خبز الطحالب، قنينات من النبيذ الرخيص الذي يشبه وقود المناطيد!...

أما الشيء الوحيد الذي كان ينتمي نوعاً ما للغذاء الصحي على تلك المائدة فهو وعاء السبانخ المسلوقة الذي توسط المائدة.

{إنني أشدد دوماً على ضرورة إحضار الصبية لبعض من الخضروات لتكون ضمن قائمة الطعام}. قال العم: {فهني تقي من داء الإسقربوط}، ثم قام بسكب بعض من تلك السبانخ المسلوقة في طبق توم والذي بدا له وكأن مياه من المستنقع قد سكبَت أمامه.

وبعد حين قال العم بفهم ملئ بالطعام، بينما كانت عيناه تتفحصان شاشة المراقبة بين لحظة والثانية: {إذن، أنت تتساءل حول السبب الذي يدفعني لمساعدتكم... حسناً ياتوم، الحقيقة أنه ليس من السهل أبداً التجسس على مكان كروجز رووست، فهي ليست بكافي المدن الأخرى. صحيح أننا قمنا بزرع محطة تجسس هناك، وتمكنا من اختراق اتصالاتهم منذ عدة أشهر، إلا أننا حتى الآن لانعرف شيئاً عن العاصفة الخضراء ولا ما يخططون لفعله... إنهم خطرون جداً، ماكرون بحق، لذلك لا يمكننا أبداً إدخال إحدى كاميراتنا لديهم، كما لا يمكنني أن أخاطر بإرسال أحد من صبيتي للتسلل إليها، فهناك تسعة احتمالات من عشرة... أن حراس الجزيرة سوف يتمكنون من الإمساك بهم فوراً.. لهذا فقد فكرت أن أرسلك أنت بدلاً من الصبية، وبذلك سوف تكون لديك فرصة لإنقاذ هيستير، وفي المقابل سوف أحصل أنا على بعض المعلومات عن روجز رووست}.

أخذ توم يحدق في الرجل لثواني، ثم قال: {ولكن.. صبيتك هم لصوص محترفون مدربون على التسلل، فإذا لم يكن بمقدور هؤلاء الدخول إلى تلك الجزيرة، فكيف سأتمكن أنا؟!، وما الذي يجعلك تعتقد أنني بإمكانني أن أؤدي مهمة مثل تلك دون أن يتم الإيقاع بي هناك؟!}.

فضحك العم ثم قال: {لو أنك قد تم الإمساك بك فإن ذلك لن يمثل لي أي مشكلة، ففي كل الأحوال سوف يصبح في ميسوري التعرف على الكثير من المعلومات عن نظامهم الأمني من خلال مراقبتي لكيفية دخولك إلى هناك؛ وفي حال قاموا باستجوابك فإنك لن تتمكن من الإفصاح عن أي شيء عني أو عن مدينتي لأنك ببساطة لاتعرف شيئاً!... أنت لاتعرف أين تقع جريم سباي، ولاتدري كم عدد المركبات التي أملكها، وحتى وإن ذكرت أي شيء عني فهم لن يصدقوك على أي حال، وسيبقى راسخاً في

يقينهم أنك إنما تتحرك بمفردك تماماً وبدافع من حبك لفتاتك الأسيرة لديهم،
يا لها من رومانسية!}.

{إذن أنت تتوقع أنه سوف يتم الإمساك بي؟}.

{لا، ليس توقعاً، ولكن ينبغي علينا أن نكون مستعدين لكافة
الاحتمالات.. عموماً، بشئ من الحظ وبمساعدة صبيتي سوف تتمكن من
الدخول إلى الجزيرة، وإنقاذ فتاتك، والخروج من هناك سالماً، وبعد بضعة
أيام سوف نجلس معاً إلى تلك المائدة من جديد لتخبرنا هيستير عما رآته
هناك، ولماذا تفرض العاصفة انخضراء كل ذلك القدر من السرية على
مايدور بداخلها، ولأي سبب تعمل على تكثيف استعداداتها العسكرية}.

ثم إنه التقط حفنة من الفيشار وألقى بها إلى فمه، ثم عاد ينظر إلى شاشته
من جديد منتقلاً من كاميرا مراقبة إلى أخرى بلا اكتراث، في حين راح
كول يحرق في الصحن الموضوع أمامه وهو مصدوم تماماً إزاء ما يطلبه العم،
وقد بدا له أنه ينتوي استغلال توم ككاميرا مراقبة ذات ساقين اثنين.

{لن أذهب!}. قالها توم.

فوجئ العم برد فعل الفتى، فرفع عينيه عن شاشته ونظر له ملياً ثم صاح:
{ولكن ياتوم...}.

{كيف يتسنى لي فعل ذلك؟ أنا أرغب بالفعل في إنقاذ هيستير، ولكن
ما تطلبه جنون!، تلك الروجز روست تبدو وكأنها قلعة حصينة، وأنا مؤرخ
ولست ضابط عمليات خاصة}.

{ولكن عليك أن تذهب... فهستير هناك، وقد قرأت تقارير كول
وسكيور عنك وعرفت كم أنك تحبها، وكيف أنك عذبت نفسك كثيراً

منذ أن دفعتهَا للمغادرة وتركك. فكر كم سيكون الأمر مؤلماً إن لم تحاول إنقاذها الآن وأنت لاتزال تملك الفرصة لفعل ذلك، وتذكر أنها ربما تتعرض للتعذيب حالياً. أنا لا أحب أن أتخيل الأشياء الفظيعة التي يمكن أن تكون العاصفة الخضراء تفعلها بها، فهم يلقون باللوم عليها لمقتل أنا فانج كما تعلم}.

{ولكن تلك سخافات... هذا ظلم}.

{ربما هو كذلك، وربما هذا ما ترددته المسكينة هيستير على أسماع مستجوبها الآن، لكنني لا أتوقع أن يصدقوها. وحتى وإن صدقوا أنها بريئة، فهل نتوقع أن يقدموا لها اعتذارهم ثم يتركوها تمضي لحال سبيلها هكذا؟ لا، إن هي إلا رصاصة في رأسها ثم يلقون بجثتها من فوق الجرف الصخري ويتخلصون منها ببساطة.. هل تتخيل ذلك ياتوم؟ حسناً، إن لم تخف لنجدتها، فلتستعد لرؤية تلك الصورة كلما أغمضت عينيك أو خلدت إلى النوم على مدار ما تبقى من حياتك}.

أزاح توم كرسيه ونهض من على المائدة، كان في حاجة إلى نافذة ينظر منها نحو أي شيء آخر غير وجه العم. ولكن لم تكن ثمة نوافذ في غرفة الخرائط، وعلى أية حال ما كان من شيء يمكن أن يطل عليه هاهنا سوى الماء البارد وأسطح المدينة الغارقة.

وعلى لوحة بالقرب من الباب كانت هناك خارطة هائلة الحجم مثبتة إليها، تصور روجز رووست وماحولها من خنادق وكهوف وتلال في قاع البحر. فوقف توم يتطلع إلى الخارطة وهو يتساءل في قرارته: أين يمكن أن تكون هيستير بالضبط، وما الذي يحدث لها الآن؟! داخل جدران تلك المباني التي تم تحديدها على الخارطة بعلامات زرقاء.

ثم إنه أغمض عينيه، فقط ليجد هيستير، أسفل جفنيه، قابعة في الظلام، تنتظره... تمامًا كما قال له العم. لقد كان الخطأ خطأه هو منذ البداية، فلو لم يكن قد قبلَ فرياً لما كانت «هيت» قد غادرته وحلقت بعيداً لتقع في قبضة عملاء العاصفة الخضراء...

فرياً كذلك في خطر، لكنها قد صارت بعيدة جداً وما عاد بيده شيء ليفعله لها أو لمدينتها، لكنه لا زال في مقدوره مساعدة هيستير.

ثم إنه راح يهدئ من روعه قدر المستطاع، محاولاً ضبط صوته ونبراته بحيث يبدو ثابت الجنان رابط الجأش، ثم عاد إلى العم وقال: {حسناً، سوف أذهب}.

{عظيم}. صاح العم ضاحكاً وهو يصفق بيديه: {كنت أعلم أنك سوف تفعل! سوف يأخذك كول إلى حيث روجز رويست على متن مركبته غدا}.

وكان كول في تلك اللحظة في وضع ملتبس تماماً، وقد شعر وكأنه مربوط من أطرافه في اتجاهين متقابلين يتم شده إلى كل منهما في وقت واحد بقيود من مشاعر متضاربة ومتناقضة، حتى ليكاد يتمزق تمزيقاً، فمن ناحية كان يشعر بخوف شديد على توم من تلك الرحلة المحفوفة بالمخاطر، ولكن من ناحية أخرى كان يشعر بالغبطة والارتياح؛ فقد كان يرتعد من الخوف مما سيفعله به العم عقاباً له على ما فعله في مدينة فرياً، ولكن هاهو ذا الآن لا يزال قائداً لـ«الدودة الحلزونية».

نهض كول من كرسيه واتجه نحو توم، الذي كان واقفاً وقد انحنى قليلاً متكئاً على مسند مقعده، وقد راح يحرق في كفيه شاردة والخوف مرتسماً على ملامحه... {لابأس}. قالها كول مطمئناً إياه: {لن تكون وحدك في تلك

المهمة. أنت الآن مع الصبية المفقودين، وسوف نسهل لك طريق الدخول إلى الجزيرة، ثم نخرجك منها ومعك هيستير، كل شيء سيكون على ما يرام}.
في تلك الأثناء راح العم يتنقل سريعا بين كاميرات المراقبة عبر شاشته ليتابع صبيته الأشقياء، الذين إن غابوا عن عينيه للحظة فلا يدري أحد ما الذي يمكن أن يفعلوه؛ ثم عاد واسترخى في كرسیه وهو ينظر بعين الرضا إلى توم وكول، ثم قام بصب المزيد من النبيذ في كأسيهما، وكأما أراد بذلك أن يكفر عن أنصاف الحقائق والأكاذيب التي كان قد ألقمهما إياها لتوه.

(٢٥)

خزانة دكتور بوب جوي

مر الوقت بطيئا ثقيلا الوطأة على هيسدير، ولم يكن ثمة اختلاف كبير بين نهارها ولياليها، هناك، في روجز رويست، فيما عدا تغير لون السماء المتبدلي لها من تلك النافذة الدائرية الصغيرة في الأعلى بزئانتها، من اللون الرمادي إلى اللون الأسود؛ وفي إحدى الأيام أطل عليها القمر باديا من خلف الغمام، وكان قد اكتمل ثم أخذ في النقصان، فأدركت أنها قد مر عليها أكثر من شهر منذ أن تركت توم.

كانت تمضي أيامها قابعة في ركن الزئانة، حيث تأكل طعامها الذي يمرره لها الحرس من فتحة صغيرة في أسفل الباب، وفي الركن الآخر استقر دلو صغير من القصدير كانت تقضي فيه حاجتها.

وعلى أحد الجدران، قامت هيسدير برسم خارطة للطريق ما بين أنكوراج وأركانجيل، وقد راحت تحاول حساب الوقت وتقدير المكان الذي قد تتمكن فيه أركانجيل من الانقضاض على فريستها. أما معظم الأوقات فكانت تقضيها في التفكير في أمر واحد فقط... أنها ابنة فالانتاين. في بعض

الأحيان كانت تمنى لو أنها تمكنت من قتله حين أتحت لها الفرصة، وفي أحيان أخرى كانت تمنى لو أنه لزال حيا لتطرح عليه طوفان الأسئلة الذي يعتمل في داخلها... أكان يحب والدتها...؟ هل كان يعلم أنها ابنته...؟ لماذا كان يولي كل هذا الاهتمام لكثيرين ابنته الأخرى ولا يكثر بها هي...؟ وفي بعض الأيام كان الباب يفتح فجأة لتجد الحراس أمامها قد جاءوا ليأخذوها إلى حيث حجرة الذاكرة، حيث تنتظر ساذيا مع بوب جوي وذلك الشيء الذي كان أنا فأنج.

وكان قد تم إضافة صورة كبيرة قبيحة لوجه هيستير إلى الصور المعلقة هناك بتلك الغرفة، ومع ذلك كانت ساذيا لا تزال تؤمن بأن وجود هيستير بشخصها قد يفيد في إعادة الذاكرة إلى ذلك المطارد. ومع مرور الوقت، بدا أن الغضب الذي كانت تلك القائدة تشعر به تجاه هيستير قد خفت كثيرا أو ربما تلاشى، وكأن جزءا منها قد أدرك أخيرا أن تلك الفتاة ذات الوجه المشوه ليست القاتلة الوحشية، عميلة لندن، والتي تخيلتها.

في المقابل كانت هيستير قد بدأت تفهم الكثير عن طبيعة ساذيا، وثنفهم أسباب تصميمها العنيد على استعادة الملاحاة الميتة إلى الحياة... كانت ساذيا قد ولدت على الأرض المجردة، في إحدى المخيمات العشوائية الكائنة في مجموعة من الكهوف على طريق مسارات المدن المتحركة بجنوب الهند. وفي موسم الجفاف كان قوما يضطرون للارتحال كل بضعة أشهر كيلا يتم سحقهم تحت عجالات إحدى المدن، مثل «كيداناجرام» و«جوتاك» أو «جاجر ناتبور»، أثناء مرورها عليهم.

أما في موسم الأمطار، حيث يغطي الوحل أقدامهم العارية، كان قوما يجلسون ويتسامرون حول حلهم الكبير بذلك اليوم الذي سيتمكنون فيه

من الانتقال للاستقرار في موطن ثابت آمن في الأراضي المرتفعة، بعيدا عن مسارات المدن وأحوال الشتاء. ولكن مع تقدم ساذيا في العمر، بدأت تدرك أن ذلك اليوم لن يأتي أبدا، وأن قومها لن يرحلوا عن ذلك المكان ما حيوا!، فقد استنفد الفرار من وجه المدن حياتهم وطاقاتهم.

ثم جاء المنطاد... سفينة جوية حمراء، تقودها ملاح طويلة القامة، لطيفة، جميلة، كانت قد هبطت بالقرب من مخيمهم لإجراء بعض الصيانة لمنطادها أثناء طريقها نحو الشمال، عقب رحلة إلى جزيرة «بالاوينانج»... امرأة تدعى «أنا فانج». وقد أحب أطفال المخيم تلك المرأة كثيرا، وكانوا يتخلقون حولها في شغف ليستمعوا إلى حكاياتها عن مهامها لصالح جماعة مناهضة التحرك، ومغامراتها العديدة المثيرة، وكيف أنها تمكنت من إغراق مدينة عائمة بالكامل! كانت تهدد بمهاجمة موطن «المائة جزيرة»، ومعاركها التي خاضتها ضد كشافه باريس الجويون وجنود «سيتاموتور»، والقنابل التي زرعتها في غرف المحركات للعديد من المدن الجائعة الأخرى.

وكانت ساذيا من بين الأطفال الذين استمعوا لحكايات فانج، إذ كانت تقف على استحياء في خلفية جموع الأطفال من أقرانها، وتشرب كل حرف ترويه الملاحه الجسورة، وفي داخلها اكتشفت للمرة الأولى أنها ليست مضطرة لقضاء حياتها كالديدان بين تلك المخيمات، وأن في إمكانها مقاومة ذلك المصير.

وبعد أسبوع، في منتصف الطريق إلى عاصمة جماعة مناهضة التحرك، سمعت فانج صوت جلبة آت من مخزن الجيني هانيفر، فاندفعت إلى هناك لتستكشف الأمر، لتجد الفتاة الصغيرة ساذيا مختبئة هناك بين الحموله. وقد أخذتها الشفقة بالفتاة، فعطفت عليها، وتكفلت بها، ودفعت من مالها الخاص تكاليف تدريبها كملاحه بالجماعة. ومن جانبها، اجتهدت ساذيا

وبذلت قصارى جهدها للتعلم والتفوق، ولم يمض وقت طويل حتى صارت قائداً للجناح في الأسطول الجوي الشمالي.

وكانت ساذيا تقتطع من راتبها ثلاثة أرباعه شهريا لترسله إلى الجنوب لمساعدة أسرتها، وكانت تلك هي الصلة الوحيدة التي تربطها بهم، فقد صارت الجماعة هي عائلتها الآن، وباتت أنا فانج بمثابة الأم والأخت والصديقة اللطيفة الحكيمة...

ثم جاء رد الجميل للجماعة عجيبا بحق!.... فبعد وفاة أنا فانج، قامت ساذيا، بمعونة عدد من نشطاء العاصفة الخضراء، باقتحام الكهوف الجليدية في «زان شان» والتي كانت بمثابة المقابر التي تقوم جماعة مناهضة التحرك بوضع جثامين محاربيها العظماء بها، وسرقوا الجثمان المجدد لفانج، وأخذوها معهم إلى حيث روجز رويست، ليشرع بوب جوي في عمله الرهيب على الجثة.

على الرغم منها، بدأت هيستير تشعر بالأسى تجاه تلك الفتاة وهي تراقبها وهي تحاول بلا هوادة إحياء ذاكرة ذلك المطارد، الذي لم يكف عن ترديد نفس الجملة بصوته الكئيب: {أنا لست أنا فانج}. وفي بعض الأحيان كان يمتلكه الغضب فيضطر الجميع للانسحاب فورا.

ثم كان أن انقضت فترة دون أن يأتي الحراس لاصطحاب هيستير إلى غرفة الذاكرة، ثم علمت فيما بعد أن المطارد قد قام بقتل أحد الحراس وحاول الخروج من الغرفة.

أما في الأيام الجيدة، حيث يبدو المطارد في مزاج حسن، كانوا يخرجون جميعا من غرفة الذاكرة عبر ممر مصفح إلى حيث عنبر الشحن الذي تم وضع الجيني هانيفر به. وفي داخل المساحة الضيقة للزورق، تم إجبار هيستير على إعادة محاكاة كل شيء تذكّره، كان قد وقع خلال رحلتها

القصيرتين بصحبة آنا، في حين أخذت ساذيا تكرر على مسامع المطارد نفس القصة القديمة عن حياة أنا فانج، حينما كانت لا تزال عبدا في أركانجيل، وكيف أنها استطاعت بناء الجيني هانيفر تحت أنوف سادتها الوحشيين وسرقة الأجزاء اللازمة لبنائه، الواحد تلو الآخر، من ساحات العبيد حيث كانت تعمل..

ظلت ساذيا تردد تلك القصة بحماس عليها تستثير شيئا في ذاكرة المطارد، لتعود فيه صديقتها ومعلمتها من جديد إلى الحياة، إلا أن المطارد ظل ينظر إليها بعينين خضراوين باردتين، ثم قال من جديد: {أنا لست أنا فانج.. نحن بهذا نهدر الوقت. لقد قتت بصناعتي لأقود العاصفة الخضراء وليس لنجلس هنا وتجادب أطراف الحديث.. وها أنا ذا متشوق لتدمير المدن}.

في إحدى الليالي، اتجهت ساذيا بمفردها إلى زنزانة هيستير، وقد بدت ملامح التوتر والقلق على وجهها أكثر حدة من أي وقت مضى، وكان أسفل عينيها داكئا، في حين كانت أظافرها متكسرة وقد تم قضمها تماما حتى أطراف الأصابع. وقد خطر لهيستير خاطر غريب ما إن رأتها تدخل عليها على هذه الهيئة: تلك الفتاة هي الأخرى سجين.. سجين نفسها!

{تعالى}. قالتها ساذيا ولم تزد، فتبعها هيستير في صمت، عبر أنفاق طويلة إلى المختبر، حيث الأركان تعج بأرفف فوقها العديد من أناييب الاختبار. وهناك كان دكتور بوب جوي جالسا، تلتمع صلعته في ضوء مصباح الأرجون، بينما كان يعكف على إحدى الآلات الدقيقة في انهماك واضح لدرجة أن ساذيا قد اضطرت أن تناديه باسمه عدة مرات حتى انتبه إليها، ثم قام مسرعا بإجراء بعض التعديلات الطفيفة على القطعة التي يعمل عليها قبل أن يتركها من يده وينهض.

{دكتور، أريد أن ترى هيسدير كل شيء}. قالتها ساذيا، فنظربوب جوي نحو هيسدير متفحصا إياها بطرف عينه، ثم قال: {هل أنت واثقة من أن ذلك قرار حكيم؟ أعني لو أن كلمة تسربت إلى الخارج... ولكن، لا.. لا أعتقد أن الأنسة شاو ستغادر هذا المكان وهي على قيد الحياة... على الأقل ليس بالمعنى التقليدي!}. قالها وهو يصدر صوتا مزعجا من أنفه ربما يكون ضحكة، ثم أنه أشار إلى زائريه نحو الأمام ومضى. وبينما كانت هيسدير تتبع ساذيا بين مقاعد المختبر حانت منها التفاتة نحو تلك الآلة التي كان الرجل يعكف عليها لتجدها دماغ أحد المطاردين.

{قطعة رائعة هي، أليس كذلك يا عزيزتي؟}. قالها بوب جوي بفخر، وقد لاحظ نظرات هيسدير، {بالطبع يلزم لها جثة ليكتمل العمل. إنها تبدو حاليا مجرد آلة معقدة، ولكن ما إن أثبتنا إلى جسد مفعم بالانفعالات والاندفاعات الكيميائية والشحنات الكهربائية، فلسوف نرى عجباً!}. قالها وهو يتمايل بحماسة بينما كان يتقدم عبر المختبر بين الأرفف المكتظة بالأنايب الزجاجية والأجزاء البشرية المحفوظة في أوعية، والقطع نصف المصممة من المطاردين.

وعلى حامل يتخذ شكل T وقف طائر كبير الحجم، ميت، يراقب يراقب القادمين بعينين خضراوين براقتين، وحينما اقترب منه بوب جوي ومد يده نحوه، مد الطائر العجيب جناحيه على امتدادها وفتح منقاره.

{كما ترين، أنا لم أكتف بصنع مطاردين من البشر، وإنما كذلك طيور مطاردين... إنهم يملأون سماء المنشأة بالفعل ويقومون بدوريات استطلاعية حولها. والحقيقة أنني لايزال في جعبي الكثير والكثير من الأفكار... قطط مطاردين.. بل وحيثان مطاردين كذلك، بحيث يمكن من خلالها حمل المتفجرات إلى أسفل المدن العائمة. ليس هذا فقط، بل إنني قد

قطعت أشواطاً كبيرة في مجال صنع المطاردين من البشر في حد ذاته...}.
فنظرت هيستير إلى ساذيا وهي تستمع إلى هذا الكلام، لكنها لم تكن تنظر نحوها، وإنما راحت تتبع بوب جوي في صمت إلى حيث الباب في الجدار المقابل، وقد كان مغلقاً بقفل مغناطيسي مماثل للأقفال المثبتة إلى باب غرفة الذاكرة. فما إن بلغوا الباب حتى مد المهندس أنامله الطويلة نحو الأزرار البيضاء وضغط مجموعة من الرموز، فانفتح الباب ليكشف عن كهف من جليد وضعت به تماثيل غريبة تقبع تحت أغطية بلاستيكية.

{ كما ترين، لقد كان صانعو المطاردين الأوائل يفتقرون للخيال}. قالها بوب جوي وهو يسرع لاهثاً نحو خزانة التجميد الكبيرة ليكشف عن إنجازاته المريعة {فقد كانوا يرون أنه لمجرد أن صنع المطارد يحتاج إلى دماغ وجهاز عصبي بشريين، فلا بد وأن يتخذ المطارد بالضرورة هيئة بشرية فقط. والحقيقة أنني لا أرى ذلك لازماً، فلماذا ينبغي أن يكون للمطارد ذراعان وساقان فقط؟ لماذا عيان اثنتان لاغير؟ وما الحاجة لوجود فم له؟ تلك الكائنات لا تأكل، كما أننا لا نقوم بصنعهم لتتسامر معهم...}.

ثم إنه سحب الألواح البلاستيكية المتجمدة جانباً، ليكشف عن مجموعة من القناطر^(**) المغلفة بالصلب، ذات عشرين ذراعاً وجراثيم بدلاً من الأرجل. وكذلك كشف عن عدد من العناكب المطاردين ذات أرجل مخيلية ورشاشات آلية مثبتة إلى بطونها. كما كان هناك بضعة مطاردين ذوي عيون إضافية في مؤخرة جماجمهم.

وفي مقدمة الخزانة، على مقربة من تلك المجموعات، كان يوجد مطارد لم تنته بعد إجراءات إعدادة... من جثة ويدجري بلينكو، فما إن رآته هيستير حتى شهقت ووضعت يدها على فمها، ثم قالت: {هذا هو الرجل الذي قام

** - القنطور: كائن خرافي في الأساطير الإغريقية له جذع إنسان وقائمة حصان.

بتخديري في أركانجيل}. فأجابتها ساذيا: {اه، نعم، لقد كان مجرد عميل مرتزق... لقد كان يعرف أكثر مما ينبغي، وقد قننا بتصفيته في نفس الليلة التي جاء بك فيها إلى هنا}.

{وماذا لو جاءت زوجاته بحثا عنه؟}.

{بحقك! وهل لو كنت أنت زوجة لمثل هذا الرجل كنت تكلفين نفسك عناء البحث عنه؟}. قالتها ساذيا دون اكتراث ودون أن تنظر حتى نحو جثة الرجل، وإنما كانت تتطلع تتطلع نحو المطاردين الآخرين.

{على أية حال}. قال بوب جوي في ابتهاج وهو يعيد الألواح البلاستيكية إلى مواضعها: {من الأفضل أن نخرج من هنا قبل أن ترتفع درجة حرارة الخزانة، حيث قد تتعرض تلك الأجساد لخطر التحلل لو زادت درجة حرارتها في المرحلة الراهنة قبل أن يتم اكتمال إنشائها وتنشيطها}.

لكن هيستير لم تكن بقادرة على التحرك من أمام الخزانة، فقامت ساذيا بجرحها عائدين إلى المختبر، وقالت: {شكرا لك يادكتور، لقد كان عرضا شائقا}.

{هذا من دواعي سروري ياسيديتي العزيزة، على الرحب والسعة دوماً}. أجابها المهندس وهو يخني في مداهنة: {وإنني لواثق من أننا قريبا سوف نتمكن من إيجاد طريقة لاستعادة ذاكرة صديقتك أنا... إلى اللقاء، إلى اللقاء يا آنسة شاو، إنني لأتطلع للعمل عليك بعدما يتم إعدامك!}.

وفي خارج المختبر، بينما هما عائدتان عبر ممر صديئ يمر من خلال الجرف، حيث كانت تهب ريح باردة، قبل أن تتوقف هيستير فجأة وقد شعرت بالإعياء، فانحنى فوق الافريز قليلا ..

{كنت قد سألتني مرة لماذا تدعم العاصفة الخضراء أعمالي هنا}. قالت ساذيا: {الآن صرت تعرفين السبب. إنهم في واقع الأمر لا يكثرثون كثيرا بآنا، وإنما كل ما يرغبون فيه هو أن يقوم بوب جوي بإنشاء جيش من المطاردين لصالحهم كي يتمكنوا من الاستيلاء على السلطة في جماعة مناهضة التحرك، ثم يبدأون في شن حربهم الكبرى ضد المدن}.

مسحت هيسستير فمها بكفها وهي تتطلع نحو الأسفل إلى حيث زبد الأمواج البحرية تغمر الممرات الضيقة بين الصخور، ثم سألت: {ولماذا تخبريني بذلك؟}.

{لأنني أردت أن تعرفي.. لأنه حينما يتغير كل شيء ويتم إطلاق العنان لمطاردي العاصفة الخضراء، أريد أن يعرف شخص ما أن الخطأ لم يكن خطأي، إنما قد فعلت ما فعلته فقط من أجل آنا، ليس إلا، هذا كل ما أردته}.

{لكن أنا ما كنت لترضى بذلك كله، لم تكن لترغب في إشعال حرب}. فهزت ساذيا رأسها في أسى وقالت: {لقد كانت ترى أنه لا ينبغي لنا أن نهاجم المدن إلا في حالة أن بادرت تلك المدن بتهديدنا، ولم تكن ترى أن كافة أهل المدن المتحركة همجيون، بل كانت تقول دوما إنهم فقط مضللون. لقد ظننت أنه في حالة تمكننا من إعادة آنا مرة ثانية فسوف تقودنا بأسلوب جديد وسليم، وبهيج أكثر قوة وحزما مما اتبعته الجماعة الأصلية، لكن في نفس الوقت أقل وحشية من العاصفة الخضراء... ولكن «العاصفة» تزداد قوة يوما بعد يوم، والآن قد بات المطاردون جاهزين تقريبا، في حين لا تزال آنا ضائعة....}.

لم تستطع هيستير أن تمنع نفسها من الابتسام بسخرية، فأشاحت بوجهها سريعاً قبل أن تلاحظها ساذيا. لقد كان من الصعب عليها أن تهضم فكرة أن تكون مثل تلك المخاوف الأخلاقية تعذب فتاة قد أقدمت على قتل العجوز بليينكو دون أن يطرف لها جفن. ثم لاح لها أن تلك المخاوف من الممكن أن تمثل لها فرصة للنجاة، فشكوك ساذيا ومخاوفها في اللحظة الحالية أشبه مايكون بقضيب مفقود في نافذة ززانة حصينة، تاركا فرجة للفرار... إنها نقطة ضعف ربما أمكنها استغلالها للخلاص... {عليك أن تحذري جماعة مناهضة التحرك.. ابعني إلى المجلس الأعلى لهم برسول يبلغهم بما يفعله أصدقاؤك هاهنا}.

{لا يمكنني فعل ذلك، لو أن «العاصفة» اكتشفت الأمر فسوف يقتلونني}.

أخذت هيستير نتطلع قليلا نحو البحر المتناثر رذاذه المالح على شفيتها، ثم عادت تقول: {وماذا لو أن سجيننا لديكم قد فر هارباً؟... ماذا لو أن سجيناً يعرف بما يجري هاهنا قد تمكن من الفرار وسرقة أحد المناطيد ثم حلق بعيداً؟ إنهم حينها لن يستطيعوا توجيه اللوم لك على هذا، أليس كذلك؟ فאלخطأ لن يكون خطأك حينها}.

راحت ساذيا تحديق في هيستير بطريقة جعلت الأخيرة ترتجف وقد اعترأها شعور باحتمال إمكانية النجاة.. ربما لا يزال أمامها فرصة للخروج من هنا حية، وربما لا يزال أمامها فرصة لإنقاذ توم.

كانت هيستير حينها تشعر بالفخر بذاتها وبقدرتها على اقتناص الفرص واستغلال لحظات الضعف التي تمر بها ساذيا.. حقا إنه أمر يليق بآبنة فالانتاين.

{دعيني أهرب، وأخذ الجيني هانيفر... سوف أحلق نحو الجماعة، وهناك لا بد وأنني سأجد آذانا تصغي وشخصا يمكنني الوثوق به وإخباره بكل شيء، مثل الكابتن خورا صديق أنا. وسوف يقوم هو بما يتعين عليه فعله، ولن يمر وقت حتى يأتي نحو الشمال بسفنه الحربية للاستيلاء على هذا المكان وإلقاء كائنات بوب جوي المريعة تلك إلى البحر قبل أن يتم استخدامها}.

كانت ساذيا تنظر إلى هيستير وقد التمت عيناها، وكأنما تخيل بالفعل لحظة وصول الملاح الأفريقي الوسيم على متن منطاده، إلى المنشأة لانتشالها من ذلك الفخ الرهيب الذي صنعته يديها فعلقت به... ومع ذلك فقد هزت رأسها رفضا للفكرة وقالت: {لا يمكنني... لو أن خورا قد شاهد ما صارت إليه أنا الآن فربما لن يتفهم رغبتني في إعادتها، وأنا لن أسمح لأي شيء أن يحول بيني وبين ذلك. هيستير، لقد اقتربنا من إعادتها، إنني أحيانا أشعر بوجودها فعلا إذ تنظر إلي من وراء قناعها هذا... وعلى أية حال لا يمكنني أن أدعك ترحلين هكذا ببساطة، فقد ساعدت على قتلها}.

{أنت ماعدت تصدقين ما تدعين}. صاحت هيستير {والا لكنت قتلتني}.

هنا سالت الدموع من عيني ساذيا تلتمع كالفضة فوق بشرتها الداكنة، ثم همست: {لا أعلم... إنني أشك في الأمر، لكنني.. لدي شكوك حول العديد من الأمور كذلك}.

وبدون أي مقدمات، فوجئت هيستير بساذيا تحتضنها بقوة وتبكي.. {إنه أمر جيد أن يجد المرء من يفضي إليه بمكنون قلبه. أنا لن أقتلك، وحينما تعود أنا سوف تخبرني هي بما جرى يوم مقتلها، وما إذا كنت قد شاركت في قتلها أم لا. يجب أن تظلي هنا إلى أن تعود}.

صورة كاملة

لو أنه كان بمقدور المرء أن يطالع العالم من فوق قمة شاهقة... لو كان إلهًا يطل على العالم من عليائه... أو روحًا تسكن واحداً من قواعد إطلاق الأسلحة الأمريكية القديمة، ومن التي لا تزال معلقة هناك فوق القطب الشمالي، لبدت له الصحاري الجليدية قاحلة خاوية، تمامًا كجدران زنزانة هيستير... مجرد مساحة شاسعة من اللون الأبيض تمتد فوق قمة الأرض القديمة البائسة، مثل عين زرقاء قد غطتها المياه البيضاء فأعتمتها.

ولكن، لو أنه اقترب قليلاً، وتأملها بعين فاحصة متمحصنة، فلسوف يرصد تلك الأشياء الصغيرة التي تتحرك فوق صفحة الخواء... انظر جيداً، هناك، هل ترى تلك البقعة الصغيرة إلى الغرب من جرين لاند؟ إنها أنكوراج، وقد انتشرت أمامها عدد من المركبات الصغيرة، إنها مركبات المسح الأرضي تتقدمها، بينما تمضي المدينة وراءهم في سبيلها بين التواءات الجبلية الخطرة وحلقات المياه السائلة. إنها تسير بحذر، ولكن ليس ببطء، فالجميع على متن المدينة لم يزل يذكر كيف تسلل الطفيلون إليها واختطفوا توم المسكين من بينهم، ولا يزال الخوف من وجود المزيد منهم عبر الجليد،

قائماً. وقد انتشر العسس في كل مكان عبر قسم المحركات، في حين تقوم الدوريات الأمنية بإجراء الحملات التفتيشية كل صباح عبر المدينة برمتها وفي كل ركن منها بحثاً عن وجود زائرين غير مرغوب فيهم.

أما الخطر الحقيقي الذي كان يترصص بالمدينة في غفلة من الجميع، فلم يكن يأتيها من الأسفل، وإنما من مكان آخر، ومن بقعة أخرى أكبر وأكثر قتامة؛ إذ يزحف نحوهم من جهة الشرق... أركانجيل.

كانت أركانجيل تسعى في إثر صيدها الجديد الثمين، وفي أحشائها كانت وولفرين هامبتون وثلاث بلدات صيد أخرى يجري تمزيق أوصالهم تمزيقاً. وفي أعماق أعماقها، بين جنبات المكتب البيضاوي للـ«ديريكتور»، كان بيتور ماسجارد يحث والده على زيادة سرعة المدينة...

{ولكن السرعة مكلفة يابني}. قالها الأب وهو يحك ذقنه: {لقد التهمنا وولفرين هامبتون، لكنني في الحقيقة لست واثقاً مما إذا كان الأمر يستحق عناء الاندفاع وراء أنكوراج باتجاه الغرب أم لا. ربما لن نجدها هناك، وربما كان الأمر برمته خدعة.. لقد أخبروني أن الفتاة التي باعت تلك المعلومات عن مسار المدينة قد اختفت}.

فهز بيتور كتفيه غير مبال، وقال: {هذا ليس بجديد، فعادة مايرحل الجواسيس قبل إقتراس المدن التي باعوا مسارها لنا. ولكن في تلك الحالة تحديداً أشعر بأننا سوف نرى تلك الفتاة ثانية قريباً، سوف تأتي لتطالب بثن المعلومات التي باعتها لنا}، ثم إنه دنا من مكتب والده وقال وهو يضرب على المكتب بقبضته في تصميم وحدة: {ينبغي أن نمسك بتلك المدينة يا أبي. إنها ليست مجرد بلدة صيد بأسة، وإنما مدينة ضخمة، وربما هي أكبر وأهم بعشرين مرة من أي مدينة أخرى تسير على الجليد}.

{صحيح}. قالها والده: {فلطالما حرصت عائلة سكايبوس على حماية أسرار تصميم محركاتهم، وكادوا دائماً أن تنتصر عليهم إحدى المدن المفترسة وتضع قبضتها عليها}.

{حسناً، والآن سوف نفعل نحن ذلك}. قالها ماسجارد الابن في لهجة انتصار: {تخيل يا أبي، قريباً سوف يضطر سورين سكايبوس للعمل هنا لدينا، وسوف نجعله يعيد تصميم محركاتنا بما يمكننا من استهلاك نصف مقدار الوقود، وفي نفس الوقت التحرك بأكبر من سرعتنا الحالية، بحيث يصير في مقدورنا اقتراح ضعف عدد الفرائس التي نقتنها الآن}.

{حسناً}. قالها أبوه متنهداً.

{لن تندم يا أبي، أسبوع آخر فقط على هذا المسار وسوف انطلق مع رجالي لإيجادها}.

ولو أن المرء كان شبحاً يهيم في واحدة من محطات الفضاء القديمة، تمكن حينها، عبر أدوات تلك المحطة، من النفاذ إلى عمق المياه في الأسفل، إلى حيث جريم سباي، حيث يجلس العم أمام أكبر شاشات المراقبة لديه، بينما «الدودة الحلزونية» تشق طريقها من جديد، حيث كول يتبوأ مقعد القيادة، بينما سكيوري يعمل تحت إمرته، لنقل توم ناتسوورثي إلى حيث روجزرووست.

{كَبُرَ الصورة يا بني، كبرها}. هتف العم، إذ راح يتابع في شغف انطلاق المركبة إلى أعماق المياه، بينما أضواؤها آخذة في التلاشي تدريجياً في الظلام، وبجانبه كان جارجل يتولى التحكم في الكاميرات، فأطاع الأمر وبدأ في تكبير الصورة. ربت العم على رأس الصبي وهو يفكر في أنه سوف يكون مفيداً جداً له هاهنا ليساعده في أعمال الأرشفة وكذلك في إدارة شبكة الكاميرات. وكان العم يحب أمثال جارجل من الضعفاء الذين لا

يملكون حولاً ولا قوة، ربما أكثر من باقي الصبية، فلمساكين مثل جارجل لا يثيرون المشاكل ولا يخشى منهم، على عكس الصبية غربي الطباع مثل كول، الذي بدأ مؤخراً يظهر بعض امارات استفاقة الضمير؛ وكذلك هؤلاء الطموحون أمثال سكيور الذين ينبغي أن يبقوا تحت المراقبة الدقيقة طوال الوقت، وإلا فسوف يأتي يوم ينقلبون فيه عليه ويستخدمون ما عليهم من مهارات وحيل مأكرة ضده هو.

{لقد انطلقوا أيها العم}. قال جارجل: {هل تظن أن الأمر سينجح؟ هل سيتمكن ذلك اليباس من أداء مهمته؟}.

{لا يهم}. أجابه العم ضاحكاً: {فسوف نستفيد منه في كلتا الحالتين أيها الصبي.. صحيح أنا لا أعرف الكثير عما يدور في روجز رووست، إلا أن القرائن الواردة في تقارير «راس» يمكن لرجل عبقري مثلي أن يستنتج منها الكثير... مهندس من لندن... تابوت مغطى بالثلج يصل من شان جو... تلك الفتاة ساذيا لا تستوعب موت صديقتها فأنج... أشياء صغيرة ومعلومات أولية، ياغريزي جارجل، لكنها قد تعني الكثير}.

أخذ جارجل يستمع إلى الرجل وهو يتطلع إليه بعين مفتوحتين قد تبدى فيهما عدم الفهم، ثم قال: {إذن... توم...}.

{لا تقلق أيها الصبي، إن توم ليس سوى وسيلة لصرف انتباه العاصفة الخضراء}.

{صرف انتباهها عن ماذا أيها العم؟}.

{أوه، سوف ترى يا بني، سوف ترى}.

(٢٧)

الدَّرَج

كان الصبية المفقودون قد تمكنوا من إقامة محطة تنصت لهم قبالة الجانب الشرقي من روجز رووست، داخل واحدة من السفن الجوية المحترقة لريد لوكي، والتي سقطت بين المنحدرات السوداء هناك أثناء معركته مع جماعة العاصفة الخضراء. ففي القلب من تلك السفينة الجوية، استقرت ثلاث مركبات متلاصقة معاً، وقد تشابكت أرجلها الطويلة مع بعضها البعض، ليصنعوا معاً قاعدة مؤقتة.

ومن بين تلك الشبكة المعقدة، استقرت «الدودة الحلزونية»، لتتفتح فرجة دائرية من باطنها تتصل مباشرة بفتحة على سطح المركبة المركزية المكونة للقاعدة. وعند الفتحة وقف شاب طويل القامة ينتظرهم، فما إن رأى توم حتى صاح: {إذن هذا هو الموظف الجديد لدى العم؟}.

كان الفتى هو العضو الأكبر سناً بين جميع الأفراد الذين رأهم توم من عصابة العم، وقد راح ينظر إلى توم من أعلى رأسه وحتى أخمص قدميه في ازدراء وقد علت وجهه إبتسامة تعالٍ، وكأنما هو يعرف شيئاً ما مثير للسخرية بصدد توم.

{حبيبة توم هي هيسثير شاو، سجينه روجزرووست}. قالها كول شارحاً،
فقاطعه الفتى قائلاً {نعم، نعم، لقد وصلتني سمكة مراسلة العم قبل أن
تأتوا، وقد عرفت كل شيء عن عصفوري الحب هذين... مهمة إنسانية هي
إذن؟!}. ثم إنه استدار وراح يمشي عبر ممر ضيق طويل

{اسمه راس}. همس كول إلى توم وهم يتبعون الفتى الأكبر عبر الممر،
{إنه من الرعيل الأول}.

{الرعيل الأول لأي شيء؟!}. تساءل توم.

{إنه واحد من أوائل الصبية الذين أتى بهم العم إلى جريم سباي. وهو
واحد من القادة. إن العم يترك له النصف من كل غنيمة يأتي بها، إنه
الذراع اليمنى للعم}.

أخيراً بلغ بهم الفتى إلى حجرة كانت مخصصة للبضائع، ثم تم تفريغها من
كل شيء وتحويلها إلى منصة مراقبة، وفيها كان عدد من الصبية، أصغر من
«راس» لكنهم أكبر من سكيور وكول، منهم من يجلس في ملل، ومنهم
من يتابع شاشات المراقبة الدائرية التي احتلت حائطا كاملاً أمامهم.

وكان كول ينظر حوله متعجباً، فقد كان المكان مليئاً بعدد من الصبية
أكثر مما يخرج في أي مهمة أخرى!، وقد راح يتساءل في أعماقه... ما الذي
يجعل العم يكلف كل هؤلاء الصبية بمهمة تجسس واحدة؟! ولماذا توجد
العديد من الشاشات مطفأة؟!... {ثلاث كاميرات فقط تعمل هنا؟!}. قال
كول: {لقد أطلقنا ثلاثين كاميرا على متن أنكوراج!}.

{حسناً، الأمر هنا مختلف، إنه ليس كهزام السطو على المدن الواحدة أيها
الفتى... العاصفة الخضراء ليست سهلة لينة العريكة مثلهم، فالحراس والبنادق
في كل مكان طوال الوقت. وكان السبيل الوحيد لتسيير الكاميرات هو عبر

أنابيب الصرف التي تؤدي إلى وحدة مراحيض مهجورة في الجانب الغربي، لذا قمنا بتسيير ثلاث من الكاميرات عبر تلك الأنابيب، وكذلك عبر أنابيب التدفئة، ولكن المشكلة أن الياسين هنا قد سمعوا أصوات خرفشة الكاميرات إذ تحرك داخل الأنابيب، وبدأ الأمر يثير تساؤلهم، ولهذا لا يمكننا تحريكها أبداً، كما لم نتمكن من إرسال المزيد منها. والحق أننا ما كنا لنتمكن من تسيير الكاميرات الثلاث تلك لولا أن العم قد أرسل لنا أحدث نماذجه منها، الكاميرات ذات وحدة التحكم عن بعد، والتي تعمل دون الحاجة إلى أسلاك. كما أرسل لنا اثنين من الأشياء المميزة كذلك!}. قالها متهكماً وهو يتسم تلك الابتسامة الغريبة.

فأشاح كول ببصره ونظر نحو منصات أجهزة التحكم، حيث كانت أكوام من قصاصات الملاحظات، وأكواب القهوة الفارغة، وجداول زمنية توضح مواعيد تغيير نوبات الحراسة، وكذلك بعض الملاحظات عن عادات الحراس على تلك الجزيرة. ثم إنه استرعت انتباهه مجموعة من الأزرار الحمراء الكبيرة، يحمي كل منها غطاء زجاجي... {ماهذا؟}. تساءل مشيراً نحو الأزرار، إلا أن الفتى أجابه أن {لا تشغل بالك}.

{في رأيك، مالذي يجري هناك على تلك الجزيرة بالضبط؟}. سألته سكيور، فهز راس كتفيه وهو ينتقل من كاميرا مراقبة إلى أخرى {لا أدري، فالمواقع الهامة التي حددها العم مثل المختبر وغرفة الذاكرة، لم نتمكن من إدخال كاميرات إليها على الإطلاق، فقط تمكنا من تسيير كاميرا مراقبة إلى حيث العنبر الرئيس بالمرفأ، إلا أننا لم يتيسر لنا فهم أي شئ مما يجري هناك. فهم لا يتحدثون اللغات الانجليزية أو الشمالية مثل الناس العاديين، وإنما يتبادلون الحديث بلغة الملاحة الدولية، بالإضافة إلى عدد من اللغات الشرقية المضحكة... تلك الفتاة هي قائدهم}. قالها وهو يشير نحو رأس

داكن اللون يملأ الشاشة، حيث كانت كاميرا المراقبة ترصدها عبر فتحات التهوية بمكتبها. فما إن رآها توم حتى تذكر تلك الفتاة الصارمة التي كانت ورقة معه أيام ارتحاله وهيستير بصحبة آنا فالنج إلى بوتامونج جومبا.

{إنها مجنونة تماماً. إنها تتعامل بصدد صديقة متوفاة لها وكأنها لا تزال على قيد الحياة. إن العم لمهتم بها جداً، وكذلك هناك تلك الفتاة الساحرة..}. قالها وهو ينتقل عبر الشاشة إلى كاميرا أخرى.

وما إن تبدى الشخص الذي تحدث عنه على الشاشة حتى شهق توم، وقد تلاحقت أنفاسه. فعلى الشاشة كان شخص ما جالساً في قاع غرفة أشبه بالبئر، وقد كانت الصورة مشوشة تماماً وباهتة، إلا أن توم لم يكن في حاجة لتدقيق طويل كي يعرف هذا الشخص... {هيسدير، إنها هيسدير}. صاح توم في لهفة، فضحك الصبية ساخرين وهم يتغمزون عليه. لقد رأوا وجه هيسدير من قبل على الشاشات وكانوا يحسبونها مزحة أن يهتم أي شخص أياً من كان بمثل تلك الفتاة المشوهة.

{عليّ أن أذهب إليها}. قالها توم في لوعة وهو يدنو من الشاشة، وفي داخله كان يتمنى لو أنه بمقدوره أن يصل إليها عبر ذلك الزجاج وأن يلمسها، فقط لتعرف بأنه موجود هاهنا بالقرب منها ومن أجلها..

{سوف تفعل}. قالها راس، ثم إنه سحب توم من ذراعه وقاده عبر باب إلى حيث حجرة صغيرة تعج بالبنادق والسيوف {نحن مستعدون. لقد حصلنا على كافة التعليمات من العم}. ثم إنه انتقى مسدساً غازياً صغيراً وناولته لتوم، ثم تناول أداة معدنية صغيرة غريبة الشكل {لفتح الأقفال}. قالها لما لاحظ نظرات توم نحو الأداة.

ومن غرفة التحكم تناهت لمسامع توم أصوات جلبة، إذ دب النشاط بين الصبية، وما عاد أحد منهم يجلس في ملل. وعبر الباب نصف المفتوح، رأى توم الغرفة وقد تحولت إلى خلية نحل، حيث الكل يهرع جيئة وذهاباً، منهم من يتفحص الخرائط والجداول، ومنهم من يتنقل بين شاشات المراقبة، في حين راح آخرون يفحصون سماعات الرأس..

{أنتم لن ترسلوني إلى الداخل الآن أليس كذلك؟ ليس الآن}. قالها توم في وجل، وقد كان يتوقع أن يمهله بعض من الوقت كي يستعد نفسياً على الأقل، أو حتى يمنحه أولاً بعض من المعلومات عن روجز رويست ومسالكتها، وما قد يصادفه هناك، لكنه لم يكن يتخيل أبداً أنه سوف يتم دفعه دفعاً إلى العمل بهذا الشكل بمجرد أن تطأ قدماه المكان؛ إلا أن راس جذبه من ذراعه مرة أخرى عائداً به إلى حيث غرفة التحكم، ومنها إلى ممر آخر، قائلاً في صرامة: {لا وقت لدينا}.

تحت ظلال درج معدني قديم على المنحدرات في الجانب الغربي من روجز رويست، حيث يقع أسفله رصيف حديدي تحاوطه مجموعة من الصخور، حيث كان يستخدم فيما مضى لإرساء القوارب، قبل أن تستولي العاصفة الخضراء على كل شئ بالجزيرة وتهجرها القوارب إلى غير رجعة، فأمسى الرصيف هذا مهجوراً منسياً يأكله الصدأ وأملاح البحر.. انسلت الدودة الحلزونية لتتوارى في ظلال ذلك الدرج، بينما الأمواج تضرب جسمها المعدني الذي التصق مغناطيسياً بالمرفأ الحديدي الصدئ، وفي الداخل راح توم ينظر عبر النافذة إلى حيث الأضواء وهي تنبلج داخل المباني الواقعة في الأعلى، وقد بدأ يشعر بأنه على وشك الإعياء. لقد ظل يطمئن نفسه على طول الطريق من جريم سباي حتى روجز رويست، بأن كل شئ سيكون على مايرام، وأنه سوف ينجح في مهمته. أما الآن، وقد بلغ

معقل العاصفة الخضراء، فإنه بالكاد يصدق أنه سوف يتمكن من الولوج إلى الداخل، فضلا عن إنقاذ هيلستير والخروج بها؛ وقد كان يتنى أو أن كول كان معه الآن، لكن راس قد قرر أن يقود الدودة الحلزونية بنفسه بينما أمر كول بأن يبقى في قاعدة التجسس.

{حظ سعيد يا توم}. قالها له كول وهو يعانقه قبل أن ينطلق في صحبة راس في تلك الرحلة إلى المجهول، والآن قد بدأ توم يدرك حقا أنه إنما يحتاج إلى قدر وافر من الحظ الجيد كي ينجح في تلك المهمة.

{ذلك الدرج يؤدي إلى باب على ارتفاع مائة قدم}. قالها راس: {ولا توجد حراسة على ذلك الباب، إذ لا يتوقعون أن يأتيهم هجوم من ناحية البحر. إنه مغلق بالطبع، ولكن لا يوجد شيء لا تستطيع أدواتنا التعامل معه. هل أخذت فاتح الأقفال؟}. فربت توم على جيب معطفه في إشارة أن {بلى}..

{حسنا}. قالها الفتى بعصبية، ثم {سوف أكون في انتظارك هاهنا}. قالها وهو يتسم ابتسامته الخافتة الغامضة، وقد تمنى توم لو كان باستطاعته الوثوق به.

ثم خرج توم من المركبة، ليثب سريعا إلى حيث الدرج، محاولا أن يركز تفكيره على هيلستير فقط، وقد كان يدرك جيدا أنه لو فكر للحظة واحدة في كل هؤلاء الجنود والبنادق والأسلحة التي تحمي ذلك الحصن الحصين، فسوف يفقد كل قدرة على التحكم في أعصابه بلا شك.

موجة أخرى ضربت المركبة بينما كان توم يخرج من بابها العلوي، فغمرته بالمياه الثلجة، لكنه خرج على أية حال ليقف هناك على عتبة الدرج في البرد والظلام، وهدير الأمواج العالي من حوله.

موجة أخرى كادت تضربه لكنه تفادها، ثم شرع يشق طريقه عبر درجات السلم نحو الأعلى وقد بدأت رعشة قوية تسري عبر أوصاله.

أخذ توم يثب فوق الدرجات وثبا، ومن فوقه كانت مجموعة من الطيور قد راحت تضرب الهواء بأجنحتها، فأجفل... [فقط فكر في هيستير]، هكذا راح يذكر نفسه، ولكن ما كان تفكيره بها واستعادته لأجل ذكرياته معها ليكبح خوفه المتنامي في أعماقه، فقرر ألا يفكر في شيء على الإطلاق، وأن يركز فقط فيما عليه فعله، ولكن هيات، ظلت الأفكار السوداء تتسلل إلى عقله لتنهشه بلا رحمة... إنها مهمة انتحارية بكل ما في الكلمة من معنى، وقد بات على يقين الآن أن العم إنما يستغله لغرض ما، أما قصة حاجته لجاسوس داخل روجز رويست فهي لا تمثل سوى جزء من الحقيقة، وليس الحقيقة بأكملها. كذلك محطة التجسس تلك، إنها لغز هي الأخرى، بكل تلك الأسلحة التي تحتويها... لقد لاحظ كيف كان كول مذهولا، مصدوما حينما رأى كل تلك المسدسات والبنادق!... لقد انخرط في لعبة لا يملك قواعد ولا يفهمها على الإطلاق، وربما كان من الأفضل له أن يسلم نفسه إلى العاصفة الخضراء، أن يصيح مجاهرا بوجوده للحرس ويضع نفسه تحت تصرفهم، فربما هم ليسوا بذلك السوء الذي يتحدث عنه الجميع، وفي كل الأحوال فإن ذلك قد يمنحه فرصة أن يرى هيستير...

نجأة، سقط جسم أسود من السماء، فرفع توم ذراعيه بسرعة تفاديا لهذا الشيء وأبعد وجهه مغمضا عينيه، فسمع صراخا أجش، ثم شعر بضربة حادة موجعة من منقار حاد فوق رأسه... ضربة مؤلمة بشدة وكأن مطرقة صغيرة قد ضربت رأسه، ثم سمع رفيف أجنحة قوي، ثم... لا شيء.

فتح توم عينيه وتطلع من حوله، لكنه لم يجد شيئا، وكان قد سمع من قبل عن الطيور البحرية، وكيف أنها تهاجم أي شخص يدنو من المناطق التي تقيم أعشاشها بها.

فنظر إلى الأعلى ليجد من فوقه آلاف الطيور قد تجمعت وراحت تحلق في الظلام، فهرع يصعد ما تبقى من الدرج آملا الإفلات. ولكن لم تمر لحظات حتى جاءه الهجوم الثاني، وهذه المرة تمكن توم من رؤيته بشكل أفضل، حيث وجد طائرا كبيرا ذا أجنحة عريضة وعينين ثألقان ببريق أخضر فوق منقاره المفتوح، إذ انطلق صوب توم، إلا أن الأخير رفع ذراعه في الوقت المناسب وضرب الطائر بقبضته وساعده، فأطاح به بعيدا عنه، إلا أنه شعر بألم يمزق ذراعه فنظر إلى ساعده ليجد الدماء تنبثق من ثلاثة جروح في جانب يده... أي نوع من الجوارح هذا؟! لقد اخترقت مخالبه القفازات الجلدية السمكية التي يرتديها!

هجوم ثالث من ذات الطائر الذي كان قد استدار مندفعا من جديد ليهاجم توم ويلطمه بجناحيه القويين بينما يطلق صرخته المريعة الكفيلة باستدعاء باقي الطيور المحلقة في الأعلى؛ ثم أخذ الطائر يرف بأجنحته ويلطم توم بها وقد تنثر ريشه على وجه الفتى وشعره، ومن ذلك الطائر كانت رائحة كيميائية عجيبة تفوح بقوة.

وحينما رفع توم وجهه اكتشف أن ذلك البريق الأخضر الساطع في عيني الطائر لم يكن مجرد انعكاس للأضواء، بل شيء آخر تماما. هنا سحب توم المسدس الذي أعطاه إياه «راس» وصوبه تجاه ذلك الشيء المجنح وضغط الزناد، ليجد نفسه في اللحظة التالية محاطا باثنين آخرين من تلك المخلوقات التي راحت تنهال عليه بأجنحتها، بينما مخالبها تنهش فروة رأسه.

فشرع توم يعدو عبر الدرج إلى الأعلى محاولا الفرار من تلك الطيور - إن كانت طيور بالأساس - في حين أخذت تلك تصرخ وتدور من حوله وتهاجمه. كان اثنان فقط لا أكثر من تلك المخلوقات تهاجم توم، إذ تلتصق بخالبها القاطعة في الظلام، في حين كانت باقي الطيور تحلق في الأعالي بلا اكتراث... اثنان فقط كانا كفيلين يبت الهلع في توم إلى حد جعله يبدأ في الصراخ {النجدة... اذهبوا عني.. اذهبوا عني}. وقد فكر في أن يعود أدراجه نحو الأسفل إلى حيث الأمان داخل المركبة التي تنتظره، إلا أنه بمجرد أن استدار، اندفعت تلك الكائنات تهاجم وجهه، فانطلق يعدو صعودا من جديد عبر ما تبقى من درجات وقد رفع يديه إلى رأسه لحمايته من تلك الجوارح العجيبة بينما كانت الدماء الساخنة تسيل فوق وجهه.

وفي نور آخر شعاع من الضوء في السماء، وجد توم نفسه أخيرا قبالة الباب، فاندفع نحوه، لكنه في غمار ذلك الهجوم الضاري لم تكن لديه أية فرصة لإخراج فاتح الأقفال من جيبه ومحاولة فتح ذلك الباب.

وفي يأس، رفع مسدسه عاليا وضغط الزناد، فتردد دوي الطلقة في الأجواء، وسقط واحد من تلك الكائنات بعيدا، وقد تصاعد منه خيط من الدخان، في حين تراجع الآخر قبل أن يستدير ويعود ثانية، فسارع توم إلى إخفاء وجهه، ومن يده الدامية سقط المسدس وارتطم بالإفريز ليهوى من جديد نحو الظلام ويختفي.

في تلك اللحظة انطلق شعاع أبيض من كشاف بحث وراح يمسح الجرف الصخري، إلى أن توقف عند توم الذي التصق بالباب مرتعدا. ودوت صافرات الإنذار في كل مكان عبر الجزيرة.

{راااااس}. صرخ توم {كووول، الغوث}.

وأخذ يصرخ ويصرخ، وهو لا يستوعب بعد كيف انقلب كل شيء بهذه السرعة!

وفي الدودة الحلزونية، تردد الصوت المتقطع خارجا من الراديو {لقد أمسكوا به}، فأوماً «راس»، وقد كان العم قد أخبره أن الأمور غالباً ستسير على هذا النحو.

{إبدأوا في تسيير الكاميرات}. قالها راس عبر الراديو: {ليس لدينا سوى بضع دقائق قبل أن يكتشفوا أنه بمفرده}، ثم بدأ يضغط بعض الأزرار، ومن الأعلى انفتح الباب ليخرج منه باللون شحن قديم، قبل أن يعاود الباب الانغلاق. وما إن صعد البالون وسط عاصفة الطيور وأضواء كشافات البحث، حتى أغلقت المركبة دوائرها المغناطيسية وحررت نفسها من رصيف الإرساء المعدني، ثم بدأت الأرجل المعدنية الشبيهة بأرجل العناكب وسرطانات البحر في الانغلاق، فسقطت المركبة ليغمرها الماء من جديد وتتخذ طريقها نحو محطة التجسس.

انفتح الباب المعدني ليغمر توم ضوء أصفر قادم من الداخل، وقد شعر بالخلاص أخيرا لنجاته من براثن تلك الطيور التي صارت أقل حدة بمجرد أن أمسك به الحراس.

قام الحرس بتقييد يدي توم خلف ظهره، وكذلك تقييد قدميه، في حين قام أحدهم بوضع فوهة سلاحه الأوتوماتيكي أسفل ذقنه في تهديد واضح.

{شكرا، شكرا لكم!!}. راح توم يردد متقطع الأنفاس {آسف}، بينما كانوا يدفعونه بغلظة إلى الداخل بعيدا عن الطيور، ثم أغلقوا الباب، ليسقط على الأرض الباردة، فيقوم أحدهم بجذبه من ذراعه المقيدة ليقف على قدميه من جديد، ثم اجلسوه.

وفي الخارج كانت الصواريخ تنطلق من منصاتها نحو البالون الذي أطلقه الصبية المفقودون قبيل اختفائهم. ومن مكان قريب تناهت إلى توم أصوات تتحدث لغة الملاحة الدولية ولكنها شرقية واضحة، وقد بدا له أنهم يتجادلون بشأن أمر ما لكنه لم يستطع تمييز أغلب ما قالوه، لكنه سمع صوتا مألوفا لامرأة تقول: {أهو وحده؟}.

{نعتقد ذلك أيتها القائدة...}. ثم قالوا شيئا لم يستطع توم تمييزه، ثم {..} قد وجدوه على الدرج ٠.

فقالت المرأة شيئا ما لم يستطع توم التقاطه كذلك، لكنه استنتج أنها تتساءل حول كيفية وصوله إلى الجزيرة، لأن أحد الأصوات قد أجاب قائلاً: {عبر بالون يسع شخصين، وقد تمكنت صواريخنا من إسقاطه}.

فصاحت المرأة بشئ بدا لتوم وكأنه ربما سباب ما، ثم {ولماذا لم ترصده أبراج المراقبة؟}.

{الحراس يقولون إنه قد ظهر فجأة}.

هنا همس توم في اضطراب {لكني لم آت عبر بالون}.

{السجين أيتها القائدة...}. قالها أحد الحراس.

{دعونا نراه إذن...}.

{آسف}. دمدم توم بينما كان ضوء قوي يعمي بصره قد تم تسليطه على وجهه من كشاف يد، ثم ما إن تكيفت عيناه مع الضوء واستعاد قدرته على الرؤية، حتى فوجئ بالفتاة التي رأى صورتها على شاشة المراقبة لدى راس، والتي تشبه ساذيا، فتاة بوتامونخ جومبا الوحقة، تقف أمامه، ثم سرعان ما اكتشف أنها لا تشبه ساذيا، وإنما هي ساذيا ذاتها!

فأخذ يردد من جديد {مرحباً... أشكركم... آسف}. بينما وقفت هي تحديق فيه قليلاً عبر الدماء التي غطت وجهه وشعره، وقد اتسعت عيناها من أثر المفاجأة، ثم سرعان ما استحالت المفاجأة غضباً وقد ميزت هويته. في ليلة واحدة، بعد أشهر طويلة من المراقبة غير المجدية، صار لدى الصبية المفقودين في محطة التجسس، الكثير جدا من العمل، حيث تدافعوا جميعاً أمام شاشات المراقبة، وقد أخذوا يكافحون من أجل الإلمام بكل ما يدور هناك على الجزيرة بين هؤلاء اليباسين؛ كذلك اندفع كول يشق طريقه بينهم ليلق نظرة عبر الشاشات، فوجد توم يسير بين عدد من الحراس ذوي الزي الأبيض، وعبر شاشة أخرى كان مكتب القائدة ساذيا فارغاً، وقد بدا وأنها كانت تناول عشاءها به حينما أتها الأنباء فاضطرت للمغادرة على عجل تاركةً باقي وجبتها على المكتب.

وعلى شاشة الثالثة كانت مجموعة من الملاحين قد تجمعوا في عنبر السفن الجوية بجوار سفنهم، حتى بدا الأمر وكأن العاصفة الخضراء ترى أن وصول توم إليهم ربما يمثل بداية هجوم على وشك أن يتم شنه عليهم.

وفي تلك الأثناء كانت الآلاف من كاميرات المراقبة المسيّرة عن بعد تنتظر خارج مبنى المراحض المهجور بالجزيرة... كانت خطة العم تسير بنجاح باهر، والآن هاهم صبيته سوف يستغلون الهرج والفوضى الدائرة في مقر العاصفة الخضراء ليقوموا بنشر كاميراتهم في كل مكان على روجز رويست، عبر فتحات التهوية وانايب التدفئة والمداخن، وكل مكان بالمنشأة يمكن أن تصل إليه، ولن يشعر أحد بجلبتهم وأصوات تحركاتهم داخل الأنايب في ظل كل تلك الضوضاء العارمة لصافرات الإنذار التي تدوي في كل مكان.

وفي وسط كل تلك الأحداث المحمومة الدائرة أمامهم على الشاشات، شعر كول باهتزازات في المركبة، وبعدها بلحظة دخل راس مسرعاً في توتر وحماسة، وأخذ يسأل عن الوقت الذي استغرقه أفراد العاصفة الخضراء لاتخاذ رد فعل إزاء ما وقع...

{إنهم سريعون جداً}. أجابه أحد الصبية، في حين قال آخر: {أنا سعيد ان العم لم يرسلني أنا في تلك المهمة}، وقال ثالث {لديهم نوع من الطيور المدربة يحرس الدرج، وهي أول ما تسبب في انطلاق الإنذارات}.

{سوف نكون مستعدين لها}.

هنا أخذ كول يشد راس من طرف كم سترته مراراً، إلى أن التفت إليه الأخير في انزعاج، فصاح كول: {لقد كان من المفترض أن تبقى في انتظار توم. إفرض أنه تمكن من الفرار، فكيف سيفلت منهم دون مركبتنا؟}.

{لقد انتهى صديقك يا محب الياسين}. أجابه راس وهو يزيحه جانبا :{لاتقلق، كل شئ يسير حسب خطة العم}.

كانت هيستير نائمة، حين صحت مذعورة على صوت المفتاح إذ يدور في الباب الثقيل لزنزانتها، فنهضت هيستير لتجد ساذيا تندفع إلى الداخل نحوها وتدفعها بعنف لتسقط ثانية، ومن ورائها كان عدد من الجنود يدخلون وهم يجرون شخص ما يقطر منه الماء والدم؛ ولم تتمكن هيستير من التعرف عليه في البداية، ولا حتى حينما رفعت ساذيا رأسه ليتبدى لها وجه مغطى بالدماء.

إلا أنها قد لفت انتباهها معطف الملاحين الجلدي الذي يرتديه ذلك الشخص، وقد خطر لها فوراً أن توم لديه معطف مماثل، فتطلعت في وجه ذلك الشخص من جديد وهي لاتصدق!... لايمكن أن يكون هو، حتى ولو كان يرتدي معطفه!... {توم؟}. همست غير مصدقة.

لقد جاء لإنقاذها، وها هو الآن يجثو بجانبها مرتعّباً، وقد بدا أنه قد تعرض لإيذاء شديد، أما الأسوأ من كل هذا فهو أنه لا يعرف ما فعلته هي، لقد جاء كل تلك المسافة من أجل إنقاذها بينما هي لا تستحق ذلك... {توم}. قالتها وهي تنشج: {لقد وثقت بك}. صاحت ساذيا من جديد {لكنك خدعتني كما فعلت مع أنا المسكينة. لعبت دور البريئة حتى جعلتني أشك في نفسي، بينما صديقك الهمجي كان في طريقه إلى هنا..} ماالذي تخططين له؟ أهنالك سفينة حربية تتربص بنا؟ هل كان بليנקو متآمر معك منذ البداية؟ أحسب أنك كنت تخططين لختف بوب جوي وتسليمه إلى واحدة من مدنكم الحقيرة لجعله يصنع لهم نماذجه من المطاردين، أليس كذلك؟.

أما توم، فقد كان يرتعد من البرد والصدمة بحيث كان من الصعب عليه أن يستوعب ما يدور من حوله، إلا أنه قد سمع صوت هيسستير، فرفع رأسه ليراها جاثية بجانبه، وكان قد نسي كم هي قبيحة!

ثم إن ساذيا قامت بجره من شعره ودفعت برأسه إلى الأسفل ليتبدى عنقه أمامها، وقد سمعها إذ تستل سيفها من غمده بجدة، ومن السقف، حيث أنابيب التدفئة، كان صوت جلبة يتردد صداه، أما هيسدير فقد صرخت في لوعة {توووم}.

فأغلق توم عينيه منتظرا الضربة الفاصلة.

وعلى شاشات المراقبة أمام الصبية كان سيف ساذيا المستل يومض ببريق أبيض، في حين أتاها صوته خفيضا عبر الكاميرات المزودة بأجهزة تنصت، إذ كانت تصرخ وتنفوه بأشياء جنونية حول مؤامرات وخيانات. {افعل شيئا!}. صاح كول في جزع.

{إنه مجرد يابس يا كول}. صاح سكيور محذرا في غلظة {دعك منه}. {علينا أن نساعد، سوف يموت}.

{كان ليموت على أية حال أيها الأحمق}. قالها راس بجدة وهو يدفع كول جانبا {أحقا كنت تعتقد أن العم كان ليتركه على قيد الحياة بعد كل ما رآه؟، وحتى لو كان قد نجح في إخراج الفتاة وتمكن من الهرب بها، فإن الأوامر التي لدي واضحة : قم باستجوابه ثم اقتله. لقد كان توم مجرد وسيلة}.

{لماذا؟}. صاح كول في غضب {كل هذا من أجل إدخال بضعة كاميرات إلى الداخل؟ فقط كي يتمكن العم من رؤية ما بداخل غرفة الذاكرة؟}.

هنا لكم راس كول لكمة قوية ألقت به نحو لوحات التحكم، وقال {إن العم يعرف مايدور بداخل تلك الغرفة منذ أشهر. تلك التي قمنا بإدخالها

ليست مجرد كاميرات، إنها قنابل. وإننا حالياً نقوم بتوجيهها نحو مواقعها المحددة وبعدها سوف نقوم بتفجير كل شيء ثم ندخل نحن لنغترف الغنائم}.

فراح كول يتطلع نحو الشاشات، بينما الدماء تسيل من أنفه على شفتيه وطعمها الصديء يفعم فيه، في حين أخذ باقي الصبية يسارعون بالابتعاد عنه، وكأنما الاهتمام بأمر اليا بسين هو مرض معدٍ قد يلتقطونه منه، تماماً كالانفلونزا.

اعتدل كول واقفاً على قدميه من جديد، ثم لمح تلك المجموعة من الأزرار الحمراء ذات الغطاء الشفاف بالقرب من يده، فأخذ يتطلع إليهم للحظة. إنه لم ير من قبل لوحة تحكم تحوي مثل تلك الأزرار، لكنه الآن قد بات في مقدوره أن يخمن وظيفتها بالضبط...

{لاااااا... ليس الآن!}

صرخ أحد الصبية، وفي لحظة واحدة، وقبل أن يتمكن أي منهم من منعه، كان كول قد نزع الأغشية الحافظة عن أكبر عدد ممكن من تلك الأزرار، ثم ضغط بقوة على الأزرار بكليتي يديه في وقت واحد... وانطفأت الشاشات.

(٢٨)

عندما هبت الرياح

شعر بشئ ثقيل يهوى فوق مؤخرة رأسه، فسقط أرضا وارتطم وجهه بالأرضية الباردة، فعرف أنها النهاية وأنه ميت لا محالة.

لكنه لم يميت، فقد كان لا يزال بإمكانه الإحساس ببرودة الحجارة تحت خده. ثم أدرك بعد حين أن ثمة انفجار قد وقع على حين غرة وتسبب في انهيار السقف من فوقه، ومن منظر الانقراض والغبار استنتج توم أنه انفجار ضخم، وفي داخله كان يتساءل متعجبا كيف أنه لم يسمع أي دوي أو صوت للانفجار!، قبل أن يكتشف أنه لا يسمع أي شئ على الإطلاق!، على الرغم من قطع الحجارة الثقيلة التي لا تزال تسقط من السقف، وكل هؤلاء القوم الذين أخذوا يحركون كشافاتهم في كل صوب ويصيحون بملء أشداقهم... لم يكن قادرا على سماع أي شئ، فيما عدا صوت طنين ينبعث من مكان ما داخل جمجمته ويدوي في رأسه.

وحتى حينما سعل من أثر الغبار، لم يتمكن من سماع صوت سعاله. ثم شعر بأصابع صغيرة دافئة تطبق على يده وتجره جراً، فرفع عينيه ليجد

هيستير تقف قبالة وسط أضواء الكشافات وتصيح بشئ ما، ثم إنها جرته من جديد وهي تشير نحو الباب، فشرع يزحف من أسفل جسم كان قد سقط فوقه، ليتضح له في الثانية التالية أنه ساذيا، وللحظة وقف يتطلع نحوها ويتساءل عما إذا كانت قد أصيبت بشدة وما إذا كان يتوجب عليه مساعدتها، إلا أن هيستير سحبه باتجاه الباب وقد أخذت تتعثر بين جث الرجال الذين بلا شك قد لقوا مصرعهم، وتنحي أسفل بقايا أنابيب التدفئة التي انكسرت وتدلّت نحو الأسفل وقد راح الدخان ينبعث منها، وكأنا الانفجار قد وقع من داخلها.

وبينما هما في طريقهما نحو الخارج، التفت توم إلى الوراء ليجد شخصا ما يطلق عليه النار، ورأى وميض الطلقة، وشعر بالرصاصة إذ تمر خلف أذنه، ولكن حتى إطلاق النار لم يسمع له صوتا.

اندفع توم وهيستير في طريقهما فرارا، إلى أن وجدا درجا فهرعا يهبطان عليه، ثم مرا عبر باب فآخر، ثم عدة أبواب أخرى، ولم يفتهما أن يغلقا تلك الأبواب خلفهما بهدوء. وقد اضطرا أكثر من مرة للتوقف لالتقاط الأنفاس، أو السعال من أثر الغبار والركض.

وكان توم لا يزال يحاول إستيعاب ما حدث.... الانفجار... أنابيب التدفئة...

{توم!} كانت هيستير بجواره، لكن صوتهما قد آتاه بعيدا خافتا متقطعاً، وكأنها تناديه من تحت الماء.

{ماذا؟!}

{المنطاد}. راحت تصيح {أين المنطاد الذي جئت به؟ كيف جئت إلى هنا؟}.

{غواصة.. أتيت بغواصة، لكنني أحسب أنها قد غادرت}.
{ماذا؟}. صاحت تتساءل وقد بدا أنها هي الأخرى تعاني من نفس
حالة الصمم التي يعانيتها.

{رحلت!}.

{ماذا؟}.

هنا تبدت لهما أضواء كشافات قادمة من الطرف الآخر للممر،
فصاحت هيستير وهي تدفع توم من جديد نحو درج آخر {سوف نأخذ
الجيني هانيفر}.

كانت العتمة والدخان يغلفان كل شئ من حولهما، وقد أدرك توم أن
الانفجار الذي وقع في الزنزانة لم يكن الوحيد، وإنما هناك أكثر من انفجار
قد حدث. وكانت الطاقة الكهربائية قد انقطعت عبر الجزيرة، فيما عدا
بعض الأضواء التي كانت لا تزال تنبعث في عدد من الممرات.

ومن موضعهما شاهدا عددا من الجنود المرتعبين والمذهولين مما جرى، إذ
يهرعون من مكان إلى آخر عبر الأبواب والممرات شبه المنهارة.

أخيرا بدأ توم يسترجع حاسة السمع تدريجياً، وتراجع صوت الصغير
والطنين مفسحاً المجال لأصوات أجهزة الإنذار التي تدوي في كل مكان.

{إنني حتى لا أعرف أين نحن بالضبط}. قالتها هيستير وهما لا يزالان
يعدوان عبر إحدى السلام بينما كان عدد من الملاحين يهرعون على مقربة
منهم، {فكل شيء يبدو مختلفاً في تلك العتمة}، ثم إنها نظرت نحو توم وقد
شاعت على وجهها المغبر ابتسامة، ثم قالت {كيف أمكنك تدبير ذلك
الانفجار؟}.

كان ذلك أصعب قرار اتخذته راس في حياته، وللحظة ارتج عليه تماما وما عاد يدري ماذا عليه أن يفعل، وهو بعد واقف داخل محطة التجسس، يتطلع في دعر إلى الشاشات المعتمدة. كل خطط العم قد انهارت، وكل عملهم وجهدهم قد ذهب هباء، وانفجرت الكاميرات المحملة بالقنابل قبل أن يصل أغلبها إلى مواقعه المحددة.

{ماذا سوف نفعل ياراس؟}. سأله أحد الصبية، وفي الحقيقة لم يكن أمامهم سوى خيارين لا ثالث لهما... إما العودة إلى جريم سباي لينزل بهم العم أشنع العقاب جراء فشلهم في إتمام مهمتهم، أو المضي قدما والانطلاق في محاولة لإنقاذ ما يمكن إنقاذه من تلك المهمة..

{سوف نمضي إليهم}. قالها راس في تصميم، وقد شعر بقوته تعود إليه من جديد، بينما راح باقي الصبية يهرعون جيئة وذهابا لإحضار البنادق والشبكات، وإعداد الأدوات اللازمة، بينما راح البعض منهم يثبت كشافات الرأس فوق جبهته...

{أنت ياسكيور، وأنت يا بيت بول، سوف تعملان على الكاميرات، أما الباقون فسوف يأتون معي}. قالها، ثم راح يجر كول بعيدا.

وهكذا، بينما كانت العاصفة الخضراء تكافح في دعر الحرائق التي سببتها الكاميرات المتفجرة، وقد طفقت كشافات الاستطلاع تمسح السماء، في حين أخذت منصات الأسلحة تطلق الصواريخ الواحد تلو الآخر، انفصلت واحدة من المركبات المكونة لقاعدة التجسس، وانطلقت عبر المياه، إلى حيث الرصيف الصدئ، وعبر نفس السلام التي اعتلاها توم قبل نحو ساعة، أنسل عدد من الصبية المفقودين في سرعة وضمت نحو الأعلى، فما إن وصلوا بالقرب من القمة حتى بوغتوا بواحد من الطيور المطاردة يهاجمهم،

فانقلب أحد الصبية من هول الرعب من فوق الافريز وهو يصرخ صرخة مدوية ليسقط في الماء، في حين أصيب آخر بطلق ناري من إحدى منصات إطلاق النيران المثبتة فوق الجرف، واضطر «راس» للإجهاز عليه وفقا لتعليمات العم : (لا تدع أحد الصبية يقع في يد الياسين كي يستجوبوه.)

أخيرا تمكن راس وصبيته من الوصول إلى الباب، فانطلقوا عبره، على هدى الرسوم التوضيحية التي في حوزتهم للمكان، باتجاه غرفة الذاكرة، في حين بقي بعض من الصبية يحرسون طريق الفرار ويقتلون كل من يصادفهم من جنود العاصفة الخضراء المذعورين، اتباعا لتعليمات العم كذلك : (لا تترك شهودا وراءك).

وكان حراس غرفة الذاكرة قد ولوا الأدبار، ولم تستغرق الأقفال الضخمة من راس سوى لحظة واحدة لفتحها، فقد كانت الطاقة الكهربائية قد انقطعت وتعطلت الأقفال المغناطيسية، فما إن شرع راس في معالجتها حتى انفتحت بسهولة ويسر تام. فاندفع الصبية إلى الداخل وقد أضواء والكشافات عبر الجسر الداخلي الممتد حتى المنصة في منتصف الغرفة، ليفاجأوا بشخص يقف هناك متحفزا، كحيوان بري حبيس، بينما قناعه البرونزي يلتصق على ضوء الكشافات. تراجع الصبية دفعة واحدة إلى الوراء، باستثناء راس الذي كانت لديه فكرة نوعا ما عن كنه الشيء الذي تم إرسالهم بالأساس للاستيلاء عليه من تلك الغرفة...

لقد حذره العم من أي محاولة لمجابهة ذلك الكائن المائل أمامهم : (استخدم عنصر المفاجأة وخذه على حين غرة.. من الأمام أو الخلف.. ألقوا عليه الشبكات واسحبوه سريعا قبل أن يدرك ما يحدث.). ولكن للأسف لم يعد ثمة وقت أو فرصة للناورة الآن، وحتى لو كان ذلك متاحا، فبعدما رأى راس ذلك الكائن رؤى العين، لم يعد واثقا من أن مثل تلك الخطة قد

تنجح... إنه يبدو شديد القوة والبأس، وللمرة الأولى في حياته ينتاب راس الشك فيما إذا كان العم بالفعل يعرف ما هو الأفضل.

في النهاية لم يكن أمام راس أي خيار آخر، فأخفى خوفه عن الصبية وقال: {هاهو ذا.. هذا هو مايريده العم}، فرفع الصبية بنادقهم ونصالحهم، والحبال والسلاسل والقيود، وكذلك الشبكة الثقيلة التي أمدهم بها العم، ثم شرعوا يخطون عبر الجسر، وأمامهم كان المطارد يتقدم لملاقاتهم.

انطلق دوي طلقات نارية، وتردد صداها في كل مكان عبر الممرات المنخفضة، ولكن ما كان من الممكن تحديد موقعها بالضبط؛ وأخذ توم وهيستير يركضان متبعين ما تذكره هي عن الاتجاهات في القاعدة. وكان هناك العديد من الجثث ملقاة عبر طريقيهما، ثلاثة منها كانوا من جنود العاصفة الخضراء، أما الرابع فكان صبيًا يرتدي ملابس داكنة غير متسقة، وقد تبدت خصلة من الشعر الأشقر من أسفل غطاء الرأس الصوفي الذي كان يرتديه، وللحظة حسبه توم كول، لكنه سرعان ما أدرك أن هذا الفتى أكبر وأضخم، وقد استنتج أنه ولا بد أحد أفراد طاقم راس... {الصبية المفقودون هنا!}.

{من؟ من هؤلاء؟}. سألته هيستير، إلا أنه لم يجب، فقد كان يحاول جاهدا أن يستوعب ما يدور من حوله ودوره في كل هذا. وقبل أن تتمكن هيستير من تكرار السؤال عليه، انطلقت عاصفة من الضجيج والجلبة من مكان ما قريب منهما، ثم دوى صوت إطلاق نار محموم ومتصاعد، ثم صراخ... ثم صرخة واحدة أخيرة أعقبها صمت تام. حتى صافرات الإنذار قد توقفت.

{ما كان هذا؟!}

{وكيف لي أن أعرف؟}. أجابت هيستير ثم انخنت تلتقط الكشاف من يد الصبي المقتول الراقد أمامها، ثم جرت توم من ذراعه وانطلقت نحو درج آخر {دعنا نخرج من هنا}.

فتبعها توم وقد انتابه إحساس بالسرور رغم كل ما يمران به... إنه يحب ذلك الشعور بيدها إذ تمسك بكفه وتقوده، وتساءل في نفسه عما إذا كان ذلك هو الوقت المناسب ليقول لها ذلك ويقدم لها اعتذاره عما حدث في أنكوراج، ولكن قبل أن يتفوه بأي شيء كانا قد بلغا قاع الدرج، فتوقفت هيستير وهي تنفس بصعوبة، وتشير إليه أن يبقى صامتا وساكنا.

كانا يقفان فيما بدا له كحجرة انتظار بينما كان باب معدني دائري مفتوحا أمامهما، وقد سمع هيستير إذ تهمس {يا للآلهة!}.

{ماذا؟}.

{الطاقة الكهربائية انقطعت والأقفال لم تعد تعمل، كذلك لم تعد الكهرباء تسري عبر الجسر... لقد هرب!}.

{ولكن، ماذا...}.

أخذت هيستير نفسا عميقا، ثم اقتربت بحذر نحو الباب وهي تشير لتوم أن {تعال... يوجد طريق من هنا يؤدي إلى عنبر الجيني هانيفر}.

فدلف الاثنان معاً عبر الباب، ومن فوق رؤوسهما كان الدخان الكثيف الناتج عن إطلاق النار يملأ الفراغ.. أضاءت هيستير الكشاف في يدها وأخذت تمرره عبر الجسر بين برك من الدماء وآثار الأقدام الدامية.

ومن السقف المقبب، من بين سحب الدخان، كانت قطرات من الدماء تتساقط كذلك. وقبلتهما على الجسر تناثرت أشياء لم يميزا كنهها في البداية،

وقد بدت من منظرها لأول وهلة وكأنها أكوام من ثياب بالية، ولكن ما إن اقتربا قليلا حتى أدركا أنها أجساد بشرية، وقد تعرف توم على بعض الوجوه منهم، إنهم من أفراد محطة التجسس. ولكن... ما الذي أتى بهم إلى هنا؟! وما الذي حدث لهم بالضبط؟، وهنا بدأت قشعريرة شديدة تعتريه وتملك من أوصاله.

{لا بأس}. قالت هيستير وهي توجه كشفها باتجاه المنصة المركزية وقد كانت خاوية تماما، إلا من رداء رمادي ملطخ بالدماء. لقد غادر المطارد الغرفة، ولا بد أنه الآن يجول بحثا عن ضحايا جدد بين متاهة الغرف والممرات في الأعلى.

أمسكت هيستير بيد توم من جديد، وانطلقا معاً ليرما من حول الحدود الخارجية للغرفة وصولاً إلى الباب الذي كانت قد خرجت منه مرارا من قبل مع ساذيا والباقيين في الأيام التي كان فيها المطارد هادئا. ومن وراء الباب كان هناك درج {إنه يقود إلى حيث العنبر الذي يستقر فيه الجيني هانيفر}. قالتها هيستير لتوم بينما راحا يسرعان الخطى نزولا عبر درجاته، إلى أن بلغا ممرا ضيقا يتسع في نهايته إلى حيث العنبر. وعلى وميض الكشف في يد هيستير لمح توم أخيرا الغلاف الأحمر المميز للمنطاد، بينما أخذت هيستير تمرر الكشف في كل صوب إلى أن عثرت على لوحة أزرار ورافعات التحكم في العنبر، فهرعت نحوها وقامت بسحب واحدة من الروافع لينفتح سقف العنبر محدثا دويا هائلا وعاصفة من الغبار وشذرات الصدا. ومن فوق العنبر كانت سحب الضباب الكثيف تحيط بكل شيء حول روجز ريوست، ومن وراء الغيوم تبدى قبس من ضوء النجوم وبقايا الأقمار الصناعية القديمة العالقة في الأعلى حيث السماء الصافية والفضاء الرحب... وقد انعكس ذلك الضوء العلوي داخل العنبر ليكشف عن الجيني هانيفر

إذ استقر في موضعه، وكذلك ليكشف ذلك الخط من آثار الأقدام الدموية فوق الأرض الخرسانية.

ومن بين الظلال أسفل الجيني هانيفر، تبدى ذلك الظل الفارع يسد الطريق أمامهما نحو باب المنطاد، والعينين الخضراوين إذ تتألقان في الظلام. {آه يا كويرك}. شق توم في جذع {أهذا؟... لا هذا ليس... هل هذا؟...}.

{إنه الآنسة فانج}. قاطعته هيستير {لكنه ليس هي نفسها!}.

تقدم المطارد نحوهما، وقد انعكست الأضواء القادمة من الفتحة العلوية للعنبر على أطرافه المعدنية، بينما كانت دماء الصبية المفقودين لا تزال تقطر من مخالبه القاطعة وتغطي كفيه ومرفقيه، حتى ليبدو وكأنه يرتدي زوجا من القفازات الحمراء الطويلة، أما قناعه البرونزي فقد كانت آثار الطلقات اليائسة التي أطلقتها عليه الصبية قبل أن يعمل نصاله فيهم، بادية عليه.

لقد استمتع المطارد كثيرا بتلك المذبحة التي أقامها في غرفة الذاكرة، لكنه بعدما انتهى من آخر الصبية، ما عاد يدري ماذا يصنع بعد ذلك، وقد أثارت رائحة إطلاق النار ودخان الطلقات، وأصوات المعارك التي كان صداها يتردد عبر الممرات، شهوة القتل لديه، لكنه كان يخشى الجسر المكهرب الممتد من موضعه في المنصة المركزية حتى الباب المفتوح أمامه في آخر الغرفة، وقد تذكر تلك الصدمات الكهربائية التي تلقاها حينما حاول عبوره والفرار في آخر مرة.

وفي النهاية، قرر أن يخرج، ولكن عبر الباب الآخر، مدفوعا في ذلك بشعور غامض لم يستطع تفسيره، فانطلق نحوه، ثم إلى حيث العنبر وذلك المنطاد الأحمر القديم به. وقد راح يدور في الظلام حول المنطاد، ويمرر

أصابه المعدنية فوق زورقه، حينما اندفعت هيستير وتوم إلى داخل العنبر. هنا انطلقت نصاله من أطرافه واندلعت تلك الرغبة المحمومة في القتل عبر عروقه الكهربائية. في تلك اللحظة كان توم يتلفت حوله بحثاً عن وسيلة للفرار، إلا أنه في حركته المفاجئة اصطدم بهيستير فزلت قدمها فوق الأرض الدامية لتسقط أرضاً، فأنحنى توم عليها يساعدها على النهوض، ليفاجئ بالمطارِد إذ يقف قبالتها مباشرة.

رفع توم وجهه متطلعاً إلى ذلك الوجه الغريب، المألوف في ذات الوقت، ووجد نفسه يهمس {آسة فانج}.

وقف المطارد يتطلع بدوره إلى توم وهو لا يزال منحنيًا نحو الفتاة الواقعة على الأرض، وفي رأسه بدأت ذكرى غريبة مبهمة تنبثق تدريجياً، لتطفو على سطح عقله، فتردد قليلاً ووقف مرتبكاً، بينما راحت نصاله تدخل وتخرج بأطرافه... أين رأى ذلك الفتى من قبل؟! إن وجهه لم يكن من بين تلك الصور الملتصقة على الجدران في الغرفة التي كان بها، لكنه يعرفه.

ومن خلف قناعه البرونزي تحركت الشفتان الميتتان تنطقان بالاسم {توم نيتسورثي}؟.

{ناتسورثي}. هتف توم.

لقد بدأت الذكرى الغريبة تزداد قوة في عقل المطارد، لكنه لا يدري بعد بشكل واضح لماذا يبدو الفتى مألوفاً له إلى هذا الحد، كل ما يعرفه الآن أنه لا يريد أن يقتله، فاتخذ خطوة إلى الخلف، ثم أخرى، وقد عادت مخالبه إلى داخل أطرافه.

{أنا}.

دوى النداء، أو بالأحرى الصرخة، يتردد صداها في العنبر ليلتفت
الثلاثة نحو الباب ليجدوا ساذيا تقف هناك، وفي إحدى يديها مصباح،
وسيفها في اليد الأخرى. وقد كان الغبار الناتج عن الانفجار لا يزال يغطي
وجهها وشعرها بينما الدماء تسيل من جرح في رأسها.

وضعت ساذيا المصباح جانبا واندفعت نحو مطاردها الحبيب وهي تصيح:
{آه، آنا! لقد كنت أبحث عنك في كل مكان. كان ينبغي أن أدرك أنك
بلا شك ستأتين إلى هنا حيث المنطاد...}.

لم يحرك المطارد ساكنا، فقط أدار وجهه البرونزي وراح يتطلع إلى توم
من جديد، فتوقفت ساذيا قليلا وقد لاحظت آثار الدماء فوق الأرض
للمرة الأولى، ثم قالت: {لقد أمسكت بهم إذن. حسنا فعلت، إنهم أعداء،
يتعاونون مع هذين المتطفلين. إنهما قتلتك يا آنا، اقتلهم الآن}.

{كل أعداء العاصفة الخضراء ينبغي أن يموتوا}، ردد المطارد.

{هذا صحيح يا آنا... اقتلهم الآن، اقتلهم كما قتلت الآخرين}.

إلا أن المطارد ظل ينظر إلى توم بعينه الخضراوين دون أن يتحرك. {إذن
سوف أفعل أنا}. صاحت ساذيا وهي تتقدم مشهرة سيفها. وفي لمح البصر،
كان المطارد قد قام بحركة خاطفة...

صرخ توم في رعب، في حين انكمشت هيستير بجواره في هلع، وفي ضوء
المصباح كانت الخالب الفولاذية تلتصق في حين كان سيف ساذيا ملقى على
الأرض بينما لا تزال يدها تقبض عليه.

{لا}. قالها المطارد.

و للحظات ساد صمت رهيب في العنبر، بينما كانت ساذيا نتطلع في
ذهول لشلالات الدماء المتفجرة من مفصل ذراعها المقطوع...

{آنا!!!}. همست غير مصدقة، وهي تهوى على ركبتيها لتقلب على وجهها
فوق الأرض.

كان توم وهيستير يشاهدان ما يحدث أمامهما وقد أفقدتهما الصدمة
والرعب كل قدرة على النطق أو حتى التنفس، وقد انكمشا على نفسيهما
أكثر فأكثر بقدر ما استطاعا، وكأن انكاشهما وتجمدهما في مكانهما قد
يجعلان المطارد ينسى وجودهما ويمضي. إلا أنه التفت ناحيتهما من جديد
متجها صوبهما، ثم رفع مخالبه و.. {اذهبا}. قالها وهو يشير صوب الجيني
هانيفر {اذهبا ولا تقربا طريق العاصفة الخضراء مرة ثانية}.

فخدق توم فيه غير مصدق، وقد التصق بهيستير أكثر، وبقي كما هو
ساكناً، أما هيستير فما إن سمعته يهمس بذلك حتى نهضت من سقطتها
وأخذت تتراجع إلى الخلف وهي تجر توم وتصيح فيه: {هيا، بحق الآلهة،
ألم تسمع ما قال؟!}.

أخيرا جرؤ توم على التحدث، فقال للمطارد بصوت مبحوح: {شكرا
لك}.

وفي داخل زورق المنطاد كانت رائحة البرد والركود تفوح بين جنباته،
لكن ما إن قامت هيستير بتشغيل المحركات، حتى عادت الحياة إلى المنطاد
واستعاد رائحته وصوته المألوفين، وانبعثت ضوضاء المحرك تملأ العنبر من
جديد، بينما هرع توم ليتخذ مكانه على مقعد القيادة، متجنباً النظر من
النافذة نحو ذلك الكائن الواقف هناك يراقبهما.

{هل ستتركنا نرحل حقاً؟}. تساءل وأسنانها تصطك رعباً، وكان لا يزال بدنه كله يرتجف بعنف لدرجة أنه كان بالكاد يستطيع الإمساك برافعات التحكم... {لماذا؟ لماذا لم تقتلنا كما قتلت الآخرين؟}.

فهزت هيستير رأسها وهي لا تزال تعكف على تشغيل المحركات وأدوات التدفئة. كانت لا تزال تتذكر «جريك» ومشاعره الغريبة التي كانت تدفعه دوماً لجمع الآلات المحطمة، والتي دفعته كذلك يوماً لإنقاذ طفلة ضالة مشوهة تحتضر... {هو ليس أنا لتحدث عنه بصيغة التأنيث، بل هو مطارداً.. وليس في مقدورنا فهم طريقة تفكيره. فقط انطلق بأسرع ما يمكنك قبل أن يغير رأيه}.

تحرر المنطاد أخيراً من أعمدة التثبيت، ثم اتخذ وضع الإقلاع. وفي دقائق معدودات كان المنطاد إلى الأعلى نحو السماء المظلمة، بينما راح المطاردي يقرب المنطاد القديم إذ يرتفع فوق روجز رويست ليختفي في الضباب قبل أن تتمكن منصات إطلاق الصواريخ من رصده. وفي عقله ومضت الذكرى المهمة من جديد، وبدأت صورة ضبابية مشوشة تتكون في رأسه... إنه يرى ذلك الفتى، توم، إذ يركع باكيًا فوق الجليد ويصيح ملتحاً {آنسة فانج! هذا ليس بعدل!... لقد قتلك غدراً}...

وللحظة شعر المطاردي بإحساس غريب... إحساس بالرضا، وكأنه بما فعل قد رد المعروف نوعاً ما.

{إلى أين سنتجه؟}. تساءل توم، وقد صارت روجز رويست على بعد ميل وراءهما، وكان هو قد بدأ يستعيد هدوءه وتوازنه بحيث صار قادراً على التحدث.

{شمال غرب}. أجابت هيستير {أنكوراج، عليّ أن أعود إلى هناك، فقد حدث شيء فظيع}.

{بيني رويال، أليس كذلك؟}. قالها توم وقد قدر أنها تتحدث عن أكاذيب الرجل بصدد ما رواه حول أمريكا وأراضيها الخضراء المزعومة {أعلم، لقد اكتشفت الأمر قبل أن أغادر أنكوراج. لكن للأسف لم يتح لي وقت لأخبر أحدا هناك. لقد كنت محقة بصدد الرجل من البداية، وكان عليّ أن أنصت لك}.

{بيني رويال؟!}. قالتها هيستير وهي تنظر نحو توم في عدم فهم، ثم إنها هزت رأسها وقالت: {أركانجيل. إنها في طريقها نحو أنكوراج}.

{آه يا كويرك العظيم!... هل أنت متأكدة؟، ولكن كيف أتيح لأركانجيل معرفة خط سير أنكوراج؟}.

لم ترد هيستير، فقط ظلت تعمل على أدوات التحكم إلى أن حولت مسار المنطاد نحو الشمال إلى الشمال الغربي، ثم إنها استدارت ويداها خلف ظهرها مستندة إلى لوحة التحكم، و: {لقد رأيتك تقبّل فرياء... وأنا... أنا...}. كانت لحظات من الصمت المتردد تغلغل بين كلماتها، كقطع من جليد... لقد أرادت إخباره بالحقيقة كاملة، حقا أرادت ذلك، لكنها ما إن نظرت إلى وجهه حتى انعقد لسانها من جديد.

{هيت، أنا آسف}.

{لايهم... أعني.. أنا أيضا آسفة}.

{وما الذي سوف نفعله إذن؟}.

{بصدد أنكوراج؟}.

{لو أن القارة ميتة فليس بمقدورهم الاستمرار في المضي قدماً نحوها، وفي ذات الوقت لا يمكنهم التراجع طالما أن أركانجيل وراءهم}.

{لا أعرف ياتوم}. قالت هيستير: {دعنا نذهب إلى هناك أولاً ثم نفكر في حل}.

{ولكن ماذا...}. ولم يكمل توم سؤاله، إذ كانت هيستير قد ضمت وجهه بين كفيها وأخذت تقبله.

كان صوت محركات الجيني هانيفر يبتعد أكثر فأكثر، حتى لم يعد بالإمكان التقاطه، حتى بالنسبة لأذني مطارد. كان الصوت يتلاشى، ومعه الذكرى المبهمة التي جعلت المطارد يترك توم وهيستير يمشيان في سبيلهما..

قام المطارد بتحويل عينيه إلى نظام الرؤية الليلية، ثم عاد إلى داخل العنبر؛ كان ذراع ساذيا المبتور قد صار بارداً، بينما كان جسدها لا يزال دافئاً وحياءً، وقد اتجه المطارد نحوها حيث رقدت، ويده المعدنية رفعها من شعرها وأخذ يهزها بعنف حتى بدأت تستعيد وعيها وقد راحت تنن {سوف تذهبن الآن لتعدي المناطيد والأسلحة. سوف نغادر المنشأة}.

نظرت ساذيا نحو المطارد، وكانت عيناها تفيضان بالألم والخوف... هل راح المطارد يخطط لهذا طوال الوقت؟ بينما كانت هي تبقى حبيسا بين آلاف الصور والمقطوعات الموسيقية التي كانت أنا تحبها؟... هل كان ينتظر تلك اللحظة منذ البداية؟... ولكن، لم العجب؟ أوليس هذا هو الغرض منه في الأساس؟ ألم تأمر بإعادة أنا في شكل مطارد كي تقود الجماعة؟... {حسنا يا أنا.. بالطبع}.

{أنا لست أنا... أنا المطارد فانج، وقد مللت الاختباء هاهنا}.

في تلك اللحظة اندفع إلى العنبر عدد من الجنود والملاحين وأفراد من فريق العلماء، من بينهم بوب جوي، وقد كانوا جميعاً في حالة مريعة من الصدمة والخوف عقب الدمار الذي ضرب كل شيء فجأة؛ فما إن رأوا المطارد أمامهم حتى تراجعوا جميعاً إلى الخوف في دعر، تاركين بوب جوي في المقدمة في مواجهة ماصنعه. فتقدم المطارد ناحية الرجل، وهو لا يزال يجر ساذيا بيده، إلى أن صار في مواجهة الرجل تماماً، وقد كان قريباً منه لدرجة أنه كان بإمكانه سماع صوت أنفاسه المتقطعة من الرعب {سوف تطيعني يا دكتور من الآن فصاعداً. عليك أن تنتهي من إعداد نماذجك من المطاردين سريعاً. سوف نعود إلى شأن جو، وفي طريقنا سوف نجمع كل قواتنا من كافة قواعد العاصفة الخضراء. وسوف تتم تصفية كافة العناصر المقاومة لنا داخل الجماعة... سوف نستولي على كافة المناطيد والأسلحة ومعسكرات التدريب، جميعها سوف تصبح تحت سيطرتنا، وبعدها سوف تنطلق عاصفة عاتية عبر الأرض لتنظفها من كافة المدن المتحركة وإلى الأبد}.

(٢٩)

الرافعة

{أريد أن أقص عليك قصة صغيرة}. قال الصوت {هل أنت مرتاح في وضعك هذا؟.. إذن سأبدأ}.

فتح كول عينيه، أو بالأحرى عينا واحدة، فقد كانت الثانية متورمة بالكدمات تماما؛ لكم كان ضربا مبرحا مميتا، ذلك الذي تلقاه من صبية راس الذين نجوا مما وقع في روجز رووست، إلى أن غاب تماما عن الوعي، وكانت آخر فكرة تعتمل في رأسه حينها هي الفخر بأنه قد تمكن من مساعدة توم وهيستير على الفرار. أما الآن، وبعدما استفاق ليجد نفسه في جريم سباي، ويبدأ الضرب المبرح من جديد، فإنه ماعاد نفورا بأي شئ على الإطلاق، بل إنه لا يصدق كيف بلغت به الحماقة أن يضيع حياته لمجرد إنقاذ اثنين من الياسين.

وكان العم دائما مايدخر عقوبات خاصة للصبية الذين يخالفونه، لذا فقد وجد كول نفسه والصبية يجرونه جرا إلى حيث مرفأ المركبات، ثم يقومون بلف حبل حول عنقه، بينما ربطوا الطرف الآخر من الحبل إلى إحدى روافع المركبات، ثم شرعوا يرفعونه ببطء.

وقد ظل معلقاً هكذا طوال النهار، يجاهد من أجل التقاط أنفاسه، بينما الصبية يتجمعون من حوله يسبون ويصيحون فيه ويقذفونه ببقايا الطعام والنفايات.

وحينما حل الليل وعاد الصبية إلى حجراتهم للنوم، بدأ الصوت يتردد. كان صوتاً خافتاً هامساً حتى أن كول حسب في بداية الأمر أنه يتردد في خياله فقط، لكنه كان حقيقياً تماماً... كان صوت العم، إذ يأتيه من السماعات الكبيرة بالقرب من رأسه.

{ ألا تزال مستيقظاً يا كول؟ أمازلت على قيد الحياة؟ لقد صمد الصبي سونار لما يقرب من أسبوع معلقاً مثلها أنت الآن، هل تتذكر؟ }

جاهد كول من أجل إلتقاط بعض من الهواء إلى داخل صدره من شفتيه المتورمتين، فدخل الهواء بارداً عبر الفراغ مكان أسنانه الأمامية. وكان الجبل المعلق به يتأرجح ببطء ويدور، حتى بدا لكول وكأن غنبر المركبات يدور حوله بلا نهاية بكل ما فيه من أحواض ومركبات ورسومات في السقف.

ومن السماعة فوق رأسه كان بإمكانه سماع صوت التنفس المنتظم للعم...

{ حينما كنت شاباً يافعا - وقد كنت يوماً شاباً مثلك، لكنني على عكسك قد أتيح لي أن أستمّر في الحياة والتقدم بالعمر - كنت أحيّا على متن أركناجيل... «ستيلتون كايل»، كان هذا هو اسمي. وكانت عائلة كايل عائلة مرموقة محترمة، تدير عدداً من المتاجر والفنادق والسفن الجوية كذلك. وحينما صرت في الثامنة عشرة من عمري توليت إدارة أسطول السفن الجوية الذي تمتلكه العائلة، إلا أنني ماكنت أجد نفسي في ذلك العمل،

وانما كنت أتوق لأن أصبح شاعرا أبدع أعظم الملاحم وأجمل القصائد...
كنت أريد أن أصبح شخصا يخلد اسمه إلى الأبد، كعظماء الأدب والشعر
القدماء... يا لأحلام الشباب، وكيف تصير هباء تذرؤه الرياح...}.

وكان كول يفقد وعيه بين الحين والآخر، ثم يعود إلى الوعي ليجد
العم لا يزال يتلو عليه قصته بصوته الهامس، بينما هو لا يزال معلق يتنفس
بصعوبة ويدها مقيدتان خلف ظهره، والحبل يؤلم رقبته بشدة.

{ كان العبيد هم وقود الأسطول وعماد العمل به، وكنت أنا من يتولى
الإشراف عليهم في كل شيء، ومسؤول عن حياتهم وموتهم.

وفي إحدى الأيام، وصلت إلى معقل العبيد فتاة أدارت رأسي وغيّرت
كل شيء. كانت فتاة جميلة، شعرها ينساب كشلال من الخبر الهندي،
ذات بشرة وضّاء وعيون سوداء كليالي الشمال، لامعة، مفعمة بالأسرار.
هل تخيلتها يا كول؟... إنني أخبرك أنت بذلك لأنك قريباً ستصبح طعاماً
للأسماك، لكنني لا أستطيع أن أبوح بتلك الأسرار لأي شخص آخر، فلا
أريد لصبيتي أن يظنوا أن العم شخص رقيق القلب يمكن أن يقع في الحب،
فليس للرقّة والحب مكان بين الصبية المفقودين يا كول.}

كان كول يستمع إلى العم، وقد تذكر فريا راسموسن، وراح يتساءل في
أعماقه... ترى كيف حالها الآن؟ وكيف صارت رحلتها إلى أمريكا؟...
وللحظة تخيل أنه يراها أمامه، رؤى العين، قريبة منه إلى حد صار بمقدوره
أن يشعر بدفئها، إلا أن صوت العم قد عاد من جديد ليخرجه من هذيانه.

{آنا، كان هذا هو اسم تلك العبدة الجديدة، أنا فانج. إن لاسمها رنينا
واضحاً لا تخطئه أذني شاعر أبدا. كنت أجنبها دوما الأعمال الخطرة،
وأمنحها أطيب الطعام وأفضل الثياب...}

لقد أحببتها، وهي قد أخبرتني أنها تحبني كذلك. وقد كنت أخطط
لتحريرها والزواج منها، وما كنت لأكثرث بما ستقوله أو تفعله عائلي حينها.
فقط كنت أحبها..

ثم تكشفت الحقيقة، وعرفت أن أنا إنما كنت نتلاعب بي وتخدعني
طوال الوقت... وبينما كنت أنا أهم عشقا فيها، كانت هي تلتف من
ورائي وتسرق قطع السفن من المخازن، غلاف منطاد من هنا، قطعتين من
المحركات من هناك... وهكذا، جعلت عمالي يصنعون لها من تلك القطع
زورق منطاد تحت زعم أنها أوامري أنا. وكانت تبيع الهدايا التي منحتها
إياها من أجل شراء الوقود والغاز اللازمين للمنطاد.

وفي إحدى الأيام، بينما كنت أحاول نظم قصيدة في وصف جمال أنا
وعينيها، جاءني الخبر... لقد رحلت، أنشأت لنفسها منطادا من كل تلك
القطع التي سرقتها ثم فرت على متنه.

وكان ذلك بمثابة نهاية حياتي في أركانجيل، فقد تبرأت مني عائلي، وقام
الحاكم بإلقاء القبض علي بتهمة مساعدة أحد العبيد على الهرب، ثم حكم علي
بالنفي من المدينة إلى حيث الجليد.

كانت رثتي كول تكافئ من أجل الحصول على بعض من الهواء،
لكنه لم يكن كافيا.

{وهكذا تغيرت حياتي تماما. فارتحلت مع جماعة من بدو الجليد من
جامعي المخلفات، الذين كانوا وقتها في طريقهم لاستخراج المخلفات من
حطام جريم سباي، فقتلتهم واحدا وراء الآخر، واستوليت على غواصتهم
وأُتيْتُ بها إلى هنا، ثم بدأت حياتي المهنية في عالم السطوح. كنت في البداية
أقوم بسرقة بعض الأشياء البسيطة لتعويض الأشياء التي فقدتها، وفي ذات

الوقت كنت أسعى دوما لجمع ما ييسر لي من معلومات، فقد كنت منذ ذلك الحين قد أقسمت على ألا أسمح لمخلوق بأن يخدعني أو يخفي عني سرا... يمكنك القول إن تلك اللعينة أنا فانج قد جعلتني الرجل الذي أنا عليه الآن}.

بدأ الاسم - أنا فانج - يسترعي انتباه كول مع كثرة ترديده، ويثير شيئا ما في عقله، ومن بين شفثيه الداميتين حاول أن ينطق الاسم بصوت واهن {فانج}.

{بالضبط}. قال العم: {لقد علمت بما يحدث في روجز روست منذ فترة، وجاءني خبر عن كل تلك الصور التي يتم جمعها، ورغبة العاصفة الخضراء المحمومة في العثور على الجيني هانيفر، فاستنتجت أنهم إما يريدون إقامة متحف لتخليد ذكرى أنا فانج، أو أنهم... يريدون إعادتها للحياة}.

هنا تذكر كول محطة التجسس وما شاهده بها والفوضى العارمة التي وقعت مع تفجيره للكاميرات. لقد ظلت بضع كاميرات تعمل رغم الانفجار، وقد سعى الصبية لتسييرها لمحاولة تحديد مكان الصبية الذين انطلقوا للجزيرة لسرقتها؛ وعلى الشاشات لمح ذلك المطارد فانج وسمع صوته الميت المريع يتحدث عن حرب

{... ولهذا أوليت عملية روجز روست كل تلك الأهمية والإمكانات}. كان العم لا يزال يتحدث {تخيل معي أن أتمكن أخيرا من الإيقاع بالشخص الذي تسبب في انهيار حياتي، بعد كل تلك السنوات، في قبضتي}.

وهكذا، عدت من حيث بدأت... شاعراً!، نعم، لقد كنت أسعى من خلال تلك العملية لتحقيق «العدالة الشعرية». لقد كنت أخطط لأن أتي بتلك المطاردة إلى هنا، وأن أعيد برمجتها من جديد لأجعلها عبدة لي إلى

الأبد... وقد كنت على وشك تحقيق ذلك لو لم تتدخل أنت وتقوم بتفجير الكاميرات بما تحمله من قنابل، وتسبب في أن يضطر راس للتدخل مبكراً... لقد كاد الأمر أن ينجح، لولا أنك أفسدت كل شيء. أنت يا كول أفسدت كل شيء.}

{رجاء...}. كان هذا أقصى ما يمكن كول من التفوه به من كلمات {رجاء...}.

{رجاء ماذا؟... أن أتركك تحيا؟ أم أن أدعك تموت؟ ليس بعد ما فعلته أيها الغلام. إن الصبية في حاجة لأن يروا عقاباً ينزل بالشخص الذي تسبب فيما حدث لراس، ولن يكون أنا هذا الشخص بالطبع. لذا فسوف تبقى معلقاً هكذا إلى أن تموت، وسوف تبقى جثتك معلقة إلى أن تتعفن وتصير رائحتها لا تطاق حتى بالنسبة لصبية مفقودين، وبعدها سوف نلقي بها إلى الماء لتصير عبرة، وليتذكر الجميع دوماً أن العم دائماً يعرف الأفضل.}

ومن السماعاة الكبيرة بدا من صوت الهواء والدقات الخفيفة والتي أعقبها صمت تام، أن العم قد قام بإطفاء المايكروفون أخيراً، ولم يعد ثمة صوت على الإطلاق، عدا صرير الحبل إذ يئن تحت وطأة الجسد المعلق به، وهدير البحر إذ يضرب جدران جريم سباي ونوافذها.

وفي الغرفة العليا كان العم جالساً يطالع وجه الصبي المحتضر عبر عشرات الشاشات أمامه، تبرزه من مختلف الزوايا والمسافات. ثم إنه نثأب وقد بدأ يشعر بالنعاس... حتى العم يحتاج إلى النوم أحياناً، لكنه ما كان ليدع أحداً يدرى بذلك، سوى أكثر الصبية ولاء وإخلاصاً له.

{راقبه جيداً يا جارجل، لاتدعه يغيب عن عينيك}. قالها العم لمساعدته الصغير، ثم تركه وذهب عبر الدرج إلى حيث غرفة نومه.

وفي الداخل كان سريره مغطى بأكوام من الورق والملفات والكتب والوثائق، إلا أن العم قد انسل على أية حال تحت اللخاف - لخاف ذهبي مطرز كان قد تمت سرقة من مخدع المارجرريف في «كودز» - وسرعان ما راح في نعاس عميق.

وفي أحلامه، دائماً هي نفس الأحلام لا تتغير، رأى نفسه شاباً من جديد.. شاباً منفيًا بعدما كسير القلب.

حينما استفاق كول من إحدى إغماءاته وهو بعد مُعلق، كان الوقت لا يزال ليلاً، وقد بدأ الحبل يلتف من جديد ويدور به، وكان التنفس صار أكثر مشقة وعسراً؛ ومن الأعلى سمع صوت يهمس له {ابق ساكناً!}... بوغت الصبي، ففتح عينه الوحيدة السليمة ونظر نحو الأعلى، ومن بين الظلال لمح لمعان نصل سكين يتحرك فوق رأسه عبر جدائل الحبل السميك. {هااي...}. حاول أن يتكلم، ولكن قبل أن يخرج صوته كانت آخر جدائل الحبل قد انقطعت، فألقى نفسه يسقط عبر الظلام ليرتطم بقوة بالجسم الخارجي للدودة الحلزونية، فرقد فوقها محاولاً التقاط أنفاسه قدر المستطاع. ثم إنه شعر بشخص ما بجانبه يقطع قيود معصميه، ثم كفان يمسكان بكتفيه ويقبلانه على ظهره، ليفاجأ أمامه بوجه جارجل!... جارجل هو منقذه!

حاول كول أن يتفوه، إلا أنه لم يستطع، فقد كان جسده جائعاً للهواء، وقد أخذ يعب منه في صدره عبر فمه وأنفه بقدر ما استطاع.

{اجمع شتات نفسك وارحل من هنا... عليك أن ترحل}.

{ارحل؟... لكن العم سوف يراني}.

{العم نائم}.

{العم لا ينام أبداً}.

{هذا ما تحسبه أنت.. على أية حال لقد قتت بالتلاعب في الكاميرات بحيث لا ترصد فرارك}.

{ولكن، ماذا ستفعل حينما يكتشف العم ذلك؟}.

{لن يكتشف شيئاً}، قالها جارجل مبتسماً: {لقد قتت بإخفاء الكاميرات التي أتلقتها في سرير سكيور، وفي الصباح سوف يظن العم أن سكيور هو من فعل ذلك}.

{ولكن سكيور يكرهني، والعم يعرف ذلك}.

{لا، لا يعرف شيئاً من هذا، لقد أخبرت العم كيف صرتما صديقين على متن «الدودة الحلزونية»، وكيف كانت أموركما معاً تسير على خير حال، وأن سكيور قد اضطر لتولي موقع القيادة فقط بدافع من قلقه عليك، وكيف أنه كان على استعداد لعمل أي شيء من أجلك.. والآن بات العم على يقين من أنكما صديقان حميمان}.

{يا للآلهة!}، قالها كول بصوت مبحوح، وقد أخذه الدهول من مكر ذلك الصبي ودهائه، وفي نفس الوقت كان مرتاعاً مما سوف يفعله العم بسكيور

{ما كنت لأترك العم يقتلك}، قالها جارجل {لطالما كنت طيباً معي في أنكوراج... إنك تنتمي إلى تلك المدينة يا كول. خذ المركبة وعد إلى هناك}.

تحسس كول عنقه وأخذ يفكر... لقد تعلم عبر سنوات عمره التي قضاها في التدريب أن أكبر وأبشع خطيئة يمكن أن يرتكبها صبي مفقود هي سرقة

إحدى مركبات جماعته. ولكن من ناحية أخرى، كان يشعر بسعادة بأنه لا يزال حياً، ومع كل نفس كان يدخل إلى صدره الجائع للهواء كان يزداد إصراراً على التصرف على هذا النحو بالضبط كما قال جارجل: {ولماذا أنكوراج؟}. تساءل كول {لقد سمعت توم وبينني رويال وهما يتجادلان بشأن الرحلة إلى أمريكا... إن المدينة تسير نحو حتفها. وعلى أية حال لن يرحب بي أحد هناك. لن يرحبوا بلص مثلي}.

{بالعكس، سوف يرحبون بوجودك معهم حينما يكتشفون مدى حاجتهم إليك، ولسوف ينسون أنك قد سرقتهم... سوف تحتاج إلى هذا}. قالها جارجل وهو يكشف عن شيء ما يحمله في يده، عبارة عن أنبوب طويل معدني {لا وقت للشرح يا كول... أنت لا تنتمي إلى هنا، ولم تكن يوماً تنتمي إلى هذا المكان. والآن ادخل المركبة وارحل من هنا}.

{لن تأتي معي؟}.

{أنا؟ بالطبع لا. أنا صبي مفقود، ولسوف أظل هنا وأحاول أن أكون ذو نفع للعم.. إنه رجل عجوز ياكول، وقد بدأ نظره وسمعه يضعفان، وقريباً سوف يحتاج لشخص يثق به لإدارة كاميراته وأرشيف معلوماته. وفي غضون بضعة سنوات سوف أمسي ذراعاً الأيمن. ومن يدري، ربما أصبح أنا، بعد بضعة سنوات أخرى، قائد جريم سباي}.

{سوف يكون ذلك جيداً يا جارجل. أتمنى أن أراك تحكم جريم سباي حقاً، ولتضع حينها نهاية لكل ذلك التنمر والتجبر الذي يمارس هاهنا}.

{أضع حداً؟!}. قالها جارجل، وقد افتر ثغره عن ابتسامة غريبة لم يعدها كول من قبل، ابتسامة باردة، حادة، قاسية، لم يحبها على الإطلاق، ثم استأنف الصبي الصغير {لا أظن، بل سوف أكون أنا الأكثر تجبراً منهم

جميعاً.. إن ذلك هو ما جعلني أقدر على الاستمرار يا كول. طوال تلك السنوات التي عانيت فيها أسوأ المعاناة على يد سكيور والآخرين، ولاقيت فيها قسوة وتعنيفاً وإرعاباً، ما كنت أفكر سوى فيما سأفعله بهم جميعاً حينما يأتي دوري}.

ظل كول جامدا يتطلع إلى الصبي لبرهة وهو بالكاد يستوعب ما يسمع، وقد شك للحظة في أن كل ما يدور أمامه ربما هو حلم آخر..

{اذهب}. قالها جارجل وهو يفتح الباب في سقف المركبة. سواء كان حلماً أم لا، فلا مجال للجدال مع الصبي، مع كل ذلك التصميم والقوة في صوته، حتى أن كول قد شعر وكأنه قد عاد متدرباً مبتدئاً يتلقى الأوامر من مدربه الأكبر سناً والأقوى! فتحرك في النهاية نحو فتحة المركبة، ومن يده كاد ذلك الأنبوب المعدني الذي منحه إياه جارجل أن يسقط، إلا أن الأخير قد سارع بالتقاطه وناوله إياه من جديد..

{ارحل ولا تعد أبداً، حظاً موفقاً}.

فأخذ كول الأداة منه وإنسل ببطء، ووهن، عبر الفتحة إلى داخل المركبة، وهو يتساءل في تعجب عن جدوى ذلك الأنبوب المتعفن الذي أعطاه إياه، وكيف يمكن أن يكون ذا نفع له.

(٣٠)

أنكوراج

صحت فريا من نومها مبكراً، فظلت في مكانها قليلاً وسط الظلام، وكانت تشعر بمدى برمتها إذ تتحسس طريقها بين التواءات الجبلية فوق الجليد. كانت أنكوراج الآن بعيدة عن غرب جرين لاند، تتجه جنوباً عبر منطقة جليدية مجهولة، وجزر متجمدة.

وقد اضطر السيد سكايبوس أكثر من مرة لرفع عجلة الدفع، وإنزال الجرارات كي تسحب المدينة عبر الصخور المغطاة بالثلوج والأنهار المتجمدة. والآن هاهو ذا البحر الجليدي يمتد أمامهم من جديد عبر الأفق، حيث تعتقد الأنسة باي أن هذا هو خليج هيدسون، ذلك السهل الجليدي الكبير الذي قال البروفيسور بيني رويال أنه سوف يؤدي بهم إلى قلب القارة الميتة، بالقرب من حدود الأراضي الخضراء الذي تحدث عنها...

ولكن، هل يمكن لطبقة الجليد في هذا السهل أن تتحمل وزن أنكوراج؟.. فقط لو كان بإمكان البروفيسور بيني رويال أن يمنحنا رأياً يقينياً في هذا الأمر!..] راحت فريا تفكر، وهي تزيح الأغشية عنها وتنفض من فراشها ثم

تتجه نحو النافذة. لكن بيني رويال كان قد سلك ذلك الطريق على الأقدام وليس على متن مدينة متحركة، كذلك فإن الأوصاف التي قد أوردتها في كتابه مبهمة وغامضة على نحو غريب، وكثيراً ما حاولت الأنسة باي والسيد سكايبوس جعله يدلي بمزيد من التفاصيل، لكنه كان في كل مرة يقطب جبينه ويتصرف بفظاظة، ثم بعد حين كف تماماً عن حضور اجتماعات اللجنة التوجيهية..... في الواقع، لقد بات البروفيسور المحترم يتصرف بغرابة شديدة منذ أن رحلت هيسستير على متن الجيني هانيفر.

لفحة من هواء بارد ضربت وجه فريا بينما كانت تزيح الستار لتنظر من النافذة عبر الجليد. كانت تشعر بالغرابة كلها فكرت في أنها تسير الآن عند أقصى أطراف العالم، أما الأكثر غرابة وإدهاشاً فهي فكرة أنهم قريباً سوف يصلون إلى ساحتهم الجديدة، وأن ذلك الامتداد الأبيض اللامتناه الذي تطل عليه من نافذتها سوف يتغير تماماً عما قريب ليصبح كل شيء أخضر مفعم بالحشائش والأشجار... والحقيقة أن تلك الفكرة لم تكن غريبة فقط بالنسبة لها، بل مرعبة أيضاً! إذ كيف يمكن لآلهة الجليد أن تحكم أرض لا يسود فيها الجليد سوى بضعة أشهر ليس إلا كل عام، بينما تكتسي باللون الأخضر في باقي الشهور؟! ترى، هل باتت أنكوراج تحتاج إلى آلهة جدد الآن؟!!

وبينما هي تنظر من النافذة مستغرقة في أفكارها، إذا بقبس من نور أصفر يضيء الجليد أمام مدخل وحدة قيادة المدينة، حيث انفتح الباب لينسل شخص ما منه؛ فسحت فريا آثار بخار تنفسها من فوق الزجاج طمعاً في رؤية أفضل، ثم راحت تدقق النظر في ذلك الشخص... الذي خرج متسللاً في ثياب حرارية ثقيلة وعمامة كبيرة من الفراء... وهاهو ذا يتحرك بشكل مريب عبر راسموسن بروسبكت... إنه بيني رويال بلا شك.

صحيح أن الرجل قد بات يتصرف بغرابة، ولكن حتى في ظل غرابة أطواره الحالية يبقى ذلك السلوك غريباً!

سارعت فريا بارتداء زيها الصوفي العملي الذي ماعدت ترتدي غيره هذه الأيام، ثم تناولت كشاف يد صغير، وانسلت خارجة من القصر دون أن تنتظر حتى توقظ سميو، وكان بيني رويال قد اختفى عن الأنظار حينما خرجت، لكن آثار أقدامه فوق الثلوج كانت واضحة تماماً أمامها، فراحت تتبعها.

لو أن هذا الأمر قد وقع منذ بضعة أشهر، ما كانت فريا لتجرؤ على الخروج من القصر وحدها على هذا النحو، لكنها كانت قد تغيرت كثيراً أثناء رحلتهم الطويلة حول جرين لاند.. في البداية، كانت صدمتها من فقدان توم قوية إلى حد أن ألقت بها إلى الوحدة والانعزال من جديد، وكانت ترفض مقابلة أي من كان، فقط كانت تصدر أوامرها من خلال سكليوس أو سميو، ولكن مع الوقت بدأت تشعر بالملل من العزلة داخل أسوار القصر الشتوي، وراحت الرغبة في الاطلاع على مايدور في الخارج تخرجها تدريجياً من انطوائها وحزنها. وبمرور الأيام نفضت عنها عزلتها وصارت أكثر جرأة وتحراً، فألقت بنفسها في خضم حياة مدينتها بطريقة لم تكن لتجرأ عليها سابقاً. فراحت تختلط بالعمال وتجالسهم في أوقات راحتهم تتسامر معهم وتحادثهم.

كذلك كانت قد تعلمت من ويندولين باي كيفية الاغتسال والاعتناء بنظافتها الشخصية وتنظيف أسنانها، كما كانت قد قامت بقص شعرها ليصبح قصيراً.

وفي أكثر من مرة شاركت في دوريات الحراسة التي كان سكليوس يرسلها كل صباح لتفقد المدينة تحسباً لوجود أي طفيليين، كذلك قد

تعلمت آلات الشحن في حي المحركات. بل إنها خرجت ذات مرة مع فريق المسح الأرضي لتستكشف الجليد على مسار أنكوراج أمام الأعين المذهولة لأفراد الطاقم...

باختصار، لقد تخلصت فريا من كل التقاليد العتيقة لأسرتها، وقد أحست بارتياح شديد إزاء ذلك، تماما كما يشعر المرء حين يتخلص أخيرا من ثيابه القديمة التي ماعدت تلائمه.

والآن، هاهي ذي فريا المتحررة الجريئة تنسرب بين الظلال عبر الجانب الأيمن من حي راسموسن بروسبكت في إثر رئيس ملاحها، وقد راحت تتبع خطاه على مسافة منه، إلى أن بلغ الميناء الجوي، حيث فوجئت به ينسل من بوابته إلى الداخل.

هرعت فريا تدخل خلفه، وقد حرصت على أن تبقى متخفية بين الظلال إلى أن وجدت لنفسها مخابأ في نقطة التفتيش الجمركي بجانب بوابة الميناء مباشرة، فاندست بداخلها، وقد تلاحقت أنفاسها الساخنة من فرط الانفعال، وطفقت تنظر حولها باحثة عن الرجل، وقد ظنت للحظة أنها قد فقدت أثره بين تلك العنابر الممتدة أمامها... لا، هاهو ذا من جديد!، حيث رأت عمامته الزاهية اللون تلمع في ضوء أحد مصابيح الطريق هناك عند الجانب الأقصى من الميناء، قبل أن يختفي من جديد بين الظلال عند مدخل مستودع أكويك.

وما إن اختفى حتى خرجت فريا من مكانها وهرعت تعبر الميناء مقتفية آثار أقدامه على الجليد، إلى أن بلغت المستودع، وقد كان بابه لا يزال مفتوحا، فتوقفت للحظة وراحت تتطلع نحو الظلام في الداخل وقد تذكرت الطفيليين الذين كانوا يتخذون من الظلام ستارا لهم بينما كانوا يسطون على مدينتها...

لكنها سرعان ما أدركت أنها لن تواجه طفيليين في الداخل، وإنما مجرد مستكشف متسلل غريب الأطوار، يحمل في يده كشفا يدور به هنا وهناك في الجانب الآخر من المستودع، وقد تنهى إليها صوته عبر تلك المسافة، إذ راح يتم بثئ ما... [مع من يتحدث ذلك الرجل؟!، يتحدث نفسه؟!]...

لقد سبق وأخبرتها ويندولين باي بأنه قد أفرغ قبو النبيذ العامر في مقر إقامة رئيس الملاحين، عن بكرة أبيه، ثم بات يسرق الخمر من المحال والمطاعم الخاوية... إذن، ربما قد جاء إلى مستودع الميناء الآن وهو مخمور وفي حالة من حالات هذيانه... على أية حال، اقتربت فريا أكثر داخل المستودع، متخفية بين تلال من أجزاء المحركات القديمة.

{بيني رويال ينادي...} سمعته يهذي بصوت خفيض تشوبه نبرة يأس {بيني رويال ينادي، أيا من كان، تعالوا... رجاء... رجاء...}.

ثم إنه اندفع نحو جهاز إرسال قديم، وبشكل أو بآخر تمكن من تشغيله، فانبعث أضواء خضراء من أزواره، لتغمر الرجل وتضيء المكان من حوله، فقام بوضع سماعات الرأس فوق أذنيه، بينما أمسك بالميكروفون بيد مرتعشة، وأخذ يصيح: {هل يسمعي أحد؟ رجاء، سوف أدفع أي شيء، أي شيء، فقط تعالوا وخذوني من مدينة الحمقى هذه}.

{بروفيسور بيني رويال؟} صاحت فريا بصوت عالٍ مباغت.

فوثب الرجل إلى الوراء في رعب وصاح {يا لكليو، يا لبوسكيت.....}، وكانت أسلاك سماعة الرأس على أذنيه مشتبكة بعدد من الأجزاء اللاسلكية، فجذبها السلك مع وثبته لتسقط على الأرض محدثة دويًا شديدًا، وانطفأت الأضواء الصادرة عن أزوار جهاز الإرسال، فسارعت فريا إلى الكشف في يدها تضيئه لينعكس ضوئه على وجه بيني رويال الشاحب الذي يتصبب

عرقا، وأمارات الرعب تبدو جلية عليه، لكنه سرعان ما حوّل رعبه إلى ابتسامة واسعة نحو فريا {سموإشراقتك}، ناداها بلقبها الرسمي، الذي ما عاد أحد تقريبا ينادها به هذه الأيام، وحتى الآنسة باي وسميو قد صارا ينادونها «فريا» مباشرة، لكن يبدو أن البروفيسور قد صار منفصلا عن الواقع تماما وما عاد داريا بأي تطورات تجري من حوله.

{لكم أنا سعيدة برؤيتك منكم في العمل هكذا يا بروفيسور!}. قالتها فريا: {هل يدري السيد أكيوك بأنك تتسلل إلى مستودعه؟}.

{أتسلل؟!... سموإشراقتك...}. قالها بيني رويال وقد بدا مصدوما من وقع الكلمة {بيني رويال لا يتسلل أبدا، لا، لا... فقط لم أرد أن أزجج السيد أكيوك...}.

في تلك اللحظة كان الكشاف في يد فريا قد بدأ يضطرب ويضعف ضوءه، وقد تذكرت أنه لم يعد ثمة الكثير من البطاريات الجافة على متن أنكوراج، لكنها لمحت أحد مفاتيح الإضاءة بجوارها فأضاءته سريعا ليغمر ضوء مصباح الأرجون المتدلي من السقف الصديء المكان، فأغمض بيني رويال عينيه سريعا وقد ألمهما الضوء المفاجئ. وقد بدا الرجل شديد الاضطراب، شاحب البشرة محمر العينين، بينما كان الزغب الأبيض ناميا على جانبي لحيته التي بدا أنه لم يعد يهتم بتشيدها.

{مع من كنت تتحدث منذ قليل؟}.

{لأي أحد، ولا أحد!}.

{ولماذا تريد أن يأتي أحدهم وينقذك من مدينة الحمقى هذه؟.. لقد اعتقدت أنك آت معنا، وأنت تتوق للعودة إلى الوديان الخضراء لأمريكا، ولا بنة زعيم القبيلة الحسنة هناك}.

فازداد وجهه الشاحب شحوباً وطفق يغمغم {.....إمم...}. ولم يكن يدري مايمكن أن يقوله..

على مدار الأسابيع الماضية، كانت فكرة مرعبة قد أخذت تطراً على بال فريا.... وراحت تراودها بين الحين والآخر، بينما هي تغتسل، أو وهي مستلقية في فراشها مستيقظة في الثالثة صباحاً، وحتى وهي تناول عشاءها برفقة الآنسة باي والسيد سكايبوس... لكنها لم تجرؤ على أن تبوح بها لأي شخص، حتى لهما، بالرغم من أنها كانت على يقين من أنهما يفكران في ذات الأمر. وكثيراً ما حاولت الهرب من تلك الفكرة والتركيز على أي شيء آخر، وقد راحت تقنع نفسها مراراً أنها مجرد فكرة سخيفة.

إلا أنها لم تكن أبداً فكرة سخيفة وإنما هي عين الحقيقة.

{أنت لا تعرف الطريق إلى أمريكا، أليس كذلك؟}. ألقت فريا بالسؤال في وجهه بغتة، محاولةً الحفاظ على تماسكها {.....}.

{لقد ارتحلنا عبر كل تلك المسافة متتبعين نصيحتك وما ذكرته في كتابك. والآن أنت لا تعرف الطريق للوصول إلى وديانك الخضراء من جديد. أو ربما تلك الوديان لم توجد قط على أرض الواقع... هل حقاً ارتحلت يوماً إلى أمريكا يابروفيشور؟}.

{كيف تجرئين على قول ذلك؟}. صاح بيني رويال، ثم سرعان ما تراجع، وقد بدا له أنه لم يعد ثمة مجال لمزيد من الأكاذيب، فتنهد، وهز رأسه {لا، لقد اختلقت كل ذلك}. ثم إنه تهاوى في انهزام وبؤس فوق غطاء مقلوب لأحد المحركات، {لم أذهب إلى أي مكان، لكنني فقط قرأت كتب الآخرين، وتأملت الصور التي تم التقاطها من المواقع المختلفة،

ثم اختلقت كل ذلك... لقد قمت بتأليف كتابي «أمريكا الجميلة» بينما كنت أقيم في أحد الفنادق واستمتع بتمضية الوقت في حوض السباحة به بالطبقة العليا من باريس، برفقة امرأة جميلة تدعى «بيتشز زانزيبار»، وما كنت لأتخيل بالطبع أن أي شخص سوف يرغب في الارتحال إلى القارة الميتة}.

{إذن لماذا لم تقر بذلك وتخبرني بأن ما كتبتة مجرد خيال حينما كلفتك بمهام رئيس الملاحين لقيادة المدينة نحو أمريكا؟ لماذا لم تخبرني بأن كل ذلك أكاذيب؟}.

{وأفوت فرصة كل تلك الأموال، والمنزل الفخم، وقبو النبيذ الملحق به؟... إنني بشر... علاوة على ذلك، لو أن كلمة واحدة من هذا كانت قد تسربت إلى باقي المدن لصرت حينها أضحوكة الجميع.. لقد كنت أخطط فقط للمغادرة مع توم وهيستير}.

{ولهذا صرت منزعجا جدا حينما أخذت هيستير الجيني هانيفر ورحلت}.

{بالضبط، لقد فوتت عليّ بفعلتها طريق الفرار، ولم يعد لدي مهرب من تلك المدينة، وما كان لي أن أعترف بما فعلت وإلا لكنت أمرت بقتلي}.

{ما كنت لأفعل}.

{حسنا، إن لم تفعلها أنت فسوف يفعلها قومك. ولهذا كنت أحاول استخدام ذلك الجهاز القديم للتواصل مع أي من كان وطلب الغوث، على أمل أن يكون ملاح تجاري قد ضل طريقه، أو بعثة استكشافية تمر بالقرب من هنا وتلتقط الرسالة... أي شخص يمكنه أن ينتشلي من هنا!}.

لقد بدا جليا من صوته وكلامه كم هو يشعر بالرثاء لنفسه، بينما لا يكثرث على الإطلاق بالمدينة التي قادها نحو حتفها.

وكانت فريا ترتجف من الغضب، وراحت تردد: {أنت، أنت... أنت مطرود ياسيد بيني رويال... أنت لم تعد رئيس الملاحين منذ الآن، ولسوف تسلم كل أدواتك ومفاتيح مقر قيادة المدينة الآن وفورا}.

إلا أن ذلك لم يقلل من غضبتها بأي حال، فتهاوت فوق كومة من الحشوات التي أنت تحت ثقلها، وراحت تفكر في أسى... كيف لها أن تخبر الآنسة باي والسيد سكليوس والآخرين بتلك الكارثة؟، كيف لها أن تقول لهم إنهم قد ارتحلوا كل تلك المسافة إلى الوجهة الخاطئة، وأنه ليس ثمة شيء ينتظرهم هناك سوى قارة ميتة، بينما هم لا يملكون وقودا كافيا للعودة من حيث جاءوا؟... هي من وضعتهم في ذلك المأزق، هي من جرتهم إلى هنا، وقد راحت تخبر الجميع أن ارتحلهم نحو الغرب هو مشيئة آلهة الجليد، في حين أن ذلك لم يكن سوى مشيئتها هي.

لو أنها ما كانت انبهرت ببيني رويال وكتبه الغيبة، لتغير كل شيء ولما آل مآلهم إلى هذا الوضع.

{ماذا عساي أن أفعل الآن؟}. تساءلت فريا {ماذا بيدي أن أفعل؟}.

وهنا بلغهما صوت صياح عال يأتي من الخارج، من ناحية الشارع خلف الميناء، حيث كان شخص ماً يصيح، وقد بدا أن هناك صوت أزيز خافت متذبذب يقترب...

{محركات سفينة جوية!!}. صاح بيني رويال وهو يثب على قدميه، موقعاً المزيد من الآلات على الأرض بينما كان يهرع نحو الباب {حمداً لكليو، لقد نجونا}. وركضت فريا من خلفه وهي تمسح عبراتها وتعيد قناع البرد إلى وجهها. وفي الخارج، كان الليل قد طوى عباءته عن السماء ورحل، مفسحاً المجال لنور الشفق، وفي الضوء الخافت رأت فريا بيني

رويال وهو يعدو عبر الميناء، قبل أن يتوقف ويستدير مشيراً إلى شئ ما انزلق عبر السماء ليختفي وراء مكتب الميناء، في حين لمحت فرياً تلك المجموعة من الأضواء وذيل من دخان العادم من ورائها.

{إنه منطاد}. صاح بيني رويال من جديد وهو يقفز في الهواء ويرقص في جنون وسط الثلوج {لقد سمع أحدهم رسالتي، لقد نجونا!}.

وكانت فرياً لا تزال تركض محاولةً ألا تغيب الآلة الطائرة عن عينيها، بينما خرج الزوجان أكيوك ووفقاً ينظران نحو السماء خارج مكتب الميناء... {منطاد؟ هاهنا؟}، صاح مدير الميناء متعجباً، {ومن يكون هذا؟!} في حين هتفت زوجته {عزيزتي فرياً، هل أخبرتك آلهة الثلوج أنهم قادمون إلينا؟!}.

ومن مكان ما هرع واحد من فريق المسح الأرضي يدعى «ليمويل كوانيك»، وكان واحداً ممن خرجت معهم فرياً في إحدى جولات المسح، لذا لم يكن يشعر بالرهبة من التحدث أمام المارجرافين، فصاح {لقد رأيت ذلك المنطاد من قبل، أنا أعرفه، إنه منطاد «بيتور ماسجارد»}.

فشهقت السيدة أكيوك في هلع: {صيادو أركانجيل}.

في حين صاحت فرياً: {هنا؟... لا يمكن!، أركانجيل لا تأتي إلى غرب جرين لاند أبداً، فلا يوجد شئ هنا لتتقات عليه}.

{بل يوجد، نحن}. أجابها السيد كوانيك.

أثناء ذلك كان المنطاد يدور حول أنكوراج قبل أن يقف أعلى الطرف الخلفي منها، فهرعت فرياً نحو مقر قيادة المدينة، وسارعت تعدو فوق الجسر إلى أن بلغت المقر لتجد ويندولين باي هناك، بملابس النوم، تقف

في رعب، فما إن رأت فريا حتى صاحت: {الصيادون هنا يافريا... كيف عرفوا أننا هنا بحق الآلهة؟!، كيف علموا بخط سيرنا؟!}.

{بيني رويال}. أجابت فريا: {البروفيسور بيني رويال ورسالته الغبية عبر جهاز الإرسال}.

هنا صاحب السيد أوميك: {إنهم يرسلون إشارة لنا}. قالها وهو عاكف على جهاز الإرسال: {إنهم يأمرونا بأن نوقف محركاتنا}.

فنفرت فريا عبر النافذة نحو الطرف الخلفي للمدينة، حيث تلك السفينة الجوية السوداء تتأرجح هناك في الأعلى، ولكن لم يكن ثمة أثر لأي مطاردة: {هل أجيبهم يافريا؟!}.

{لا، لندعي أننا لم نتلق شيئاً}.

إلا أن ذلك لم يكن ليوقف بيتور ماسجارد طويلاً، حيث فوجئت فريا بالمنطاد إذ يعبر المدينة ليدنومن مقر القيادة إلى أن صار قبالة مباشرة حتى بات في مقدور فريا أن ترى ملاحي المنطاد خلف لوحات التحكم، بينما كان رجل مسلح ينظر إليها مباشرة وقد افتر ثغره عن ابتسامة شريرة، ثم انفتحت إحدى نوافذ المنطاد لتجد فريا بيتور ماسجارد بنفسه يخرج منها ويصيح بشئ ما عبر بوق، فقامت ويندولين باي بفتح إحدى نوافذ التهوية، فجاءهم الصوت مدوياً: {تهانينا أهل أنكوراج. لقد أختيرت مدينتكم لتكون فريسة لأركانجيل العظيمة. فلتغلقوا محركاتكم الآن ولتوفروا علينا عناء المطاردة، وسوف نثلقون معاملة حسنة}.

{لا يمكن أن ندعهم يأكلوننا... هذا مربع}. صاحت باي.

وكانت فريا تشعر بالخدري سري عبر جسدها بأكمله، وكأنها قد سقطت في بركة من الماء المثلج، بينما تعلقت أعين الآنسة باي وكل الموجودين، عليها، في انتظار ما ستقوله لها آلهة الثلوج لإنقاذهم من براثن المدينة المفترسة. وقد راحت تتفكر فيما إذا كان الوقت قد حان لتخبرهم بالحقيقة أم لا... ربما كان من الأفضل أن يدعو أركانجيل تلتهمهم، بدلاً من الارتحال بلا نهاية نحو قارة ميتة... لكنها سرعان ما تذكرت ما قد سمعته عن الطريقة المريعة التي تعامل بها أركانجيل سكان المدن التي تفترسها... لا، لا... لا يمكن أن تسمح بأن يتم اقتراسهم، إن أي شيء هو أفضل من ذلك، حتى لو ضلوا طريقهم عبر الجليد أو ماتوا جوعاً في أمريكا الميتة، فهذا أفضل من السقوط في قبضة أركانجيل...

{أغلقوا محركاتكم الآن}. صاح ماسجارد.

راحت فريا تفكر، لو أن أركانجيل قد قطعت الطريق بالفعل عبر جرين لاند، فإنها بذلك تكون قريبة منهم، ولكن... لا يزال بإمكان أنكوراج تجاوزها، وفي تلك الحالة ربما لن ترغب المدينة المفترسة في أن تغامر بالخوض في سهول جليدية مجهولة بالنسبة لها لمطاردتهم، وإلا ما كانوا أرسلوا صياديهم بدلاً منهم.

عقدت فريا أمرها، ولما لم يكن لديهم بوق للرد عليه، فقد إلتقطت أحد أقلام الخبر من على طاولة الخرائط وكتبت بحروف كبيرة واضحة على خلفية إحدى الخرائط (لا).

{آنسة باي... أخبري السيد سكليوس أن يمضي بأقصى سرعة نحو الأمام}.

فاندفعت الآنسة باي نحو جهاز التحدث مع قسم المحركات، بينما رفعت فريا الورقة التي تحمل رسالتها وألصقتها على الزجاج، وقد رأت ماسجارد إذ توقف قليلا لقراءة الرسالة، قبل أن تنقلب ملامحه ويتلون وجهه، فعاد إلى مقعده داخل زورق المنطاد وأغلق النافذة، ثم استدارت السفينة لتبتعد.

{مالذي يمكن أن يفعلوه الآن؟}. قالها أحد الملاحين داخل مقر القيادة.

{لن يهاجمونا، لن يخاطروا بتدمير الأشياء التي يريدون اقتراسنا من أجلها}.

{أراهن أن أركانجيل على بعد يوم أو أكثر من هنا}، قالت باي: {أظنهم قد يتسوا من إمكانية اللحاق بنا، وإلا ما كانوا أرسلوا بيتور ماسجارد ورجاله ليمارسوا معنا ألاعيبهم تلك... حسناً فعلتِ يا فريا، يمكننا بالفعل أن نسبقهم بسهولة}.

في تلك اللحظات كان منطاد بيتور قد هبط بين الجليد خلف المدينة، وبدأ في إطلاق وابل من الصواريخ نحو الدعامات الخلفية لعجلة دفع المدينة.

وفي غضون دقائق، كان المشهد في الطرف الخلفي من أنكوراج قد استحال بجيما من الدخان والشرر والنيان، في حين سقطت عجلة الدفع على جانبها فوق الجليد، بينما كانت لا تزال معلقة إلى مؤخرة المدينة من خلال عدد من السلاسل الثقيلة والأعمدة التي صارت ملتوية بفعل الانفجار، لتصبح العجلة وكأنها مرسة ثقيلة من الحطام قد تم إلقاؤها، لتجد المدينة نفسها وقد أجبرت على التوقف...

{بسرعة}. صرخت فريا والذعر يسري في أعصابها ويستولي على كيانها، بينما كانت أضواء المنطاد تبدى أمامها من بين غبار الجليد من خلفية المدينة.. {يجب أن نتحرك مرة أخرى، أنزلوا الجرات..}.

وكانت الأنسة باي تتحدث إلى قسم المحركات، وقد صمتت قليلا إذ كانت تستمع للأنباء القائمة التي تردها من الأسفل، ثم إلتفتت نحو فريا في أسي: {فريا، لا يمكننا التحرك، فعجلة الدفع شديدة الثقل ولن تتمكن الجرافات من سحبها، بل ينبغي فصلها تماما عن المدينة، لكن سورين للأسف يقول ان ذلك سوف يستغرق عدة ساعات}.

{لكننا لانملك تلك الساعات}. ازداد صراخ فريا وذعرها، وقد أدركت أنهم حتى لا يملكون دقائق، فتشبثت بذراع باي في هلع، ومعا أخذتا تتطلعان نحو الميناء الجوي، حيث كان منطاد بيتور ماسجارد قد هبط إليه، ومنه خرجت مجموعة من الرجال المدججين بالسلاح ليندفعوا سريعا عبر السلام إلى حيث قسم المحركات، بينما ارتفع المنطاد مرة ثانية متجها صوب مقر قيادة أنكوراج، ليصير فوقه مباشرة في ظرف ثوان معدودات.

حدث كل شيء بسرعة خاطفة، فمن المنطاد الجاثم فوق المقر تدلى عدد من الحبال، ومنها كان عدد من الرجال الأشداء يحيطون بالقاعة الزجاجية لمقر القيادة، وفي لمح البصر كانت الجدران الزجاجية جميعا قد تهشمت تحت وطأة أحذيتهم الثقيلة، لتتناثر شظايا الزجاج وتملأ الجسر، في حين كان صوت الصراخ يصبم الآذان بينما تلتهم السيوف الحادة على ضوء المصابيح.

راحت فريا تركز نحو المصعد في ارتياح، فقط لتجد أمامها شخصا يرتدي الفراء والدروع يقطع عليها الطريق ويتقدم نحوها، وعلى وجهه ابتسامة صفراء، وقد امتدت يده القوية لتقبض عليها، أما هي فقد كانت فكرة واحدة دون غيرها قد استولت عليها... [كل ذلك الطريق... لقد قطعنا كل ذلك الطريق، فقط كي يتم اقتراسنا هاهنا!]

(٣١)

دُرَج السكاكين

على بعد بضعة مئات من الأقدام أسفل الجيني هانيفر، كان البحر الجليدي يمتد بلا نهاية، لدرجة أن توم وهيستير قد شعرا وكأنهما يحلّقان إلى الأبد عبر ذلك المحيط الذي لا ينتهي.

فمنذ اليوم التالي لفرارهما من روجز رووست، حيث هبطا إلى إحدى بلدات الصيد لشراء الوقود بآخر ماتبقى معهما من أموال بيني رويال، وهما يطيران بلا نهاية عبر الشمال والغرب بحثاً عن أنكوراج؛ ولم يكن أي منهما قد نال قسطاً كافياً من النوم منذ ذلك الحين، خوفاً من ذلك المطارد الذي بات يطاردهما في أحلامهما.

وهكذا، بقي الاثنان في مقصورة القيادة يتناولان البسكويت ويشربان القهوة، وقد راح كل منهما يحكي للآخر بعض مما رآه خلال الفترة منذ أن افترقا. إلا أنهما لم يتطرقا ثانية لما حدث في أنكوراج والأسباب التي دفعت هيستير للرحيل، ولم يشأ أي منهما أن يذكر ذلك الموضوع أو يشير إليه من بعد الليلة الأولى لاجتماعهما معاً من جديد على متن الجيني هانيفر، حين رقدا إلى جانب بعضهما البعض فوق الفراش القاسي، يرتجفان...

{هناك شيء لم أقله لك.. لقد فعلتُ شيئاً مريباً بعدما تركتكَ ورحلت..}.
قالتْها هِيسْتِير في تلك الليلة بصوت خفيض. {لقد كنتِ حزينة ومجروحة،
فقررتِ الرحيل}. أجابها توم، وقد كان سعيداً هائئاً بعودتهما معا من
جديد، وما كان يرغب في المجازفة بإفساد الأمر بينهما مرة ثانية بالنقاش في
تفاصيل ما قد وقع، لهذا حاول أن يتعامل مع الأمر على أنه مجرد حادث
عابر يمكن تجاوزه، لكنها هزت رأسها وقالت: {أنا لا أعني...}. إلا أنها لم
تستطع البوح.

وهكذا ظلا يحلّقان اليوم تلو الآخر، فوق البحر الجليدي، والأراضي
المتجمدة، حتى هذا اليوم، حين قال توم فجأة: {أنا لم أكن أقصد ما
حدث، أعني ما قد حدث بيني وبين فريا، لم أكن اقصدُه أبداً. وحينما
نصل إلى أنكوراج فإن ذلك لن يتكرر، أعدك بذلك. سوف نحذرهم بصدد
أركانجيل ثم نرحل من جديد إلى حيث «المائة جزيرة» أو أي مكان آخر،
فقط نحن الاثنان، معا، كما اعتدنا دوماً}.

إلا أن هِيسْتِير راحت تهز رأسها في قلق ثم قالت: {الأمر شديد الخطورة
ياتوم، هناك حرب قادمة، ربما ليس هذا العام أو الذي يليه، لكنها قريبة
وشنيعة، وقد فات أوان فعل أي شيء لمنعها. كذلك فإن جماعة مناهضة
التحرك يعتقدون بأننا نحن من أحرقنا أسطولهم الجوي الشمالي، كما أن
العاصفة الخضراء سوف تلقي علينا باللوم لاحالة بصدد الهجوم الذي وقع
على روجز رووست. أما ذلك المطارد فلن يكون دائماً موجوداً ليحمينا}.

{إذن، أين يمكن أن نصبح في مأمن من كل هذا؟!}.

{أنكوراج... سوف نجد طريقة لحماية أنكوراج، ونبقى هناك لبضع
سنوات، وبعدها، ربما...}. ثم صمتت ولم تكلم كلامها، فقد كانت تدرك

جيدا أنها حتى لو وجدت طريقة لحماية المدينة، فليس ثمة مكان لها على متنها، وسوف يكون عليها حينها أن تترك توم هناك آمنا مع فريا، لترحل من جديد، وحدها. فأنكوراج مدينة مسالمة وادعة، وما من مكان لابنة فالانتاين بها.

في تلك الليلة، بينما كانت أضواء الشمال تتراقص في الأفق، أخذ توم يدقق النظر عبر فرجة بين السحب والغيوم، نحو الأسفل، حين رصد تلك الحفرة العميقة فوق الجليد، فدقق النظر أكثر، ليكتشف مئات من الشقوق والأخاديد العميقة المتوازية، تمتد شرقا إلى حيث المرتفعات التي تغلفها الغيوم، لتختفي ناحية الغرب... {آثار مدينة!}. صاح توم وهرع إلى حيث هيستير ليو قظها.

{أركانجيل}. قالتها هيستير في رعب وإعياء، وقد استعادت في مخيلتها انطباعاتها عن المدينة المفترسة الضخمة، وحينها أخذت تتساءل في أعماقها: كيف لها أن توقف مثل تلك المدينة المريعة.

ثم إنها هرعت إلى حيث دفة القيادة، فقامت بتحويل مسار المنطاد إلى حيث مسار أركانجيل المحفور على الجليد.

وبعد ساعة أخرى التقط جهاز الإرسال لدهما موجة الإرسال الخاصة بالمدينة المفترسة، قبل أن تبدى أضواء أركانجيل ذاتها أمامهم عبر الضباب، إذ كانت المدينة تتحرك على مهل بينما انطلقت أمامها مركبات المسح الأرضي لاختبار الجليد ومدى قدرته على تحمل ثقل المدينة. وفي الأعلى، كان عدد من المناطق يخلق فوق أركانجيل، أغلبها مناطق تجارية كانت تقلع من الميناء الجوي وتجه شرقا. وقد أراد توم أن يتواصل معهم، إلا أن هيستير منعتة: {لا يمكنك أن تثق في مثل هذا النوع من التجار الذين يتعاملون

مع أركانجيل، لكنها في حقيقة الأمر كانت تخشى أن يتعرف عليها أحد هؤلاء التجار ويخبر توم بما اقترفته... {دعنا نبقي بعيدا ونواصل التحليق}. وبالفعل ظل الجيني هانيفر بعيدا عن المدينة والتجار، على مسافة آمنة، وواصل المضي قدماً عبر مساره، بينما كانت أضواء أركانجيل تلتمع في الظلام من خلفه.

ولكن ما إن أخذت الذبذبات الصادرة عن موجة إرسال أركانجيل تخفت ومن ثم تلاشى، حتى انبعث صوت موجة أخرى، كانت ضعيفة جدا في البداية، ثم ازدادت قوة ووضوحا لاحقا، وكانت تأتي من مكان ما فوق الجليد الممتد أمامهما، فطفق توم وهيستير يشيطان الأرض تحتها في الظلام، بينما كانت العواصف الجليدية تهب في اتجاه المنطاد قادمة من الشمال، وأخذت قطع الثلج تلتصق بنوافذه.

وبعد حين، لاحت أمامهما من بعيد بضعة أضواء ثنائياً في الظلام، بينما ازدادت قوة موجة الإرسال والتي كانت أقرب ما يكون لصوت عواء الذئاب.

{إنها أنكوراج.}

{إنها لا تتحرك!}

{هناك خطب ما قد وقع.}

{لقد تأخرنا كثيراً.} صاح توم: {ألا تذكرين ما سمعناه في إيرهيفن؟ إن أركانجيل ترسل صياديها أولاً لفرض قبضتهم على المدن والبلدات التي ترغب في اقتراسها... هل نسيت ذلك الرجل المتوحش الذي قابلناه هناك؟ إنهم يجبرون المدن على تحويل مسارهم والتوجه رأساً نحو فكي المدينة...}

علينا أن نعود أدراجنا، لو أننا هبطنا هاهنا فسوف يستبقينا الصيادون إلى أن تأتي أركانجيل لتفترسنا مع أنكوراج}.

{لا}. هتفت هيستير: {علينا أن نهبط، علينا أن نفعل شيء}. وراحت نتطلع إلى توم، وقد كانت نتوق لأن تخبره بكل شيء، بما اقترفته والسبب وراء إصرارها على محاولة إنقاذ المدينة. لقد كانت تدرك جيدا أنها إن أرادت تخليص نفسها من الإثم الذي ارتكبته والتكفير عن فعلتها، فسوف يتوجب عليها مجابهة صيادي أركانجيل، وأن ذلك سوف يؤدي في الغالب إلى قتلها.

ومن جديد حاولت أن تصارح توم بحيرتها، وأن تخبره بكل تفاصيل صفتها المشؤمة مع بيتور ماسجارد، ثم تطلب الصفح منه... ولكن، ماذا إن رفض الصفح عنها؟ ماذا إن لفظها وهجرها لتمسي وحيدة مرتعبة؟... لقد حاولت، لكن الكلمات قد ماتت على شفيتها فلم تقدر على البوح. لكنها كذلك لا تقدر على ترك أنكوراج لتصير فريسة للمدينة المتوحشة.

أوقف توم محركات الجيني هانيفر، وترك الرياح لتحمله في صمت إلى مسافة أقرب، وكان قد تأثر باهتمام هيستير المفاجئ بأنكوراج.

وبعد برهة من الوقت، أدرك توم أن الأوان قد فات بالفعل، وأن المدينة قد سقطت في أيدي الصيادين تماما. وفي عينيه كانت الدموع الميرة تحتشد، لتشوه الموجودات من حوله وتشوش منظر الأضواء المنبعثة عن مقر قيادة المدينة والقصر الشتوي... {كل شيء مضاء هناك كشجرة عيد ميلاد كويرك...}.

{هكذا إذن، كي يتسنى لأركانجيل رؤيتها عبر الظلام}. قالت هيستير: {كان على ماسجارد وجماعته أن يوقفوا المحركات ويضيئوا كافة الأنوار ويقوموا بتشغيل محطة الإرسال. غالبا هم ينتظرون الآن في قصر فريا}.

{وماذا عن فريا؟.. وماذا عن باقي القوم؟}

فصمت هيستير ولم تحر جواباً.

وكان الميناء الجوي هو الآخر مضاء على غير المعتاد بشكل كامل، إلا أنه لم يكن ثمة مجال للهبوط به.

قامت هيستير بإطفاء أضواء الجيني هانيفر الخارجية، ثم تركت مهام الطيران لتوم الذي كان دوماً أكثر براعة منها في هذا، فشرع في الهبوط تدريجياً بالقرب من المدينة، إلا أنه سرعان ما عاد وارتفع ثانية لينسل بالمنطاد عبر فرجة ضيقة بين مستودعين في الطبقة السفلى من المدينة. وكان صوت رنين دعامات تثبيت المنطاد تصدر صوتاً عالياً بشكل مروع، إلا أن أحداً لم يأت لاستكشاف الأمر. وبعد حين قرر توم وهيستير المخاطرة بالترجل عن المنطاد والخروج إلى المدينة، فقط ليجدا شوارعها وقد لفها الصمت وغمرها الجليد؛ فهرعا يخفان الخطي نحو الدرج المؤدي إلى الميناء في الأعلى. وهناك وجدا منطاد ماسجارد رابضاً في المساحة المفتوحة بمنصف الميناء، وعلى غلافه كانت شارة أركانجيل الحمراء تلمع في الضوء.

وبجانب المنطاد وقف أحد الحراس يراقب الأجواء من حوله، بينما كانت الأضواء الداخلية بالسفينة الجوية مضاءة، وقد بدا أن هناك حركة بداخلها خلف نوافذ الزورق.

نظر توم إلى هيستير وتساءل {ماذا سوف نفعل الآن؟}.

إلا أنها لم تجبه، فقد كانت مشوشة تماماً ولا تدري ماذا يمكن أن يصنعا حيال الوضع الراهن. ثم إنها تحركت، فتبعها توم، ومعا إنسلا مستترين تحت ظلال خزانات الوقود بالميناء، إلى أن بلغا الباب الخلفي لمنزل مدير الميناء، فتسللا عبره إلى الداخل.

وهناك، كان الظلام يغلف كل شيء، لا يقطعه سوى انعكاسات الضوء القادمة من الميناء عبر النوافذ. وقد بدا وكأن إعصاراً قد اجتاحت غرفة الاستقبال والمطبخ، محطماً كافة اللوحات التذكارية والأواني الفخارية، وكذلك صور أبناء أكيوك الراحلين التي كانت مستقرة في محراب المنزل.

أما البندقية العتيقة التي كانت معلقة على الجدار في غرفة الإستقبال فقد اختفت. كانت الفوضى عارمة تضرب كل شيء في المنزل، ووقفت هيسستير تتطلع حولها لبرهة، ثم إنها اتجهت رأساً نحو خزانة المطبخ وفتحت درج السكاكين... ومن ورائها سمعت صوت صرير آت من ناحية سلم المنزل، وكان توم هو الأقرب للسلم فالتفت سريعاً ليطالع أمامه ذلك الوجه المتسربل بالظلال الذي يتطلع إليهما من بين أعمدة الإفريز، ثم سرعان ما اختفى في الحال.

صرخ توم من المفاجأة لكنه سرعان ما وضع يده على فمه ليكتم صرخته خشية أن يسمعها الحارس الواقف في الخارج بجوار منطاد ماسجارد، أما هيسستير فقد اندفعت سريعاً نحو السلم لتعتليه في خفة، وفي يدها كان سكيناً حاداً من سكاكين مطبخ السيدة أكيوك يتمتع. وفي الأسفل وقف توم يتطلع نحو الطابق العلوي حيث اختبأ ذلك الشخص الغامض، ومن بين الإفريز شاهد تلك الظلال المتصارعة... ثم تناهى إليه الصوت المرتعب المتوسل: {الرحمة، دعني أمضي، رجاءً}. ثم سمع وقع أقدام وأصوات جر، وكأن جسماً ثقيلاً يتم سحبه عبر السلم، ثم ظهرت هيسستير وهي تقبض على شخص ما لتلقي به عند أسفل السلم ثم تراجعت للوراء وهي لا تزال تقبض على السكين بقوة وتلهث من فرط الانفعال والإجهاذ.

فتطلع توم إلى أسيرها ليجده.. بيني رويال!، إلا أن هيئته كانت قد تغيرت كثيراً، ولم يعد ذلك الرجل المتأنق، وإنما بات عبارة عن رجل مشعث الشعر متسخ تماماً، وقد بدا وكأنه قد تقدم في العمر بنحو عشر

سنوات منذ آخر مرة رآه فيها توم قبل أن يغادر المدينة، وكأنما الزمن يمر على متن أنكوراج بوتيرة أسرع منه في باقي أرجاء العالم.

كان الرجل ملقى على الأرض يئن ويرتجف، ثم رفع عينيه المتورمتين نحو الأعلى ليفجأ بالوجهين المألوفين... {توم؟ هيسستير؟ ياللاآلهة!... لقد ظننت أنكما من هؤلاء الصيادين... ولكن، كيف أتيتما إلى هنا؟ هل الجيني هانيفر معكما؟.. آه، شكرا للآلهة، علينا أن نغادر فوراً}.

{ما الذي يحدث هنا يا بروفيسور؟} هتف توم {أين الجميع؟}.

كان بيني رويال في تلك اللحظة يحاول الجلوس في وضع أكثر راحة، وقد ثبت عينيه على السكين في يد هيسستير، ثم قال وهو يسند ظهره: {صيادو أركانجيل ياتوم، جاءوا بقيادة ذلك الوغد ماسجارد. لقد وصلوا منذ نحو عشر ساعات، فقاموا بتخطيط دفة القيادة تماماً واستولوا على المدينة}.

{وهل مات أحد؟}. سألته هيسستير، فhez رأسه وقال: {لا أظن ذلك، إنهم يريدون أن يبقى الجميع سالمًا ليتخذوا منهم عبيداً، ولهذا قاموا بحشدهم جميعاً وسجنوهم في القصر الشتوي، في انتظار وصول أركانجيل. فقط حاول عدد من رجال سكايبوس الشجعان مقاومتهم، لكنهم عوملوا بقسوة شديدة، إلا أنني أظن أن أحداً لم يصب بأذى}.

{وماذا عنك أنت؟}. سألته هيسستير من جديد وهي تخفي نحوه: {كيف لم يتم أسرك مع الآخرين؟}.

فاقتر غر بيني رويال عن إبتسامة مرتعشة قليلاً، ثم قال: {آه، أنت تعرفين شعاري في الحياة يا آنسة شاو.. حينما تسوء الأمور ينبغي على العقلاء أن ينادوا بأنفسهم عن الأذى ويتخفوا عن الأنظار. لقد كنت في الميناء الجوي حينما جاء ماسجارد ورجاله، ففكرت سريعاً وفررت إلى هنا

حيث اختبأت تحت الفراش، ولم أخرج إلا حينما انتهت الجلبة في الخارج. لقد فكرت في أن أذهب إلى ماسجارد الشاب وأقدم نفسي إليه، وأطالب بثن الإرشاد، ولكنني بصراحة لا أعتقد أنه من الممكن الوثوق بمثل هؤلاء الرجال، ولهذا ظللت محتبئة هنا منذ ذلك الحين.

{وما هو ثمن الإرشاد هذا؟} تساءل توم، فنظر إليه بيني رويال بخجل، ثم قال محاولاً إخفاء نجله وراء ابتسامته المعتادة: {أنا... توم... أظن أنني أنا من جئت بصيادي أركانجيل إلى هنا}.

وهنا، ولسبب لم يفهمه توم، انفجرت هيسستير في الضحك.

{أنا لم أتعمد ذلك، لقد قت فقط بإرسال رسالتي إستغاثة... لم أكن أتخيل أن أركانجيل لتلتقطهما، ومن يتخيل ذلك؟ هل سمع أحد من قبل عن إشارة لاسلكية يتم التقاطها عبر كل تلك المسافة؟!... على أية حال، إن ذلك لم يجعلني في وضع أفضل كما هو واضح، لقد ظللت عالقاً هنا لساعات، على أمل أن أتمكن من التسلل إلى مركبة هؤلاء الصيادين، ثم الفرار منها لاحقاً، ولكن للأسف يوجد حارس لعين يقوم بحراستها، كما أن هناك اثنين من الصيادين يقبعون بداخلها..}

{نعم، لقد رأيناهم} غمغم توم.

{ومع ذلك} استطرد بيني رويال، وقد أشرق وجهه {ها أنتما ذا قد عدتما ومعكما الجيني هانيفر. لم يعد شيء يهيم الآن، أليس كذلك؟ متى سوف نرحل؟}.

{لن نفعل} قالتها هيسستير، فالتفت توم نحوها وكان لا يستوعب ماتفكر فيه ولا ماتنتوي فعله مع رجال ماسجارد الأشداء: {كيف لنا أن نغادر ونترك القوم هاهنا في هذا الوضع؟ إننا ندين للزوجين أكيوك، وفريا، والجميع... علينا أن ننقذهم}.

ثم إنها تركتهما واتجهت نحو نافذة المطبخ، بينما راح توم وييني رويال يحدقان فيها وقد وقفت هناك تنطلع إلى الخارج عبر الجليد، وراحت تتخيل الحراس من أركانجيل إذ يقبعون داخل منطادهم، بينما يقف زميلهم في الخارج يحرس المنطاد ويفرك أطراف أصابعه من البرد.

أما باقي رجال ماسجارد فيجلسون في القصر الشتوي يشربون النبيذ من قبو القصر فيسري الدفء والحرارة في أطرافهم. لا بد أنهم الآن يجلسون في استرخاء وثقة ولا يتوقعون وقوع أي متاعب.... إنهم ليسوا في دهاء وقوة فالانتاين، ولا قسوته، بالتأكيد، ولو أنها قد ورثت بالفعل أي شيء من صفاته فإنهم لن يضاهوها كذلك.

{هيسستير؟}. كان توم يقف خلفها الآن وقد تملكه التوجس حيال تغييرها المفاجئ واهتمامها بمساعدة تلك المدينة الجليدية! لقد اعتاد دوما أن يبدي هو الاهتمام بالآخرين ويسعى لمساعدتهم، أما أن تبدل الأدوار ويسمع هيسستير إذ تتحدث عن ضرورة مساعدة أهل أنكوراج بكل ذلك الحماس، فهذا ما لم يكن ليستوعبه أبداً، وقد شعر وكأن الكون قد خرج عن مساره. والآن، هاهو ذا يضع كفه على كتفها برفق، ويقول: {هيسستير، إنهم كُثر، ونحن ثلاثة فقط...}.

{تقصد اثنين}. قالها بييني رويال: {أنا لن أشارك بأي حال في مخططاتكما الانتحارية تلك...}. فما كاد أن يتم عبارته حتى كان سكين هيسستير الحاد فوق عنقه تماماً، في حركة واحدة خاطفة، وكانت يدها ترتجف قليلاً، وفي صوت كالضحج قالت ابنة فالانتاين: {إنك ستفعل بالضبط ما أمرك به، وإلا فسوف أقتلك بنفسني}.

(٣٢)

ابنة فالانتاين

{كُلِّي أيتها المارجرافين الصغيرة}. قالها بيتور ماسجارد، بينما كان يجلس على الطرف الآخر من مائدة الطعام ويلوح نحو فريا بفخذ دجاجة كان قد التهم نصفه، في حين جلست فريا تحديق في طبقها وقد بدأ طعامها يتجمد. كانت تتمنى لو أنها بقيت مع الآخرين في قاعة الاحتفالات، حيث تم حشدهم، تأكل معهم الفتات الذي يلقي به الصيادون إليهم، إلا أن ماسجارد قد أصر على أن تشاركه العشاء، حيث قال لها إنه يرغب في أن تلقى المعاملة اللائقة التي تستحقها، وأنه لا يصح لمارجرافين مثلها أن تتناول الطعام مع عامة الناس، ولهذا فمن واجبه كقائد لصيادي أركانجيل، ومن دواع سروره كذلك، أن تشاركه على مائدة عشاءه.

أما ما لم يقله بالطبع، فهو أن تلك المائدة والقاعة والقصر برمته هي لفريا وليس له، وأن ذلك العشاء الذي دعاها إليه كضيفة، إنما قد جاء من مستودع طعام قصرها، وتم طهيها في مطابخها بيد المسكين سميو، خادمها الخاص.

وفي كل مرة كانت ترفع عينها، كانت تلتقي بعيني ماسجارد الزرقاوين
المفعمتين بالاستمتاع والفخر بصيده الجديد.

في اللحظات الأولى لسقوط المدينة، بينما كانت فريا لا تزال في مقر
قيادة المدينة، أبى عقلها أن يصدق أن الأمر قد قُضي، وراحت تقنع نفسها
أن سكايبوس لن يقبل بالهزيمة أبداً، وأنه ورجاله سيقاتلون حتى النصر
وينقذون المدينة؛ ولكن ما إن تم أسرها هي ومن معها، ثم نقلهم جميعاً
إلى قاعة الاحتفالات، ورأت هناك باقي قومها وقد سقطوا أسرى كذلك،
أدركت حينها أن الأمر قد انتهى بالفعل، وبسرعة أكبر من قدرتها على
الاستيعاب، وأن رجال سكايبوس لابد وأنهم قد بوغتوا ولم يكن أمامهم
سبيل للمقاومة، أو أنهم ربما كانوا منهمكين في إطفاء الحرائق التي نتجت
عن صواريخ ماسجارد، حينما تم احتلال المدينة وبسط الصيادون سيطرتهم
عليها... لقد انتصر الشر على الخير.

{إن أركانجيل العظيمة سوف تكون هنا في غضون بضع ساعات}.
قالها ماسجارد في نخر، بينما كان يتفقد أسراه في قاعة الاحتفالات، ومن
حوله وقف رجاله يحملون أسلحتهم النارية في وضع الاستعداد، فيما كانت
كلماته تتردد عالية من مكبر الصوت في خوذة الضابط الواقف بجواره.
{فليتضبطوا أنفسهم ولا تقدموا على أي تصرفات حمقاء، وبهذا قد تضمنون
لأنفسكم حياة صحية ومنتجة في أحشاء أركانجيل، أما إن حاولتم المقاومة
فسوف تموتون. هذه المدينة تمثل جائزة في حد ذاتها، وبالتالي لا مانع لدي
من التضحية ببعض العيد منكم لو أنكم حاولتم التصرف بغباء، فلا تحتبروا
صبري وجديتي فيما أقول}.

والحقيقة أن ماسجارد ما كان في حاجة لإلقاء تلك التهديدات، فما من
أحد من الواقفين أمامه كان ليقاوم، فلطالما كان أهل أنكوراج مسلمين لم

يعتادوا العنف ولم يتخذوا منه يوماً سبيلاً ومسلماً. كذلك كانت الوحشية المرتسمة على ملاحم الصيادين، والبنادق البخارية في أيديهم كفيلة تماماً لإقناعهم بالاستسلام. لذا فقد احتشدوا جميعاً، جنبا إلى جنب في وسط القاعة، حيث الزوجات يتشبن بأزواجهن، والأمهات يحاولن منع أطفالهن من البكاء أو التفوه بحرف أو فعل أي شيء قد يلفت انتباه هؤلاء الحراس.

وحينما دعا ماسجارد المارجرافين إلى العشاء، ارتأت فريا أنه من الحكمة أن تقبل، وأن تقبل أي شيء يبقيه في مزاج حسن ولا يستفزه.

ومع ذلك، فهذا هي ذي تجلس قبالة قلب طعامها الذي برد سريعاً، وتفكر [لو أن العشاء مع ماسجارد هو أسوأ ما قد أمر به فسوف يكون عليّ تحمله]، إلا أنها حين نظرت نحوه وجدت أن الأمر ليس بتلك البساطة، وقد شعرت بالفراغ الفاصل بينهما وكأنه مفعم بالتهديد، فأحست بمعذبتها تنقلص. ثم إنها شرعت في تجاذب أطراف الحديث مع ماسجارد، كذريعة لعدم تناول الطعام {إذن، كيف عثرت علينا يا سيد ماسجارد؟}.

فابتسم الشاب، وكانت عيناه الزرقاوان مخفيتين بالكامل تقريباً وراء جفنيه الثقيلين... في الواقع، لقد شعر بخيبة أمل نوعاً ما، فقد استسلم أهل المدينة بسهولة تامة، حتى حارس فريا الشخصي كان أضحوكة حقاً، رجل صغير الحجم لا يستحق عناء أن يرفع ماسجارد سيفه في وجهه، إلا أنه كان مصراً على أن يبدو شجاعاً قوياً أمام أسيرته المارجرافين. وقد كان يشعر، وقد جلس فوق عرشها وعلى رأس مائدتها، بأنه قوي وسيم، ومنتصر، كذلك كان قد اعتراه إحساس بأنه إنما يثير إعجابها.

{وكيف عرفت أن مهاراتي الطبيعية في الصيد ليست هي ما قادني إليكم؟}

فابتسمت فريا ابتسامة بسيطة متييسة نوعاً، ثم قالت: {لأنها ليست الوسيلة التي تعتمدون عليها، لقد سمعت عنكم، وعرفت كيف أن أركانجيل تسعى جاهدة للحصول على فرائس، لدرجة أنكم تدفعون للناس أموال مقابل أن ييوحوا بمعلومات عن باقي المدن لكم}.

{يقومون بالوشاية}.

{ماذا؟}.

{مقابل أن يشوا بالمدن الأخرى. إن أردت استخدام الكلمات العامة، باسمو إشراقتك، فعليك أن تجيدها أولاً بالشكل الصحيح}.

احمر وجه فريا، ثم قالت: {إنه بروفيسور بيني رويال، أليس كذلك؟ إنها الرسائل التي أرسلها عبر جهاز الإرسال هي ما قادكم إلى هنا. لقد أخبرني أنه كان يحاول الوصول إلى أي مستكشف أو تاجر يمر بالجوار ليأخذه من هنا، لكنني أظن أنه كان يرأسكم أتم منذ البداية}.

{بروفيسور من؟} قالها ماسجارد ثم أخذ يضحك من جديد: {لا ياعزبتي، لقد كان مجرد فأر طائر هو ما وشى بخط سيركم}.

فنظرت نحوه فريا من جديد في فضول..

{هيستير... وهل تعرفين أفضل جزء في تلك الصفقة؟ أنها لم تكن ترغب حتى في الحصول على المال مقابل الوشاية بكم، وإنما فقط شاب ما هاهنا. واحد من حثالة عالم الطيران، يدعى ناتسوورثي}.

{أووه، هيستير!} همست فريا، لقد كانت ترى تلك الفتاة دوماً على أنها مثيرة للمتابع، لكنها أبداً ما كانت لتتخيل أن تكون قادرة على الإتيان

بفعل مربع كهذا... أن تخون مدينة كاملة بكل من فيها، فقط كي تستعيد
فتى لا تستحقه قد يكون حاله أفضل كثيراً مع غيرها!

كانت فرياً تتميز غضباً في تلك اللحظة، وقد حاولت أن تخفي غضبها عن
أعين ماسجارد الذي كان لا يكف عن الضحك.

{ لكن توم قد رحل، مات على الأرحم... }.

{ محظوظ هو إذن } . قالها ماسجارد ضاحكاً، بغم ملئ بالطعام: { على أية
حال لم يعد الأمر مهماً، فقد اختفت الفتاة، رحلت قبل أن يحف المداد
الذي كتب به عقدها معنا... }.

وهنا انفتح باب قاعة الطعام على حين غرة، واندفع أحد رجال ماسجارد -
ذلك الضابط ذو خوذة مكبرات الصوت - عند المدخل وهتف: { حريق،
حريق ياسيدي، اندلع حريق هناك عند الميناء }.

{ ماذا؟ } . صاح ماسجارد وهو يندفع باتجاه النافذة، وراح يسحب الستائر
السميكة جانبا بعنف ممزقاً إياها، وعبر الثلوج التي تغطي الحديقة الخارجية،
رأى ذلك التوهج الأحمر المنتشر، ثم التفت نحو ضابطه وصاح: { هل هناك
أي أخبار من «جاستانج» ورجاله في الميناء؟ }.

فهز الرجل رأسه أن لا.

صرخ ماسجارد في غضب: { الذئاب!... لقد أضرم أحدهم تلك النيران،
إنهم يهاجمون منطادنا }، ثم إنه استل سيفه واندفع نحو الخارج، ثم توقف
للحظة عند فرياً وقال: { لو أن أياً من قومك الحثالة هؤلاء قد تسبب في ضرر
لمنطادي فسوف أقوم بسلخهم أحياء ثم أبيع جلودهم }.

انكشيت فريا على نفسها في مقعدها، وهمست: {لا يمكن أن يكون أحد من قومي هو من فعل ذلك، إنك تحتجزهم جميعا...}.

ولكن ما إن قالت ذلك حتى تذكرت بيني رويال، فهي لم تره بين المحتشدين في قاعة الاحتفالات. ربما هو لا يزال طليقا، ربما هو يحاول أن يساعدهم... لقد بدت لها الفكرة مستبعدة، لكن في ذات الوقت كان هذا هو قبس الأمل الوحيد الذي لديها، وقد ازدادت تشبثا به بينما كان ماسجارد يجرها من على مقعدها ليلقي بها إلى ضابطه: {عد بها إلى قاعة الاحتفالات. أين «رافن» و«تور» و«سكيت»؟}.

{الازالوا يحرسون المدخل الرئيس ياسيدي.

فركض ماسجارد إلى الخارج، تاركا رجله يسحب فريا خارجا من قاعة الطعام، ثم يدفعها عبر الممرات نحو قاعة الحفلات؛ وقد قدرت أنها ينبغي لها أن تحاول الفرار الآن، إلا أن حارسها هذا كان قويا ضخم البنية، ومسلحا كذلك، وما كانت لتجروء على المخاطرة.

ومن على الجدران كانت صور أسلافها وعائلتها يتطلعون إليها وهي تمر من أمامهم، وقد بدا لها وكأن خيبة الأمل تلوح في أعينهم ونظراتهم إليها لكونها لم تحاول المقاومة... فما كان منها إلا أن هتفت: {إنني أتمنى أن يكون أحدهم قد أشعل النيران حقا في منطادكم النفيس}.

{هذا لن يمثل أي فارق بالنسبة لنا، وإنما أنتم من سيعانون جراء ذلك... أركانجيل ستكون هنا قريباً، ولن نحتاج لمنطاد للخروج من مدينتكم التي ستكون في أحشاء مدينتنا}.

ومن قاعة الاحتفالات كانت أصوات صخب وجلبة تخرج لتصل إلى مسامع فريا وحارسها وقد اقتربا من الباب، وقد خمنت فريا أن قوما لا بد

قد شاهدوا النيران حيث كانوا يصطخبون في حماسة بينما يحاول الحراس إسكاتهم.

ثم إن شيئاً ما قد مرق من فوق رأس فريا، وفي نفس اللحظة ارتد ضابط ماسجارد إلى الوراء ليسقط في صمت، فظنته فريا قد زلت قدمه وسقط، لكنها ما إن التفتت نحوه حتى رأت ذلك السهم الذي استقر في مقدمة خوذته، وخيط الدماء الذي بدأ ينز من جبهته، فشقت وتراجعت إلى الوراء، ومن كوة صغيرة بجانب بوابة القاعة، تبدى ظل طويل من الظلام... {بروفيسور بيني رويال؟}. همست فريا وقد حسبته المستكشف المختفي، لكنه لم يكن هو، وإنما... هيستير شاو، والتي كانت في تلك اللحظة تخرج سهماً آخر لتثبته في القوس الضخم الذي تحمله.

{لقد عدت!}. صاحت فريا.

{يالله من استنتاج عبقري، يا سمو إشرافتك!}.

احمر وجه فريا غضبا وغيظا، إذ كيف تجرؤ تلك الفتاة على السخرية منها هكذا! بل والأكثر من ذلك أنها هي السبب في كل ما يحدث الآن من أهوال... {لقد بعث تفاصيل مسارنا! كيف أمكنك فعل ذلك؟ كيف؟}.

{حسنا، لقد غيرت رأيي الآن، وها أنا ذا قد جئت لمساعدتكم}.

{مساعدتنا؟!}. كانت فريا تتحدث بغضب ولكن بصوت هامس في ذات الوقت خوفاً من أن يسمعها أي من رجال ماسجارد.

{وكيف يمكنك أن تساعدنا الآن؟ إن أفضل مساعدة كان يمكن أن تقدمها ألا تقربي مدينتي مرة ثانية، نحن لسنا في حاجة إليك، وتوم كذلك لا يحتاجك، أنت أنانية شريرة قاسية ولا تكثرئين لأحد سوى لنفسك

المريعة....}. ثم إنها انتبهت أخيراً أن هيستير تحمل قوساً وسهاماً وأنها بحركة واحدة بإمكانها أن تثبتها إلى الجدار بسهم يخترق رأسها، فأطبقت فيها وأثرت الصمت. وكانت نفس الفكرة قد لاحت في عقل هيستير في نفس اللحظة، وقد تقلصت بالفعل أصابعها على طرف السهم المثبت إلى القوس الموجه صوب صدر فرياً، إلا أنها همست بعد حين: {معك حق... أنا شريرة بالفعل، لقد ورثت ذلك عن أبي. لكنني أهتم بأمر توم، وهذا يعني أن عليّ أن أهتم لأمرك وأمر مدينتك الغبية تلك، وأعتقد أنك في حاجة إليّ الآن}، ثم خفضت القوس الذي تحمله في يدها. وفي نفس اللحظة لاحت منها نظرة نحو الحارس الذي قتله تواء، فوجدت بحوزته مسدساً غازياً معلقاً إلى حزامه، فأشارت لفرياً نحوه وسألتها: {هل تعرفين كيفية استخدام هذا؟}. فأومأت فرياً. صحيح أن معلمها قد اهتموا بتعليمها فنون اللياقة والإتيكيت أكثر من تدريبها على مثل تلك الأسلحة، إلا أنها تملك فكرة عامة عن استخدامها.

{حسناً، تعالي معي}. قالتها هيستير بلهجة امرأة لم تعهد لها فرياً من قبل، ولكن ما كان لها أن تعترض.

لقد كان الجزء الأصعب حتى الآن بالنسبة لهيستير هو كيفية إبعاد توم عن ذلك كله. هي لا تريد أن تعرضه لأي خطر، كما أن وجوده معها من شأنه أن يمنعها من التصرف كما يليق بابنة فالانتاين. وفي منزل أكويك كانت قد انتحت به جانباً وسألتها: {هل تعرف أي مداخل جانبية أو خلفية إلى القصر الشتوي؟}، مع كل هذا العدد من صيادي ماسجارد لن يمكننا الدخول هكذا ببساطة من المدخل الرئيس}. فراح توم يحاول التذكر، ثم إنه دس يده فجأة في جيب معطفه ليخرج منه أداة لامعة صغيرة لم ترها هيستير من قبل، وقال: {إنه فاتح للأقفال، لقد أعطوني إياه الصبية في جريم

سباي. أعتقد أنني أستطيع الدخول إلى القصر عبر إحدى الحجرات الحرارية الصغيرة الموجودة خلف متحف العجائب... وقد اعترت نوم حماسة شديدة وسعادة، خاصة حينما لم تستطع هيستير منع نفسها من تقبيله. فما إن انتهت من عناقه حتى قالت له: {إذهب إذن وانتظرنني في المتحف}.

{ماذا؟ ألن تأت معي؟}. قالها وقد استحالت مشاعر الحماسة بداخله خوفاً، فمست هيستير شفثيه بأصابعها لتسكته وقالت: {سوف أذهب لاستكشاف الأوضاع بالمنطاد}.

{ولكن، الحراس..}.

{لقد كنت يوماً أحياء مع المطارد جريك، هل نسيت؟ ولقد علمني الكثير من الأشياء التي لم يتح لي تجربتها من قبل. سوف أكون على مايرام.. فقط اذهب الآن}، وكانت تحاول أن تبدو أمامه متماسكة غير خائفة، إلا أنه حاول أن يقول شيئاً آخر، لكنه تراجع، ثم عانقها، وانطلق مسرعاً في طريقه.

ولثانية أو اثنتين شعرت بارتياح أنها قد صارت بمفردها الآن وتستطيع أن تنصرف كما ينبغي، لكن سرعان ما عاودها الشعور بالوحشة وبأنها في حاجة إليه ليكون معها... لتلقي بنفسها بين ذراعيه وتخبره بكل ما لم تستطع أن تخبره به من قبل. فهرعت نحو الباب الخلفي كي تستوقفه، لكنه كان قد اختفى عن ناظرها بالفعل متتبعا طريقاً سرياً نحو القصر. فوقفت للحظة ومن بين شفثيتها راحت تردد اسمه، وقد غمرها شعور بأنها لن تراه مرة أخرى، فأحست حينها وكأنما هي تنزلق نحو هاوية سحيقة.

وفي الداخل كان بيني رويال لا يزال قابلاً عند أسفل الدرج، وقد عادت هيستير إلى الداخل ومررت به في طريقها إلى المطبخ، لتأخذ مصباحاً زيتياً من خزانة فوق الحوض..

{ ما الذي تفعلينه بالضبط؟}. قالها بيني رويال هامساً بينما هي تشعل المصباح ليتوهج الضوء الأصفر تدريجياً، ثم سرعان ما انتشر ليغمر الجدران والنوافذ ووجه بيني رويال الممتقع... {سوف يرى رجال ماسجارد الضوء}.
قالها الرجل في هلع.

{ هذا هو ما أريده بالضبط }.

{ أنا لن أساعدك في هذا... لا يمكنك إجباري على ذلك.. إنه محض جنون }.

هنا لم تكلف هيستير نفسها عناء تهديده بالسكين هذه المرة، وإنما قربت وجهها من وجهه، وقالت: {لقد كان أنا يا بيني رويال... أنا من وشي بالمدينة}. قالتها وقد ابتغت تخوفه وإشعاره بمدى قسوتها، وما يمكن أن تفعله: {لم يكن أنت، بل أنا من أتى برجال ماسجارد إلى هنا}.

{أنتِ؟! ولكن.. لماذا بحق بوسكيت العظيم؟!}

{من أجل نوم... لأنني أردت استعادة نوم لي مرة ثانية. لقد كان هو ثمن الفريسة التي كنت سألتقها، لكن الأمور لم تسر على النحو الذي خططت له. والآن قد جئت لأعيد الأمور إلى نصابها الصحيح}.

ثم أنهما سمعا صوت خطوات تندفع عبر الثلوج خارج نافذة المطبخ، وبعد ثوان جاء صوت اندفاع الهواء إلى الداخل، حيث قام أحدهم باقتحام الباب العازل للحرارة.

سارعت هيستير للتواري في الظلال بجوار الباب، بينما كان أحد حراس ماسجارد يشق طريقه إلى الداخل، وكان على مقربة شديدة منها لدرجة أنها كانت تشعر بلفح البرد الصادر عن الثلوج التي تغطي الفراء الذي كان يرتديه.

{قف على قدميك!}. صاح الحارس في بيني رويال بمجرد أن رآه جاثياً عند السلم، ثم أخذ يمسح المكان من حوله بعينيه بحثاً عن فارين آخرين. وفي لحظة واحدة كانت هيستير قد اندفعت خارجة من مكانها لتطعنه بسكينها طعنة نجلاء في الفجوة العارية ما بين درعه والقناع على وجهه، فصدر عنه صوت حشرجة وراح يتلوى بعنف حول نفسه لدرجة أن مقبض السكين المنغرس فيه قد أفلت من يد هيستير، وفي احتضاره حاول الرجل إطلاق سهم صوب هيستير من قوسه، إلا أنها اندفعت جانباً في الوقت المناسب ليستقر السهم في باب خزانة المطبخ خلفها، فمد يده نحو مئزره ليسحب سكينه الخاص، إلا أنها قد تشبث بذراعه محاولةً منعه... كانت معركة صامتة تماماً إلا من أصوات لهماثهما، وصوت تهشم الأواني الفخارية تحت أقدامهما بينما يتقاتلان، في حين راح بيني رويال ينأى بنفسه عن طريقهما كلما اقتربا منه.

ومن وراء النظارة الواقية في قناع الجندي، كانت عيناه الخضراوان متسعيتين عن آخريهما تحديقاً في هيستير بغضب عارم، قبل أن تنسحب منهما الحياة تدريجياً وتزوغ نظراتهما بعيداً، ثم توقفت حشرجته وتهاوى جسده الثقيل أرضاً لتسقط معه هيستير التي كانت لا تزال متشبثة بذراعه. وقد راحت ساقاه تنتفضان لثوان، قبل أن يهدم جسد الرجل تماماً.

لم تكن هيستير حينها قد قتلت مخلوقاً من قبل، وقد ظنت لأول وهلة أن شعوراً بالذنب سوف يمتلكها ويعتصرها اعتصاراً، إلا أن شيئاً من هذا لم يحدث... لا شيء على الإطلاق... إنها ابنة فالانتاين على أية حال، ولا بد أنها تشبه في ذلك أيضاً؛ وقد أخذت تردد ذلك في أعماقها وهي تنحي فوق القليل لتزنع عنه قبعته ومعطفه وقناع وجهه... [لا بد أن فالانتاين كان يشعر بأن ما فعله في أبي وأمي هو مجرد مهمة لا بد له من أدائها لحماية مدينته

وأحبائه]، هكذا كانت تفكر بينما هي تأخذ قوس الرجل وجعبة سهامه، ثم إنها التفتت نحو بيني رويال وقالت: {أحضر المصباح واتبعني}.

{ولكن.. ولكن...}

وفي الخارج، عبر الثلوج التي كانت تغمر كل شيء، راحت هيستير تشق طريقها عبر مرافئ الإرساء بالميناء، وتدفع أمامها بيني رويال المرعوب، وقد لاحت منها التفاتة عبر فرجة بين عنبرين من عنابر الصيانة، حيث كان ضوء بعيد يلتمع في السماء الشرقية. بينما كان منطاد ماسجارد واقفاً في مكانه، وكان باب سقفه مفتوحاً، بينما أحد الصيادين واقف ينتظر هناك، فما إن رأى هيستير، وكانت قد ارتدت معطف الجندي القتل وقبعته وقناعه متخفية بهم، حتى صاح: {ما الذي يدور هناك يا جارسنانج؟ من وجدت بالمنزل؟}.

فأجابته هيستير وهي تأمل أن يغير ذلك القناع صوتها فيحسبه الرجل صوت زميله: {مجرد رجل عجوز}.

ردد الجندي ما قالته لشخص آخر يجلس داخل زورق المنطاد، ثم التفت إلى هيستير من جديد وقال: {خذه إلى القصر وضعه مع الباقين. نحن لسنا في حاجة إليه}.

{رجاءً، سيدي الصياد!} صاح بيني رويال في توسل {إنه نغ، إنها...}.

إلا أن هيستير كانت قد رفعت القوس، وفي لمح البصر أطلقت سهمها إنغرس في صدر الصياد ليسقط صارخاً، فهرع زملاؤه ما إن سمعوا صراخه، يحاولون شق طريقهم نحوها خارجين من المنطاد، لكنها كانت أسرع منهم وأخف حركة، حيث انتزعت المصباح الزيتي المتوهج من يد بيني رويال وألقت به إلى داخل المنطاد عبر الفتحة الرأسية، لتمسك النيران سريعاً بمعطف أحد الصيادين، وتندلع قوية عارمة في الداخل.

صرخ بيني رويال في هلع وانطلق يعدو هارباً، ومن خلفه انطلقت هيستير، إلا أنها فوجئت بنفسها تطير فجأة في الهواء بفعل اللفح الساخن المنبعث من الحريق الهائل، لتسقط بعيداً بين الثلوج، ومن حولها انتشرت شذرات النيران وجذواتها. ولم يحدث الحريق أي انفجار أو حتى ضجة، وإنما شعلة عارمة من نيران بحيمية تأكل كل ما فيها وما حولها، خاصة مع اشتعال خلايا الغاز بالسفينة الجوية.

تقلبت هيستير عبر الجليد لتعتدل، وراحت تتأمل المشهد المستعر. كان الرجال يهرعون من داخل الزورق الآخذ في التفحم وقد أمسكت شرارات النيران في معاطفهم، وكانوا اثنين فقط، راح أحدهما يركض في اتجاه هيستير، فسارعت نحو القوس والسهم، إلا أنه لم يكن ينظر نحوها أو يستهدفها أصلاً، وإنما كان يركض وقد راح يصرخ بكلمات عن وجود مخربين، فأطلقت عليه أحد سهامها من الخلف لترديه قتيلاً قبل أن يتمكن من الهرب وتحذير الآخرين.

لم يكن ثمة أثر لبيني رويال، بينما أخذت هي تدور حول المنطاد المحترق، لتجد الصياد الآخر يحتضر بين الدخان، فمدت يدها لثلتقط سيفه من كفه لتعلقه إلى حزامها، ثم تركض نحو راسموسن بروسبكت باتجاه أضواء القصر الشتوي.

راح فاتح الأقفال يصدر صوت تكتكة بسيطة حينما دسه توم في ثقب المفتاح، ثم انفتح باب الحجرة الحرارية أخيراً، فأنسل توم إلى الداخل عبر الرائحة المألوفة لجنابات القصر. كان الممر يبدو مهجوراً تماماً، ولم تكن ثمة آثار أقدام فوق الغبار، فأسرع توم الخطى عبر الظلال، إلى حيث متحف العجائب، وقد راحت أوصاله ترتعد من جديد حينما مر بين هيكلي المطاردين المستقرين أمام الباب. وقد تمكن من فتح باب المتحف كذلك

بنفس الأداة، فتسلل إلى الداخل حيث الصمت التام، بين المعروضات، وقد اعتراه شعور بالخوف، ولكن بالفخر بنفسه في أن معاً. ومن لوحة الورق المفضض المعروضة هناك، انعكست بعض الأضواء اللامعة على وجهه توم، فتذكر فرياً على الفور، وكذلك الكاميرات الشبيهة بالعنكبوت أو سرطانات البحر التي رصدته من بين أنابيب التدفئة يوم كان يتبادل القبلات مع فرياً.

{كول؟}. قالها توم على أمل أن يكون الصبي موجوداً في الظلام، ولكن... لم يعد ثمة لصوص على متن أنكوراج، وإنما صيادون فقط! فجأة اعتراه شعور خائق ممض بالخوف على هيستير، والتي تقف هناك في الخارج، تواجه الأخطار وحدها، بينما يقبع هو ينتظر في الداخل.

ومن محبته شاهد وميضاً يلتمع في السماء من مكان ما بالقرب من المرفأ... ما الذي يحدث؟.. ترى، هل يتوجب عليه أن يخرج ليستكشف الأمر بنفسه؟... لا، لقد قالت له هيستير أنها ستلتقيه بالمتحف، وهي لم تأخذه من قبل، ولسوف تأتي. ثم إنه حاول شغل تفكيره عن القلق والخوف على هيستير، فراح ينتقي لنفسه سلاحاً من بين الأسلحة الموجودة في واجهات المعروضات، فاختار سيفاً ثقيلاً حاد النصر ذا مقبض وجراب مزخرفين، فما إن أمسك بالسيف بين يديه حتى شعر بنفسه وقد بات أكثر جرأة وإقداماً.

راح توم يذرع المتحف جيئةً وذهاباً، والسيف يتأرجح في يده، في انتظار عودة هيستير كي يتمكناً معاً من إنقاذ أنكوراج. ذلك حين تناهت إلى مسامعه أصوات معركة بالأسلحة النارية تندلع من قاعة الاحتفالات ويتردد صداها عالياً، ومعه صدى صرخات وصياح، عبر ممرات القصر

وصولاً إليه، فأدرك على الفور أن هيستير قد دخلت بالفعل من المدخل الرئيس للقصر وبدأت معركتها من دونه.

كان المسدس الغازي أكثر ثقلاً مما توقعت فرياً، وقد حاولت تخيل كيف يمكن استخدامه، لكنها لم تستطع، فالتابها الرعب، حتى أنها فكرت في مصارحة هيستير بمدى ارتياحها من المعركة القادمة، ولكن لم يكن ثمة وقت لذلك، حيث كانت هيستير قد بلغت باب قاعة الاحتفالات بالفعل وهي تشير لفرياً بإيماءة من رأسها للتقدم نحو الأمام. ومعاً دفعتا البوابة الثقيلة لتدلفا منها، لكن أحداً لم يلتفت نحوهما، فقد كان جميع من في القاعة، من صيادين وأسرى، على حد سواء، يتكأ كأون حول النوافذ، يطالعون بحجم النيران المتأجج في الخارج، والحجم المتطيرة فوق الميناء.

وكانت فرياً تقبض على المسدس بكلتا يديها المتعرقتين، في انتظار أن تصبح هيستير بإشارة بدء المعركة، من قبيل: ارفعوا أيديكم، أو: لا يتحرك أحد منكم، أو أي شيء آخر مما يقال في مثل تلك المواقف.

إلا أنها، على خلاف توقعاتها، وجدت هيستير ترفع قوسها في صمت وهدوء لتطلق سهماً نافذاً نحو أقرب الصيادين إليها، لتصيبه من الخلف: {مهلاً، هذا ليس...}. صاحت فرياً، لكنها لم تتم عبارتها، حيث فوجئت بالصياد الواقف بجوار الرجل يلتفت نحوهما بمجرد أن سقط زميله قتيلاً، ليطلق وابلاً من النيران صوبهما، فألقت فرياً بنفسها على الأرض تجنباً للطلقات، وقد راحت تقنع نفسها في دعر أن ذلك كله ليس حقيقياً. وبينما هي لم تزل على الأرض كانت تسمع صوت الطلقات تمر من فوقها، فيما انتزعت هيستير المسدس من يدها في لحظة خاطفة وصوبته تجاه الصياد ليسقط ميتاً في الحال بجانب زميله، وقد استحال وجهه إلى كتلة مغطاة بالدماء؛ وفي تلك اللحظة التقط سميو سلاح الرجل فوراً وصوبه نحو الصياد

الثالث، بينما كانت حالة من الذعر التام قد استولت على كل من في القاعة.... إلى أن... {راسموسين!}. دوت الصرخة عالية مدوية من شخص ما، هنا تغير كل شيء، واستحال الذعر الضارب أطنابه بين الأسرى المسلمين لحماسة، فيصيحون كلهم صيحة واحدة مزلزلة: {راسموسين}... إنها صرخة الحرب القديمة لأنكوراج، منذ أيام أسلاف فريا الذين قادوا الحرب يوماً ضد المطاردين من إمبراطوريات البدو وقراصنتهم الجويين... {راسموسين!}. صرخ الجميع، ودوت قعقة عالية، إذ قام أحد الصيادين المحتضرين بإطلاق رصاصة بأسنة لتصيب إحدى الثريات العملاقة المغبرة بالقاعة... ثم...

انتهت المعركة سريعاً، وتم القضاء على كافة الصيادين الذين كانوا بالقاعة، فتولت ويندولين باي مهمة تنظيم قومها لإسعاف الجرحى، بينما قام عدد من الرجال بنزع سيوف وأسلحة الصيادين القتلى للتسلح بها.

{أين سكايبوس؟}. صاحت هيستير، فأشار أحدهم ناحية الرجل، وكان مدير قسم المحركات يبدو متحمساً غاضباً، وفي يدي كانت إحدى بنادق الصيادين، فقالت له: {أركانجيل قادمة، لقد رأيت أضواءها من عند الميناء الجوي. سوف تحتاج لتحريك المدينة سريعاً}.

فأوماً سكايبوس، ثم قال: {ولكن هناك الكثير من الصيادين في قسم المحركات، كما أنهم قد قصفوا عجلة الدفع الخلفية، وبهذا لن يمكننا التحرك إلا بربع سرعتنا فقط عبر الجارات، وحتى هذا لن نتمكن من فعله قبل أن نقوم بفصل حطام عجلة الدفع عن المدينة}.

{افعلها إذن}. قالتها هيستير وهي تلقي بالقوس من يدها وتسحب سيفها. وكانت آلاف الأسئلة تعتمل في رأس سكايبوس، إلا أنه تجاهل أسئلته وأوماً إيجاباً، ثم اتجه ناحية الدرج وتبعه نصف الموجودين بالقاعة حاملين أسلحتهم، أما من لم يجد سلاحاً، فنههم من سحب معه كرسيّاً ومنهم من حمل الزجاجات كأسلحة مرتجلة.

أما فرياً، والتي كانت لا تزال مرتعبة، فقد وجدت أن من واجبها أن تكون على رأس ذلك الحشد وتقود الهجوم بنفسها، كأسلافها، وبالفعل همت لتمضي في طريقها مع الجمع الغاضب نحو الباب، إلا أن هيستير استوقفتها: {أنتِ إبقِي هنا، فقومك يحتاجون لوجودك على قيد الحياة. أين ماسجاردا؟}. {لا أعلم، أظن أنه كان يتجه نحو المدخل الرئيس}.

فأومأت هيستير، ايماءة قصيرة تحتمل كل المعاني، ثم قالت: {توم في المتحف}.

{توم هنا؟!}.

{رجاءً، ياسمو إشرافتك، احرصِي على أن يبقى في أمان بعد أن ينتهي كل ذلك}.

{ولكن...}. إلا أن هيستير لم تمهلها لتكمل جملتها، إذ كانت قد انطلقت تعدو، وأغلقت الباب من خلفها، في حين وقفت فرياً في حيرة من أمرها تتساءل عما إذا كان ينبغي عليها أن تنطلق وراءها، لكنها سرعان ما تراجعت عن تلك الفكرة، إذ أنها ليس لها قبلُ بمواجهة ماسجاردا.

عادت فرياً إلى قاعة الاحتفالات لتجد من تبقوا من قومها لا زالوا يرتعدون خوفاً، سواء كبار السن أو الشباب، المصابون منهم ومن لم يصب

بأذى، فجميع هؤلاء ما كانوا ليجرؤوا على المشاركة في المعركة. وكانت هي تنفهم مشاعرهم تماماً، فرفعت كفيها المتشابكين في قبضة تشجيع، راسمة على وجهها أفضل ابتسامة ممكنة لها كمارجافين لتطمئنهم، وفي صوت ثابت قالت: { لا تخشوا شيئاً، إن آلهة الجليد معنا }.

انطلق توم نحو قاعة الاحتفالات، وفي طريقه قابل سكايبوس والجموع المتحمسة من ورائه؛ إذ كانوا يتدفقون عبر الممر كأمواج بحر هائج تندفع عبر سفينة غارقة، وكانت الأضواء تلتمع على الأسلحة الصقيلة في أيديهم، في حين تبدى وجوههم الشاحبة في ضوء المصابيح. وقد خشي توم في البداية أن يهاجموه ظناً منهم أنه أحد الصيادين، إلا أن سكايبوس قد لمح وأدرك من هو على الفور، حيث صاح منادياً إياه واندفع نحوه هو والقوم وقد افترت وجوههم المألوفة عن ابتسامة وراحوا يصيحون ترحيباً بعودته ويربتون على كتفيه وصدرة في سعادة، في حين احتضنه سميو من خاصرته وهو يصيح باسمه في حماسة: { توم... كم أنا سعيد بعودتك ثانية... }.

{ هيستير } صاح توم وهو يحاول أن يشق طريقه بين الجموع المتدافعة الذين جرفوه معهم في طريقهم إلى خارج القصر... { أين هيستير؟ }.

{ لقد أنقذتنا ياتوم } صاح سميو { يالها من فتاة شجاعة، لقد اقتحمت القاعة التي كنا فيها وصرعت الصيادين بلا رحمة.. يالها من فتاة! }.

{ ولكن، أين هي؟.. سيد سكايبوس، هل هي معك؟ }

إلا كلماته قد ضاعت وسط الجموع الزاحفة نحو الخارج، وأصوات وقع الأقدام وصيحات الحرب { راسموسين! راسموسين! }، وقد راحوا يتعدون متجهين نحو الدرج المؤدي إلى قسم المحركات.

ومن موقعه حيث وقف، سمع توم أصوات الصيحات وطلقات النيران،
قادمة يتردد صداها من الأسفل؛ وقد فكر للحظة أن ينطلق نحوهم ويشاركهم
معركتهم، إلا أن قلقه على هيستير قد أثناه عن ذلك، فراح ينادي باسمها
وهو يركض عبر الثلوج نحو راسموسين بروسبكت. إلى أن توقف بغتة إذ
رأى فوق الجليد خطين ممتدين لآثار أقدام تتجه نحو الميناء، فوقف مترددا
للحظة وهو يتساءل عما إذا كان أحد هذين الخطين هو لهيستير... وهنا لمح
وجها يراقبه من وراء بوابة أحد المحلات على الجانب الآخر من الشارع...
{بروفيسور بيني رويال؟}.

إلا أن بيني رويال لم يجبه، وإنما اندفع هارباً، يتعثر فوق الجليد، ثم
اختفى في زقاق ضيق بين اثنين من المحلات، ومن قبضته سقطت بعض
العملات أثناء فراره، في حين كانت جيوبه مלאى بكميات من العملات
كان قد نهبها من آلة النقد في واحد من تلك المحال.

{بروفيسور!} صاح توم وهو يغمد سيفه ويعدو وراء الرجل {إنه أنا
يا بروفيسور، أين هيستير؟}.

وكانت آثار أقدام الرجل تقود نحو حافة الطبقة، حيث الدرج المؤدي إلى
الطبقة الأسفل، فهرع توم عبره في إثر الرجل متبعا آثار الحذاء الفاخر الكبير.

وبالقرب من الأسفل توقف توم فجأة وقد راح قلبه يدق بعنف، إذ
فوجئ أمامه بأجنحة سوداء ضخمة... إلا أنه أدرك في اللحظة التالية أنها ليست
أجنحة طائر مطارد كما حسب لأول وهلة، وإنما كانت الأجنحة مجرد شعار
معلق خارج إحدى الحانات تدعى «سبريد إيجل»؛ فاندفع إلى الداخل وهو
يتساءل في أعماقه عما إذا كانت معركته مع الطيور المطاردة في روجر ووست
قد تسببت له في خوف مرضي من كافة الطيور سيستمر معه إلى الأبد...

{بروفيسور بيني رويال؟}.

لم يكن ماسجارد موجودا عند المدخل الرئيس للقصر، حيث راحت هيسستير تبحث عنه، وهي تخطو بين جثث الرجال الذين قتلهم، وقد أخذت تفكر أين عساه أن يكون قد راح؟!... ربما عثر عليه رجال سكايبوس ونالوا منه، أو ربما تناهت إليه أصوات المعركة الضارية التي دارت رحاها منذ قليل، وقد أدرك أن الرياح قد أتت إليه بما لا تشتهي سفنه، وأنه على وشك الانهزام، فقرر الفرار، وربما هو الآن يهرع نحو الميناء الجوي على أمل إيجاد أي منطاد هناك يأخذه إلى أركانجيل.

ثم إنها سلكت طريقها عبر الغرفة الحرارية بالمدخل، وقد كان قناع البرد يعيق رؤيتها فنزعته عن وجهها وألقته بعيدا، ثم انطلقت إلى حيث راسموسن بروسبكت، بينما قطع الثلج المتساقطة تضرب وجهها. وأمامها امتدت آثار أقدام طازجة فوق الثلج، فتبعتها، إلى أن وجدت رجلاً جاثيا بالقرب من جثث الرجال الذين قضوا في محرقة الميناء الجوي... لقد كان بيتور ماسجارد ذاته.

راحت هيسستير تقترب بحذر نحو الرجل، وقد سمعته يردد أسماء رجاله القتلى: {جارستانج.... جوستافسون... سبروو؟}. وكان صوته مفعما بالرعب...

أدركت هيسستير حينها أن بيتور ماسجارد ما كان سوى مجرد فتى ثري متفاخر يهوى لعب دور القراصنة ويستمتع به، لكنه لم يكن ليتوقع يوماً أن يضطر لخوض معركة حقيقية في حياته، أو أن يقف أحد في مواجهته ويقاومه... لقد أشعل فتيل المعركة، والآن هاهو ذا يقف أمام جذوتها المتوهجة ولا يدري ماذا يصنع.

{ماسجارد!}. صاحت هيسستير.

فالتفت الفتى نحو مصدر النداء وهو يتنفس بصعوبة، ومن ورائه كان منطاده قد تحول إلى كومة من معدن متفحم.

رفعت هيستير سيفها، فصرخ ماسجارد بها: {أية لعبة تلعبينها أيتها الملاحه؟... لقد بعث لي تلك المدينة، والآن تحاولين مساعدة أهلها على استعادتها؟ أنا لا أفهم! ماذا تخططين له بالضبط؟}.

{لا توجد خطط، أنا فقط اتصرف وفقا لما تقتضيه ظروف الحال}.

استل ماسجارد سيفه، وأخذ يلوح به بينما كان يتقدم نحو هيستير، فما إن صار على بعد بضعة أقدام منها حتى اندفعت هيستير نحوه لينغرس سيفها في كتفه. ولم تكن تحسب أن تلك الضربة يمكن أن تحدث ضررا كبيرا، إلا أنها فوجئت بماسجارد يسقط سيفه من يده ويضع كفه على الجرح الدامي، ثم يهوى فوق الثلوج صائحا: {رجاء، الرحمة!}. ثم إنه دس يده في جيب معطفه الثقيل ليخرج حافظة أموال مكتنزة ويفرغها فوق الثلوج أمامها لتساقط منها العملات الذهبية البراقة: {الفتى ليس هنا، ولكن خذي تلك الأموال ولا تقتليني، دعيني أعش، رجاء}.

إلا أن هيستير لم تكثر ث لتوسلاته، فنشت نحوه إلى أن بلغت موضعه، ورفعت سيفها لتهوى به مرارا عليه إلى أن سكنت صرخاته تماما. ثم ألقت بالسيف من يدها ووقفت ترقب الثلوج إذ تصطبغ بدماء ماسجارد الشاب ويستحيل لونها إلى الأحمر القاني، بينما قطع الثلج المتساقطة من السماء تدفن العملات الذهبية التي ألقتها تحت قدميها.

ظلت هيستير جامدة في مكانها وقد اعترها شعور غريب بالإحباط، إذ لم تكن تتوقع أن تنتهي هذه الليلة على هذا النحو، هكذا فقط!، وإنما كانت تنتظر المزيد... كانت تتوقع أن تلقى مصرعها، لا أن تبقى على قيد الحياة

بعد كل ما حدث والرجال الذين أردتهم قتلى، سواء من الصيادين أو أهل أنكوراج الذين ولا بد قد سقط منهم ضحايا في تلك المعركة، والتي ما كانت لتندلع وما كان لهذا كله أن يحدث لولاها هي...

أيعقل بعد كل ما اقترفته يداها أن يمر الأمر دون عقاب؟!

هنا، ومن مكان ما بين المستودعات في الطبقة الأسفل انطلق دوي طلقة نارية واحدة.

قادت آثار الأقدام المرتسمة فوق الثلوج، توم إلى حيث الشوارع المألوفة، والتي أمست مضاءة بوهج الحريق القادم من الميناء في الأعلى. وكان توم قد بدأ يشعر بالتوتر والاضطراب، بينما كان ينعطف نحو الركن، حيث كان قد رسى وهيستير بالجيني هانيفر في ذلك الموضع؛ هنا رأى بيني رويال وقد راح يحاول فتح باب المنطاد!

{بروفيسور!!}. صاح توم في غضب وهو يتقدم نحو الرجل: {ما الذي تفعله؟}.

فالتفت بيني رويال نحوه وهو يغمغم: {اللعة}. حين أدرك أنه قد تم كشفه، ومع ذلك فقد صاح بعجرفة: {وماذا تراني أفعل ياتوم؟ إنني أحاول الإفلات من ذلك الجحيم قبل فوات الأوان، ولو أن لديك شيئاً من العقل فسوف تأتين معي... يا لبوسكيت العظيم! لقد أجدت إخفاء المنطاد حقاً، وقد أضناني البحث حتى وجدته أخيراً...}.

{ولكن لم يعد ثمة حاجة للرحيل الآن... يمكننا أن ندير محركات المدينة الآن ونفلت من أركانجيل. على أية حال، أنا لن أغادر من دون هيستير}.

{بل سوف تفعل لو أنك علمت بما اقترفته هي... هذه الفتاة ليست جيدة ياتوم، إنها مخبولة تماماً، مخبولة مثلها هي قبيحة}.

{اياك أن تتحدث عنها بهذا الشكل}. صاح توم في سخط وغضب، ومد يده ليجر البروفيسور بعيدا عن بوابة المنطاد، ليفاجأ بالرجل وقد سحب مسدسا من معطفه وأطلق عليه النار ليصبه في صدره.

لم يدر توم إلا والطلقة تطيح به للوراء ليستقط فوق الثلوج... لقد حاول المقاومة، لكنه لم يستطع، وفي صدر معطفه كان ثقب ساخن يتدفق منه الدماء... {هذا ظلم!}. همس توم وقد بدأ يشعر بشلال من الدماء يتدفق صاعدا عبر حنجرتة ليلاً فمه بالمذاق الدافئ الصديئ قليلاً، وراح ينتفض إذ تضربه موجات الألم واحدة تلو الأخرى.

ومن بعيد تبدى له صوت خطوات فوق الجليد، بينما هرع بيني رويال نحوه لينحني بجواره وهو لا يزال ممسكا بالمسدس، وقد بدا مصدوما بما قد وقع {أووه، أنا آسف، لقد قصدت تخويفك فقط.. لكن الرصاصة انطلقت رغما عني. أنا لم أستخدم سلاحا من قبل، وقد أخذت ذلك المسدس من كف واحد من الرجال الذين صرعتهم فتاتك}.

{ساعدني...}. همس توم في وهن من بين دمائه، فقام بيني رويال بفتح معطف توم سريعا ونظر إلى حيث الثقب في صدره، ثم هز رأسه في آسف. ثم إنه راح يفتش الجيوب الداخلية للفتى المصاب إلى أن أخرج مفاتيح الجيني هانيفر.

هنا شعر توم بالألواح الأرضية ترتعش من تحته وأدرك أن محركات المدينة قد عادت لتعمل من جديد، بينما كان صوت المناشير والقواطع يدوي من الطرف الخلفي للمدينة لقطع بقايا العجلة الخلفية، فاستجمع

ما تبقى لديه من قوة، وقال بصوت بدا غريبا عليه: {اسمع، أنت لست في حاجة لأخذ الجيني هانيفر. السيد سكايبوس سوف يتحرك بنا مرة أخرى وسنفلت من أركانجيل..}.

{حقا؟!} قالها بيني رويال وهو يهب واقفا على قدميه: {يالك من رومانسي ياتوم. وأين تظن أن المدينة ستذهب إذن؟ لا يوجد أراض خضراء في أمريكا، أم تراك نسيت؟.. هذه المدينة تسير إما نحو الموت البطئ بين الجليد أو الموت السريع في أحشاء أركانجيل. وفي كلتا الحالتين لا أنوي البقاء هنا لحين تحقق أي منهما}.

ثم أدار ظهره للفتى الملقى على الأرض وراح يمضي إلى حيث المنطاد وهو يطوح بالمفاتيح في الهواء ليلتقطها من جديد، ويقول: {علي أن أرحل الآن، آسف مرة ثانية}.

حاول توم أن يزحف عبر الثلوج، وقد كان مصمما على أن يجد هيسستير، ولكن، لم يكد يتجاوز بضعة أقدام، حتى خارت جميع قواه، فرقد متهاكاً فوق الجليد. وبعد لحظة تنأى إليه صوت محركات المنطاد وهو يرتفع في الهواء، ثم يختفي بين المستودعات، قبل أن يخلق نحو الأعلى حيث الظلام.

لم يعد شيء يهم... حتى الموت ما عاد يهم توم، صحيح أنه قد بدا له الأمر غريبا أن يفلت من مطاردة مناطيد العاصفة الخضراء، وأن ينجو من قبضة المطاردين، ويخرج سالما من مغامرة عجيبة تحت سطح البحر مع الصبية المفقودين، لينتهي به الأمر ميتا فوق الثلوج هكذا.

وكان الثلج لا يزال يتساقط، لكنه ما عاد يشعر ببرد ولا صقيع... بينما كان الصمت يغلف كل شيء، ويلف العالم بحلم يسوده السلام.

(٣٣)

جليد هش

مع شروق الشمس، سادت حالة من الحماسة والفرح عبر قسم المحركات، إذ كانوا قد نجحوا أخيرا في الانتهاء من فصل حطام عجلة الدفع عن المدينة، وبدأت أنكوراج في التحرك من جديد نحو الجنوب إلى الجنوب الغربي. ومع ذلك، وبسبب تدمير العجلة والاضطرار للتخلص منها ومن ثم الاعتماد على الجرافات وحدها، باتت سرعة أنكوراج ضئيلة، بالكاد تصل إلى عشرة أميال في الساعة. ومن بين زخات الثلوج المتواصلة كانوا بالكاد يرون أركانجيل إذ تلوح في الأفق جهة الشرق.

وقفت فريا بجانب السيد سكايبوس عند الطرف الخلفي للمدينة، وكان الرجل يضع ضمادة على جبهته وكان قد أصيب خلال المعارك في قسم المحركات، لكنه كان المصاب الوحيد هناك، حيث سرعان ما أدرك الصيادون أن أعداد مهاجميهم أكبر من أن يتمكنوا من الانتصار عليهم، ففروا سريعا إلى حيث الثلوج في انتظار أن تأتي مدينتهم لتقذهم.

{لدينا أمل واحد فقط لا غير}. غمغم سكايبوس بينما وقف إلى جانب فريا يتأملان الأضواء المتبدية من المدينة المفترسة: {لو أننا استطعنا أن نفر بعيدا نحو الجنوب على مسافة كافية، فإن طبقات الثلج هناك أكثر هشاشة مما سيَجبرهم على التوقف عن مطاردتنا}.

{ولكن لو أن طبقات الجليد هشة هناك فإننا كذلك لن نتمكن من عبورها، أليس كذلك؟}.

{عنصر المخاطرة قائم دائما، كما أننا لن يكون لدينا متسع من الوقت كي نرسل فرق استطلاعنا والمسح الأرضي للكشف عن وضع الجليد هناك. سوف يكون علينا المضي قدما بأقصى سرعة ممكنة لنا، ولنا أمل خيرا... إما وصلنا أمريكا وإما هلكنا، صحيح؟}.

{نعم}. قالتها فريا، إلا أنها مالبت أن شعرت بأنها ماعاد بإمكانها الاستمرار في تلك الكذبة لأكثر من ذلك، {لا، لا ياسيد سكايبوس، إن الأمر يرمته كذب... بيني رويال خدعنا، إنه لم يرتحل يوما إلى أمريكا، وإنما اختلق ذلك كله. ولهذا أطلق النار على توم وأخذ الجيني هانيفر وفر هاربا}.

{آه، حقا؟}. قالها سكايبوس ببساطة وهو يلتفت نحوها، فانتظرت فريا أن يقول المزيد، لكنه لم يفعل!، فسألته في حيرة: {هكذا فقط؟ (آه، حقا؟)!، أهذا كل رد فعلك تجاه ما قلت؟ ألن تلومني؟، ألن تقل لي إنني مجرد فتاة حمقاء كي أصدق بيني رويال؟}.

فابتسم سكايبوس، ثم قال: {حسنا، سأكون صادقا معك يافريا، لقد كنت أشك في هذا الرجل منذ البداية، وكنت أشعر بأن ثمة شيئا ما ليس على مايرام بصددده}.

{إذن لماذا لم تقل شيئا؟}.

{لأن الرحلة دوماً أهم من الوصول ذاته... تذكرني حال مدينتنا قبل أن نبدأ الرحلة، كما عبارة عن حطام متحركة، كما موتى يافريا. إن هؤلاء الذين بقوا على متن المدينة بعد الوباء كانوا بقايا بشر، تفيض قلوبهم بالحسرة واليأس لدرجة أنهم لم يكن في مقدورهم أن يفكروا أنه يمكن لهم أن يذهبوا ليستأنفوا حياتهم، فبقوا. لقد كما أشباح أكثر منا بشر. والآن، انظري إلينا كيف صرنا، بل وكيف صرت أنت نفسك. لقد زلزلت تلك الرحلة أعماقنا وايقظتنا من موأنا فعدنا على قيد الحياة من جديد... إنه الأمل}.

{نحن على قيد الحياة الآن، لكننا لن نظل كذلك لفترة طويلة}. قالت فريا.

{حتى لو ان الأمر كذلك، فلا بأس. وإن كما لانعرف بعد ما ينتظرنا هناك، ربما وجدنا شيئاً ما أو طريقاً ما، فقط إن تمكنا من النجاة من فكي ذلك الوحش أركانجيل}.

ثم أنهما وقفا صامتين جنباً إلى جنب، يتأملان تلك المدينة المفترسة من ورائهم، والتي بدت مع الوقت أكبر واقرب وأكثر قتامة.

{عليّ أن أعترف}. قال سكلبيوس بعد فترة من الصمت {صحيح أنني لم أكن أثق ببيني رويال، لكنني ما كنت لأتخيل يوماً أن يصل به الأمر إلى حد إطلاق النار على الناس.. كيف حال المسكين توم؟}.

كان توم يرقد على الفراش كتمثال من رخام، بينما أثار الخلدوش من معركته مع الطيور المطاردة في روجز رويست لاتزال بادية على وجهه الناصع.

وحينما أمسكت هيسستير بكفه بين يديها وجدته بارداً كالثلج، فقط كان النبض الخافت الضعيف هو ما يخبرها بأن فتاها لازال على قيد الحياة.

{آسفة ياهيستير}. قالتها ويندولين باي هامسة، وكأنا تخشى أن يجذب صوتها، إن هي رفعته، آلهة الموت إلى تلك الغرفة بالقصر الشتوي التي تحولت إلى مشفى مرتجل.

لقد ظلت الملاحظة المخضمة ساهرة آناء الليل وأطراف النهار ترعى الجرحى والمصابين، وبخاصة توم الذي كانت إصابته بالغة حقاً. وقد بدت المرأة منهكة مرهقة تماماً، مما جعلها تبدو أكبر سناً من حقيقتها.

{لقد فعلتُ كل ما بوسعي، لكن الرصاصة قد استقرت قبالة قلبه، وما كنت لأجرؤ على المخاطرة بمحاولة استخراجها، ليس في ظل الوضع الحالي والمطاردة الدائرة}.

فهزت هيستير رأسها وهي تنظر نحو كتف توم، وقد كانت غير قادرة على التطلع إلى وجهه، في حين قامت الآنسة باي بإحكام الأغشية حول جسده فيما عدا كتفه المصابة وذراعه اللذين بقيا عاريين.

كان كتفه شاحب اللون يتناثر عليه النمش، وقد بدا لهيستير أجمل ما يمكن أن تراه عيناها، فأخذت تمس ذراعه وتتحسس عضلاته والأوتار القوية تحت الجلد إذ تمرر أناملها بين الشعيرات الناعمة المنتشرة عليه. وقد أحس توم بلمساتها، فنظر إليها بعينين نصف مفتوحتين وهمس في وهن: {هيستير... لقد أخذ الجيني هانيفر، أنا آسف}.

{لا بأس ياتوم، لا بأس، لايعنيني المنطاد، كل ما يعنيني هو أنت}.

حينما عثروا عليها واخبروها أن توم قد أصيب بطلق ناري وأنه يحتضر، ظنت في البداية أن هناك خطأ ما، أما الآن فقد أدركت انه ليس ثمة خطأ على الإطلاق، بل على العكس... ذلك هو عقابها جراء تسليمها مدينة فريا

لفكي أركانجيل. إنه عقابها أن تجلس هنا في تلك الغرفة وتشهد توم إذ يموت أمام عينيها، إنه عقاب أسوأ وأبشع بكثير مما لو كانت قد ماتت هي.

ثم إنها همست: {توم}..

{لقد فقد وعيه من جديد، ياله من مسكين}. قالتها واحدة من النساء اللواتي يساعدن الآنسة باي في أعمال التمريض، ثم إنها راحت تمسح جبين توم بمياه باردة، بينما أتى أحدهم بمقعد لهيستير.

وفي الخارج كان الظلام قد بدأ يحل، بينما إلتمعت أضواء أركانجيل عبر الأفق.

ومع شروق شمس اليوم التالي، كانت المدينة المفترسة لا تزال أقرب، وكان بإمكان أهل أنكوراج أن يروا تفاصيل مبانيها في الأوقات التي لا تتساقط فيها الثلوج، حيث كان بمقدورهم تمييز هياكل المصانع وعنابر التفكيك، وسجون عبيد المدينة الممتدة بلا نهاية على متنها، وكذلك المعبد الضخم للإله الذئب الذي يقع في قمة أعلى طبقة بالمدينة.

وفيما كانت ظلال أركانجيل تمتد عبر الجليد نحو أنكوراج، اقترب منطاد إستطلاع وأخذ يحوم في الأجواء لاستكشاف ما أصاب بيتور ماسجارد ورجاله، وقد راح يدور للحظات فوق حطام المنطاد المحترق، ثم مالبث أن استدار وآب عائدا من حيث أتى.

وبينما كان حاكم أركانجيل في حالة حداد على إبنه، قرر مجلس المدينة عدم إرسال المزيد من المناطيد إلى أنكوراج، حيث ارتأوا أنه ما من داع لإهدار المزيد من المناطيد للحصول على مدينة سوف تسقط على أية حال بين فكي مدينتهم بحلول غروب الشمس. وبالفعل لم تقترب أي مركبات أخرى من أنكوراج لباقي ذلك اليوم.

وراحت أركانجيل تستعرض أمام الناظرين من على متن فريستها المزمعة، فكيها العملاقين وأفرانها الضخمة ومحركات التفكيك الرهيبة التي تنتظرهم، في مشهد مربع لا يمكن نسيانه.

وفي اجتماع طارئ للجنة التوجيهية، في عصر ذلك اليوم في أنكوراج، صاح سميو: {علينا أن نرسل إليهم رسالة عبر جهاز الإرسال نذكرهم فيها بما قد حدث لرجالهم الذين أتوا إلى مدينتنا، وأن نحذرهم أن نفس المصير سوف يلقونه لو لم يتراجعوا}.

لم تحر فريا جوابا، وقد حاولت جاهدة التركيز في النقاش الدائر، إلا أن عقلها لم يكن حاضرا معها في الاجتماع، بل كان هناك في غرفة التمرير بالقصر، حيث يرقد توم، وقد راحت تتساءل ما إذا كان لا يزال على قيد الحياة.

وقد كانت تود لو تذهب لتظل بجواره ومعه، إلا أن الأنسة باي قد أخبرتها أن هيستير هناك لا تبارح مكانها بجواره. وقد كانت فريا لا تزال تحشى تلك الفتاة، خاصة بعدما فعلته في الصيادين... [أما كان من الأفضل لو كانت هيستير هي التي أصيبت؟! أو كان يجب أن يصاب توم؟!]...

{أظن أن ذلك سوف يزيد الأمر سوءا ياسميو}. جاء صوت سكايبوس ليخرجها من شرودها، وكان قد انتظر للحظات كي يفسح لها كمجارفين أن تقول رأيها، فلما لم تنفوه بشئ، تكلم هو: {لا نريد أن نستفزهم أكثر}.

فجأة سمعوا دوي شديد أشبه ما يكون بطلقة مدفع، لدرجة أن زجاج النوافذ قد اهتز بقوة، فنظر الجميع نحو الخارج..

{إنهم يطلقون النار علينا!}. صاحت باي في رعب، ومدت يدها تمسك بيد السيد سكايبوس.

{لن يفعلوا ذلك}. صاحت فريا، ثم وثبت من مكانها وهي تلتقط فرائها وتضعه على كتفها بينما تهرع نحو الشرفة، فتبعها باقي الحاضرين.

ومن مكانهم بالشرفة، كان باستطاعة الجمع رؤية أركانجيل التي باتت قاب قوسين أو أدنى منهم، وكانوا يسمعون صوت زلاجاتها إذ تزحف ورائهم عبر تلك المنطقة الجليدية التي لم تطأها مدينة من قبل.

ثم جاء الدوي الثاني، فأدركت فريا أنه ليس ناتج عن إطلاق نار، وإنما هو صوت الشئ الذي يخشاه كل إنسان عاش على متن مدينة جليدية... صوت تصدع الجليد.

{آه، يالآلهة}. غمغم سميو.

بينما صاحت باي: {ينبغي أن أكون في وحدة قيادة المدينة الآن}.

{ينبغي أن أكون في قسم المحركات}. قال سكايوس.

ولكن لم يكن ثمة وقت لأي من هذا، وما كان لأحد منهم أن يتحرك لأي مكان، فلم يكن بمقدور أي شخص فعل أي شئ الآن سوى الانتظار ومشاهدة مايقع.

{أوه... لا.. لا.. اوه... لا!}. راحت فريا تردد دون أن تدري.

دوى الهدير الثالث، أكثر حدة هذه المرة، كأنفجار الرعود، فرفعت فريا رأسها لأعلى، وراحت تحديق في أركانجيل لتر ما إذا كانوا قد سمعوا ذلك الدوي أيضا أم لا، وما إذا كانوا قد قاموا بتشغيل فرامل الجليد، هذا إن كان ثمة شئ يمكن أن يمنع ما سوف يقع.

تمسكت فريا بكلتا يديها بإفريز الشرفة وقد راحت تتضرع إلى آلهة الثلوج، وإن كانت لم تعد تدري حقا ما إذا كانت لاتزال تؤمن بهم، ولكن

من عساها تلجأ إليه ليساعدها الآن غيرهم... {دعونا نمر من ذلك سريعا
أيها الآلهة}. راحت نئوسل {ولكن لاتجعلونا نغرق في الجليد}.

دوى الانفجار من جديد، أعلى وأشد، وهذه المرة رأت فريا ذلك الشق
إذ ينفق... صدع مخيف يتسع لربع ميل نحو ميمنة المدينة، إلا أن قائد
الدفة قد تمكن من تحويلها في الوقت المناسب قبل السقوط في الصدع.
تساقطت الأواني الزجاجية داخل القصر وتحطمت تماما، بينما كان الجليد
في الخارج آخذ في التشقق من كل جانب، حتى باتت الشقوق تقترب من
بعضها البعض حتى تكاد تتصل.

وعند الطرف الخلفي من أنكوراج، كانت أركانجيل قد ارتأت انه لم
يعد من الممكن الإستمرار في تلك المطاردة لأبعد من ذلك، وأمام عيني
فريا المرتعبتين انفتح الفكان العملاقان على أقصى اتساعهما، في حين هرع
العمال نحو الأحشاء، بينما تجمع السكان في معاطفهم الفرائية في الشرفات
بالطبقة العليا بالمدينة المفترسة ليشهدوا عملية الاقتناص.

وفي غضون لحظات قليلة، وقبل أن يتمكن الفكان من الانقضااض على
الطرف الخلفي لأنكوراج، تغير كل شيء، وبدا وكأن أركانجيل ترتجف
برمتها، ومن الأرض الجليدية انبثق فجأة شلال أبيض من الثلوج، وكأنما
هو ستار قد تم مده بين المدينتين، وتناثر الثلج عبر أنكوراج ليغمرها، بينما
كانت أركانجيل تحاول في رعب التشبث بأي شيء، وثبتت عجالاتها فوق
أي أرض صلبة، ولكن دون جدوى، فالجليد من تحتها لم يتحمل الثقل
والحركة، فتصدع تماما ثم تهاوى.

وببطء راحت المدينة المفترسة الضخمة تسقط أمام أعين فريا وقومها،
كجبل ينهار، وقد مالت نحو الأمام وانغمس فكيها والأجزاء الأمامية من

طبقتها السفلى في صدع متعرج من المياه السوداء، بينما انفجرت سخانات
المحركات مع تدفق المياه الثلجة عبر الأفران إليها.

ومع ذلك، فلم تكن مشاكل أنكوراج قد انتهت بعد، فقد كانت هي
الأخرى عالقة في نفس المأزق المميت، ولم يكن لدى أي من سكانها لا
الوقت ولا المزاج للاحتفال بسقوط أركانجيل والنجاة من الافتراس.

وراحت أنكوراج تتمايل وترتج بشدة، إذ أخذت تكافح من أجل البقاء
فوق الجليد؛ ولم تكن فريا قد شهدت اهتزازات عنيفة كهذه من قبل،
إلا أنها كان بوسعها تخمين ما تعنيه، فمدت يديها تمسكان بيدي الآنسة باي
وسميو بقوة، بينما كانت باي تثشب بيد سكايبوس... تمسك الجميع ببعضهم
البعض ووقفوا في أماكنهم ينتظرون معاً لحظة النهاية، حين تسقط المدينة
وتغمر المياه السلام والطبقات وصولاً إليهم لتغرقهم، وتنتهي أنكوراج.

وقفوا ينتظرون، وينتظرون... وببطء راح ضوء النهار ير حل بعيداً ليحل
محله المساء، وعاد الثلج التساقط من جديد، وهم بعد ينتظرون...

{أظن أنه من الأفضل أن أحاول الوصول إلى قسم المحركات}. قالها
سكايبوس على استحياء، وهو يحريده من أيديهم بلطف، ثم هرع نحو
الأسفل.

وبعد برهة من الوقت، شعرت فريا بتوقف المحركات، وبدأت حركة
المدينة تهدأ قليلاً، إلا أن الأرضية كانت لا تزال مائلة بشكل غير طبيعي.

عاد سميو والآنسة باي إلى الداخل هرباً من البرد، أما فريا فقد ظلت
في مكانها بالشفرة، وأمامها كان الليل والثلج يغلفان حطام أركانجيل، لكنها
كانت لا تزال ترى بعض من أضوائها، وتسمع هدير محركاتها وهي تحاول جر
المدينة إلى أرض أكثر صلابة.

إنها لاتدري بعد ما الذي وقع لمدينتها أنكوراج، فقط كل ما تعرفه الآن أن المدينة لازالت تتحرك بالرغم من توقف محرركاتها، حركة ثابتة بعيدا عن أركانجيل.

ومن بعيد لمحت هيئة شخص يهرع عبر حدائق القصر، فانحنى فريا قليلا فوق إفريز الشرفة، ثم: {سيد أكيوك}.

فالتفت الرجل ينظر لأعلى نحوها، ثم صاح: {فريا، هل أنت بخير؟}.
فأومأت أن نعم، ثم: {ما الذي يحدث بالضبط؟}.

فكور أكيوك يديه حول فئه وصاح: {إننا نطفو! ولا بد أننا الآن قد وصلنا نحو حافة الأرض الجليدية. إن الكتلة الجليدية التي نحن فوقها قد تحررت من باقي الجليد وطفت بنا}.

راحت فريا تحديق عبر الظلام إلى خارج حدود المدينة، إلا أنها لم تستطع تمييز أي شيء، ولكن على الأقل قد باتت تفهم الآن سبب تلك الحركة في الألواح الأرضية... إن مدينتنا تطفو!، حيث استقرت فوق طوافة من الجليد عبر المساحة الممتدة من الثلوج إلى حيث قلب القارة الميتة.

{بيني رويال!}. صاحت فريا في الظلام نحو السموات الخاوية.. {لسوف تنتقم منك الآلهة على جلبنا إلى هنا}.

لكن الآلهة لم تعاقب بيني رويال.

كان الرجل قد استخدم العملات الذهبية التي سرقها في التزود بالوقود، وها هو ذا قد حلق بعيدا نحو الشرق. ولم يكن بيني رويال ملاحا جيدا، لكنه كان محظوظا ولم يعانده الطقس أو يقابل رياحا عاتية. وفي طريقه صادف مدينة جليدية شرق جرين لاند، فهبط إليها، وهناك قام بإعادة

طلاء الجيني هانيفر، وتغيير اسمه، ثم قام باستئجار ملاحه حسناء تدعى «كيوباي كوين ترافل» لتقود المنطاد به نحو الجنوب. ولم تمر بضعة أسابيع حتى كان قد عاد إلى بريغتون، ليحكي لأصدقائه عن مغامراته العظيمة في الشمال المتجمد.

أثناء ذلك كان حاكم أركانجيل قد بات مضطرا لمواجهة حقيقة أن مدينته قد سقطت وما عاد من الممكن إنقاذها. وكان العديد من أثرياء المدينة قد فروا منها متجهين نحو الشرق على متن يخوتهم الطائرة ومناطيدهم الخاصة. حتى أرامل بلينكو الخمس كن قد تمكن من جمع ما يكفي من الأموال، فالتجهن إلى مدينة «جيجر ستات أولم» حيث ابتعن هناك فيلا فاخرة بالطبقات العليا منها.

أما العبيد الذين كانوا قد تمكنوا من السيطرة على الطبقات السفلى من أركانجيل أثناء الفوضى التي ضربت كل شيء، فقد غادروها هم أيضا، على متن السفن الجوية التي سرقوها أو زحافات المسح الأرضي التي استولوا عليها، أو حتى على متن الضواحي المسيرة التابعة للمدينة.

وفي النهاية، صدر أمر عام بإخلاء المدينة، وبحلول منتصف الشتاء كانت المدينة قد باتت خاوية على عروشها، كجثة داكنة هائلة الحجم ملقاة بين الجليد الذي سرعان ما زحف عليها ليحيلها إلى كتلة بيضاء، قبل أن يخفي ملامحها وهيئتها تماما تحت طبقة كثيفة من الثلوج.

وفي نفس الموسم الشتوي كان عدد من بلدات بدو الجليد المرتحلين، قد زاروا حطام المدينة، فقاموا بإفراغ صهاريجها مما تبقى بها من وقود، بينما انتشر أفراد تلك البلدات بين جنباتها وراحوا يجمعون كل ما تيسر لهم العثور عليه من ممتلكات ثمينة كان أهل أركانجيل الفارين قد تركوها خلفهم.

وبحلول الربيع، كانت السفن الجوية لجامعي المخلفات تحوم حول الحطام، إلا أن الجليد أسفل المدينة المحطمة قد صار أضعف مع ارتفاع درجات الحرارة.

وفي ليلة حارة تضيئها شمس منتصف الليل بفصل الصيف، راحت الحطام ترتعش من جديد وسط الجليد المتشظي، لتمضي المدينة التي كانت يوما مهيبة، في رحلتها الأخيرة نحو الأعماق، حيث مياه البحر الباردة في الأسفل.

والحقيقة أن ذلك الصيف قد جاء محملاً بالأحداث، والأنباء المثيرة كذلك، خاصة من «شان جو»، حيث وقع انقلاب داخل جماعة مناهضة التحرك، وتمت الإطاحة بالجلس الأعلى، ليحل محله جماعة تدعى «العاصفة الخضراء» يقودها مطارد ذو قناع بروزي.

إلا أن أحدا من المدن في ساحة الصيد العظمى لم يهتم بهذا الخبر، فما الذي يعينهم في قيام حفنة من مناهضي التحرك بالانقلاب على بعضهم البعض؟!...

وعلى متن باريس ومانشستر وبراغ وتراكشن جراد وجوركي، كانت الحياة تسير على وتيرتها المعتادة، حيث كان الجميع يتحدثون حول سقوط أركانجيل العظيمة و..... يقرأون كتاب نيرود بيني رويال الجديد..

يسر دار فيوميت وسبرينت للنشر أن تقدم لكم أحدث كتب المؤلف العظيم نيرود بيني رويال، صاحب الأعمال الأكثر مبيعا مثل «أمريكا الجميلة» و«مدن زيجورات»...

كتاب «ذهب المدينة المفترسة».

والمأخوذ عن قصة حقيقية لمغامرات البروفيسور بيني رويال على متن أنكوراج، والذي قامت المارجرافين الجميلة، والمجنونة كذلك، لتلك المدينة بأسره على متن مدينتها، حيث كانت مهووسة بفكرة قيادة المدينة عبر أعالي الجليد إلى حيث أمريكا.

كتاب عظيم هو، مفعم ب:

* الإبهار: مع معارك بروفيسور بيني رويال ضد القراصنة الطفيليين القادمين من تحت الجليد

* الذهول: حيث سيذهل القارئ بانطباعات البروفيسور العظيم عن عالم الثلوج البري غرب جرين لاند والمدن الوحشية هناك.

* الحزن: مع القصة المأساوية للملاحه الشابة المشوهة التي دفعها حبها اليأس للمستكشف المغوار إلى خيانة أنكوراج وبيعها للمدينة المفترسة أركانجيل.

* الحماسة: مع مواجهات بروفيسور بيني رويال ضد صيادين أركانجيل وانتصاره عليهم وحده.

* التشويق: مع وصفه لآخر أيامه على متن أنكوراج، أجمل مدن الجليد، ونجاته منها قبيل غرقها في المياه المتجمدة في بحر مجهول.

(٣٤)

أرض الضباب

لكن أنكوراج لم تغرق، وإنما راحت تسري بعيدا عن أركانجيل، تدفعها التيارات القوية، وظلت طافية وسط ضباب كثيف فوق كتلة من الجليد.

ومع شروق شمس اليوم التالي، تجمع غالبية سكان أنكوراج عند إفريز الطبقة العليا. فمع توقف محركات المدينة، لم يعد لديهم الكثير من الأعمال لينشغلوا في أدائها، كذلك كان المستقبل يبدو لهم قائما ومجهولا بحيث لم يعد أحد يشأ ذكره أو التحدث عنه.

وهكذا، تجمعوا في صمت عند الإفريز يستمعون إلى صوت الأمواج إذ تضرب الجليد، ويحدقون عبر الضباب عليهم يرون لمحة من ذلك المنظر الجديد الغريب عليهم... البحر.

{هل تظن أنه مجرد بركة ماء أخرى؟ أم أنه إمتداد ضيق يفضي إلى مياه مفتوحة؟}. تساءلت فريا في أمل، بينما راحت تشق طريقها بصحبة اللجنة التوجيهية للمدينة، نحو منصة المراقبة الأمامية.

والحقيقة انها كانت في حيرة من أمرها بصدد ما ينبغي على مارجرافين أن ترتديه في مثل تلك الأجواء المائية، لذا فقد ارتدت معطفها قديما مطرزا واقيا من المياه وحذاء جلدي واد كانت ترتديه دوما في رحلاتها على متن زورق الجليد الخاص بوالدتها، وكذلك قبعة ملائمة لزيها ذات كور صوفية راحت تترجرج مع حركتها بشكل مبهج بما لا يتلاءم مع الظروف القائمة التي يمرون بها مما جعل فريا تندم على ارتدائها.

{ربما يمكننا الانجراف عبره إلى أن نجد أرضا جليدية نسير فوقها من جديد؟}

إلا أن ويندولين باي، والتي بدت شاحبة مجهدة من أثر السهر على رعاية المرضى في غرفة التمريض، قد هزت رأسها وقالت: {اعتقد ان تلك المياه لن تتجمد حتى منتصف الشتاء. أظن أننا سنظل نطفو حتى نصل إلى أحد الشواطئ المنعزلة، أو أن ينكسر ذلك اللوح الجليدي الذي نطفو فوقه فنغرق... مسكين توم، مسكينة هيستير، لقد جاءا كل تلك المسافة لإنقاذنا، ولكن دون جدوى}.

فخاوطها السيد سكايبوس بذراعه مواسياً فمالت بدورها نحوه. أما فريا فقد نظرت في الاتجاه الآخر وقد شعرت بالحرج. وكانت تتساءل في داخلها عما إذا كان عليها أن تخبرهم بأن كل ما حدث لهم كان بسبب هيستير أساسا وأنها هي من باعتهم لأركانجيل... لكنها شعرت بأن ذلك لن يكون عادلاً نوعاً ما لتلك الفتاة المسكينة التي صارت تلازم فراش توم المحتضر. على أية حال، إن أنكوراج إنمّا إلى شخصية بطولية في الوقت الحالي، لذا فمن الأفضل الآن أن تبقى اللائمة على صيادي أركانجيل وذلك المحتال بيني رويال الذي كان السبب في كل شئ منذ البداية.

وراحت فريا تفكر بينما كانت لاتزال تسير مع اللجنة التوجيهية، حين فوجئ الجميع بجسم أسود يخرج على حين غرة إلى سطح الماء قبالة الحافة الأمامية للوح الجليدي الذي يحمل المدينة. وقد حسبه الجميع في بداية الأمر حوتا، خاصة مع كل تلك المياه وهسيس الهواء الذي انطلق منه، ثم سرعان ما بدأوا يميزون تلك المسامير والجسم المعدني ذا البوابة العلوية لذلك الجسم المنبثق من بين المياه... {إنها هؤلاء الطفيليين الشياطين!}. صرخ سميو وهو يهرع باتجاه ذلك الجسم حاملا بندقيته {لقد أتوا ليحصدوا المزيد من الغنائم}.

وأمام أعينهم المذعورة مد ذلك الجسم أرجله العنكبوتية المعدنية ليمسك بحواف اللوح الثلجي ويدفع نفسه خارجا من الماء، فيما كانت الزلاجات قد انطلقت من المدينة محملة بالرجال المسلحين من قسم المحركات لمجابهة الطفيليين، في حين رفع سميو بندقيته مصوبا إياها نحو الفتحة العلوية للجسم بينما كان بابها ينفتح، إلا أن فريا سارعت نحوه لمنعه قاتلة. {لا ياسميو، إنه واحد فقط}.

وبالفعل، ما كان لهذا الصبي النحيل الذي تبدى من الفتحة العلوية أمامهم أن يشكل أي خطر من أي نوع.

وما إن خرج الصبي من المركبة حتى جذبته رجال سكايبوس، ومن موضعها سمعت فريا أصوات الرجال تصيح عاليا، لكنها لم تتمكن من تفسير مايقولون. ثم إنها هرعت ومعها سكايبوس وسميو والآنسة باي إلى حيث رأس السلم الذي يؤدي إلى حيث أطراف المدينة السفلى، ووقفت تنتظر بعصبية أن يأتوها بهذا الأسير، الذي ما إن اقترب منها، بوجهه الملطخ بالألوان الأرجوانية والخضراء والصفراء، حتى انتابتها الحيرة... فقد كانت تعرف أن هؤلاء الطفيليين هم عبارة عن لصوص، لكنها ما كانت تعرف أن لهم هيئة الوحوش.

لكن ما إن دنا منها أكثر حتى أدركت أنه ليس بوحش، وإنما هو مجرد صبي في مثل سنّها، وقد تعرض لأذى شنيع، وقد فقد عدداً من أسنانه، بينما كانت هناك ندبة حمراء بشعة حول حنجرتّه، أما عيناه فقد راحتا تطلّان عليها من وراء كل تلك الكدمات، فكانتا سوداوين براقّتين وجميلتين. ثم إن فريّا استجمعت شتات أفكارها، وحاولت أن تتكلّم بما يليق بمارجرافين: {مرحباً بك في أنكوراج أيها الغريب. ما الذي أتى بك إلى هنا؟}.

فتح كول فمه محاولاً الكلام، لكنه لم يستطع التفكير في أي شيء يمكن له أن يقوله، فأطبق شفّتيه من جديد.

لقد كان كول مأخوذاً تماماً، وقد حاول طوال الرحلة من جريم سبائي وحتى هنا أن يعد نفسه لتلك اللحظة، لكن حين حانت ساعة المواجهة إرتج عليه واضطرب تماماً... لقد عاش أغلب عمره متوارياً بعيداً عن أعين الياّسين... والآن ها هو ذا يقف في العلن أمام أعين كل هؤلاء!، لهذا كان من الطبيعي والبدهي أن يضطرب ويذهل. كذلك كان قد صدمه منظر فريّا، ليس فقط بسبب قصة شعرها الشبيهة بالصبيّة، ولكن كذلك لأنّها قد بدت له أكبر سناً وأطول قامّة مما رآها آخر مرة. أيضاً كانت بشرتها وردية ولم تعد تلك الفتاة الشاحبة التي اعتاد على منظرها عبر الشاشات.

ومن وراء فريّا، كان سكايبوس وسميو ويندولين باي، ونصف سكان المدينة، يقفون جميعاً ويتطلعون إليه، حتى بدأ يتساءل في أعماقه عما إذا كان الموت في جريم سبائي كان هو الخيار الأسهل من ذلك الموقف الذي يقفه الآن.

{تكلم أيها الصبي}. صاح القزم الذي كان يقف الآن بجوار فريا ويلكنز بطن كول بطرف بندقيته: {لقد وجهت لك سمو إشرافها سؤالاً}.

{لقد كان يحمل تلك معه يافريا}. قالها أحد الرجال الذين أمسكوا به وهو يلوح بأنبوب معدني، فترجع الحشد الواقف خلف فريا قليلاً في توتر، إلا أنها قد استطاعت تمييز ذلك الشيء... إنه وعاء أنبوبي قديم الطراز لحفظ الوثائق.

تناولت فريا الوعاء من الرجل وفتحت غطاءه ثم أخرجت منه لفافة مطوية من الأوراق، فنظرت إلى كول مبتسمة وقالت: {ما هذا؟}.

وكانت الريح قد زادت قوتها تدريجياً، حتى كادت في إحدى هباتها أن تخطف لفافة الأوراق القديمة المائل لونها إلى البني، من يد فريا، فسارع كول لالتقاطها وصاح: {حاذري، أنت في حاجة إليها}.

{ولماذا؟!}. تساءلت فريا في تعجب، وقد راحت تتطلع إليهم في يده التي كانت تحمل آثاراً لحبال قوية حول المعصمين، بينما كانت الأوراق كذلك تحمل علامات حمراء وكتابات بخط من نمط قديم، مكتوبة بحبر صدئ اللون. وعلى تلك الأوراق أيضاً ارتسمت إحداثيات خطوط الطول والعرض، وخط طويل رفيع يمثل ساحلاً.

وفي موضع على تلك الوثائق كان ختماً مطاطياً يحمل تحذيراً: غير مسموح بتداولها خارج مكتبة ريكافيك.

{إنها خارطة سنوري أولفيسون}. قال كول: {لا بد أن العم قد سرقها من ريكافيك منذ سنوات مضت، وقد ظلت موجودة في غرفة خرائطه منذ ذلك الحين. إنها تحوي كذلك مجموعة من الملاحظات توضح كيف يمكنك الوصول إلى أمريكا}.

فابتسمت فريا ممتنة له، ثم هزت رأسها أسفاً وقالت: {لكن ذلك غير مجد، أمريكا قارة ميتة}.

{إلا أن كول هتف بإلحاح، وهو يمد يده ليمسك كفي فريا: {لا، لقد قرأتها جميعاً بينما أنا في طريقي إلى هنا، سنوري لم يكن محتالاً، وإنما قد وجد أماكن خضراء في أمريكا حقاً. صحيح هي ليست غابات عظيمة كما تخيل بروفيسور بيني رويال، ولا وجود لدببة ولا بشر، ولكن هناك أعشاب وأشجار...}}، ولما كان كول لم ير أعشاباً في حياته، ناهيك عن أشجار، فلم يعرف كيف يصف لها الأمر، ثم استطرد: {لا أعلم، ربما هناك حيوانات وطيور، وأسماك في المياه. ربما ستكون مدينتك ساكنة غير متحركة هناك، ولكنكم سوف تتمكنون من العيش}.

{لكننا لا نستطيع أن نبلغها أبداً}. قالت فريا: {حتى لو كانت حقيقية، فنحن لن نصل إلى هناك}.

{لا...}. قالها سكايبوس الذي كان يحدق من فوق كتفها في الخريطة، {لا يافريا، يمكننا أن نفعلها. لو أننا فقط حافظنا على توازن واستقرار ذلك اللوح الجليدي الذي يطفو بنا، وبمساعدة مراوح الدفع...}.

{كما أننا لسنا بعيدين}. هتفت الأنسة باي وهي تنظر نحو الأوراق من فوق الكتف الآخر لفريا وتشير نحو موضع معين على الخارطة حيث قمة مدخل طويل متعرج يدعى «فين لاند»، تنتشر عنده مجموعة من الجزر الصغيرة، {ربما هي على بعد سبعمئة ميل، وهي ليست بمسافة كبيرة على الإطلاق إذا ما قارناها بالمسافة التي قطعناها حتى الآن}.

ثم إن سكايبوس التفت نحو كول، فتراجع الأخير بضع خطوات للوراء، وقد تذكر كيف أنه كاد يودي بذلك الرجل العجوز المسكين نحو الجنون حين ظنه الأخير شبح ابنه الراحل. كذلك كان قد بدا وأن سكايبوس قد تذكر الفتى، حيث راح يتطلع إليه وقد تبدلت نظراته، وكأنه قد ارتحل بعيداً.

وللحظة ليست بالقصيرة ساد الصمت، إلا من أصوات الجمع في الخلف، والرياح تعث بالأوراق بين يدي فريا. ثم نطق سكايبوس أخيراً: {ما اسمك يافتي؟}.

{كول، ياسيدي}.

فد سكايبوس يده نحو كول مبتسماً، {حسناً، تبدو بردان يا كول، وجائعا. لا ينبغي أن تتركك هكذا. يمكننا أن نناقش ذلك في القصر}.

هنا تذكرت فريا وضعها كمارجرافين، فقالت: {آه، بالطبع}، بينما احتشد الجمع من حولهم وراح الجميع يتحدث في حماسة حول الخارطة.

{ينبغي أن تأتي معنا إلى القصر ياسيد كول. سوف أطلب من سميو أن يعد لك بعضاً من مشروب الشيكولاتة الساخن... أين سميو؟.. آه، حسناً، يمكنني أن أعدها بنفسني}.

وهكذا تقدمت المارجرافين، ومن ورائها سكايبوس والآنسة باي، يتوسطهما كول الذي كان متوتراً، عبر راسموسن بروسبكت، بينما هرع الباقون وراءهم.

وعبر المدينة، انتشر خبر ذلك الفتى القادم من البحر حاملا الأمل لهم. وراح السيد والسيدة أكيوك، والزوجان أوميك، والسيد كوانيك، يتحدثون جميعا في سرور وهم يسرون بين الجموع، بينما سميويشق طريقه عبرهم نحو المقدمة، حيث فريا التي أخذت تلوح بخارطة سنوري أولفيسون وتضحك في مرح وتمازح الجميع. ولم يكن ذلك بالسلوك الأمثل لها كمارجرافين، ولا بد أن والداها ومربيها ووصيفاتها ما كانوا جميعا ليرضوا عن هذا، لكنها ما عادت تكثر، لقد مضى زمنهم وانتهى، والآن صارت فريا هي المارجرافين.

(٣٥)

سفينة الجليد

وعلى مدار الأيام التالية، كان الضجيج هوسيد الموقف في أنكوراج... حيث المطارق والقواطع تعمل ليل نهار، وقد تناثر الشرر في كل حدب وصوب، فيما تم قطع أذرع مراوح الدفع اللازمة من الألواح الأرضية الزائدة عن الحاجة، تحت إشراف سكايبوس، بينما يتم اختبار المحركات، وإعادة ضبط وتوجيه أجزائها.

أما كول فكان يستخدم مركبته للتجول حول المدينة فوق اللوح الجليدي للمساعدة في العمل.

وأخيرا تم تجهيز المراوح الدافعة، وإنزالها بعناية في الماء تحت المدينة، بينما راح سكايبوس يختبر عمل الدفة المحورية التي صنعوها.

ولم يكن أي من تلك الأشياء يعمل بالشكل الأمثل، لكنها كانت تؤدي عملها بما يكفي الغرض منها.

وبعد أسبوع من وصول كول إلى أنكوراج، عادت المحركات للعمل،
وشعرت فريا بحركتها من جديد وهي تدفع نفسها عبر البحر ببطء، فيما
تتأرجح المياه على جانبي دفتي المدينة واللوح الجليدي.

ومرت الأيام، وأخذ عدد الجبال الجليدية، والتي يمرون بها عبر طريقهم،
في التناقص، ثم صار الطقس أكثر دفئا تحت أشعة الشمس التي راحت
تخترق الضباب.

أما هيستير، فهي لم تشارك في أي من تلك الخطط والتجمعات
والأحداث التي جرت على متن أنكوراج خلال الأسابيع الأخيرة، بل إنها
حتى لم تحضر زفاف سورين سكايبوس ويندولين باي، وإنما قضت جل
وقتها في القصر الشتوي بجوار توم.

وفيما بعد، حينما راحت تستعيد ذكرى تلك الأيام، اكتشفت أنها
لا تذكر أي من المعالم المميزة التي مروا بها خلال رحلة أنكوراج نحو أمريكا،
وإنما تذكر فقط علامات تعافي توم، وذلك اليوم الذي استجمعت فيه باي
شجاعته، وكل المعارف التي تحصلت عليها من الكتب الطبية، وقامت
بفتح شق في صدر توم، ومدت ملاقيطها الطبية الطويلة بين طبقات اللحم
والأوردة في جسده حتى... حسناً، لقد فقدت هيستير وعيها عند تلك
النقطة، وحينما أفاقت ناولتها ويندولين باي الطلقة التي كانت مستقرة في
جسده، وكانت عبارة عن كرة معدنية رمادية مائلة للزرقة.

كذلك كانت تذكر جيداً اليوم الذي فتح فيه توم عينيه لأول مرة،
وتكلم، وكان لا يزال محمومًا يهذي بكلمات عن لندن وبينني رويال وفريا...
يومها أمسكت بكفه بين يديها وراحت تقبل جبهته وتساعد على العودة إلى
النوم، وقد تجاوز أخيراً مرحلة الخطر ولم يعد معرضاً للموت.

وكثيرا ما كانت فريا تزوره في مرضه، بل إنها أحيانا كانت تحل محل هيسدير في السهر على رعايته في الأوقات التي كانت تشعر فيها الأخيرة بتوعلك.

وقد كان الوضع بين الفتاتين مرتبكا محرجا في البداية، إلى أن استجمعت هيسدير شجاعتهما، وسألت فريا: {هل تنتوين إخبارهم؟}.

{إخبار من بماذا؟}.

{إخبار الجميع بأنني من باع مدينتكم لأركانجيل؟}.

والحقيقة أن فريا قد كانت تطرح نفس السؤال على ذاتها، وقد صمتت قليلا وراحت تفكر، ثم قالت أخيرا: {وماذا إن فعلت؟}.

فظرت هيسدير إلى الأرض، حيث كانت تلاعب السجادة بطرف حذاءها، ثم قالت {لو أنك فعلت ذلك فلن أتمكن من البقاء هاهنا. سوف أرحل إلى أي مكان آخر، وسوف تحصلين أنتِ على توم}.

إبتسمت فريا... لقد كانت مغرمة بتوم فيما مضى، أما الآن، فقد خفت إعجابها به مع الوقت، وكأنا قد وارتته ثلوج جرين لاند.

{أنا مارجرافين أنكوراج، وحينما أتزوج فلا بد أن يكون ذلك لصالح مدينتي، ومن ثم فسوف يكون علي أن أتزوج واحدا من قسم المحركات، ربما، أو....}، ثم ترددت قليلا، وقد احمر وجهها. فما لم تقله لهيسدير أنها كانت في تلك اللحظة تفكر في كول، ذلك الصبي اللطيف الوسيم.

{على أية حال}. استرسلت فريا: {أنا أريدك أن تبقي هنا، فانكوراج بحاجة لشخص مثلك على متنها}.

فأومأت هيستير، وراحت تتخيل والدها فالانتاين، في إحدى الغرف
بلندن العليا، منذ زمن مضى، يجري ذات المحاورة مع عمدة لندن ماجنوس
كروم...

{إذن أنت تريدني مني البقاء بحيث إذا وقعت مدينتك في مشاكل،
كهجوم من قناصين جويين، أو عصابة طفيليين، أو خونة محتالين من نوعية
بيني رويال، مما يحتاج تدخلا سريعاً وتصفية هادئة دون أن يشعر أحد، أن
اضطلع أنا بتلك المهام.. باختصار تريدني أن أبقى لأقوم بأداء الأعمال
القدرة نيابة عنك}.

{حسناً، أنت بارعة في مثل تلك الأمور}.

{وماذا إن رفضت؟}.

{عندها سوف أخبر الجميع بما فعلته، أما إن وافقت فسوف يبقى هذا
سراً بيننا}.

{هو ابتزاز إذن؟!}.

{أوو، أهو كذلك؟!}. قالتها فرياً، وقد كانت سعيدة راضية بأنها أخيراً
بدأت تجيد شؤون الحكم وإدارة مدينتها على النحو الصحيح.

أما هيستير فقد راحت تنظر إليها ملياً للحظات، ثم ابتسمت إبتسامتها
العجيبة.

وأخيراً، ومع قرب بلوغ المدينة لوجهتها، وبينما كانت هيستير تغفو في
مقعدها بجانب سرير توم في إحدى الليالي، إذا بها تستيقظ على صوت
مألوف يهمس: {هيت؟}.

فاستفاقت سريعاً وانحنت نحوه غير مصدقة، وراحت تلهس وجهه وتبتسم وهي تتطلع إليه: {توم، لقد صرت أفضل أخيراً}.

{لقد حسبت أنني على وشك الموت}.

{لقد كنت كذلك بالفعل}.

{وماذا عن الصيادين؟}.

{لقد انتهوا جميعاً، كما أن أركانجيل نفسها قد وقعت في فخ جلدي لا فكاك منه في مكان ما خلفنا.. إننا الآن نتجه غرباً، مباشرة حيث قلب أمريكا القديمة، أو ربما هي كندا القديمة... لا أحد يعرف على وجه التحديد}.

{بروفيسور بيني رويال لم يكن يكذب إذن؟ هل القارة الميتة قد عادت خضراء حقاً؟}.

فحُكَّت هيسستير رأسها وقالت: {لا أعرف حقيقة الأمر معقد، وقد جاءت تلك الخارطة القديمة لتقلب الأمور. في البداية لم أكن أجد سبباً يدفعنا لتصديق سنوري أولفيسون وخريطته، وكذلك بيني رويال... لكننا مع الوقت بدأنا نجد ملامح من اللون الأخضر بالفعل مع تقدمنا على الطريق.. بعض الأشجار هنا وهناك، وكذلك بعض مظاهر الحياة البرية على جوانب الجبال. أعتقد أن ذلك هو ما ألهم الملاحين بالقصص والحكايات المعروفة عن أمريكا الخضراء. ومع ذلك فالأمر ليس مثلما وعد به بيني رويال، ليس مساحات خضراء شاسعة، وإنما ربما الأمر لا يتعد جزيرة أو اثنتين فقط... ولسوف يتعين على أنكوراج حينما تصل هناك أن تتحول إلى مدينة ثابتة}.

فارتعد توم من الفكرة، وقد بدا ذلك جلياً على ملامحه، إلا أن هيسستير سارعت إلى محاولة تهدئته وطمأنته، مؤمنة نفسها على تخويفه هكذا، وكانت

قد نسيت أن سكان المدن المتحركة إنما يخشون الأرض الجرداء كثيراً، وراحت تقول له: {لقد ولدتُ في جزيرة، ولكم كانت مكاناً لطيفاً وادعاً. لا تخف، سوف تكون لنا حياة سعيدة هناك}.

فأوماً توم وابتسم وقد راح يتطلع إليها، وقد كانت تبدو في حال جيدة، عدا عن شحوبها قليلاً، إلا أنها قد بدت مثيرة في ملابسها السوداء الجديدة التي كانت ترتديها، وقد قالت له إنها قد حصلت عليها من إحدى المحلات الراقية بالمدينة، بدلاً من ملابس السجن البالية التي كانت ترتديها منذ أن كانت في روجز رويست. وكانت قد غسلت شعرها واعتنت به قليلاً، وقامت بربطه بشريط فضي أنيق.

كما أنها، ولأول مرة منذ عرفها، ما عادت تحاول إخفاء وجهها عنه كلها تطلع إليها. ثم إنه اقترب منها وراح يربت على وجنتها قائلاً: {وماذا عنك؟ هل أنت على مايرام؟ تبدين شاحبة قليلاً}.

فضحكت هيستير وقالت: {أنت الشخص الوحيد الذي يلاحظ كيف أبدو، بعيداً عما هو جلي بالطبع، على أية حال أنا فقط أشعر ببعض الغثيان}، ولم تشأ أن تخبره في الوقت الحالي بما أبلغتها به ويندولين باي حينما ذهبت إليها تشكو من حالة الغثيان والإعياء والدوار التي باتت تلازمها، فلمفاجأة قد تكون أكبر من قدرته على التحمل حالياً وهو بعد مريض.

ثم إن توم همس بعد حين وهو يلمس فمها: {أعلم أن ماحدث كان فظيلاً، أعني أن تضطري لقتل هؤلاء الرجال... إنني مازلت أشعر بالذنب لقتلي للمطارِد جريك ورجلي فالانتاين... لكنني أريدك أن تعلمي أنك كنت مضطرة لذلك وإن الذنب ليس ذنبك}.

{نعم}. همست هيستير وهي تبسم... لكم هما مختلفان، ففي الوقت الذي لا زال هو يشعر بالذنب جراء قتله لجريك ورجلي فالانتاين، تشعر هي بالرضا التام كلما تذكرت قتلها لبيتور ماسجارد ورجاله. إنها لا تشعر بأي ذنب على الإطلاق، وهي سعيدة بكونها كذلك.

وحينما رقدت بجواره على الفراش، وراحت تسترجع في مخيلتها كل ما جرى من أحداث منذ أن هبطا على متن أنكوراج، وجدت نفسها تهمس في رفق: {أنا ابنة فالانتاين}. وكانت متأكدة حينها من أنه غارق في النعاس ولم يسمعها.

ثم إنها قد ضمت توم الحبيب إلى صدرها بين ذراعيها في غبطة ورضا، وفي أحشائها كان طفله ينمو بداخلها.

ومع تسلل أولى خيوط الفجر عبر ستائر القصر الشتوي، صحت فريا من نومها على أصوات تصطخب في شوارع مدينتها، وتصيح في مرح وأمل: {الأرض... الأرض، مرحي}. وقد كانت أنكوراج تقترب حثيثا من اليابسة منذ بضعة أيام، تتحسس طريقها بحذر نحو المكان الذي أسماه سنوري أولفيسون في خارطته: فين لاند.

استمر الصباح، وامتلات به أركان أنكوراج، فنهضت فريا مسرعة من فراشها إلى حيث الشرفة، لتخرج إلى البرد في الخارج لترى بعينيها مايصطخبون لرؤيته...

وعلى جانبي المدينة إذ تمضي، رأت فريا الجبال السوداء الراسخة في شموخ، والتي انتشرت على حواف صخورها خيوط الثلج الأبيض... ومن بين الصخور، لاحظت لها أشجار الصنوبر الصغيرة الخضراء، تبدو كشعيرات نامية فوق رأس حليق.

لم تصدق فريا عينيها، وقد تمسكت بالإفريز المعدني البارد في سرور عارم..

وأمامها، من بين الضباب والغيم، بدأت معالم جزيرة ما تتضح من بعيد، وعلى منحدراتها رأّت اللون الأخضر يعدها بحياة جديدة لها ولمدينتها أخيرا... كانت أشجار الصنوبر، والبلوط، والبتولا تلوح بين المرتفعات الأرضية، وبعضها لا يزال يحمل بعض الأوراق الصفراء من بقايا الصيف الماضي... ومن وراء تلك الجزيرة، لاحت جزيرة ثانية، فثالثة...

وراحت فريا تضحك في مرح بصوت عال... فهذا هو ذا الحلم الأخضر يمتد أمامها أخيرا، ينبئها بأنه حقيقة وواقع، أما من تحتها فقد أخذت مدينتها تهتز وترتعش للمرة الأخيرة.. فقد بلغت أخيرا مرساها ومستقرها السري... هناك، حيث الحياة في قلب القارة الميتة ناحية الغرب.
